

تَذْكِرُ أَسْوَدِ الصَّحْوَةِ بِجَمَلٍ مِنْ
قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ عَمْرٍو

ح دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعيدان، وليد بن راشد

تذكير أسود الصحوه بجمل من قواعد الدعوة/

وليد بن راشد السعيدان الرياض ١٤٣٣ هـ

٢٤×١٧ صفحة ٤٦٠

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٩٧-٦١-٨

١. الدعوة الإسلامية ٢. العقيدة الإسلامية أ- العنوان

١٤٣٣/٢٥٠٧

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٢٥٠٧

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٩٧-٦١-٨

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

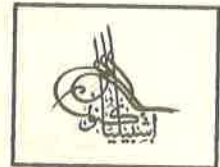
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ - ٤٩٦٨٩٩٤ فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣

: E-maileshbelia@hotmail.com

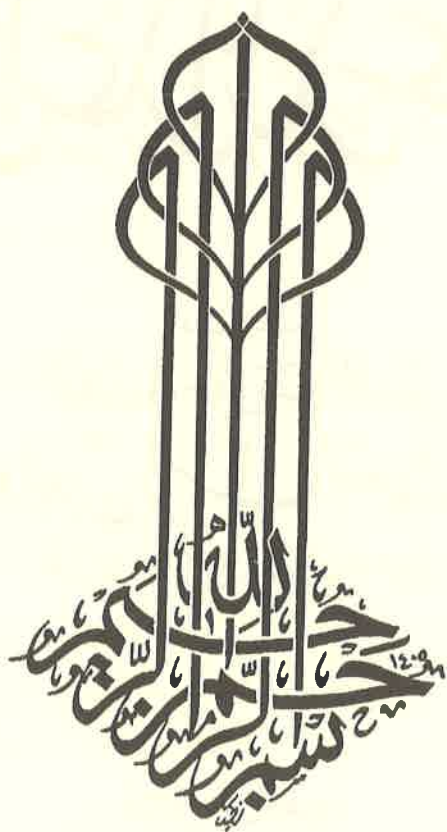


تَذِكْرُ أَسْوَدَ الصَّحْوَةِ بِجَمَلٍ مِنْ

قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ عَمْرٍو

تَأْلِيفُ
الْفَقِيرِ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ الْقَدِيرِ
وَلِيْدِ بْنِ رَاشِدِ السَّعِيدَانِ
عَفَا اللَّهُ لَهُ وَلِلرَّبِّهِ وَطَمَعِ الْمُسْلِمِينَ

مُرَاجَعَةٌ وَتَحْقِيقُ
سَلَمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّحْمَنِ



المقدمة

يقول العبد الفقير إلى ربه العلي القدير: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله تعالى فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فإنه لا يخفى على أحد ما للدعوة من منزلة كبيرة ومرتبة سامية في الشريعة الإسلامية، وما للدعاة إلى الله تعالى من الأجر العظيم والنوال الجزيل الذي يتمناه كل أحد، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فالدعاة هم مصابيح الدجى وأعلام الهدى، بهم يتعلم الناس، وبهم يعبد الله تعالى على بصيرة، وبهم تكشف الشبهة، وتزول الغمة، وبهم تعمّر البلاد، وبهم يتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وبهم تصحح العقائد، وبهم تستنير الطريق إلى الله تعالى، وبهم تشرح الصدور وترتاح النفوس، ويؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فهم أهل الكلمة الطيبة والنبرة الحانية، والموعظة المشفقة، يسعدون بتعليم الناس كما يسعد أهل المال بما لهم، بل أكثر، ويفرحون بهداية الناس كما يفرح العقيم بالولد بعد طول انقطاع، بل أكثر، همهم هداية الناس وتعليم الناس وتوجيه الناس، قد استفرغوا طاقتهم وجهدهم في النصح والتوجيه والدعوة والإرشاد.

فما أجمل أثرهم على الناس، وما أقبح أثر بعض الناس عليهم، هم يدعون إلى الهدى، وإلى الجنة، بينما غيرهم يدعو إلى الضلالة والنار، رحاء بالخلق، قوالون بالحق، لا يخافون في الله لومة لائم، بذلوا المهجة في سبيل الله، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، هانت عليهم أنفسهم في ذات الله تعالى، لا يرون لأنفسهم فضلا، لأن الفضل كله لله تعالى، لا يهمهم مال ولا دنيا، مستغنون بالله، واثقون بفضله، متوكلون عليه، فله درهم، ما أكبر

قدرهم وما أعظم فضلهم فأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يحفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم، وأن يجزيهم عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يبارك في جهودهم، ويعلي قدرهم ويغفر ذنبهم، ويرحمهم الرحمة الكاملة المطلقة، أيًا كانت بلادهم، وأيًا كانت أجناسهم.

والله العظيم إن لهم من الفضل الكبير، والمنزلة العالية والقدر السامي في قلوبنا بما لا نستطيع وصفه في هذه الوريقات، وإننا نشهد الله تعالى على جبههم.

فيا أيها الدعاة، اسمحوا لأخيكم وطويلبكم الصغير أن يتقدم بين أيديكم بتلك القواعد الدعوية المهمة والتي بفهمها يفهم ما معنى الدعوة إلى الله، وما يحوطها من المسائل والضوابط والتنبيهات، مع تأييد تلك القواعد بالأدلة من الكتاب والسنة، وما يفتح الله به من سير النبلاء من الأنبياء وأتباعهم.

فيا أيها الدعاة الكرام، اسمحوا واغفروا لي هذه الجرأة على مقامكم الكريم، وأنا لست أهلاً لذلك، ولكن من باب عرض ما عندي من البضاعة على أهلها العارفين بها، فإن أجازوها فالحمد لله تعالى، وإن ردوها فأنا سأخفيها وكأنها لم تكن.

فاللهم اغفر لعبدك الضعيف الفقير، وأسألك اللهم باسمك الأعظم أن ترحم ضعفي وتجبر كسري، وأن تسدد قلبي ولساني، وأن توفقني للحق اعتقاداً وقبولاً وعملاً، وأن تبارك فيما أقول وأكتب، وأن تنزل فيه النفع العام والخاص، وأن تشرح له الصدور، إنك ولي ذلك والقادر عليه، وإني أبرأ إليك من الحول والقوة فلا حول ولا قوة إلا بك، وأستغفرك ربي من زلل اللسان والجنان والبنان.

وإلى المقصود أيها الأخ المبارك حتى لا نطيل، فأقول وبالله تعالى التوفيق، ومنه

أستمد العون والفضل وحسن التحقيق:



القاعدة الأولى

تصحيح بناء الدعوة على العقيدة السليمة
مطلب رئيس في سلامتها واستقامتها

وهذا هو الحق الذي ينبغي التنبيه له، فإنه كم من الدعوات التي ظهرت في العالم الإسلامي، ولكنها بادت وانتهت وتلاشت معالمها لأنها لم تبني على أصل الاعتقاد الصحيح، وكم من الدعوات التي كتب الله تعالى لها البقاء والقبول وما ذلك إلا لأنها بنيت على الاعتقاد الصحيح المتفق مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعلى فهم سلف الأمة وأئمتها.

فالدعوة لا بد وأن يكون سيرها ومنهجها مبنيًا على ذلك، وإلا فإنه سيكون فسادها وأثرها القبيح على الأمة أكثر مما يرجى من صلاحها إن كان فيها من الصلاح شيء، ولو أنك قلبت الطرف في الدعوات التي بنيت على العقائد الفاسدة لرأيت مصداق ما أقول، فالله الله أيها الدعاة الكرام في الاهتمام بهذا الأمر، فإنه بيت القصيد وأعظم سبب من أسباب نجاح الدعوة.

وإن قلنا: «الاعتقاد الصحيح»، فإننا نعني به اعتقاد أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى بنوا دعوتهم على ثلاثة أمور: على الكتاب، وعلى السنة الصحيحة، وعلى فهم سلف الأمة وأئمتها، من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل

القرون المفضلة، فلا ينبغي تجاوز تلك الأصول الثلاثة، ولذلك قرر أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى في هذه المسألة عدة قواعد مهمة في فهم السبل التي قامت عليها دعوتهم، فمن تلك القواعد ما نصوا عليه بقولهم: «أهل السنة والجماعة لا يأخذون معتقدهم إلا من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة»، وهي من كبريات قواعد التلقي عندهم، ومنها قولهم رحمهم الله تعالى: «كل فهم يخالف فهم سلف الأمة في مسائل العقيدة والعمل فإنه فهم باطل، وكل رأي يخالف المعروف عن سلف الأمة فإنه رأي عاطل».

فمسألة فهم الأدلة عند أهل السنة رحمهم الله تعالى لها ضوابط ومقيدات، فهم لا ينطلقون في فهم نصوص الشريعة من مقتضى الرأي المجرد ولا بالعقل البعيد عن هداية النص ولا من الشهوة والتعصب للرجال، ولا غير ذلك، بل هم جعلوا فهم الدليل موقوفا على فهم سلف الأمة، فما ورد من الفهم في الأدلة مجمعا عليه عند سلف الأمة فإن أهل السنة لا يتعدونه قيد أنملة، ومن ذلك أيضا قولهم رحمهم الله تعالى: «كل قياس خالف النص فإنه فاسد الاعتبار»، وذلك مخالف لعامة أهل البدع من أهل الدعوات الزائغة، من الذين جعلوا عمدتهم في عقائدهم إنما هو معارضة المنقول بالعقول العفنة والأفهام المنتنة، فإنك إن نظرت إلى أهل البدع على وجه العموم وجدت أن مخالفة النصوص بالعقول والأهواء هي السمة البارزة فيهم.

فالدعوة أيها الأحبة لا بد وأن تكون سليمة في اعتقادها، سليمة في منهج تلقيها، سليمة في قواعدها التي تنطلق منها في فهم النصوص، فهذا كله مؤثر التأثير الكبير في سيرها وقبولها ورضا الله تعالى عنها وتوفيق أهلها، وبقائها واستمرارها، وأنا من هذا

المنبر أوصي إخواني الدعاة إلى مراجعة الأصول التي بنوا عليها دعوتهم، وإلى النظر فيها بعين المراقبة لله تعالى فإن كانت الأصول والمناهج متفقة مع المقرر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومتفقة مع ما قرره سلف الأمة من العقائد والعمل، ومتفقة مع التقعيد الموروث عن أهل السنة في التلقي والفهم فالحمد لله على التوفيق والموافقة، وأما إن كان من أصولها ما هو مدخول ببعض الهوى والمخالفة للأدلة ولما عليه أهل السنة، فلا بد من التصحيح، ولا يحملنا التعصب للرأي ولقادة الدعوة التي نحن عليها على مخالفة ما هو مقرر في الكتاب والسنة، فإن الواجب على المسلم الصادق في إيمانه أن يقدم قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ على كل قول، وليس العيب في وجود الخطأ، وإنما العيب في معرفة الخطأ وأنه خطأ، ومع ذلك نستمر عليه، إما عنادا ومكابرة للحق، وإما جهلا بالدليل.

فالدعوة إلى الله تعالى لا بد وأن تكون على المنهج السليم والصراط المستقيم، ولا يمكن أن تكون الدعوة كذلك إلا إذا روعي فيها أن تكون على المنهج السليم في الاعتقاد والتأصيل والعمل، ومن المعلوم أن لكل دعوة أصولاً وقواعد منها تنطلق، فلا بد وأن تكون هذه الأصول والقواعد لها ما يشهد لها وما يصححها من الكتاب والسنة، وهذا ليس من الأمور الاختيارية التي تدخل تحت الإرادة بين القبول والرفض، لا، بل تصحيح الدعوة على منهج الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة من الأمور الواجبة التي يثاب فاعلها امتثالاً، ويستحق العقاب تاركها.

ومن القواعد المقررة في هذا الباب أيضاً: - قول أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى: «هدي النبي ﷺ أكمل من هدي غيره»، بل جعل العلماء رحمهم الله تعالى أن من

اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل وأفضل من هدي النبي عليه الصلاة والسلام فإنه مرتد كافر، ومن ذلك قولهم رحمهم الله تعالى: «الدين مبناه على أن لا يعبد إلا الله تعالى وأن لا يعبد إلا بما شرعه رسوله ﷺ»، ومن ذلك قولهم: «كل بدعة في الدين فهي ضلالة» والأصول التي قررها أهل السنة رحمهم الله تعالى في هذا الباب كثيرة جدا، والمهم أن الداعية لا بد وأن يزن أمور الدعوة التي هو عليها بميزان الكتاب والسنة باطنا وظاهرا، فإن كانت متفقة معها فليستمر على ما هو عليه، وإن كانت تخالفها في شيء، فلا بد وأن يسعى جاهدا في تصحيح الخطأ وذلك لأن تصحيح الدعوة على العقيدة السليمة والمناهج المستقيمة مطلب رئيس فيها، والله المستعان.

فانظر بالله عليك كيف تعبد الخوارج بقتل عباد الله تعالى لأنهم بنوا هذا على أصل فاسد: وهو القول بتكفير مرتكب الكبيرة، وانظر كيف نفى المعتزلة صفات الله تعالى، لأنهم بنوه على أصل فاسد وهو أن إثبات الصفات لله تعالى يستلزم مماثلة الله تعالى بال مخلوقات، لأن الاتفاق في الأسماء يستلزم الاتفاق في الصفات.

وانظر كيف وقع الرافضة في تكفير الصحابة وسبهم والقدح فيهم والغلو الكبير في الاعتقاد في آل البيت لأنهم بنوا هذه العقائد الباطلة على الأصول الفاسدة.

وانظر كيف أنكر القدرية القدر لأنهم بنوا هذا على إنكار العلم السابق وأن لا قدر وأن الأمر أنف.

وانظر كيف وقع الصوفية فيما وقعوا فيه من الخرافات والضلالات والبدع التي لا يحصيها إلا الله تعالى لأنهم بنوا هذا على الأصول والمناهج الفاسدة المخالفة للكتاب والسنة.

بل انظر إلى من يسمون بجماعة التكفير والهجرة كيف وقعوا في تكفير عموم المسلمين، وما هذا إلا لأنهم بنوا هذا التكفير على الأصول الفاسدة المخالفة للكتاب والسنة.

والأمثلة في العالم الإسلامي كثيرة جداً، فلا بد من غربلة الأصول التي تسير عليها في دعوتك ولا بد من النظر فيها وما يستجد عليها بالنظر العلمي الثاقب، فما وافق الحق بقي، وما خالفه نسف فلا بد من تصحيح العقيدة، فإن أهل العقيدة الصحيحة هم أهل النجاة، وهم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، كما قال ﷺ في الحديث الذي يصح بمجموع طرقه: (وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة، وهم الجماعة)^(١) وفي لفظ: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) وفي لفظ: (وهم الناجية)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)^(٢).

فالدعوات التي فاح طيها وأثرت الأثر الإيجابي في العالم الإسلامي لا تراها إلا تلك الدعوات التي بنيت على العقيدة السليمة، وإنه والله لمن المظاهر المؤلمة - في المدة الأخيرة - وجود بعض من ينتسب إلى العلم أو من الشباب الذين تربوا على العقيدة

(١) إسناده حسن أخرجه الإمام أحمد (١٣٥ / ٢٨) والدارمي (٢٤١ / ٢) والطبراني في "الكبير" (٨٨٤ / ١٩) والأجري في "الشرعية" ص ١٨، والحاكم في "المستدرک" (١٢٨ / ١) وغيرهم من حديث معاوية بن أبي سفيان.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام بالسنة، باب: قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة...) (٢٩٣ / ١٣ - فتح) ومسلم في الإمارة، باب: قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة...) (٧٠ / ١٣ - النووي)، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد... وغيرهم.

الصحيحة ، ثم مالوا أو تبنا بعض مناهج أهل البدع مثل من مال إلى الصوفية وصار من دعاة هذا المذهب وهو يشعر أو لا يشعر ، ومثل من مال إلى المدرسة العصرية وصار يقدم أفكاراً توافق أصولهم ، ومثل من مال إلى مذهب الأشاعرة وصار يدعو إلى مذهبهم وبغض مذهب أهل السنة. ويؤسفنا أن أهل البدع فرحوا بهذه الفئة وطاروا بها وبأقوالها في كل ناد، وصاروا يحتجون بهؤلاء على صحة مذاهبهم وبطلان مذهب وعقيدة أهل السنة.

قال في الفصل في فقه الدعوة: «فسلامة العقيدة أهم المهمات وأوجب الواجبات، العقيدة السليمة سبب للنصر والظهور والتمكين والاجتماع، العقيدة السليمة تحمي معتنقيها من التخبط والفوضى والضياع، وتمنحهم الراحة النفسية والفكرية، وتدفعهم إلى الحزم والجد في الأمور، تكفل لهم حياة العزة والكرامة. والعقيدة في الإسلام هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الإيمان في نفس الإنسان المسلم، ولا بد أن تظهر آثار العقيدة في سلوك الإنسان وأعماله. فإذا كانت العقيدة راسخة في قلب الإنسان ونفسه نرى أثر هذه العقيدة في استقامة خلقه وسلامة تصرفاته وحسن معاملاته.

إذن العقيدة هي التي تصيغ الحياة إما سلباً أو إيجاباً وإذا أدركنا ذلك ندرك سر الاهتمام البالغ الذي أولاه الإسلام للعقيدة، فقد عاجلت السور المكية قضية العقيدة في نفوس المسلمين معالجة عميقة بكافة جوانبها، ولذلك من الطبيعي جداً أن ينعكس أي ضعف أو خلل أو غيبش يطرأ على عقيدة المسلمين وتصوراتهم ونظراتهم للأمور والأشياء أن ينعكس على سير الدعوة ويسفر عن ضعف ووهن وهزيمة أمام العدو في ميادين الدعوة. وإن في غياب العقيدة السليمة تدخل الوسواس والهواجس القلوب ومن ثم يسيطر الخوف والوهن والرعب على النفوس.

إذن فلا بد من الاهتمام الشديد بالجانب العقدي للدعاة وتربيتهم على العقيدة الصحيحة»، فالعقيدة الصحيحة هي حزام الأمان من الزيف والضلال والانحراف إلى مهاوي الردى، وهي العاصمة من قواصم الاختلاف والاعتداء والتطرف، وهي بإذن الله تعالى المنجية من التخبط والخلط الذي يؤثر سلباً على الأفراد والمجتمعات والدول والكون بأسره، وهي التي تحمي العقول من الشطط والخلل الفكري، فالله الله أيها الدعاة الأفاضل الكرماء بتصحيح بناء جدار الدعوة على البناء العقدي الصحيح الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، والله الله بالارتباط بأهل العلم الناصحين الراسخين في علمهم وأمانتهم، من أهل السنة والجماعة، فلا عز للبشرية ولا صلاح للإنسانية إلا بتطبيق الإسلام، والإسلام الحق المبني على العقيدة الصحيحة، والمتابعة للنبي ﷺ، والسير على ما سار عليه السلف الصالح، إنه لا بد وأن تكون منطلقاتنا مبنية على الاعتقاد السليم، ولا بد وأن نربي أتباعنا على الاعتقاد الصحيح، وأن نغرس حب أهل التوحيد وأهل السنة في قلوب الأتباع، وأن نبين لهم أنه لا عمل يقبل ولا خير يرجى من دعوة بنيت على غير هدي العقيدة الصحيحة، وهل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى اكتسبت هذا القبول العام والتوفيق الكبير والبقاء والانتشار والتمكين في الأرض إلا لأنها دعوة بنيت على العقيدة الصحيحة، فالشيخ رحمه الله تعالى مجدد العقيدة في زمانه، ونقسم بالله تعالى على حبه، وعلى حب الدعوة التي جاء بها، ونشهد بالله تعالى أنها الدعوة التي عليها أهل الحق من أهل السنة والجماعة، وأما الأدلة على صحة هذه القاعدة فكثيرة جداً، وهي أنواع من الأدلة يجمعها ما يلي:

الأول: كل دليل يأمر بالتمسك بالكتاب والسنة وبالاعتصام بهما فهو دليل على هذه القاعدة لأن التمسك بهما لا يكون إلا بسلوك المعتقد الصحيح وبالعمل الصحيح المتفق معها، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فوصف الله تعالى هذا الصنف بأنه مصلح، والمصلحون هم الدعوة إلى الله تعالى وبين أن من صفاتهم: «التمسك والتمسك بالكتاب»، وهو الذي نعينه ببناء الدعوة على العقيدة الصحيحة وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ يوم عرفة، وهو على ناقته القَصْوَاءِ، يَخْطُبُ فَمَسِيعَتُهُ يَقُولُ (إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن أَخَذْتُمْ بِهِ لَن تَضِلُّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي) ^(١).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَن تَضِلُّوا بعدي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْآخَرِ وهو كتاب الله، حبلٌ ممدودٌ من السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وعترتي أهل بيتي، لَن يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهِمَا؟) ^(٢).

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٩٠) في المناقب، باب ٧٧، وإسناده ضعيف، لكن يشهد له حديث زيد ابن أرقم، ولذا قال الترمذي رحمته الله: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) حديث صحيح بشواهد دون قوله: (لَن يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ...)، وفي إسناده عطية - وهو ابن سعد العوفي - ضعيف، ضعفه النسائي والترمذي وغيرهما، له شاهد صحيح من حديث زيد ابن أرقم عند مسلم والنسائي بلفظ: (وَأَنَا تَارَكْتُ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوْلَاهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ) ثم قال: (وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي...).

وقال العرياض بن سارية رضي الله عنه صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغةً ذرّفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأنّ هذه موعظةٌ مودّع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) ^(١).

وعن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا أعرفنّ الرجل منكم يأتيه الأمر من أمري: أمّا أمرت به، أو نهيئت عنه، وهو متكئ على أريكته، فيقول، ما نذري ما هذا؟ عندنا كتاب الله وليس هذا فيه. وما لرسول الله أن يقول ما يخالف القرآن، وبالقرآن هداه الله) ^(٢). وفي لفظ: (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه أمري: أمّا أمرت به، أو نهيئت عنه فيقول لا أذري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه) ^(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في "السنة" رقم (٤٦٠٧): باب لزوم السنة، والترمذي في العلم رقم (٢٦٧٨): باب ١٦، وإسناده صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٦، ١٢٧، وابن ماجه في المقدمة رقم ٤٢ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود.

(٣) رواه أبو داود رقم (٤٦٠٥) في السنة: باب لزوم السنة، والترمذي رقم (٢٦٦٦) في العلم: باب رقم (١٠) وإسناده صحيح. وقال الترمذي: حسن، وأخرجه أحمد ٨/٦ وابن ماجه في المقدمة رقم (١٣).

الفضائل: باب شفقتہ ﷺ علی امتہ.

موقوفة في أصولها وقواعدها ومناهجها على الكتاب والسنة، فمن أحدث في أصول الدعوة أو مناهجها ما ليس عليه أمر الشرع فهو رد، قال النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وفي لفظ لمسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(١)، وقال ﷺ: (أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)^(٢)، فحتى لا نكون من المحدثين في أمور الدعوة فلا بد وأن تكون دعوتنا مبنية على هدي الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، فإننا إن فعلنا هذا نكون بذلك قد أمانا من الإحداث المذموم في الدين والمتوعد عليه بالعقوبة.

النوع الثالث من أنواع الأدلة الدالة على صحة قاعدتنا: كل دليل يدل على وجوب متابعة النبي ﷺ فإنه يدل على صحة هذه القاعدة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي...﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والنصوص كثيرة، فمتابعته شرط في قبول العمل، فمن اخترع للدعوة أصلاً أو منهجاً ودعا الناس له وهو على غير هدى من الكتاب والسنة، فعمله هذا باطل،

(١) رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم ٢٩٨/٤ في البيوع: باب النجش ووصله في الصلح ٥/٢٢١: باب إذا اصطالحوا على صلح جور فالصلح مردود، ومسلم رقم (١٧١٨) في الأفضية: باب نقض الأحكام الباطلة، وأبو داود في السنة: باب لزوم السنة ٥٠٦/٢، وأخرجه ابن ماجة في المقدمة: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ رقم (١٤).

(٢) رواه مسلم رقم (٨٦٧) في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

ودعوته لا أجر له فيها، بل لا نظنه يسلم من العقاب أيضاً، فهو مستحق له، لأن الدعوة إلى الله تعالى من الدين، والدين مبناه على الاتباع لا على الابتداء، ولا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله تعالى، والصواب ما كان على السنة.

فالدعوة التي قررت بالأصول المخالفة للدين، والمخالفة لمنهج سيد المرسلين، وبنيت على غير الاعتقاد الصحيح فإنها دعوة ضالة مضلة، وفسادها أكثر من صلاحها، ولا أجر ولا خير فيها، بل هي دعوة مردودة على أصحابها، لتخلف شرط قبول العمل عنها، وهو الإخلاص والمتابعة، والله أعلم. بل استمع إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فإن ختم الآية الواردة في شأن الدعوة بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأكبر دليل على وجوب تصحيح المنهج الدعوي على العقيدة السليمة، لأنها إعلان صريح من الله تعالى، أن الدعوة التي جاء بها هذا النبي الكريم بنيت على التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة، فلا شرك فيها ولا بدعة ولا مخالفة لهدي الكتاب والسنة ولا أصول فيها مخالفة للمنهج الصحيح والصراط المستقيم، بل استمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فهذا بيان قطعي في أن دعوة الأنبياء من أولهم إلى آخرهم إنما ارتكزت في بداياتها ونهاياتها على العقيدة الصحيحة.

ومن أنواع الأدلة الدالة على صحة هذه القاعدة: كل دليل فيه بيان العقوبة على من تخلف عن الأخذ بالكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ - أي

كلامي المنزل - ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ١ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ٣ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، والإعراض عن العقيدة الصحيحة والتربية عليها وانشقاق الدعوة منها هو في حقيقته إعراض عن الكتاب والسنة.

والمهم أن هذه القاعدة من القواعد المتفق عليها فيما نعلم، فهي من الأهمية بمكان، فلا بد من اعتمادها وجعلها أصلاً من أصول الدعوة إلى الله تعالى وأن نسعى السعي الحثيث على وزن ما عندنا من المناهج الدعوية والأصول التي نستعملها في الدعوة إلى الله تعالى على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة وأنا أذكر لك بعض الفروع المخرجة على هذه القاعدة الطيبة حتى تكون على بينة مما أريد فلا يشتط بك الفهم، وتفهم مني ما لا أريده، فأقول:

منها: من الأصول الدعوية عند بعض الجماعات عدم الكلام في أمور التوحيد والعقيدة، بحجة أن الكلام في التوحيد ينفر ويفرق ولا يجمع، وهذا أصل باطل، لا بد من إلغائه، فهو مخالف للكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، فالكلام في مسائل التوحيد والدعوة إلى التوحيد هي زبدة الدعوة إلى الله تعالى، وهو أهم شيء في الدعوة، وأعظم ما بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم، وأكبر مقصود نزلت بتقريره الكتب، وهو أول ما افتتح به الأنبياء دعوة أممهم، وهو أصل الأعمال وأساسها وشرط قبولها، فما الفائدة من عمل بلا توحيد، فما تقرر هذه الجماعة من هذا الأصل الذي جعلوه معقد الولاء والبراء هو باطل كل البطلان، بل الكلام في التوحيد وبيان الحق من الباطل في أمور العقيدة أصل رئيس في دعوة الأنبياء

والرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها، فلا بد من إبطال هذا الأصل وتحذير من يعتمد، وأن نبين له أن الدعوة التي لا تقوم على منهج العقيدة الصحيحة دعوة فاسدة فاشلة لا خير فيها، والله المستعان.

ومنها: إن من الجماعات التي تنتسب للإسلام من يؤصل أن العبرة بالكم لا بالكيف، فنحن لا ننظر إلى الفروق العقدية بين الأفراد ما دام يجمعهم اسم الإسلام، فالصوفي والرافضي والتكفيري والخارجي كلهم تحت سقف الإسلام، فلماذا نتفرق، ولماذا نبث بيننا الحزازات في مسألة هذا كذا وهذا كذا، وهذا الأصل والله العظيم هو أصل فاسد وباطل، بل التفريق بين أهل الهداية والاستقامة وبين أهل البدعة والفجور أصل أصيل في الدعوة، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم: ٣٥-٣٦]، بل إن عقيدة الولاء والبراء منبثقة من هذا التفريق بين أهل السنة وأهل البدع وبين أهل الإسلام وأهل الكفران، بل انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على الكلام على الفرق وبيان حكمها في الإسلام وبيان مخالفتها والتحذير منها وبيان بطلانها، وانعقد إجماعهم على التحذير من أهل البدع والتحذير من مجالستهم والاستماع لهم، وانعقد إجماعهم على الأمر بإهانتهم وعدم إكرامهم فلا يكفي أن نجتمع تحت مظلة الإسلام فقط، بل لا بد وأن نكون مجتمعين تحت سقف الاعتقاد الصحيح الذي قرره أهل السنة والجماعة، ثم إننا نعتقد، بل ونجزم أنه لا يمكن أن يكون هناك اجتماع وتألف في الحقيقة إلا على الحق المتفق مع الكتاب والسنة وهدي سلف الأمة، ثم أي خير يرجى في تجمعات لا يكون منطلقها من الحق؟ والمهم أن هذا المنهج باطل، وهذا

الأصل فاسد، بل الواجب علينا أن نبين الفروق العقدية وأن ننكر على المخالف فيها، وأن نبين زيف قوله للناس، وأن لا نجالسه ولا نأخذ عنه، وأن نحذر منه، بيانا للحق، ونصحا للخلق، وأن نقول للمحسن أحسنت ونقول للمسيء أسأت، فهذه الجماعة بنت هذا الأصل على غير العقيدة الصحيحة ونحن ندعوها إلى تصحيح بنائها الدعوي تأصيلا وتفريعا على العقيدة الصحيحة، والله المستعان.

ومنها: إن من الجماعات من بنت دعوتها على عدم لزوم متابعة سلف الأمة في الفهم، فتراهم يفهمون الأدلة على مقتضى ما تمليه عليهم عقولهم، في أمور قد قال السلف فيها كلمتهم، وانعقد عليه فيها إجماعهم، ويقولون: هم رجال ونحن رجال، ولهم عقول ولنا عقول، ولا نلزم بمتابعة من يصيب ويخطئ، والمهم أنهم بنوا دعوتهم على نسف فهم سلف الأمة، وهذا مبدأ فاسد، وهوى متبع وقد ثارت بيني وبين بعض طلبة العلم مناقشة في هذه المسألة، فألفت فيها رسالة، أسميتها "تذكير الخلف بوجوب اتباع فهم السلف لأدلة الكتاب والسنة"، وذكرت فيها الأدلة الدالة على هذه المتابعة وأنا لم نقلها هكذا جزافا، بل لها أدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة، فإن شئت النظر في الرسالة المذكورة فهو أفضل إن شاء الله تعالى، والمهم أن هذا الأصل أصل فاسد، ففصل الأمة عن فهم سلفها لا نرضاه، بل نحن نحاربه ونحارب أهله، بل الحق أن الدعوة الصحيحة لا تكون إلا إن بنيت على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وفي الكتاب المذكور قررت فيه خمسين فرعا ينبثق من تلك القاعدة، وهي أن كل فهم يخالف فهم سلف الأمة فإنه باطل، فالدعوة لا تكون صحيحة بنسف فهم السلف، فلا بد من تصحيح مسار الدعوة

واعتقاد منهج السلف وفهمهم، لأن تصحيح مسار الدعوة على الاعتقاد الصحيح مطلب رئيس فيها. والله المستعان.

ومنها: إن من الدعوات المنتشرة في العالم الإسلامي والعربي من أصلت رد حديث الآحاد في أمور العقيدة، فجعلت دعوتها مبنية على عدم قبول أخبار الآحاد في مسائل الاعتقاد، وردت بسبب ذلك كثيرا من الأصول الشرعية، والعقائد المرعية، التي قررها أهل السنة والجماعة، فهذا الأصل والمنهج في بحث المسائل العلمية والعملية باطل، بل الحق أن خبر الآحاد الصحيح حجة، ولا يجوز رد شيء من النصوص إن ثبتت نسبتها للنبي ﷺ، فما صح عنه ﷺ فالواجب قبوله واعتقاد مدلوله، بغض النظر عن كونه من المتواتر أو من الآحاد، وبغض النظر عن المسألة التي ورد فيها أهو في مسألة عقدية أو مسألة فقهية، وإنما المهم صحة السند، فما صح سنده فالواجب قبوله، هذا هو ما عليه السلف الصالح، وأما رد الحديث بحجة أنه من أخبار الآحاد في مسائل العقيدة فهو مسلك أهل البدع، فالواجب على من يقرر هذا أن ينتبه لفساده وبطلانه، وقد ذكرنا الأدلة الدالة على وجوب قبول خبر الآحاد في كتابنا في الأصول، والمهم هنا هو أن السير وبناء الدعوة والتعليم على رد خبر الآحاد باطل، فلا بد من تصحيح هذا المنهج، لأن الواجب في الدعوة هو تصحيح سيرها على المعتقد الصحيح، والله المستعان. والفروع كثيرة وإنما المقصود الإشارة، وتوضح هذه القاعدة بالقاعدة بعدها، والله أعلم.



القاعدة الثانية

دعوتنا مبنية على الكتاب والسنة

وفهم السلف

وقد حرص السلف رحمهم الله تعالى على تقييد هذا الأمر في عقيدة الأمة، فقال الإمام أحمد رحمه الله: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والافتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كفيتم)، وقال اللالكائي رحمه الله: «فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع وذم التكلف والاختراع، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين، وكان أولاهم بهذا الاسم وأحقهم بهذا الوسم، وأخصهم بهذا الرسم أصحاب الحديث؛ لاختصاصهم برسول الله ﷺ، واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسه وأفعاله، فأخذوا الإسلام عنه مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معينة، من غير واسطة ولا سفير بينهم وبينه وصلة، فجاولوها عيانا، وحفظوا عنه شفاها، وتلقفوه من فيه رطبا، وتلقنوه من لسانه عذبا، واعتقدوا جميع ذلك حقا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا، فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة، لم يشوبه لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف

كالحروف يتلو بعضها بعضاً، ويتسق آخرها على أولها رصفاً ونظماً»، وقال
الآجري محمد بن الحسين رحمته الله: «علامة من أراد الله عز وجل به خيراً: سلوك هذه
الطريق: كتاب الله عز وجل وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنن أصحابه رضي الله عنهم ومن
تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر
ما كان من العلماء، مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد
ابن حنبل والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقهم ومجانبة كل مذهب لا
يذهب إليه هؤلاء العلماء»، وقال أبو العالية رحمته الله: «عليكم بالأمر الأول الذي
كانوا عليه قبل أن يفترقوا»، وقال الأوزاعي رحمته الله: «اصبر نفسك على السنة،
وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك
الصالح فإنه يسعك ما وسعهم»، ومن مأثور قول الإمام مالك رحمته الله ويروى عن
عمر رضي الله عنه: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، وقال ابن مسعود
رضي الله عنه: (مَن كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة
قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم
الله تعالى لصحبة نبيّه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على
الهدى المستقيم)، وعن عثمان بن حاضر، قال دخلتُ على ابن عباس رضي الله عنه،
فقلت: أوصني، فقال: (نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتّبع ولا تتبدع)، وعن
ابن سيرين قال: «كانوا يرون أنه على الطريق ما كان على الأثر) وعن ابن مسعود
رضي الله عنه قال: (تعلّموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم
والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق)، والمراد بالعتيق ما دلّ عليه دليل، وكان

عليه السلف، ولم يكن محدثاً، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إنكم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالهدي الأول)، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (اقتصاد في سنة خير من اجتihad في بدعة، إنك إن تبغ خير من أن تبتدع، ولن تخطئ الطريق ما اتبعت الأثر)، وقال القيرواني في مقدمته في بيان أصول السلف: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم، وعلمائهم وأتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجِدال في الدين، وترك ما أحدثه المحدثون»، وقال الحافظ أبو القاسم اللالكائي رحمته الله: «فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده وصفاته، وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها، والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول: كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار المتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون»، وقال كثير من السلف الصالح: «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من قبل كبرائهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم هلكوا»، ومن ماثور القول عن ابن مسعود رضي الله عنه: (إنا نفتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر)، وقال سفيان رحمته الله: «وجدت الأمر الاتباع»، وكلامهم في هذه المسألة كثير لا يكاد يحصر، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وعلى ما قررته هذه النقول المباركة عن السلف تواترت الأدلة من الكتاب والسنة:

فمن الأدلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، قال الشيخ ابن سعدي رحمته الله: «وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و﴿سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، أو تحريمه أو كراهته، أو إباحته فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم) وقال أبو العباس رحمته الله: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ لِأَصْحَابِ نَبِيِّهِ ﷺ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ بِالْإِيمَانِ. فَعَلِمَ قَطْعًا أَنَّهُمُ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُغْفِرُ لَهُمْ زُجُجَهُمْ وَيَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ الْأُولَٰئُونَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، فَحَيْثُ تَقَرَّرَ أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَلَاَهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّىٰ وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمُ، فَمِنْ سَبِيلِهِمْ فِي الْإِعْتِقَادِ (الْإِيمَانُ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَسْمَائِهِ) الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ وَسَمَّىٰ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ وَتَنْزِيلِهِ أَوْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَلَا نَقْصٍ مِنْهَا وَلَا تَجَاوِزَ لَهَا وَلَا تَفْسِيرَ لَهَا وَلَا تَأْوِيلَ لَهَا بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا وَلَا تَشْبِيهَ لَهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ وَلَا سِمَاتِ الْمُحَدِّثِينَ

بَلْ أَمْرُهَا كَمَا جَاءَتْ وَرَدُّوا عِلْمَهَا إِلَى قَائِلِهَا ؛ وَمَعْنَاهَا إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهَا ، فانظر كيف جعل المراد بالآية الصحابة رضوان الله عليهم .

وقال ﷺ : « وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ يُفَعِّلْ اللَّهُ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ [النساء : ١١٥] ، فَإِنَّهَا مُتَلَاذِمَانِ ؛ فَكُلُّ مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ فَقَدْ أَتْبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَكُلُّ مَنْ أَتْبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ شَاقَّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ . فَإِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ مُخْطِئٌ ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ وَهُوَ مُخْطِئٌ . وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِجْمَاعَ الْمُؤْمِنِينَ حُجَّةٌ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ مُحَالَفَتَهُمْ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَأَنَّ كُلَّ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَصٌّ عَنِ الرَّسُولِ ؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ يَقْطَعُ فِيهَا بِالْإِجْمَاعِ وَبِإِنْفَاءِ الْمُنَازَعِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّهَا بِمَا بَيَّنَّ اللَّهُ فِيهِ الْهُدَىٰ ، ومن المعلوم لدى أهل العلم أن جمهور مسائل الاعتقاد مما هو متفق عليه بين أهل السنة رحمهم الله تعالى ، وقد استدل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى بهذه الآية على وجوب اتباع سبيل أصحاب محمد ﷺ ، وقد استدل الجمع الكثير الغفير من أهل السنة رحمهم الله تعالى على بطلان كثير من المعتقدات والأقوال والأعمال بأنها مخالفة لسبيل المؤمنين والذين هم الصحابة في المقام الأول ، والتابعون وتابعوهم بإحسان ، مما يفيد أن أهل العلم متفقون إن شاء الله تعالى على أن الآية يراد بها السلف الأوائل .

وأزيد الأمر إيضاحاً فأقول : لقد تقرر في الأصول أن ذم الفعل يستفاد منه التحريم ، وتقرر أن الوعيد على الفعل يستفاد منه التحريم ، فلما تواعد الله تعالى مخالف سبيل المؤمنين بالنار ، أفاد ذلك أن متابعة سبيلهم من الواجبات المحتتمات

لأن المتقرر أن النهي عن الشيء أمر بضده من جهة المعنى، والنهي عن مخالفة سبيلهم يتضمن الأمر باتباع سبيلهم، واتباعهم يكون باعتماد ما اعتمدوه وأجمعوا عليه من القول والعمل، ومن المعلوم أن الأقوال والأعمال إنما تصدر عن فهم، ومتابعتهم في أقوالهم واعتقاداتهم يتضمن متابعتهم في فهمهم، لأن من خالفهم في الفهم فلزاما أن يخالفهم في القول والعمل، وهذا واضح، فإنه ما خولف السلف في شيء إلا ممن خالفهم أصلا في الفهم، فالبدع التي نراها والمعتقدات التي انتحلها أهل البدع إنما هي أثر من آثار مخالفة السلف في الفهم، فصار الاتفاق في الفهم سبيلا للاتفاق في القول والعمل.

ومن الأدلة أيضا: قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا المدح يتضمن صحة ما كانوا عليه من العقيدة والعمل وهذه الصحة مستمدة من صحة التأصيل والفهم، فمن أراد أن يكون له حظ من هذا المدح والثناء فليتفق معهم في فهمهم المفضي إلى صحة الاعتقاد والعمل، ودل ذلك على أن من خالفهم فإنه الممقوت الضال المغضوب عليه، والمخالفة في العمل فرع عن المخالفة في الفهم، فدل ذلك على صحة فهمهم الذي أثمر لهم صحة الاعتقاد والعمل، وحيث كان فهمهم هو الفهم الصحيح، فهو الفهم الذي يجب حينئذ اتباعه، لأن خلاف الحق باطل، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ففهمهم هو الحق، وما عداه هو الضلال، والضلال لا يجوز اتباعه، فأفاد ذلك أن فهمهم حجة على من بعدهم في مسائل العقيدة والعمل، وهو المطلوب.

ومن الأدلة أيضا: قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذه الخيرية دليل على صحة ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ من العقيدة والعمل، وهي نابعة من سلامة الفهم عن الله تعالى ورسوله ﷺ، والآية خطاب للصحابة في المقام الأول، فهم سلف الأمة، فحيث كانوا هم خير أمة أخرجت للناس فهذا تنبيه على وجوب الأخذ بما كانوا عليه من الفهم والتأصيل المثمر لسلامة العقيدة وصحة العمل.

ومن الأدلة: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا..﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط هم الخيار العدول والخطاب للصحابة في أول التنزيل، وهذا تنبيه لمن يأتي بعدهم أنه لا خيرية له ولا عدالة إلا في اقتفاء آثارهم والسير على منهاجهم واعتماد ما اعتمدوه من العقيدة والعمل، فالخيرية والعدالة إنما تكون بحسب ما في العبد من الاتباع لهم، فأكملنا اتباعا أكملنا خيرية وعدالة، فالخيرية والعدالة مربوطة باتباع سلف الأمة من الصحابة ومن سار على منهاجهم من التابعين وتابعيهم.

ومن الأدلة: الآيات التي فيها مدح لأصحاب رسول الله ﷺ وأن الله تعالى رضي عنهم ورضوا عنه، كقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا..﴾ [الفتح: ٢٩]، وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَدْ جَاءُوا بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَوْلَا دَعْوَتُنَا لَكُنُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ونحو هذه الآيات التي فيها

تستطير الرضا وأنهم كانوا على الهدى، وفيها أعظم المدح والثناء، وهذا كله تنبيه للأمة على صحة مسلكهم ووضوح حجتهم، والأمر باتباع آثارهم، وأن فهمهم هو الفهم الصحيح، وما سواه مما عارضه فهو فهم سقيم عاطل ورأي باطل، لأن هذا المدح والثناء دليل على أن ما كانوا عليه من العقيدة والعمل هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فمن كان على مثل ما كانوا عليه من العلم والهدى ودين الحق فقد فاز وأفلح ودخل في هذا الثناء العاطر ومن خالف فهو الشقي الخاسر، وهذا واضح.

ومن الأدلة أيضا: قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، وكل من الصحابة منيب إلى الله تعالى فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، والصحابة أكمل الأمة هداية فلا كان ولا يكون بعدهم أحد مثلهم.

ومن الأدلة: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾ [يوسف: ١٠٨]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِيهَا حَكَاهُ عَنِ الْجَنِّ وَرَضِيَهُ، ﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ...﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ وَلِأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ فَقَدْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ عَالِمًا بِهِ، وَالِدُّعَاءُ إِلَى أَحْكَامِ اللَّهِ دُعَاءٌ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ إِلَى طَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَإِذَا فَالْصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدْ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ ﷺ، فَيَجِبُ اتِّبَاعُهُمْ إِذَا دَعَوْا إِلَى اللَّهِ. قاله ابن القيم.

ومن الأدلة أيضا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى...﴾ [النمل: ٥٩]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي رِوَايَةِ أَبِي مَالِكٍ: (هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ)، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وَحَقِيقَةُ الْإِصْطِفَاءِ: افْتِعَالٌ مِنَ التَّصْفِيَةِ، فَيَكُونُ قَدْ صَفَّاهُمْ مِنَ الْأَكْذَارِ، وَالْخَطَأِ مِنَ الْأَكْذَارِ، فَيَكُونُونَ مُصَفَّيْنَ مِنْهُ، وَلَا يُنْتَقَضُ هَذَا بِمَا إِذَا اخْتَلَفُوا لِأَنَّ الْحَقَّ لَمْ يَغْدُهِمْ، فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ كَذْرًا؛ لِأَنَّ مُحَالَفَتَهُ الْكَذَرَ، وَبَيَانُهُ يُزِيلُ كَوْنَهُ كَذْرًا بِخِلَافِ مَا إِذَا قَالَ بَعْضُهُمْ قَوْلًا وَلَا يُحَالِفُ فِيهِ فَلَوْ كَانَ قَوْلًا بَاطِلًا، وَلَمْ يَرُدَّهُ رَادٌّ لَكَانَ حَقِيقَةً الْكَذَرَ، وَهَذَا لِأَنَّ خِلَافَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بِمَنْزِلَةِ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أُمُورِهِ فَإِنَّهَا لَا تُخْرِجُهُ عَنْ حَقِيقَةِ الْإِصْطِفَاءِ، قَالَ ابْنُ الْقِيمِ.

ومن الأدلة أيضا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَهِدَ هُمْ بِأَنَّهُمْ أُوتُوا الْعِلْمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ...﴾ [سبا: ٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَئِنَّا...﴾ [محمد: ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾ [المجادلة: ١١]، وَاللَّامُ فِي «الْعِلْمِ»: «لَيْسَتْ لِالِاسْتِغْرَاقِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْعَهْدِ، أَيْ الْعِلْمُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، وَإِذَا كَانُوا أُوتُوا هَذَا الْعِلْمَ كَانَ اتِّبَاعُهُمْ وَاجِبًا»، قَالَ ابْنُ الْقِيمِ.

ومن الأدلة: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا آتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ»، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ أَيْمَةُ الصَّادِقِينَ، وَكُلُّ صَادِقٍ بَعْدَهُمْ فِيهِمْ يَأْتُمُّ فِي صِدْقِهِ، بَلْ حَقِيقَةُ صِدْقِهِ اتِّبَاعُهُ هُمْ وَكَوْنُهُ مَعَهُمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي شَيْءٍ وَإِنْ وَاظَفَهُمْ فِي غَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ

مَعَهُمْ فِيمَا خَالَفَهُمْ فِيهِ، وَحِينَئِذٍ فَيُضَدَّقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ فَتَنْتَفِي عَنْهُ الْمُعِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ، وَإِنْ ثَبَتَ لَهُ قِسْطٌ مِنَ الْمُعِيَّةِ وَفِيمَا وَاَفَقَهُمْ فِيهِ، فَلَا يَضَدَّقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَعَهُمْ بِهَذَا الْقِسْطِ، وَهَذَا كَمَا نَفَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْإِبْيَانُ الْمُطْلَقُ عَنِ الزَّانِي وَالشَّارِبِ وَالسَّارِقِ وَالْمُتَنَبِّهِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْمُؤْمِنِ، وَإِنْ لَمْ يَتَنَفَّ عَنْهُ مُطْلَقُ الْإِسْمِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ لِأَجْلِهِ أَنْ يُقَالَ: مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْإِبْيَانِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ اسْمَ الْفَقِيهِ وَالْعَالِمِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ لَا يُقَالَ لِمَنْ مَعَهُ مَسْأَلَةٌ أَوْ مَسْأَلَتَانِ مِنْ فِقْهِهِ وَعِلْمِهِ، وَإِنْ قِيلَ: مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ، فَفَرَقَ بَيْنَ الْمُعِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ وَمُطْلَقِ الْمُعِيَّةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ الْأَوَّلُ لَا الثَّانِي، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ مِنَّا أَنْ نَكُونَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَنْ نُحْصَلَ مِنَ الْمُعِيَّةِ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْإِسْمُ، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ فِي فَهْمِ مُرَادِ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْ أَوَامِرِهِ؛ فَإِذَا أَمَرَنَا بِالْتَّقْوَى وَالْبِرِّ وَالصَّدْقِ وَالْعِفَّةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَمْ يُرِدْ مِنَّا أَنْ نَأْتِيَ مِنْ ذَلِكَ بِأَقْلٍ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْإِسْمُ، وَهُوَ مُطْلَقُ الْمَاهِيَةِ الْمَأْمُورُ بِهَا بِحَيْثُ نَكُونُ مُمْتَثِلِينَ لِأَمْرِهِ إِذَا أَتَيْنَا بِذَلِكَ، وَتَمَامُ تَقْرِيرِ هَذَا الْوَجْهِ بِمَا تَقَدَّمَ فِي تَقْرِيرِ الْأَمْرِ بِمُتَابَعَتِهِمْ سِوَاءً، قَالَ ابْنُ الْقِيمِ.

ومن الأدلة أيضا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ هُوَ اجْتَبَأَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرُّسُلُ شُهَدَاءَ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [الحج: ٧٨]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ اجْتَبَاهُمْ، وَالْاجْتِبَاءُ كَالِاصْطِفَاءِ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنْ «اجْتَبَى الشَّيْءَ يَجْتَبِيهِ» إِذَا ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَحَازَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَهُمْ الْمُجْتَبُونَ الَّذِينَ اجْتَبَاهُمْ اللَّهُ إِلَيْهِ وَجَعَلَهُمْ أَهْلَهُ وَخَاصَّتَهُ وَصَفَوْتُهُ مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَهَذَا أَمْرُهُمْ تَعَالَى أَنْ يُجَاهِدُوا فِيهِ حَقَّ

جِهَادِهِ فَيَبْذُلُوا لَهُ أَنْفُسَهُمْ، وَيُقِرُّدُوهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَيَخْتَارُوهُ وَحْدَهُ إِهْلًا مَعْبُودًا مَحْبُوبًا عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهُ كَمَا اخْتَارَهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، فَيَتَّخِذُونَهُ وَحْدَهُ إِهْلَهُمْ، وَمَعْبُودَهُمُ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالسُّتَيْتِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ، وَإِرَادَتِهِمْ، فَيُؤْثِرُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ عَلَى مَنْ سِوَاهُ، كَمَا اتَّخَذَهُمْ عِبِيدَهُ، وَأَوْلِيَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ وَآثَرَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنْ يَسَّرَ عَلَيْهِمْ دِينَهُ غَايَةَ التَّيسِيرِ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ فِيهِ مِنْ حَرَجٍ أَلَبَّةً لِكَمَالِ مَحَبَّتِهِ هُمْ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحَنَانِهِ بِهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِلزومِ مِلَّةِ إِمَامِ الْخُفَاءِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَهِيَ إِفْرَادُهُ تَعَالَى وَحْدَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْحُبِّ وَالْخُوفِ وَالرَّجَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّفْوِيزِ وَالِاسْتِسْلَامِ فَيَكُونُ تَعَلُّقُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِهِ وَحْدَهُ لَا بَغَيْرِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ نَوَّهَ بِهِمْ وَسَمَّاهُمْ كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَوْجَدَهُمْ اعْتِنَاءَ بِهِمْ وَرِفْعَةً لِسَانِهِمْ، وَإِعْلَاءَ لِقَدْرِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِيُشْهَدَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ وَيَشْهَدُوا هُمْ عَلَى النَّاسِ ؛ فَيَكُونُونَ مَشْهُودًا هُمْ بِشَهَادَةِ الرُّسُولِ شَاهِدِينَ عَلَى الْأُمَمِ بِقِيَامِ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ هَذَا التَّنْوِيهِ، وَإِشَارَةُ الذِّكْرِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ وَلِهَاتَيْنِ الْحُكْمَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا بِهِدِهِ الْمُنَزَّلَةِ عِنْدَهُ تَعَالَى فَمِنْ الْمَحَالِ أَنْ يَجْرِمَهُمْ كُلَّهُمُ الصَّوَابَ فِي مَسْأَلَةٍ فَيُفْتِي فِيهَا بَعْضُهُمْ بِالْخَطَأِ، وَلَا يُفْتِي فِيهَا غَيْرُهُ بِالصَّوَابِ، وَيَظْفَرُ فِيهَا بِالْهُدَى مِنْ بَعْدِهِمْ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، قَالَه ابْنُ الْقِيمِ.

ومن الأدلة أيضا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وَوَجْهُ الْإِسْتِدْلَالِ بِالْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنِ الْمُعْتَصِمِينَ بِهِ بِأَنَّهُمْ قَدْ هُدُوا إِلَى الْحَقِّ ؛ فَتَقُولُ: الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مُعْتَصِمُونَ بِاللَّهِ فَهُمْ مُهْتَدُونَ،

فَاتَّبَاعُهُمْ وَاجِبٌ، أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى فَتَقْرِيرُهَا مِنْ وَجُوهِ أَحَدُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانَكُمْ فَبِعَمِّ الْمَوْلَى وَنِعَمِ النَّصِيرِ﴾ [الحج: ٧٨]، وَمَعْلُومٌ كَمَا لَمْ تَوَلَّيْ اللهَ تَعَالَى لَهُمْ وَنَصْرُهُ إِيَّاهُمْ أَنْتُمْ نُصْرَةٌ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ اعْتَصَمُوا بِهِ أَنْتُمْ اعْتِصَامٌ فَهُمْ مَهْدِيُونَ بِشَهَادَةِ الرَّبِّ لَهُمْ بِلَا شَكٍّ، وَاتِّبَاعُ الْمُهْدِيِّ وَاجِبٌ شَرْعًا وَعَقْلًا وَفِطْرَةً بِلَا شَكٍّ. قَالَ ابْنُ الْقِيمِ.

وَمِنِ الْأَدْلَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ مُوسَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِقَائِنَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَيْمَةً يَأْتُمُّ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَصَبْرِهِمْ وَيَقِينِهِمْ؛ إِذِ الْبَصِيرُ وَالْيَقِينُ ثَنَالُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرُهُ إِلَّا بِيَقِينِهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ وَبَصِيرَتِهِ بِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى تَنْفِيزِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِإِحْتِمَالِ مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ وَكَفِّ النَّفْسِ عَمَّا يُوهِنُ عَزَمَهُ وَيُضْعِفُ إِرَادَتَهُ، فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ كَانَ مِنَ الْأَيْمَةِ الَّذِينَ يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَحَقُّ، وَأَوَّلَى بِهَذَا الْوَصْفِ مِنْ أَصْحَابِ مُوسَى فَهُمْ أَكْمَلُ يَقِينًا، وَأَعْظَمُ صَبْرًا مِنْ جَمِيعِ الْأَيْمِ، فَهُمْ أَوَّلَى بِمَنْصِبِ هَذِهِ الْإِمَامَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ ثَابِتٌ بِلَا شَكٍّ بِشَهَادَةِ اللهِ لَهُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ، وَشَهَادَةِ الرَّسُولِ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّهُمْ خَيْرَةُ اللهِ وَصَفْوَتُهُ، وَمِنْ الْمَحَالِ عَلَى مَنْ هَذَا شَأْنُهُمْ أَنْ يُحْطِئُوا كُلَّهُمْ الْحَقُّ، وَيَظْفَرُ بِهِ الْمُتَأَخَّرُونَ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا لَانْقَلَبَتِ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ الْمُتَأَخَّرُونَ أَيْمَةً لَهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الرُّجُوعُ إِلَى فَتَاوِيِّهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ حِسًّا وَعَقْلًا فَهُوَ مُحَالٌ شَرْعًا، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ، قَالَ ابْنُ الْقِيمِ.

وَمِنِ الْأَدْلَةِ أَيْضًا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عِيْبَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ) ^(١) وهذه الخيرية خيرية الاعتقاد والعمل، وهي نابعة من خيرية الفهم والتأصيل، فأفاد ذلك أنهم خير الأمة فهما، وأزكاها علما، وأعمقها تأصيلا، وهذا ينتج أن من بعدهم يجب أن يكون على ما كانوا عليه من العلم والعمل، وإلا فما هو إلا الضلال والتهيه. قال ابن القيم: «فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنُهُ مُطْلَقًا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي تَقْدِيمَهُمْ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، إِلَّا كَوْنَهُمْ خَيْرًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَلَا يَكُونُونَ خَيْرَ الْقُرُونِ مُطْلَقًا فَلَوْ جَازَ أَنْ يُحْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي حُكْمٍ وَسَائِرُهُمْ لَمْ يُفْتَوَ بِالصَّوَابِ - وَإِنَّمَا ظَفَرَ بِالصَّوَابِ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَخْطَئُوا هُمْ - لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْقَرْنُ خَيْرًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ؛ لِأَنَّ الْقَرْنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى الصَّوَابِ خَيْرٌ مِنَ الْقَرْنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْخَطَا فِي ذَلِكَ الْفَنِّ، ثُمَّ هَذَا يَتَعَدَّدُ فِي مَسَائِلَ عَدِيدَةٍ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ: "قَوْلُ الصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِحُجَّةٍ" يَجُوزُ عِنْدَهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ بَعْدَهُمْ أَصَابَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ قَالَ فِيهَا الصَّحَابِيُّ قَوْلًا، وَلَمْ يَخَالَفْهُ صَحَابِيٌّ آخَرُ، وَفَاتَ هَذَا الصَّوَابُ الصَّحَابَةَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا يَأْتِي فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ تَفُوقُ الْعَدَّ وَالْإِحْصَاءَ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ خَيْرًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَقَدْ ائْتَارَ الْقَرْنُ الَّذِي بَعْدَهُمْ بِالصَّوَابِ فِيمَا يَفُوقُ الْعَدَّ وَالْإِحْصَاءَ مِمَّا أَخْطَئُوا فِيهِ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ فَضِيلَةَ الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةَ الصَّوَابِ أَكْمَلُ الْفَضَائِلِ، وَأَشْرَفُهَا، فَيَا سُبْحَانَ اللَّهِ، أَيُّ وَصْمَةٍ أَعْظَمُ مِنْ

(١) رواه البخاري ١٩١/٥ في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وفي الرقاق باب ما يجذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، وفي الأيمان والنذور، باب إذا قال: أشهد بالله أو شهدت بالله، ومسلم رقم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذي يلوونهم، والترمذي رقم (٣٨٥٨) في المناقب، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه.

أَنْ يَكُونَ الصَّدِيقُ أَوْ الْفَارُوقُ أَوْ عُثْمَانُ أَوْ عَلِيٌّ أَوْ ابْنُ مَسْعُودٍ أَوْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ أَوْ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ وَأَضْرَابُهُمْ عليه السلام قَدْ أَخْبَرَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ أَنَّهُ كَيْتٌ وَكَيْتٌ فِي مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ، وَأَخْطَأَ فِي ذَلِكَ، وَلَمْ يَشْتَمَلْ قَرْنُهُمْ عَلَى نَاطِقٍ بِالصَّوَابِ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ حَتَّى تَبَعَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَعَرَفُوا حُكْمَ اللَّهِ الَّذِي جَهَلَهُ أَوْلِيكَ السَّادَةِ، وَأَصَابُوا الْحَقَّ الَّذِي أَخْطَأَهُ أَوْلِيكَ الْأَئِمَّةُ؟ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ».

ومن الأدلة: حديث العرباض بن سارية عليه السلام قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد فإنه من يعش منكم فسيري اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) ^(١)، وهذا أمر باتباع سبيل الخلفاء الراشدين والأخذ بما هم عليه من العقيدة والعمل والفهم، وهو أمر وقد تقرر في الأصول: أن الأمر المطلق عن القرينة يفيد الوجوب، ففهمهم حجة، والحجة لا يجوز مخالفتها.

ومن الأدلة: قوله عليه السلام: (النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم، أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحاب فإذا ذهب أتى أصحابي ما يُوعَدُونَ، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدُونَ) ^(٢)، فأفاد هذا أن الفهم الذي سار عليه سلف الأمة هو الفهم الحق، وأنه متى ما غاب هذا الفهم عن الأمة فإنه

(١) رواه الترمذي باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٤٤/٥ برقم (٢٦٧٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأبوداود باب لزوم السنة، ٣٢٩/٤ برقم (٤٦٠٩).

(٢) إسناده صحيح أخرجه الإمام أحمد (٣٢/٣٣٥) وابن حبان (٧٢٤٩) وأخرجه أبو بكر بن أبي شيبة

سيأتيها ما توعد من الفتن والقلاقل والزواجر، فلا تزال الأمة بخير ما تمسكت بفهم سلفها الصالح من أصحاب محمد ﷺ، وهذا يفيدك أن الاعتصام والتمسك بهديهم في الفهم والتأصيل والهدى أمان من الهلاك وأمان من الضلالة والتهيه وأن من دعا الأمة إلى نبذ ما كان عليه السلف الصالح فإنه ساع في هلاك الأمة بقوله هذا وسيكون حججه يوم القيامة نبي هذه الأمة ﷺ. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وَوَجْهُ الإِسْتِدْلَالِ بِالْحَدِيثِ أَنَّهُ جَعَلَ نِسْبَةَ أَصْحَابِهِ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ كَنِسْبَتِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَكَنِسْبَةِ النُّجُومِ إِلَى السَّمَاءِ، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ هَذَا التَّشْبِيهَ يُعْطِي مِنْ وُجُوبِ اهْتِدَاءِ الْأُمَّةِ بِهِمْ مَا هُوَ نَظِيرُ اهْتِدَائِهِمْ بَنِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَظِيرُ اهْتِدَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالنُّجُومِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ جَعَلَ بَقَاءَهُمْ بَيْنَ الْأُمَّةِ أَمْنَةً لَهُمْ، وَحِزْرًا مِنَ الشَّرِّ وَأَسْبَابِهِ، فَلَوْ جَازَ أَنْ يُخْطِئُوا فِيمَا أَفْتَوَاهُ بِهِ وَيَظْفَرُ بِهِ مَنْ بَعْدَهُمْ لَكَانَ الظَّافِرُونَ بِالْحَقِّ أَمْنَةً لِلصَّحَابَةِ وَحِزْرًا لَهُمْ، وَهَذَا مِنَ الْمَحَالِ».

ومن الأدلة أيضا: قوله ﷺ: (إن الله اختار أصحابي على العالمين، سوى النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة أبا بكر، وعمر وعثمان، وعلياً رضي الله عنهم) فجعلهم أصحابي قال في أصحابي كلهم خير، واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتي أربعة قرون، القرن الأول والثاني والثالث، والرابع^(١)، وهذه الخيرية والاختيار الرباني يفيدك أن ما هم عليه من الفهم أصح وأحق أن يتبع من فهم

(١) رواه البزار ورجاله ثقات، وأخرجه الخطيب (١٦٢/٣) وقال: غريب. وابن عساكر (٢٠٧/٣٠).

وأخرجه أيضًا: ابن جرير الطبري في صريح السنة (٢٣/١)، رقم (٢٣). قال المزي في تهذيب الكمال

(١٠٤/١٥) والحاظ في تهذيب التهذيب (٢٢٧/٥): الحديث بطوله موضوع.

غيرهم المخالف لهم. ويؤكد ابن مسعود رضي الله عنه ما سبق من الآية والحديث قائلًا: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون عن دينه).

ومن الأدلة أيضا: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)، وَفِي لَفْظٍ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) ^(١)، وَهَذَا خِطَابٌ مِنْهُ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ لِأَقْرَانِهِ مِنْ مُسْلِمَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَالْفَتْحِ، فَإِذَا كَانَ مُدُّ أَحَدٍ أَصْحَابِهِ أَوْ نَصِيفُهُ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مِثْلِ أَحَدٍ ذَهَبًا مِنْ مِثْلِ خَالِدٍ، وَأَضْرَابِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَحْرِمَهُمُ اللَّهُ الصَّوَابَ فِي الْفِتَاوَى وَيَظْفَرَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ؟ هَذَا مِنْ أَتَيْنِ الْمَحَالِ، قَالَه ابْنُ الْقَيْمِ.

ومن الأدلة أيضا: ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاخْتَارَهُمْ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ، فَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَبِيحٌ)، وَمِنْ الْمَحَالِ أَنْ يُحْطَى الْحَقُّ فِي حُكْمِ اللَّهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَظْفَرَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا أَفْتَى بِهِ أَحَدُهُمْ وَسَكَتَ عَنْهُ الْبَاقُونَ كُلُّهُمْ فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوْهُ حَسَنًا أَوْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوْهُ قَبِيحًا، فَإِنْ كَانُوا قَدْ رَأَوْهُ

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين أخرجه الإمام أحمد (١٨/١٥٢) ومسلم (٢٥٤١) (٢٢٢)،

حَسَنًا فَهُوَ حَسَنٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ رَأَوْهُ قَبِيحًا، وَلَمْ يُنْكِرُوهُ لَمْ تَكُنْ قُلُوبُهُمْ مِنْ خَيْرِ قُلُوبِ الْعِبَادِ وَكَانَ مَنْ أَنْكَرَهُ بَعْدَهُمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَعْلَمَ، وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْمَحَالِ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ.

ومن الأدلة: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (مَنْ كَانَ مُتَأَسِّيًّا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَلَهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا هُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوا آثَارَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ، وَمِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَخْرِمَ اللَّهُ أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَلَهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا الصَّوَابَ فِي أَحْكَامِهِ وَيُوفِّقَ لَهُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ.

ومن الأدلة: مَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَأَبُو نَعِيمٍ وَغَيْرُهُمَا عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: (يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ خُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ اسْتَقَمْتُمْ لَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَلَئِنْ تَرَكْتُمُوهُ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا). وَمِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَكُونَ الصَّوَابُ، فِي غَيْرِ طَرِيقٍ مَنْ سَبَقَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ.

ومن الأدلة: حَدِيثُ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اِقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عُمَارِ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ) ^(١).
ووجه الاستدلال به: هو عين القول فيما قبله.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٩، رقم ٤٤٥١)، والبيهقي (٨/ ١٥٣، رقم ١٦٣٦٧). والطبراني في

الأوسط، والترمذي (٥/ ٦٧٢، رقم ٣٨٠٥)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

ومن الأدلة: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنْ يُطِيعَ الْقَوْمُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا)^(١) وَهُوَ فِي حَدِيثِ الْمِصْبَاةِ الطَّوِيلِ، فَجَعَلَ الرَّشْدَ مُعَلَّقًا بِطَاعَتِهِمَا، فَلَوْ أَفْتَوْا بِالْخَطَأِ فِي حُكْمٍ، وَأَصَابَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ لَكَانَ الرَّشْدُ فِي خِلَافِهِمَا. قاله ابن القيم.

ومن الأدلة: حديث الافتراق المشهور، وهو حديث صحيح بطرقه، وفيه: (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)، والمقصود الأول هم الصحابة، كما في الرواية الأخرى: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)^(٢)، ووجه الدلالة منه واضحة.

ومن الأدلة: الإجماع، فقد أجمع أهل السنة والجماعة أن طريق الفهم الصحيح لأدلة الكتاب والسنة هو أن تفهم كما فهمها سلف الأمة وأئمتها، وقد نقل الإجماع غير واحد من أهل العلم قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وطريقتهم - أي أهل السنة والجماعة - هي دين الإسلام الذي بَعَثَ اللهُ به محمدا ﷺ، لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته: (تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)، وهي الجماعة، وفي حديث عنه ﷺ أنه قال: (هم مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي)، صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب، هم أصحاب السنة والجماعة، وفيهم الصديقون، والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى وأولو المناقب الماثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم

(١) رواه مسلم رقم (٦٨١) في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، وأبوداود

رقم (٤٣٧) و(٤٣٨) و(٤٣٩) و(٤٤٠) و(٤٤١) في الصلاة، باب فيمن نام عن الصلاة أو نسيها.

(٢) سبق تخريجه ص ١١.

وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضُرُّهم من خَذَلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة)^(١)، وقال الأشعري رحمه الله تعالى في الإبانة: «مقولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا، وسنة نبينا، وما جاء عن الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين»، وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا. وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه. فالمقصود بيان طرق العلم وأدلتها، وطرق الصواب.

ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً، بل إنك لا تكاد تجد كتاباً صنف في الاعتقاد إلا وهو يبنى كتابه على فهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ويوصي بالأخذ به ويحذر من مخالفته ولو نظرت في كتاب اللالكائي المسمى بشرح أصول اعتقاد أهل السنة، وفي كتاب الشريعة للآجري وفي الكتب المسماة بـ(السنة) لعرفت أن هذا الإجماع من الإجماعات القطعية المنقولة بالتواتر، وقد تقرر في القواعد أن الإجماع حجة شرعية يجب اتباعها والمصير إليها وتحرم مخالفتها.

بل وقد دل على ذلك المعقول والاعتبار الصحيح، وبيان هذا من وجوه:

الأول: أن المتقرر عند عامة أهل الإسلام أن الصحابة هم أكمل الأمة عقولا، وأشدّها اتباعا، وأقواها إيمانا، وأزكاها علما، وأتمها فهما، وأنه لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم خير الأمة وتاج رأسها، وأنهم سادات العلم والعمل فمن المحال والممتنع أن من تكون هذه صفته أن يكون من بعده من الخلف أزكى منه وأتم لمعرفة الحق بالفهم الصحيح منه، هذا لا يكون أبدا، وهذا لا يعتقده إلا من كان على غير الهدى من الخلف المبتدعة الذين لا يعرفون للسلف قدرهم، نعوذ بالله من هذه الحال.

الثاني: أنه عند اختلاف فهم السلف مع فهم الخلف، فلا يخلو الحال من أحد أمرين: إما أن يكون الحق مع القوم الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة خير خلقه وصفوة رسله، وإما أن يكون الحق مع قوم إنما أخذوا علومهم من المنطق اليوناني ومن القواعد الفلسفية المناقضة للمعقول والمصادمة للمنقول، فبالله عليك، بم يحدثك قلبك؟ لا جرم إن شاء الله تعالى أنك من الموفقين، ممن لا يقارن أصلا بين المذهبين، وأن الحق لا يكون البتة إلا مع سلف الأمة وأئمتها، وأن فهم الخلف باطل، إذ كيف يكون أفراخ علماء اليونان أعلم وأحكم وأدرى بالشرع وبالفهم الصحيح من أصحاب محمد ﷺ؟ وكيف تكون زبالات أذهان الفلاسفة المتهوكين أعلم وأقرب للحق ممن أخذ العلم غضا طريا من في رسول الله ﷺ، بل كيف يكون من اتفق السلف على ذمهم وتجريمهم في حق الأمة أحق بالاتباع من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؟ إنه أمر لو تدبره العقل الخالي من الشبهة لعلم أن الحق لا يكون إلا مع السلف، ولكن ثمة أقوام طمس الله بصائرهم، فلا يرون الشمس في رابعة النهار.

الثالث: أن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا التنزيل وهم أعلم بالتأويل، فلا جرم مع ذلك أن يكون فهمهم أتم من فهم غيرهم ومذهبهم أحق بالاتباع من مذاهب غيرهم، إذ غيرهم لم ينل هذا الشرف العظيم، وإنما هو من خصيصة الصحابة، رضي الله عنهم.

الرابع: أن أساطين علماء الخلف قد اعترفوا بخطأ ما هم عليه من الفهم وطرائق الاستدلال، وندموا على ما تعلموه مما هو مخالف لفهم السلف، وأنهم لم يكن معهم إلا الوهم والخيالات الفاسدة والظنون الكاذبة، وأن ما جمعه من العلوم إنما هو ضلال وتخرص، قال أبو العباس رحمه الله تعالى: «وَنَجِدُ عَامَّةَ هَؤُلَاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ مِنْهَاجِ السَّلَفِ مِنَ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَّصِفَةِ يَعْتَرِفُ بِذَلِكَ إِمَّا عِنْدَ الْمَوْتِ وَإِمَّا قَبْلَ الْمَوْتِ وَالْحِكَايَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ». هَذَا أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ: «نَشَأَ فِي الْإِعْتَزَالِ أَرْبَعِينَ عَامًا يُنَاطِرُ عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَصَرَّحَ بِتَضْلِيلِ الْمُعْتَزِلَةِ وَبَالِغٍ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ». وَهَذَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ مَعَ قُرْطِ ذَكَائِهِ وَتَأَلُّهِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْكَلَامِ وَالْفَلَسَفَةِ وَسُلُوكِهِ طَرِيقَ الزُّهْدِ وَالرِّيَاضَةِ وَالتَّصَوُّفِ يَنْتَهِي فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ إِلَى الْوَقْفِ وَالْحَيْرَةِ وَيُحِيلُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكُشْفِ وَإِنْ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَ إِلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَصَنَّفَ "الْجَامِعَ الْعَوَامَّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ" وَكَذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ قَالَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَفَهُ فِي أَقْسَامِ اللَّذَاتِ: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطَّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَنَاهِجَ الْفَلَسَفِيَّةَ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَالِيًا وَلَا تَرْوِي غَلِيلًا وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطَّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ أَقْرَأُ فِي الْإثْبَاتِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سُمِّيَتْ﴾ [مريم: ٦٥]، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي، وَكَانَ يَنْمَثِلُ كَثِيرًا:

خَاتِمَةُ إِفْدَامِ الْعُقُولِ عَقَالَ وَأَكْثَرُ سَنِي الْعَالَمِينَ ضَلَّالٌ
وَأَزْوَاحُنَا فِي وَخْشَةٍ مِّنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالَ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِّنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمُرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
وَهَذَا إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ تَرَكَ مَا كَانَ يَنْتَحِلُهُ وَيَقَرُّهُ وَاخْتَارَ مَذْهَبَ السَّلَفِ، وَكَانَ
يَقُولُ: يَا أَصْحَابَنَا لَا تَشْتَغِلُوا بِالْكَلامِ فَلَوْ أَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الْكَلَامَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا
اشْتَغَلْتُ بِهِ، وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِصْمَ وَخَلَّيْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ
وَعُلُومَهُمْ وَدَخَلْتُ فِيمَا نَهَوْنِي عَنْهُ. وَالْآنَ: إِنْ لَمْ يَتَذَكَّرْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِابْنِ
الْجَوْنِيِّ وَهَذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي - أَوْ قَالَ -: عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ.
وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّهْرِسْتَانِي: أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ
الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا الْخَيْرَةَ وَالنَّدَمَ، وَكَانَ يَنْشُدُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ نِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرَ عَلَى دَقْنِ أَوْ قَارَعًا سِنَّ نَادِمِ
ابْنُ الْفَارِضِ - مِنْ مُتَأَخَّرِي الْإِتِّحَادِيَّةِ - صَاحِبُ الْقَصِيدَةِ التَّائِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ "بِنَظْمِ
السُّلُوكِ" وَقَدْ نَظَّمَ فِيهَا الْإِتِّحَادَ نَظْمًا رَائِقَ اللَّفْظِ فَهُوَ أَحَبُّ مَن لَحْمِ خَنْزِيرٍ فِي صِينِيَّةٍ
مِّنْ ذَهَبٍ. وَمَا أَحْسَنَ تَسْمِيَّتَهَا بِنَظْمِ الشُّكُوكِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا وَبِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ وَقَدْ
نَفَقَتْ كَثِيرًا وَبَالَغَ أَهْلُ الْعَصْرِ فِي تَحْسِينِهَا وَالْإِعْتِدَادِ بِهَا فِيهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ - لَمَّا حَضَرَتْهُ
الْوَفَاةُ أَنْشَدَ:

إِنْ كَانَ مَنَزِلَتِي فِي الْحُبِّ عِنْدَكُمْ مَا قَدْ لَقِيتَ فَقَدْ صَيَّغْتَ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةٌ وَنَفَقْتُ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ

وقال رحمه الله تعالى: «كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ لَا سِيَّما وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلْفِ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ كَثُرَ فِي بَابِ الدِّينِ اضْطِرَابُهُمْ وَغُلْظَ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ حُجَّابُهُمْ وَأَخْبَرَ الْوَاقِفُ عَلَى نِهَايَةِ إِقْدَامِهِمْ بِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ حَيْثُ يَقُولُ:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُنِفَتِ الْمَعَاهِدُ كُلُّهَا وَسَيَّرْتُ طُرُقِي بَيْنَ تِلْكَ الْعَالَمِ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى دَقْنٍ أَوْ قَارَعًا سِنَّ نَادِمٍ
وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا قَالُوهُ مُتَمَثِّلِينَ بِهِ أَوْ مُنْشِئِينَ لَهُ فِيهَا صَنْفُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ كَقَوْلِ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمْ.

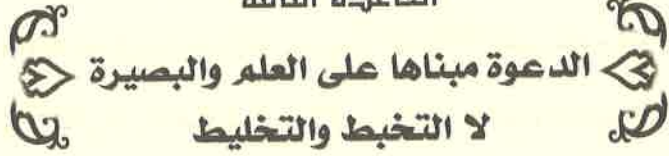
لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَنَاجِ الْفَلَسَافِيَّةَ؛ فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَليلاً وَلَا تَرْوِي غَليلاً وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ. أَقْرَأُ فِي الْإِنْبَاتِ «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» [طه: ٥]، «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» [فاطر: ١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْسِ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١]، «وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» [طه: ١١٠]، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجَرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي اهـ. وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَعُلُومَهُمْ وَخُضْتُ فِي الَّذِي يَهْوِي عَنْهُ وَالْآنَ إِنَّمَا يَتَدَارَكُنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِفُلَانٍ وَهَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي» اهـ. وَيَقُولُ الْآخَرُ مِنْهُمْ: «أَكْثَرُ النَّاسِ شَكَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَصْحَابَ الْكَلَامِ. ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُخَالِفُونَ لِلْسَّلَفِ إِذَا حَقَّقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ: لَمْ يَوْجَدْ عِنْدَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَخَالِصِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبْرٌ وَلَمْ يَقَعُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُحْجُوبُونَ الْمُفْضَلُونَ الْمُتَقُصُّونَ الْمُسَبُّوقُونَ الْخِيَارَى الْمُتَهَوِّكُونَ: أَعْلَمَ بِاللَّهِ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَمَ فِي بَابِ ذَاتِهِ وَآيَاتِهِ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِ الرُّسُلِ وَأَعْلَامِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى الَّذِينَ بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ

نَطَقُوا الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا بَرَزُوا بِهِ عَلَى سَائِرِ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ وَأَحَاطُوا مِنْ حَقَائِقِ الْمَعَارِفِ وَبَوَاطِنِ الْحَقَائِقِ بِمَا لَوْ جُمِعَتْ حِكْمَةُ غَيْرِهِمْ إِلَيْهَا لَا سَتَحِيَا مَنْ يَطْلُبُ الْمُقَابَلَةَ ثُمَّ كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ الْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ - لَا سِيَّما الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَأَحْكَامِ أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ - مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاخُ الْمُتَفَلِّسَةِ وَأَتْبَاعُ الْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَوَرَثَةُ الْمُجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضَلَالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ وَأَشْكَاهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ: أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَإِنَّمَا قَدَّمْتُ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ لِأَنَّ مَنْ اسْتَقَرَّتْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ عِنْدَهُ عَرَفَ طَرِيقَ الْهُدَى أَيْنَ هُوَ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيْرِهِ وَعَلِمَ أَنَّ الضَّلَالَ وَالْتِهْوُكَ إِنَّمَا اسْتَوَلَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ بِنَبَذِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَإِعْزَاضِهِمْ عَمَّا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَتَرْكِهِمُ الْبَحْثَ عَنْ طَرِيقَةِ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ وَالتَّمَاسِيهِمْ عِلْمَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهُ بِإِقْرَارِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَبِشَهَادَةِ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ وَبِدَلَالَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ وَلَيْسَ غَرَضِي وَاحِدًا مُعَيَّنًا وَإِنَّمَا أَصِفُ نَوْعَ هَؤُلَاءِ وَنَوْعَ هَؤُلَاءِ».

والله يحفظنا وإخواننا من الضلال والتهيه، فإن الهداية من أعظم النعم وأجل المنن فاشدد عليها بيدك، واحمد الله تعالى على السلامة، فهذا الأصل الأصيل لا بد من اعتماده في الدعوة إلى الله تعالى، ويجب الإيمان به، فلا تكون الدعوة صحيحة إلا باعتماده، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الثالثة



وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم رحمهم الله تعالى، فلا تجوز الدعوة لأحد إلا إن كان عالماً في المجال الذي يدعو له، ولا يضر جهله بغير هذا المجال، فإن العلم الذي نقصده هنا ليس هو كل العلم الموجود في الكتاب والسنة وكتب أهل العلم رحمهم الله تعالى، فإن هذا لا يقوى عليه أحد إلا النادر من الناس، وإنما نعني أنك بارك الله تعالى فيك لا تدعو الناس في مسألة من مسائل الدين إلا وأنت عالم بما تدعو إليه، فلا بد من العلم في الدعوة ولا بد من البصيرة في الدعوة، فالجاهل لا يجوز له الدعوة فيما هو جاهل فيه، فالدعوة إلى الله تعالى مشروطة بالعلم بما تدعو له، فلا دعوة إلا بعلم وبصيرة، وكم من الدعوات التي بنيت على الجهل والتخبط والهوى، فكانت ذات آثار سيئة في العالم فالعلم والبصيرة أصل كبير من أصول الدعوة، والأدلة على هذا الأصل الكبير كثيرة جداً، نذكر لك طرفاً منها:

من الأدلة عليها: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين الإنس والجن، آمراً له أن يخبر

الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي، فالبصيرة هنا يراد بها البرهان الواضح والدليل الظاهر، وضد البصيرة التخبط والهووى، قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى: «والبصيرة هي العلم بما يدعو إليه وما ينهى عنه»، وقال رحمه الله تعالى في بيان أخلاق الداعية: «أن تكون على بينة في دعوتك أي على علم، لا تكن جاهلا بما تدعو إليه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فلا بد من العلم، فالعلم فريضة، وإياك أن تدعو على جهالة، وإياك أن تتكلم فيما لا تعلم، فالجاهل يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح فاتق الله يا عبد الله، إياك أن تقول على الله بغير علم، لا تدعو إلى شيء إلا بعد العلم به، والبصيرة بما قاله الله ورسوله، فلا بد من بصيرة وهي العلم، فعلى طالب العلم وعلى الداعية، أن يتبصر فيما يدعو إليه، وأن ينظر فيما يدعو إليه ودليله، فإن ظهر له الحق وعرفه دعا إلى ذلك، سواء كان ذلك فعلا أو تركا، فيدعو إلى الفعل إذا كان طاعة لله ورسوله، ويدعو إلى ترك ما نهى الله عنه ورسوله على بينة وبصيرة»، قال العلماء رحمهم الله تعالى: «والبصيرة في الدعوة لا تختص بالعلم الشرعي فقط، بل تشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة، فيكون بصيرا بحكم الشرع، وبصيرا بحال المدعو، وبصيرا بالطرق الموصلة لتحقيق الدعوة» والله أعلم.

ومن الأدلة أيضا: قوله ﷺ: (من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه...) الحديث^(١)، والهدى هو الحق المتفق مع الكتاب والسنة، وهذا لا يعرف إلا بالعلم، فإن الجاهل بالأمر لا يدري عن حقيقته أهو من الهدى أو لا، لأن معرفة كون الأمر المدعوه من الهدى من عدمه لا يعرف إلا بمعرفة الشرع، فما وافق الشرع فهو الهدى، وما خالفه فهو الضلال، فمعرفة الهدى من الضلال مفترقة إلى العلم، فدل هذا الحديث على اشتراط العلم، والله أعلم.

ومن الأدلة أيضا: أن الله تعالى قد عاب أهل الكفر والجهل على تحريم ما لم يحرمه، وتشريع ما لم يشرعه، وذلك في آيات كثيرة، كما عاب عليهم تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكما عاب عليهم تحريم ما في بطون بعض الأنعام على الإناث دون الذكور، وكما نعى عليهم قتل أولادهم بغير علم ولا برهان، وغير ذلك مما يعيبه الله تعالى على حال أهل الكفر بأنهم جهال فيما يدعون أقوامهم له، وأن تحريمهم بني على غير برهان ولا حجة، وهذا يفيد ضمنا، بل نصا على اشتراط العلم في الدعوة، فإن التحليل والتحريم والإيجاب المبني على غير برهان هو حال أهل الشرك، وحيث عاب الله تعالى طريقتهم وسفاهتهم في تصرفاتهم دل هذا على أن العلم شرط في الدعوة، وأن الدعوة التي تبنى على غير العلم والهدى لا جرم أن ضلالها سيكون أكثر من هداها إن كان فيها هدى، والله أعلم.

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤) في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، أخرجه أحمد (٣٩٧/٢) والترمذي رقم (٢٦٧٦) في العلم، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو ضلالة، وأبو داود رقم (٤٦٠٩) في السنة، باب لزوم السنة، والموطأ ١ / ٢١٨ في القرآن، باب العمل في الدعاء.

ومن الأدلة أيضا: قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كلها فرع من فروع العلم، فمن لا علم عنده في الدعوة فلن تكون عنده تلك الصفات التي عليها قوام الدعوة إلى الله تعالى، والله أعلم.

ومن الأدلة أيضا: الأدلة الدالة على تحريم القول على الله تعالى بلا علم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ونحو ذلك من النصوص الدالة على منع القول على الله تعالى بلا علم، وقد تقرر في الأصول أن النهي عن الشيء أمر بضده فالنهي عن القول على الله تعالى بلا علم أمر بالعلم في الدين وأن لا يقال على الله تعالى إلا بالعلم والبرهان والحجة، وهذا لا يكون إلا بطلب العلم، فمن دعا إلى الله تعالى بغير علم فله حظ ونصيب وكفل من هذا الذم الكبير في كتاب الله تعالى، وهو متوعد بهذا الوعيد، وعليه: فلا تجوز الدعوة إلى الله تعالى بلا علم، وأي دليل أوضح من هذه الأدلة، والله أعلم.

ومن الأدلة: الإجماع، فقد أجمع أهل العلم رحمهم الله تعالى على أن من شرط الدعوة إلى الله تعالى العلم بما تدعو له، وأنه لا يجوز للعبد أن يدعو الناس على جهل، وهذا أمر متفق عليه بينهم في الجملة، ولا نعلم فيه خلافا بينهم، بل نقل

عنهم رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من يدعو الناس على جهل، إذا علمت هذا وتحققته جيدا، فدونك بعض الفروع الموضحة لهذه القاعدة:

فمنها: أنه لا يجوز للإنسان إرسال رسالة جوال دعوية إلا وهو يعلم صحة مضمونها، فإن مما ابتلي به الناس في هذه الآونة الخيرة كثرة الرسائل الدعوية التي تحمل في مضمونها أحاديث أو أمور ترغب في الخير ولكنه لا يدري عن حقيقتها، ولا يدري أهى صواب أم خطأ، ولا يدري عن الأحاديث التي فيها أهى صحيحة أم ضعيفة، فهذا الصنف من الناس الذي تأتبه هذه الرسائل لا يجوز له شرعا إرسالها لغيره إلا بعد التأكد التام من أنها متفقة مع الشرع، وأنها صحيحة المضمون، ولا يكفي فيها أنها جميلة العبارات رقيقة الألفاظ، لا، بل لا بد من التأكد من صحتها في ذاتها وموافقتها للمتقرر شرعا، وأن الأحاديث التي فيها أحاديث صحيحة، ذلك لأن العبد إنما يرسلها لغيره من باب الدعوة إلى الله تعالى والدعوة مبناها على العلم، فلا دعوة إلا بعلم، فرسائل الجوال المجهولة المصدر والتي يخفى أمرها على الإنسان لا يجوز له الاستعجال في إرسالها إلا بعد التأكد منها بعرضها على أهل العلم العارفين بها فإن أقروها وصححوها فالحمد لله، وإلا فما لها إلا أن تلغى، ويناصح من أرسلها بأنها ليست بصحيحة، وبهذا قد سدنا على أنفسنا بابا كبيرا من الأبواب التي ولجت منه كثير من الخرافات التي لا أساس لها من الصحة، وكم في هذه الرسائل من الأحاديث الضعيفة، بل الموضوعية، فالواجب التثبت منها ومن صحتها قبل إرسالها، لأن المتقرر أن الدعوة مبناها على العلم والبصيرة، لا على التخبط والهوى، والله أعلم.

ومنها: الدعوة إلى الله تعالى بالقصص والحكايات والمنامات، فإنه لا يجوز نقل القصة ولا الحكاية التي فيها نوع تأثير وتخويف إلا بعد التأكد التام من صحتها، وأما نقل الأخبار والروايات التي لا خطام لها ولا زمام فإنه أمر لا يجوز، لأن الدعوة إلى الله تعالى ليس مبناها على التخرص والهوى والظنون الكاذبة، بل مردها إلى العلم والبصيرة، ولا يكفي أنها حكايات تحقق المقصود من اهتداء الناس وتأثرهم، لا، هذا وحده لا يكفي، بل لا بد من العلم بأنها صحيحة، وإلا فتكون من الكذب، ومن المعلوم أن المتقرر في القواعد أن سلامة المقاصد لا يسوغ الوقوع في المخالفات، فالكذب محرم في الشرع وكم من الحكايات التي نسمعها من بعض الدعاة ولكنها عند التحقيق والبحث والنظر لا يكون لها أي نصيب من الصحة، فالدعوة إلى الله تعالى بالقصص والحكايات التي لا صحة لها أمر لا يجوز، لأنه من الكذب، ولأن الدعوة مبناها على العلم بما تدعو إليه، فالواجب الحذر من ذلك، والله تعالى أعلم.

ومنها: لقد نشأت طائفة تقول: لا حرج في الكذب في الحديث إن كان المقصود منها ترغيب الناس في الخير، لأن هذا من الكذب لرسول الله، وليس من الكذب عليه، قلت: وهذا قمة الجهل وغاية الخبل، وأفسد الاستدلال، بل هو فهم فاسد ورأي كاسد، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الكذب كله حرام، وأعظم الكذب وأكبر البهتان الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله ﷺ، وقد قال ﷺ: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)^(١)، وهو من الأحاديث المتواترة عند أهل العلم رحمهم الله تعالى، فلا يجوز الكذب على النبي ﷺ، لثبوت

(١) حديث صحيح متفق عليه، أخرجه البخاري ١/ ١٨٠ في العلم، وأخرجه مسلم رقم (٢١٣٤) في

الأدب، وأبو داود رقم (٤٩٦٥) فيه أيضاً.

النهي عن الكذب كله، وعن النبي ﷺ على وجه الخصوص، فالكذب على الشارع من الكبائر الموبقة ومن عظام الآثام المهلكة، وقد أجمع أهل العلم رحمهم الله تعالى على حرمة الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، حتى وإن غلب على ظن الكاذب أن كذبه تنفع الدين، لا والله لا يجوز هذا الأمر البتة، والمتقرر أن سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، فالكذب في الحديث لا يجوز مطلقاً، فهذه الطائفة التي تكذب في الحديث بهذه النية طائفة ضالة، وليست على الهدى، لأنها تدعو إلى الله تعالى على جهل والمتقرر أن الدعوة مبناها على العلم والبصيرة لا على التخبط والهوى، والله أعلم.

ومنها: من الأمور المنكرة ما تقرر بعض طوائف الضلال من إشغال الناس بالبدع من الأذكار الجماعية والموالد المبتدعة والطقوس التي ينسبونها للشرع، بحجة أننا لو تركنا الناس بلا ذلك لاشتغلوا بالباطل من الشهوات، فنحن نشغلهم بهذه الأمور حتى نقرّبهم إلى الله تعالى، قلت: وهذا كسابقه كله تخبط وهوى، لم يبين على أساس صحيح، ولا على برهان ظاهر، بل هو التخرص والكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، فالبدع كلها محرمة، كما قال النبي ﷺ: (وإياكم ومحدثات الأمور، وكل بدعة ضلالة)^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وقال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(٢)، وقال: (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الآثام مثل آثام من تبعه...)^(٣) الحديث، والبدع كلها من الضلالة، والحق أنه

(١) سبق تحريجه ص ١٤.

(٢) سبق تحريجه ص ١٦.

(٣) سبق تحريجه ص ٤٩.

ليس في الدين بدعة حسنة، والدين كامل، وإشغال الناس بالمشروع فيه الكفاية والهداية والخير، وعليه: فما ذهبت له تلك الطائفة هو في حقيقته دعوة للناس على جهل وهوى، والمتقرر أن الدعوة مبناها على العلم والبصيرة لا على التخبط والهوى والظنون الكاذبة التي لم تبين على علم ولا على هدى، والله أعلم.

ومنها: مجال الإفتاء، فإن الفتوى دين، ومبناها على العلم والبصيرة، ولا يجوز أن يفتي في دين الله تعالى على الجهل، بل لا بد من العلم، أي أن يكون عالماً بما يفتي به، وقد وردت الأدلة الكثيرة الدالة على حرمة القول على الله تعالى بلا علم، بل هو من أكبر الكبائر وأعظم المحرمات، فالفتوى باب من أبواب الدعوة إلى الله تعالى، والدعوة مبناه على العلم والبصيرة لا على التخبط والهوى، والواجب على ولاية الأمر أن يمنعوا من علموه أنه يفتي الناس على جهل، بل منعه أولى وأوجب من منع المكاري الجاهل ومن يغش في البيع، فإن المفتي للناس على الجهل أعظم فساداً وأخطر وأقبح أثراً من هؤلاء وأنت خير بكثير بكثرة الفتاوى التي خولف بها الدليل، لا سيما مع كثرة القنوات الفضائية، وتعدد المفتين فيها، وتنوع رغبات الناس ومقاصدهم في الفتوى، وهل بالله عليك الفتوى بتجوز الحكم بغير ما أنزل الله تعالى مما بنيت على العلم والهدى؟ أو الفتوى بتجوز الطواف حول القبور وزيارتها للتبرك بترابها والاحتفال بموالد الأموات هل هذه الفتاوى بنيت على الدليل من الكتاب والسنة؟ وهل الفتوى بتجوز التبرك بالأحياء التبرك الذاتي أو الفتوى بتجوز بعض الأفعال المنكرة في الشرع كبعض البدع من الأذكار الجماعية والضرب بالطبول ونحوها مما لا يحصى، هل هذه الفتاوى صدرت عن علم بحقيقة الحال؟ وهل الفتوى التي تحيز الحج في غير أشهره بنيت على برهان؟ أو الفتوى التي تحيز التضحية بالأرانب والدجاج، هل بنيت على هدى؟ يا سبحان الله،

ما هذا التخبط وما هذا التخرص، صارت الفتوى في هذه الأزمنة أمر يستأسد عليه العوام والجهال وأنصاف المثقفين ومن هب ودب، والباب فيها مفتوح لكل أحد، ولا أسهل على بعض الناس من أن يقول: - هذا حلال وهذا حرام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والأمر يحتاج إلى وقفة قوية صادقة من ولادة الأمر، وأهل العلم، ولا بد من معاقبة من عرف عنه أنه يفتي الناس على جهل، يا سبحان الله، لو أن أحدا تكلم في أمير من الأمراء أو وزير من الوزراء لأمسك من تلايب رقبته وزج به في الأرض السابعة، وكثير من الجهال يتكلمون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وفي الدين بلا علم ولا برهان فيحللون ما ليس بحلال ويحرمون ما ليس بحرام، ولا يقوم لذلك أحد ولا يتمر لذلك وجه أحد، والله إننا نخاف من العقوبة، نحن في زمن صارت الفتوى فيه من الأمور التي لا سياج عليها ولا حافظ لها، كتاب الصحف يفتون، والأطباء الجهلة يفتون، والعوام يفتون، وكل يفتي، والمستول عن ذلك ولادة الأمر من العلماء والأمراء، ولا يجوز لأحد أن يتدخل في عمل أحد، والفتوى في بلادنا والله الحمد لها جهتها الرسمية التي أقرها ولي الأمر فلا بد ربط الناس بها، وأن يوجه الناس أن لا يسألوا إلا أهل العلم المعروفين بالأمانة والعلم والرسوخ فيه والمهم الذي نريد إثباته هنا هو أن الفتوى باب من أبواب الدعوة إلى الله تعالى، فلا بد فيها من العلم والبصيرة، لأن المتقرر أن الدعوة مبناها على العلم والبصيرة لا على التخبط والهوى، والله أعلم.

ومنها: الدعوة إلى الله تعالى بمجرد التجارب، فإن بعض الناس قد يقع في الأمر المحرم زمنا طويلا، ثم يتوب الله تعالى عليه، ثم يقوم داعية في الناس بنشر تجربته، وتحذير الناس من الوقوع فيها وقع فيه فما حكم هذا؟ أقول: هذا أمر طيب، ولكن لا

يجوز له تجاوز هذا الحد، لأننا نرى من بعض الناس الذي يفعل ذلك قد تجاوز حده، فصار يفتي و صار يوصف بأنه شيخ، و صار مرجعاً لبعض الشباب في أمور دينهم، و صار معتمد عليهم عليه في أمورهم الخاصة، وهو لا نصيب له من العلم، وإنما عنده هذه التجربة، فنقلها للناس لأمر طيب، ولكن بلا تجاوزات شرعية، وعلى هذا الصنف من الناس أن يحرص على طلب العلم عند أهل العلم حتى يجمع بين التجربة والعلم المؤصل على الكتاب والسنة فهذا الصنف الذي عانى من المنكرات دهرًا ثم تاب، إن حرص على طلب العلم المؤصل على الكتاب والسنة فهذا الصنف من أنفع ما يكون للأمة، وأما إن أراد أن يقف عند حدود تجربته ونقلها للناس فنحن نقول له: لا حرج، ولكن لا بد وأن يكون ذلك في حدود هذه التجربة فقط، وأما ما لست له بأهل فلا يجوز لك الولوج فيه، لأن الدعوة مبناه على العلم والبصيرة لا على التخبط والهوى، والله أعلم. والمقصود من ذلك أن يتقرر لديك بآرك الله تعالى فيك هذه القاعدة وأما تتبع الفروع فيطول فالعلم أصل من أصول الدعوة إلى الله تعالى، ولا بد من أن نعيد ونقول: إن العلم المشروط في الدعوة هو أن تكون عالماً بالمسألة التي تدعو لها، ولا نعني بذلك أن يتوقف الإنسان عن الدعوة حتى يلم بالعلم، فإن هذا أمر متعذر، ولكن لا تدعو إلا بما تعلمه، حتى ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً عرفته وتحققته أن تدعوه به، والله أعلم.



القاعدة الرابعة



كل دعوة بنيت على غير إرادة



وجه الله تعالى والدار الآخرة ونفع الناس فهي رد

أقول: اعلم بارك الله تعالى فيك أن الدعوة إلى الله تعالى من أجل العبادات ومن أكبر الطاعات فالداعية إلى الله تعالى يتعبد لله تعالى بهذه الدعوة، وحيث كانت الدعوة عبادة، فلا بد من تطبيق شروط صحة العبادة عليها، وقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن العبادة لا تصح إلا إن كانت خالصة لوجه الله تعالى وتوابع فيها النبي ﷺ، فالإخلاص شرط قبول الدعوة، فلا يجوز للداعية أن يكون لدعوته مقاصد أخرى إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة، فلا يدعو إلا إلى الله تعالى وما يقرب إليه من القول والعمل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فقلوه: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ دليل على أنه لا يريد بدعوته حطاما زائلا ولا عزا ولا جاها ولا متاعا فانيا من متاع الحياة الدنيا، ودليل على أنه دعوته محصورة فيما يكون مقربا لله تعالى من الأقوال والأعمال وهذا هو دأب الأنبياء جميعا، فإنهم يقولونها بأعلى أصواتهم، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ أَعْلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، فالداعية إلى الله تعالى لا ينبغي أن تنطوي نفسه في دعوته على مقاصد خارجة عن ذلك، أي عن إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، فلا يرجو بدعوته مناصب ولا مال ولا شيئا من الأمور التافهة الدنيوية، فإن

الداعية أسمى وأرفع وأعلى من أن ينحط إلى تلك المقاصد التافهة السخيفة القذرة، وإن من أعظم الفساد على الدعوة إلى الله تعالى أن يدخل في قلوبهم أمر من أمور الدنيا على حساب دعوتهم، فالدعوة عبادة، والعبادة لا تصح ولا تقبل إلا إن كانت خالصة لوجه الله تعالى وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، والدعوة من الدين، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...) ^(١)، فما يقال في الهجرة يقال في الدعوة وفي غيرها من أمور الدين، فاحذر أخي الداعية بارك الله تعالى فيك، واحفظ قلبك من السعي وراء المراتب النفسية الخفية والشهوات الباطنية، فإن من الدعاة من سخر دعوته لتحقيق ما يريد هو، لا ما يريده الشرع وما يريده هواه هو لا ما يريده مولاه جل وعلا، فصارت الدعوة عند بعض الدعاة - وهم قلة - سلماً يتوصل به إلى مقاصده ومراداته فقط، من منصب أو مال أو جاه أو مدح أو ثناء من الناس، ونعوذ بالله تعالى من هذه التوافه، نعم، نحن لا نزكي أنفسنا من ذلك، ولكننا لا بد وأن نحذر منها إخواننا الدعاة، حتى وإن كان فينا شوب منها.

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٧/١ في بدء الوحي، وفي الإيوان، باب: ما جاء: (أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى)، وفي العتق، ورواه مسلم رقم (١٩٠٧) في الإمارة، باب قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنية)، وأبوداود رقم (٢٢٠١) في الطلاق، والترمذي (١٦٤٧) في فضائل الجهاد، والنسائي في الطهارة.

وقولنا في القاعدة: «فهي رد» أي أنها لا تقبل عند الله تعالى لتخلف شرط قبولها، وهو الإخلاص، وليت الأمر يقف عند ردها فقط، بل الأمر أكبر وأخطر من ذلك، وهو أن صاحب هذه الدعوة ينطبق عليه ما ورد في الأدلة من الوعيد الشديد على من أوقع العبادة على وجه التسميع والرياء، والوعيد الشديد لمن لم يرد بعمله إلا الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، فالدعوة لا بد وأن تكون صافية من كل هذه الشوائب القذرة والمقاصد العفنة الممتنة، وذلك لا يكون إلا بتحقيق الإخلاص فيها، فلا يكون قصد الداعية إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة، ونفع الناس بالمقدور عليه من العلم والمال والجاه، ودلالة الناس على الخير ومحبة الهدى لهم، والتعاون معهم على البر والتقوى، ودلالاتهم على ما فيه نفعهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، مع الصبر الجميل والرحمة الكاملة والشفقة الإيمانية النابعة من أخوة الدين والإيمان، والله تعالى لا يخفى عليه النوايا ولا يخفى عليه شيء مما تكنه الصدور وتوسوس به النفوس فالناس ما لهم منك إلا الظاهر، وأما الله تعالى فهو الذي يعلم السر وأخفى، فالحذر الحذر من أن يعلم الله تعالى من قلبك في دعوتك مطلوباً غير وجهه والدار الآخرة، والله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة، وعلى ذلك عدة فروع:

منها: مما يخاف على الداعية منه بساط الأمراء، فإن من وطئ هذا البساط فلا بد وأن تصيبه الفتنة لا سيما مع قوة الأمير وضعف جانب الداعية، وكم من المجاملات التي حصلت من العالم للأمير خوفاً منه وطمعاً فيها عنده، فمن وقف عند أبواب

السلطان افتتن، ولذلك فقد كان المنهج العام عند سلف الأمة وأئمتها هو الحذر من الدخول على السلاطين وأمراء الزمان إلا ناصحاً أو شافعاً أو موصلاً حاجة الغير له ممن لا يستطيع إيصال حاجته للسلطان، وأما التبسط معهم والسمير معهم فهذا لا يعرف عن السلف في الجملة، وإن كان بعض آحاد السلف قد يثبت عنه ذلك، ولكن السمة العامة لهم رحمهم الله تعالى هو ما قلته لك، من الحذر الشديد من الوقوف عند أبواب السلاطين، ولا يعني هذا أن نقلل من هبة سلطان الله تعالى في الأرض أو الحط من رتبته التي جعلها الله تعالى له، أو التأليب على الحاكم أو التقليل من أهميته، لا والله العظيم، وألف لا، ومن فهم من طريقة أهل السنة هذا الأمر فهو كالحمار في فهمه، بل هم قرروا هذا من باب سد الذرائع التي لا تخفى على أحد، والتي يعرفها الجميع، فإن العالم إن استمرأ الدخول على الحكام والتبسط معهم وقبل عطاياهم فقد يضعف عن الإنكار عليهم أو التعاون معهم على البر والتقوى في بيان الحق لهم وتصحيح الخطأ الذي يقعون فيه، فيكون خطؤهم صواباً، وظلمهم عدلاً، وبغيهم على عباد الله من جملة حقوقهم، بل ولربما زين لهم في بعض الأحيان ما يقومون به من الظلم والجور والبغي في الأرض بغير الحق، وهذا منهج قرره أهل العلم رحمهم الله تعالى، ولكن لا بد وأن ننبه على أن احترام الحكام وإنزالهم منزلتهم وتأليف القلوب عليهم وأمر الناس بطاعتهم أمر حتم على أهل العلم، وهذا هو منهج الوسطية، فنحن نأمر الناس بطاعة الولاة، ونؤلف عليهم قلوب العامة، ولا نرض طرفة عين أن يمس الحكام ولو بينت شفة، ولا أن ينكر عليه علانية، ونحرم التحريم القطعي الخروج على الحكام، ونمنع المنع التام أن

يتجرأ أحد على سلطان الله تعالى في الأرض، ونأمر الناس بالدعاء للحكام بالصلاح والمعافاة، ولكن وفي الجانب المقابل لا ينبغي للعالم أن يدخل عليهم دخول رغبة فيما عندهم، فهذا أمر وهذا أمر، وأهل السنة جمعوا بين الأمرين جمعاً لا تعارض فيه ولا اضطراب، فعملوا بالأول وحققوه التحقيق الكامل، وعملوا بالأمر الثاني وحققوه التحقيق الكامل، فلم يخلوا لا بهذا ولا بهذا، وهذا هو منهج الوسطية المنبثق من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [البقرة: ١٤٣].

واعلم أخي الداعية أن هذا المنهج المقرر عند أهل السنة في حذرهم الشديد من الدخول على الحكام دخول الرغبة إنما قرره حماية للمقاصد من الخلل، فإن الداعية لا بد وأن يكون مخلصاً في دعوته، ومع الدخول على الحكام وابتغاء رضاهم عنه بأي طريق ربما تنقلب النوايا في الدعوة - والعياذ بالله - فيحصل الخلل في تحقيق الإخلاص في الدعوة، فلا تكون محققة المراد منها ولا تكون مؤثرة في الناس فإن الإخلاص هو بركة الدعوة، فالدعوة بلا إخلاص لا خير فيها، والله أعلم.

ومنها: التأليف في العلم الشرعي من أعظم أبواب الدعوة إلى الله تعالى، ولا جرم أن يبيع الكتب المؤلفة في العلم الشرعي أمر لا حرج فيه، ولكن الذي ينبغي مراعاته هنا أن لا يكون قصد الداعية مجرد الكسب المادي في التأليف، فإنه من الدعوة، والدعوة لا يقبلها الله تعالى إلا بالإخلاص، بل ليكن همه الأول وجه الله تعالى بتأليفه وتقييد المسائل العلمية، ونفع الناس بالعلم، وتصحيح سيرهم إلى الله تعالى، وهنا تبرز مسألة بركة التأليف، فإن صلاح النية واستقامة النية في تأليفها له الدور

الكبير في انتفاع الناس بها، فكم من الكتب التي باتت رهينة رفوف المكتبات لا يلتفت الناس لها لأن الخلل أصلاً كان في نية تأليفها، فلا يجوز للداعية إلى الله تعالى بتأليف الكتب النافعة أن يكون أول اهتماماته بتأليفه مقدار المكسب المادي، فهذا أمر نربأ بالدعاة إلى الله تعالى عنه.

وعليه: فالمغالاة في الكتب ورفع أسعارها على الطلاب مراعاة للمكسب المادي من ورائها أمر لا ينبغي للداعية إلى الله تعالى فالعلم مبذول للجميع، وكلما كان وصوله للناس بطريق لا كلفة فيه كلما كان النفع به أعظم وأعم وكلما كان الأجر فيه من الله تعالى أكبر وأكثر، وهناك ملمح آخر في هذه المسألة أيضاً، وهو: أنه لا ينبغي للمؤلف أن يستكثر من التأليف للمدح والثناء عليه بكثرة التأليف، فهذا أمر يحبط عمله لأنه من الرياء والتسميع، بل على الداعية إلى الله تعالى بالتأليف أن لا يقصد إلا نفع الناس بما يكتب راجياً الأجر والثوبة من الله تعالى، فطلب المدح والثناء بالتكثر من التأليف وإرادة المال بالقصد الأول من الأمور التي لا تجوز في الدعوة إلى الله تعالى، لأنها عبادة، والعبادات لا يقبلها الله تعالى إلا بالإخلاص له جل وعلا، والأمر يحتاج إلى محاسبة النفس وكثرة الدعاء وقراءة سير السلف الصالح في التعامل مع هذه المداخل الشيطانية على النفس والعقل، والله المستعان في أول الأمر وآخره، وهو أعلى وأعلم.

ومنها: إن تعليم العلم الشرعي من الأمور الواجبة على العالم، ويجب عليه بذله للناس مجاناً من غير معاوضة، فلا يجوز للعالم أن يوقف التعليم على أخذ المقابل من الأجرة، فإن هذا الأمر لا يحل في الشرع، بل هو من كتم العلم المتوعد عليه بما أنت تعرفه، وأخذ الأجرة على أعمال العبادة لا يجوز كما في حديث: (واتخذ مؤذناً لا

يأخذ على أذانه أجراً^(١)، ولكن إن أعطاه ولي الأمر على تعليمه شيئاً من المال من غير اشتراط فلا حرج، كالرواتب التي يأخذها المدرسون للعلوم الشرعية، أو العطايا من ولي الأمر على القيام بالدورات الشرعية، هذا أمر لا حرج، والتعفف عنه مع الاستغناء عنه أحسن وأولى وهذا لا يدخل في باب الإجارة، بل هو من باب الرزق من بيت المال على الأعمال الدينية، فما يأخذه أئمة المساجد والقضاة والمؤذنون والمعلمون وغيرهم ممن له منصب ديني ليس من باب الإجارة بل من باب الرزق، وهو جائز عند أهل العلم رحمهم الله تعالى، والمهم أن النظر في التعليم إلى المال فقط مما يقتل النية الحسنة ويفسد رونق العلم ويذهب الحياء من القلوب ومما يسلب العامة على العالم بالقدح فيه والتثريب عليه، وهذا أمر معروف عند العامة، والله المستعان.

ومنها: لا نجاة للعالم إن كان ذا منصب إلا أن يسخر منصبه لعلمه لا العكس، فإن العكس هلكة وأي هلكة، أن يسخر العلم للمنصب، هذا والله هو الطامة الكبرى، وقد ابتلت الأمة الإسلامية بكثير من هذه النماذج التافهة، والتي جعلت علمها مسخراً لمناصبها، فلا يقول من العلم إلا ما يخدم منصبه، وأما ما يتعارض مع بقائه في منصبه فلا تراه يتعرض له في صدر ولا ورد، بل ولربما حمله حب المنصب على الكذب في الدين والمجاملات على حساب الحق بسبب حب المنصب، فالمنصب للعالم فتنة لا ينجو منها إلا من أراد الله تعالى به خيراً، والسلامة منه لا يعدلها شيء،

(١) حديث صحيح رواه مسلم رقم (٤٦٨) في الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام،

وأبو داود رقم (٥٣١) في الصلاة، باب أخذ الأجر على التأذين والنسائي ٢ / ٢٣ في الأذان، باب

اتخاذ المؤذن الذي لا يأخذ على أذانه أجراً.

وأعظم المناصب وأكبر الفضائل هو منصب الدعوة والتعليم والنصح والإرشاد، فليست المناصب هي التي تشرف العالم، بل شرف العالم والداعية إلى الله تعالى إنما هو في علمه الذي يحمله بين جنبيه، فالعز بالعلم لا بالمنصب، والعز بالطاعة وقول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا في المجاملات والمداهنات التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، والمناصب هي التي تشرف بالعلماء لا العكس، والكراسي الدوارة لها الشرف هي أن يجلس عليها العالم، لا العكس، فلا يزال العالم في منعة وسلامة ما كان حب العلم والتعليم ونفع الناس وقصد رضا الرب جل وعلا هو المقدم في قلبه، وهو المحبوب الأول على كل شيء، وهو المقصود الأول في سيره إلى الله تعالى، وأما إن تحقق العكس من ذلك فناهيك عن الفساد الذي سيكون في البلاد والعباد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فالمنصب أمانة كبيرة وحالة ثقيلة وفتنة خطيرة لا يسلم منها إلا الموفقون ممن أراد الله تعالى بهم خيرا، وأعني بها المناصب الدينية، فإن الفخر بالعلم والتباهي به أعظم وأكبر من الفخر والتباهي بالمال والسلطان والجاه، فمن سلمه الله تعالى منه فقد أراد الله تعالى به خيرا، ولذلك فقد جعل الله تعالى للمنصب والتمكين في الأرض واجبات لا بد من القيام بها لمن أراد السلامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، فإقام الصلاة قد يسهل، وإيتاء الزكاة قد يسهل ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يثقل على كثير من أهل المناصب، لا سيما إن كان المنكر صدر من بعض عليّة القوم حسبما ومالا وجاها وملكا، فإن الإنكار عليهم قد يهدد المنصب بالزوال وقليل من يخاطر

بمنصبه، حتى ولو كان من أهل العلم، إلا النوادر من الناس، والله نعم المولى ونعم النصير، والملك والعز بيده جل وعلا، فمن أعزه الله تعالى فلا مهين له، ومن أهانه وأذله فلا معز له فالعز بيده سبحانه، لا مالك له إلا هو، فليس العز في منصب ولا مال ولا حسب ولا جاه ولا ملك ولا سلطان ولا ولد ولا عشيرة ولا قوة ولا سلاح، وإنما العز بيده جل وعلا، فمن أراد له العزة فوالله العظيم لو يجتمع من بأقطارها على إذلاله لما قدروا، ومن أراد له الذلة والمهانة فوالله العظيم لو يجتمع من بأقطارها على إيصال العزة له لما قدروا، والله له القوة الكاملة والقدرة النافذة والمشئة الشاملة، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو أعلى وأعلم.

والمهم الذي نريد إثباته هنا هو: أن الدعوة من العبادات التي لا تقبل إلا بالإخلاص لله تعالى، فعلى الداعية إلى الله تعالى محاسبة نفسه دائماً، عسى الله تعالى أن ينجيننا من حظوظ نفوسنا، ونحن لا نزكي أنفسنا، لا والله، بل نحن واقعون في بعض ذلك، ولكن على العبد أن يحذر نفسه وإخوانه من هذه المزالق الشيطانية والمداخل الإبليلية، ومع المحاسبة والتوبة والتذكير والتعاون على البر والتقوى نصل بإذن الله تعالى إلى بر النجاة والسلامة، والله أعلى وأعلم.



القاعدة الخامسة
بالصبر واليقين
تنال الإمامة في الدين

أقول: هذا أمر معلوم من الدين عند أهل البصيرة بالضرورة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا يُوَفُّونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، قال قتادة وسفيان: «لما صبروا عن الدنيا: وكذلك قال الحسن بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقْتَدَى به حتى يتحامي عن الدنيا. قال وكيع: قال سفيان: لا بد للدين من العلم، كما لا بد للجسد من الخبز»، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيهِ وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر».

فهم أئمة يقتدى بهم في الخير لما اتبعوا الشرع باطنا وظاهرا وصبروا على المتابعة وأذى الخلق في سبيل دعوتهم، وجاهدوا في الله تعالى حق جهاده، نسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، فهما صفتان لا تنال الإمامة في الدين إلا بهما، أولهما: اليقين وهو رسوخ العلم في القلب، وتقرره فيه التقرر الكامل بحيث لا يخالطه ريب ولا شك ولا شبهة ولا شهوة ولا مغالطة، وهذا لا يكون إلا إن كان العلم دخل للقلب عن طريقه الصحيح، فالعلم الصحيح هو الذي يوجب طمأنينة القلب

وراحة البال ويقين الروح بصحته، فإن العلم الشرعي المؤصل على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة نوع من ذكر الله تعالى، فالعلم من ذكر الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالعلم الصحيح هو الذي يورث اليقين في القلوب، فأهل هذه القلوب آمنوا بما يجب الإيمان به شرعا كالإيمان بالله تعالى وبملائكته ورسوله وكتبه وباليوم الآخر وبالقدر آمنوا بذلك إيمانا يقينيا خاليا من الزلل والخلل، بل هو راسخ في القلوب أعظم من رسوخ الجبال الرواسي في الأرض، وآمنوا يقينا بموعد الله تعالى لهم بالتمكين والنصر وتيقنوا أنه لا فلاح لهم ولا سعادة ولا نجاة إلا بمتابعة محمد ﷺ باطنا وظاهرا في الأقوال والأعمال والاعتقادات وتيقنوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الخير كله والبر كله وأنه لا طريق للجنة إلا في الأخذ به، كل ذلك قد آمنوا به الإيمان اليقيني القطعي، وآمنوا بما أخبرت به الرسل عن ربها بما أعدّه تعالى لأهل طاعته من أصناف النعيم وألوان الثواب والخير، وما أعدّه لأهل معصيته من العذاب الأليم والنكال الكبير، فهم لا يأخذون العلم إلا من لكتاب والسنة، أي من الأدلة المفيدة لليقين والقطع فلا يبنون علمهم على عقل ولا على رأي ولا على شبهة ولا شهوة، فأول درجات الإمامة في الدين صحة العلم، رسوخه في القلب.

وبناء عليه: فأهل البدع على مختلف أصنافهم وتنوع بدعتهم ليسوا بأئمة في الدين، لأن العلم الذي معهم لم يبين على الدليل والهدى، وإنما بني على الخرافة والهوى، بل إن واحد منهم يشك فيما معه من العلم مما حصله من تلك القواعد المنطقية الفاسدة نقلا عقلا وأنت تعرف ما نقله أهل العلم عن الغزالي والجويني والرازي والشهرستاني

وغيرهم ممن بلغ في علم المنطق المبلغ الكبير، فكيف كانت حالهم مع تلك العلوم التي أفنوا فيها حياتهم، وقطعوا في تحصيلها زهرة أعمارهم؟ كيف كانت حالهم معها؟ لا جرم أنهم كانوا في شك عظيم مما يحملونه من العلم بين جنات صدورهم، بل قال أهل العلم: أكثر الناس شكا عند الموت هم أهل الكلام المذموم، أي الذين تعلموا العقيدة على مذاهب الفلاسفة، فأين اليقين من هؤلاء المساكين، فلا يقين إلا بالعلم الصحيح المتفق مع الكتاب والسنة ويكون على فهم سلف الأمة، فأهل الإمامة في الدين هم أهل العلم الصحيح، المبني على الأدلة المفيدة لليقين، فاليقين أمر كبير لا يستطيع القلم الحسير أن يستجمع أطرافه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۖ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق ويقتضيه علم الذي تكلم به سبحانه وحكمته فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به فعروقه العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص وفروعها الأعمال وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل المرضي فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به

والاعتقاد مطابق لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله صلوات الله وسلامه عليهم والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدى والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض مالها من قرار ومنها أن الشجرة لا تبقى حية إلا بهادة تسقيها وتنميتها فإذا انقطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعمل النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكير والتفكير على التذكر وإلا أوشك أن تيبس»، وقال رحمه الله تعالى: «فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن فإن سكون القلب وطمأننته من يقينه واضطرابه وقلقه من شكه والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به»، وقال رحمه الله تعالى: «وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين».

فاليقين هو العاصم بإذن الله تعالى من الشبهات، كما أن الصبر هو العاصم بإذن الله تعالى من الشهوات، كما أفاده ابن تيمية رحمه الله تعالى في الاقتضاء، واليقين لا يكون في القلب إلا بعد الجهد والمجاهدة والصبر والمثابرة.

واليقين نفسه مراتب ثلاث: عين اليقين وعلم اليقين وحق اليقين. وأضرب لك مثلاً: لو أخبرك الجمع الغفير أن في هذا الوادي ماء، فإنه سيتقرر في قلبك صحة كلامهم، ويكون عندك علم اليقين، أي علماً يقينياً بأن في هذا الوادي ماء ولكن هل يقينك هذا سيكون كما لو رأيت أنت بعينك هذا الماء؟

والجواب، بالطبع لا، بل سيرتفع اليقين عندك، وهذا هو عين اليقين، وكيف سيكون يقينك إن شربت منه؟ لا جرم أنه سيكون أعلى وأرفع، فالأولى علم اليقين، والثانية عين اليقين والثالثة حق اليقين، وقد قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥٦﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]، فاعلم بأن الجنة والنار موجودة، يقال له: علم اليقين، ورؤيتهما يوم القيامة يقال لها: عين اليقين، ودخولهما والتنعم بنعيم هذه والتعذيب بتلك يقال له: حق اليقين، وأضرب لك مثالا آخر: وهو أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مؤمنا بالإيمان القطعي الجازم بأن الله تعالى يحيي الموتى، ولا جرم أنه لم يكن شاكاً في سؤاله لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، بل نحن أولى بالشك من إبراهيم، لكنه لم يكن شاكاً أصلاً، ولكن العلم بأن الله تعالى يحيي الموتى كان عند إبراهيم عليه السلام علم اليقين فقط وأراد من ربه تعالى أن يريه ذلك حتى يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

ونحن نعلم ونتيقن وجود البلد الفلانية على وجه الأرض، ولكن سيزداد يقيننا بوجودها فيما لو رأيناها عياناً بأبصارنا، إذًا: فاليقين في ذاته يتفاوت، فاليقين الذي كان عند أبي بكر رضي الله عنه ليس كاليقين الذي في قلب فلان وفلان، ولذلك وزن إيمانه بإيمان الأمة، لعظمة اليقين الذي وقر في قلبه رضي الله عنه، وهذا اليقين له بواعث كثيرة:

منها: صحة الدليل الذي به تحصل المعلومة في القلب، وقد قلت لك سابقاً أن العلم لا يكون مثمراً لليقين في القلب إلا إن كان عن طريق الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

ومنها: عدم معارضته بشبهة أو شهوة، فإن معارضة العلم الصحيح زيغ، والزيغ يورث الزيغ، والزيغ يطفئ نور اليقين من القلوب.

ومنها: تعويد النفس وأمرها وإلزامها بالرضوخ والتسليم للنصوص الصحيحة الصريحة.

ومنها: تصديق العلم بالعمل، فإن العمل بالعلم من مورثات اليقين في القلب.

ومنها: تصفية القلوب من الشوائب الفاسدة، والتي تكدر صفو مشرب العلم.

ومنها: كمال التعرف على الله تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته.

ومنها: التأمل والتفكر في آيات الله تعالى الكونية والشرعية.

ومنها: السعي الحثيث في زيادة الإيمان في القلب وذلك بالحرص على تحصيل

أسباب زيادته المقررة بالأدلة، فإن زيادة الإيمان موجبة لزيادة اليقين، واليقين مورث لكمال الثبات على الحق والهدى.

ومنها: قراءة سير السلف الصالح.

ومنها: كثرة الدعاء به.

ومنها: إقفال سمع الرأس والقلب عن سماع كلام أهل الباطل الذي يراد به

التشكيك في الحق وإثارة الشبه والشكوك في قلوب أهل الحق، فإن من فتح قلبه لهذه الأمور فلن يستقر في قلبه أمر.

ومنها: عدم الخوض والجدال في الأمور المفصولة بالدليل، فإن الجدل العقيم أو

الجدل بالباطل أو الجدل في الحق بعدما تبين يكدر صفو اليقين من القلب، كما هو

معلوم، والله الموفق والهادي.

وإذا تحقق اليقين في القلب فاعلم رحمك الله تعالى أن له ثمرات جليلة تفوق الحصر، بها تحصل سعادة الدنيا والآخرة، فمن هذه الثمرات المباركة لليقين: كمال الثقة بالله تعالى.

ومنها: أن اليقين إذا وصل إلى قلب الإنسان؛ امتلأ قلبه نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه أصداد ذلك من الشكوك والريب والشبهات التي تقلقه فيكون القلب مستريحاً مطمئناً، فيرتفع عنه السخط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب، فيمتلأ قلبه محبة لله، وخوفاً منه، ورضاً به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها، كما قال ابن القيم رحمته الله.

ومنها: الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة، ومعلوم أن الفلاح هو تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ولهذا قال الله عز وجل عن المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥]، وقد جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه -مرفوعاً- فيما أخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان والبخاري في الأدب المفرد- قال: (سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْمُعَافَةَ فَمَا أُوتِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ)، قال ابن القيم رحمته الله في زاد المعاد: «لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه».

ومنها: أنه يورثه الزهد في الدنيا وقصر الأمل فلا تتعلق نفسه بها، ولا يتشبث ببطامها، وإنما يكون زاهداً فيها؛ لأنه يعلم أنها ليست موطناً له، ولأنه يعلم أنها دار

ابتلاء، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ثم بعد ذلك يجتاز ويعبر إلى دار المقام، فهو بحاجة إلى أن يشمر إليها، وأن يعمل لها.

ومنها: الانتفاع بالآيات والبراهين الدالة على صدق الرسل، فإن اليقين يورث التحقق والانتفاع بتلك الآيات الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، فأهل اليقين هم أهل الانتفاع بالآيات الكونية.

ومنها: الصبر، فإن من لا يقين له فلا صبر له، والصبر يتفاوت في القلب على حسب تفاوت اليقين في القلوب، فأعظمنا صبرا، هو أعظمنا يقينا، وكلما ترقى العبد في مراتب اليقين كلما ترقى في مراتب الصبر، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، أي أنه لا يمكنك أن تصبر إلا بأن تتيقن بأن وعد الله حق، فأعطاه هنا مفتاح الصبر وهو اليقين، وأخبره عن حال الذين لا يوقنون بأن عدم صبرهم واستخفافهم إنما هو بسبب انعدام اليقين من قلوبهم.

ومنها: الرضا بالقضاء، فإن القضاء إن نزل على قلوب قد اطمأنت باليقين فإنه لا يضرها.

ومنها: انقلاب المحن إلى منحة، فإن من أعظم ما يُعِدُّ العبد للبلاء هو تصحيح اليقين في القلب، فإن أهل اليقين لا يتبرمون من كثرة البلاء، بل يستلذون به كما يستلذ الأكل بما يحبه من الطعام، نعم، هم لا يتمنونه أبدا، ولكنه إن نزل بهم، فإنهم يعلمون أنه من الله تعالى فترضى قلوبهم عن ربهم ويعلمون أنه مما يكفر به عنهم فيستلذون به، ويحمدون ربهم عليه ويشكرونه على أن ألهمهم الصبر عليه والرضا به.

ومنها: كمال التوكل على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والحق هنا يراد به اليقين.

ومنها: أنه من أكبر البواعث على العمل، فإن تخلف العمل يكون بسبب تخلف اليقين أو ضعف اليقين، فكلما قوي اليقين قوي العمل.

ومنها: راحة النفس وطمأنينة القلب فيما يفوت من حظوظ الدنيا، فإنه متيقن أن الله تعالى عوض عن كل ما يفوت، فما عند الله تعالى خير وأبقى.

ومنها: صغر الدنيا بأسرها في عينيه، فلا يراها شيئا أصلا، لأنه موقن بالآخرة وبها فيها من النعيم المقيم والراحة الأبدية واللذة الكاملة.

ومنها: أنه يحمل صاحبه على مباشرة الأهوال وركوب الأخطار في سبيل رضا الرب تعالى، وهو يأمر بالإقدام دائما، فهل يدخل أهل الجهاد في ساحات الوغى والقتال إلا باليقين في موعود الله تعالى لهم بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فاليقين يحمل النفس على المخاطرة وعدم التردد والإقدام على الأمر الكبير الخطير طلبا لرضا الرب جل وعلا.

ومنها: الإمامة في الدين كما تقرره قاعدتنا التي نحن بصدد شرحها.

ومنها: أنه يحمل صاحبه على الجد في طاعة الله عز وجل والتشمير والمسارة والمسابقة في الخيرات.

ومنها: الثبات على الحق الذي تيقنه، فلا يتراجع عنه ولا يستسلم دونه، حتى لو عرض للقتل والتعذيب.

ومنها: طرد اليأس من القلب، فأهل اليقين لا يعرفون اليأس لكمال ثقتهم في ربهم وكمال توكلهم عليه وكمال عزمهم في تحصيل المطلوب الشرعي.

ومنها: مضاعفة الأجور وعظم الثواب وارتفاع الدرجة عند الله تعالى.

فإن الأعمال وإن تماثلت صورها في الظاهر إلا بينها من التفاوت في الآثار كما بين السماء والأرض وذلك بسبب التفاوت في الإخلاص واليقين، فهذه جمل من ثمرات اليقين وقد استفدتها من موسوعة البحوث والمقالات الإسلامية وهذا مأخوذ بمعناه من مقال للشيخ خالد السبت وفقه الله تعالى لكل خير، وجزى الله القائمين عليها خير الجزاء، والمهم أن ثمرات اليقين كثيرة، ولكن ما ذكرناه هو أهمها، واعلم رحمك الله تعالى أن اليقين كما أن له بواعث وثمرات فكذلك له ما يفسده في القلوب، ومفسدات اليقين كثيرة:

فمنها: الخطأ في سلوك طريق العلم الصحيح.

ومنها: بناء قاعدة العلم على الظنون والأوهام.

ومنها: معارضة الوحيين بالعقول والقواعد الفاسدة.

ومنها: التشكيك في كل الأمور وجعل الشك في العلم طريقاً للعلم، كما هو حال أهل الكلام الفاسد.

ومنها: تكديره باستماع الشبه.

ومنها: كثرة الجدل في الحق، فهو باب كبير من أبواب فساد اليقين.

ومنها: تكدير صفو الإيمان بالذنوب والمعاصي.

ومنها: تقديم رضا المخلوق على رضا الخالق.

ومنها: تطلع القلب لغير الله تعالى وتعليق القلب بغيره جل وعلا.

ومنها: سماع كلام المخدلين، والمثبطين الذين يثبطون عزائم المؤمنين ويوهنونهم، ويحثونهم على القعود عن التزام صراط الله عز وجلّ المستقيم، فهؤلاء الذين قلّ

يقينهم إذا استمع العبد منهم؛ فربما سببوا له شيئاً من ضعف اليقين، حين ذلك يورثه قلقاً، وانزعاجاً، واضطراباً وهذا يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة، وثبات واستقرار.

ومنها: الركون إلى الدنيا وشهواتها وملذاتها.

ومنها: فتح القلب للوساوس الشيطانية، والتي هي أصل البلاء.

ومنها: ضعف التبعّد لله تعالى .

ومنها: ضعف التفكير في آيات الله تعالى الكونية والشرعية.

ومنها: صحبة أهل الغفلة عن الله تعالى.

ومنها: الخوف والخشية من غير الله تعالى.

وبالجملة فاليقين أمر رباني يقذفه الله تعالى في قلب من شاء من عباده، فاحرص على تحقيق أسبابه وتوكل على الله تعالى، وإن من أعظم صفات الداعية أن يكون متصفاً بهذه الصفة الطيبة العريقة الكبيرة، فإنه لا إمامة في الدين إلا باليقين والصبر فهذا بالنسبة للصفة الأولى، وهي اليقين.

وأما الصفة الثانية من صفات الإمامة: فهي الصبر والصبر هو حبس النفس على تحمل الأمر الشاق من غير ملل ولا ضجر، والصبر من الدين كالرأس من الجسد، فلا تقوم مصالح العبد في دينه ودنياه إلا بالصبر، لاسيما وأن الله تعالى قد أخبرنا أنه قد خلق الإنسان في كبد، أي في مكابدة للأمور ومجاهدة في تحصيلها، فتغلبه تارة ويغلبها تارة، فليس من الأمور شيء يأتي باليسر في الأعم الأغلب، بل لا بد من التحمل والصبر والحلم في أغلب الأمور، ومن لا صبر له فهو مسكين، وسيتعبد

كثيرا كثيرا في هذه الحياة، فلا بد من تربية النفس على الصبر والتحمل والمجاهدة، وقد قسم أهل العلم رحمهم الله تعالى الصبر إلى ثلاثة أقسام:

صبر على طاعة الله تعالى والمحافظة عليها والقيام بها خير القيام، وصبر عن محارم الله تعالى وحبس النفس عنها وهجرانها وكبح جماح الشهوة عن ارتكابها، وصبر على الأقدار المؤلمة، وكلها مهمة للعبد، فأما الأول فبه رضا الرحمن ودخول الجنان ورفعة الدرجات فيها، وأما الثاني: فبه الفرار من غضب الديان وأليم عذابه وشديد عقابه، والصبر على الأقدار المؤلمة يوجب له الرضا بالقضاء وعدم التسخط، وكلها من مهمات المسلم على وجه العموم والداعية على وجه الخصوص، فإن من لا صبر له من الدعاة فإنه يوشك أن يترك الدعوة أو يكثر فيها تشكيه المذهب لأجره، ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر وهو أمر له ولأئمة من بعده، لاسيما أهل الدعوة، لأنهم سلكوا مسلكه في التعليم والدعوة، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأخبر عن عظيم منزلة الصبر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وأخبر أنه معهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأمر نبيه بتبشيرهم إن احتسبوا فقال: ﴿وَنَبِّئِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وأخبر أنه يحبهم فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وامتدح الله تعالى بعض عباده بالصبر فقال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ وَأَبَّ﴾ [ص: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَاسْمِعْ لِي وَادْرِسْ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

وأخبر عن الصبر أنه من عزم الأمور، فقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وكان الصبر من أعظم ما يؤمر به النبي ﷺ، بل كان هو سلوة النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا لَا رَجْعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، وأمره بالصبر الجميل فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، والصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه إلا لله تعالى، وأخبره تعالى أن صبره هذا إنما هو من أجل ربه وتبليغ دعوته، فقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، والمهم أن منزلة الصبر من المنازل الدينية الكبيرة العريقة التي لا يقدر العبد على مكابدة أمور الدعوة ولا غيرها إلا بها، فإن قلة الصبر مذهب للأجر ومكثرة للشكوى وتؤول إلى انقطاع الداعية عن الدعوة وذلك أن الداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يبتلى، ولا بد وأن يشدد عليه في طريق الدعوة فليس طريق الدعوة مفروشا في الأعم الأغلب بالورود والرياحين والراحة، بل هو طريق لا بد وأن يواجهه الداعية فيه ما واجهه الدعاة من قبله من الأنبياء والرسل، فلا بد وأن يواجهه تارة بالتكذيب وتارة باتهام الذات والنيات، وتارة بالتشكيك في مصداقية دعوته، وأنه لا يريد بها إلا كيت وكيت، كما قال الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا:

﴿أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، أي لا يراد به إلا أمرا من الأمور، وقد اتهم سيد الدعاة عليه السلام بالكذب ورمي بالبهتان العظيم من أنه كاهن وشاعر ومجنون، وطرد وأوذي هو وأصحابه وعذبوا في الله تعالى أشد العذاب، فمنهم من قتل ومنهم من سحب على الحجارة المحمّة ومنهم من جلد بالسياط ومنهم من ماتت أمه وأبوه أمام عينه، إلى صور كثيرة يصعب حصرها، فلا مخرج من هذه البلايا الكبيرة إلا بالصبر الجميل، فالصبر أصل الدعوة وكم من داعية فصل من وظيفته وسجن وعذب وابتل في عرضه وأهله، ولكن بالصبر تنال الإمامة ويتحقق الفرج، فالصبر الصبر معاشر الدعاة، واعلموا أن العاقبة للمتقين، والفرج قريب، والنصر لا يكون إلا مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وإذا اشتدت ظلمة الليل اقترب الفجر، وإن قوي شد الحبل انقطع، ولا راحة ولا سعادة إلا بالصبر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين فقل بالصبر عن الدنيا، وقيل بالصبر على البلاء، وقيل بالصبر عن المناهي والصواب أنه بالصبر عن ذلك كله بالصبر على أداء فرائض الله والصبر عن محارمه والصبر على أقداره، وجمع سبحانه بين الصبر واليقين إذ هما سعادة العبد وفقداهما يفقده سعادته فإن القلب تطرفه طوارق الشهوات المخالفة لأمر الله وطوارق الشبهات المخالفة لخبره فبالصبر يدفع الشهوات وباليقين يدفع الشبهات»، فالابتلاء واقع على الدعاة الصادقين لا محالة، ولا مخرج منه إلا بالصبر واحتساب الأجر، وقد أخبر الله تعالى عن مضاعفة أجر الصابرين مرتين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾

وقد جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها غيرهم وهى الصلاة منه عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم قال تعالى: ﴿وَكَثِيرَ الصَّابِرِينَ﴾ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]،

وقال بعض السلف: «وقد عزي على مصيبة نالته فقال مالي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها، وقد جعل الصبر عوناً وعدة وأمر بالاستعانة به فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]».

قال السلف: «فمن لا صبر له لا عون له، وقد علق سبحانه النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ولهذا قال النبي ﷺ: (واعلم أن النصر مع الصبر)^(١) والصبر جنة عظيمة وحصن حصين من كيد العدو والأمن من ضرره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ولذلك استحق الصابرون أن تسلم عليهم الملائكة في الجنة وثني عليهم بصبرهم، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ١٥٦ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَيَقْعُ عَقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، ولأهمية الموضوع فقد أفرده بعض السلف في مؤلفات مستقلة، ومن أجمعها وأحسنها كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

(١) حديث حسن بمجموع طرقه، بعضه عند أحمد، وبعضه عند الترمذي، وبعضه عند غيره وانظر "جامع العلوم والحكم" لابن رجب الحنبلي في حديث الباب، و"المقاصد الحسنة" للسخاوي، في حديث "لن يغلب عسر يسرين".

لابن القيم رحمه الله تعالى، فالصبر خير معين على البلاء، وأحصن حصن من التسخط على القضاء، فالصبر الصبر أيها الدعاة الكرماء، والأئمة الفضلاء، وكم من الدعاة الذين انقطعوا عن دعوتهم وانقلبت الحال عليهم بسبب قلة الصبر وضعف اليقين، فخصال الخير المهمة في الدعوة لا تكون إلا مع الصبر كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالْأَيْمِ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٣-٣٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِن مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِل فِيهِن مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ عِلْمِهِ) قالوا يا رسول الله أجز خمسين منهم؟ قال: (أجز خمسين منكم)^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنكم ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الخوض)^(٢)، وقال الزبير بن عدي: دخلنا على أنس بن مالك فشكونا إليه الحجاج فقال: «اتقوا الله واصبروا فإنه ليس من عام إلا والذي بعده أشد منه حتى تقوم الساعة».

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن غريب ورواه ابن حبان وصححه ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره الشيخ الألباني شاهداً لحديث عتبة ابن غزوان.

(٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن إسحاق - وهو المروزي - فمن رجال الترمذي، وهو ثقة. وأخرجه مسلم (١٠٥٩) (١٣٢)، وأبو عوانة في الزكاة كما في "الإتحاف" ٢/ ٣٠٢، وابن حبان (٧٢٧٨) من طريق عبد الله بن وهب، عن يونس بن يزيد.

وقال السلف: «ما وجدنا حلو عيشنا إلا بالصبر»، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: (ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس باد الجسد)، وقال عليه السلام: (الصبر على أربع شعب على الشوق والشفق والزهادة والترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات. ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات. ومن أرتقب الموت تسارع إلى الخيرات)، وقال السلف رحمهم الله تعالى وغفر لهم: «طوبى لمن غلب بتقواه هواه، وبصبره الشهوات»، وقالوا: «لو كان الصبر من الرجال لكان حليماً»، وقال الحسن رحمه الله تعالى: «الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لبعث كريم عليه»، وقال إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى: «ما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى وصبراً على البلاء وصبراً على المصائب إلا وقد أوتي أفضل ما أوتيته أحد بعد الإيمان بالله»، وقال ميمون رحمه الله تعالى: «ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر»، قال السلف رحمهم الله تعالى: «وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر»، والكلام فيه كثير، والمهم أن تلکم الصفتين الكبيرتين العظيمتين شرط في بلوغ القمة في الدعوة والإمامة في الدين، فلا إمامة إلا بالصبر واليقين، والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



القاعدة السادسة

ما كان الرفق في شيء إلا زانه
وما نزع من شيء إلا شانه

وهذه القاعدة نص حديث قاله النبي ﷺ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه) وهو في الصحيح^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (من يحرم الرفق يحرم الخير)، وهو في الصحيح وزاد أبو داود: (يحرم الخير كله)^(٢)، وقال الترمذي: «حدثنا ابن أبي عمر، ثنا سفيان، عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٩٣) في البر والصلة: باب فضل الرفق، وأبو داود رقم (٢٤٧٨) في الجهاد، باب ما جاء في الهجرة ورقم (٤٨٠٨) في الأدب، باب في الرفق.

(٢) إسناده صحيح على شرط مسلم وأخرجه ابن أبي شيبه ٨/ ٥١٠، وهنّاد في "الزهد" (١٤٣١)، ومسلم (٢٥٩٢) (٧٥)، وأبو داود (٤٨٠٩) والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٦٣) وغيرهم.

صحيح»^(١). وفي البزار قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (ما كان الرفق في قوم إلا نفعهم، ولا الخرق في قوم إلا ضرهم)، ولأحمد: (إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق)^(٢)، ولابن حبان: (ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟) قالوا بلى يا رسول الله، قال: (على كل هين لين قريب سهل)^(٣).

والرفق من الصفات المهمة في الداعية بل هو من أكبر الأسباب التي تؤدي إلى نجاح الداعية، وأما النزق والطيش والغضب والعجلة في اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام، فإن هذا لا يجدي ولا ينفع، بل ضرره أكبر من نفعه، إن كان فيه نفع أصلاً ونحن نعني بالرفق معناه الواسع، ولا نقصد صورة من صوره فقط، ونعني به في كل الأمور وليس في أمر دون أمر، فإن النبي ﷺ قال: (ما كان الرفق)، فهو اسم جنس دخلت عليه الألف واللام فيفيد الاستغراق، فهذا العموم يدخل فيه كل

(١) أخرجه الترمذي في البر، باب ما جاء في الرفق وأحمد (٦/ ٤٥١) وعبد بن حميد (٢١٤) قال: «حدثني ابن أبي شيبة. والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٦٤) قال: حدثنا عبد الله بن محمد. والترمذي (٢٠٠٢ و ٢٠١٣) قال: «حدثنا ابن أبي عمر». خمستهم عن سفيان بن عيينة، قال: «حدثنا عمرو بن دينار، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء، فذكرته». وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البزار (١٩٦٥) وأورده الهيثمي في "المجمع" ١٩/ ٨، وقال: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، والرواية الأخرى أخرجها أحمد في المسند (٤٠/ ٢٤٤٢٧) والبخاري في الأدب الكبير (٤١٦/ ١) وغيرهم مع الاختلاف في الإسناد على هشام بن عروة

(٣) أخرجه الترمذي (٦٥٤/ ٤)، رقم (٢٤٨٨) وقال: «حسن غريب». والطبراني (١٠/ ٢٣١)، رقم (١٠٥٦٢)، وابن حبان (٢/ ٢١٦)، رقم (٤٧٠). وأخرجه أيضًا: هناد (٢/ ٥٩٦)، رقم (١٢٦٣).

صور الرفق، وقوله عليه الصلاة والسلام: (في شيء) نكرة في سياق النفي، وهو يفيد العموم كما تقرر في الأصول، وهذا العموم في المواقف والأحوال فالرفق مطلوب بكل صوره ومختلف أشكاله، في كل الأمور والأحوال، ولا أضر على الداعية من فوات الرفق في أمور دعوته، فالترفق والتأني والحلم وبعد النظر من أهم ما يطلب أن يتحلى به الداعية، فعلى الأمر والداعية والعالم والموجه أن يكون أمره ودعوته وتوجيهه مبني على الرفق واللين، لا على النزق والخرق والعنف والطيش، فإن الدعوة إلى الله تعالى لا بد وأن يعرف فيها نبرة الشفقة على المدعو، ونبرة الرحمة والحرص الكامل عليه، فالكلمة الحانية والنبرة المشفقة والموعظة الحسنة والتوجيه بالتي هي أحسن من أعظم طرق النجاح والقبول، والله تعالى قد فطر النفوس على محبة الرفق والتأني وعلى ذلك فعلى الداعية إلى الله تعالى الابتعاد كل البعد عن ما يشين دعوته من التعجل والعنف والقسوة المؤدية إلى التنفير وإطراح دعوته، وردّها وعدم قبولها، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَبِثَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فغلظ التعامل وجفاء القلوب والقسوة في الكلام والفظاظة في الدعوة سبب لردّها وبغض الناس لهذا الداعية، وانصرافهم عنه، وعدم الاكتراث له ولدعوته، قال لشيخ محمد رحمه الله تعالى في شرح رياض الصالحين: «ويذكر - قديماً - أن رجلاً من أهل الحسبة - يعني من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - مرّ على شخص يستخرج الماء من البئر على إبله عند أذان المغرب، وكان من عادة هؤلاء العمال أن

يحدوا بالإبل، يعني يُنشدون شعراً من أجل أن تخف الإبل؛ لأن الإبل تطرب لنشيد الشعر، فجاء هذا الرجل ومعه غيره، وتكلم بكلام قبيح على العامل الذي كان متعباً من العمل وضاق عليه نفسه فضرب الرجل بعصا طويلة متينة كانت معه - فشرده الرجل وذهب إلى المسجد والتقى بالشيخ - عالم من العلماء من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله وقال: إني فعلت كذا وكذا، وإن الرجل ضربني بالعصا، فلما كان من اليوم الثاني ذهب الشيخ بنفسه إلى المكان قبل غروب الشمس، وتوضأ ووضع مشلحه على خشبه حول البئر، ثم أذن المغرب فوقف كأنه يريد أن يأخذ المشلح، فقال له: يا فلان... يا أخي جزاك الله خيراً، أنت تطلب الخير في العمل هذا، وأنت على خير، لكن الآن أذن للمغرب، لو أنك تذهب وتصلي المغرب وترجع ما فاتك شيء، وقال له كلاماً هيناً، فقال له: جزاك الله خيراً، مرّ عليّ أمس رجل جلف قام يتهرني، وقال لي كلاماً سيئاً أغضبني، وما ملكت نفسي حتى ضربته بالعصا، قال: الأمر لا يحتاج إلى ضرب، أنت عاقل، ثم تكلم معه بكلام لين، فأسند العصا التي يضرب بها الإبل ثم ذهب يصلي بانقياد ورضا. وكان هذا لأن الأول عامله بالعنف، والثاني عامله بالرفق»، وأذكر أننا سافرنا إلى بلد من البلاد وزرنا مسجداً فيها وكان فيها رجل عنده بعض المخالقات في بعض الأذكار، وقد حاول جماعة المسجد جاهدين على نصحه وتوجيهه ولكن دون جدوى، والعلة أنهم كانوا يوبخونه في الحقيقة، فقد كانت عباراتهم - على ما أخبرني هو - كانت حادة ومنفرة، وما إن أخذته على جانب وأخبرته بالحق في هذه المسألة وبينت له أنه لا يريد بفعله إلا الخير، وأنه لا حق لهم في توجيهه بالطريقة المنفرة، إلا وسال قلبه بين يدي واستجاب والله الحمد والمنة، وأذكر

أنني كنت في مسجد وبعد الصلاة قام رجل لإلقاء كلمة، وكانت عن الصلاة وأهميتها، وفي آخرها قال: وأنا أعرف أن هناك رجالا في هذا المسجد يتخلفون عن الصلاة، أعرفهم بأعيانهم، ولا نريد أن نفضحهم، ولكن إما أن يصلوا وإلا صرحنا بأسمائهم... إلخ، ما قال، وبعد الكلمة خرجت معه وبينت له أن كلمته طيبة، وجزاه الله خيرا ولكن لو أنه لم يقل كلامه الأخير لكانت الكلمة رائعة، لأنه لا داعي للتوبيخ والتهديد والوعيد والزجر فكلما كان الداعية أبعد عن التصريح بالأسماء واتهام الذات كلما كانت دعوته أنفع وأقرب للقبول فالمتخلف عن الصلاة عرف الأمر ووصلته الدعوة فما داعي إلى التهديد والزجر والوعيد، فهذا قد ينسف الكلام الأول ويقلب المسألة إلى تحدي، وندخل في متاهات نحن في غنى عنها، فإن بعض الدعاة صار من جملة المنفرين عن الدعوة وهو لا يشعر، وفي هذا المجال ما رأت عيني من أهل العلم المعاصرين في رفقته على المخالفين كسماحة الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى، ولذلك كانت القلوب لكلامه مصغية ومنفتحة، والصدور لتوجيهه قابلة ومنشركة، والكل فيه خير ورفق، ولكن الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى ضرب أروع المثل في هذا الصدد، فالرفق في الدعوة مطلب أساسي في نجاحها ولعظمة الرفق وأهميته فقد تسمى الله تعالى به، فإن من أسمائه الرفيق، ومن صفاته الرفق، وصور رفقته جل وعلا بعباده لا تحصر، فالرفق زين الدعوة وجمالها، ورونقها وبهاؤها، وهو ينم عن كبير نفس الداعية وحسن أخلاقه ودماثة طبعه، وطيب معدنه، وكمال رحمته وشفقته على إخوانه المدعوين، وأنا أرى والله تعالى أعلم أن الرفق يختلف باختلاف وفور العلم، فكلما اتسع العلم كلما كان الرفق أكمل والرحمة أعم وأشمل، ويدخل في هذا عدة أمور:

الأول: الترفق على المدعويين في إلقاء الدعوة عليهم، واختيار أحسن الكلمات التي تفوح بروائح الرحمة والعطف عليهم، واختيار أحسن الطرق التي تجبها النفوس وتتعشقها الأرواح في الطرح الدعوي.

الثاني: البعد كل البعد عن العبارات الجارحة، والألفاظ النابية، والأساليب التي تكسر النفوس وتجرح الذوات.

الثالث: الصبر على ما قد يصدر من المدعويين من التكذيب والسخرية وسوء الفعال والمقال، والترفق بهم، وعدم مقابلة السيئة بمثلها ما استطاع الداعية إلى ذلك سبيلا، بل الداعية يطلب منه مقابلة السيئة بالحسنة والجهل بالحلم والصبر ووفور العلم والحكمة.

الرابع: الترفق في التعليم، وأن يبدأ بصغار العلم قبل كباره مراعيًا في ذلك حالة طلابه وأوقاتهم.

الخامس: عدم إقحامهم في أمور هي أكبر من قدراتهم الجسدية أو العقلية.

السادس: الحرص على لين الجانب وخفض الجناح للمدعويين، ومحاولة كسر الحواجز التي تمنع من كمال الانتفاع بالداعية، فإن بعض الدعاة يفرض على شخصيته أمورًا من الهيبة المصطنعة وهالة من التخويف والذعر حتى يبقى المدعو يحسب له ألف حساب قبل الاستفادة منه في فتوى أو استشارة وهذا ليس كما ينبغي، فقد كانت الجارية تأخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وينقاد معها حتى يقضي حاجتها، فالأمر أيسر من ذلك، والمراد إنما هو هيبة الحب والاحترام والتقدير، لا هيبة الخوف والذعر والتسلط، والله المستعان.

السابع: تحديث الناس بما يعرفون ويفقهون وتحتمله عقولهم، وهذا سيأتي له قاعدة خاصة.

الثامن: الترفق مع المخالف لك في بيان الحق بالدليل والحرص على تفهيمه الحق بالطريق المحبب والبعد عن عبارات اتهام الذوات والتقبيح الذي ينفر القلوب، والتجريح الذي يبعد النفوس عن قبول الحق.

التاسع: الترفق على أصحاب الحاجات، وإعانتهم بلا ملل ولا ضجر.

العاشر: الترفق على السائلين، ممن يريد الفتوى والتعلم، فإن من حرص على سؤال أهل العلم فإن حقه أن يكرم ويعان، لا أن يساء له ويهان، حتى وإن كرر سؤاله فأعد له الجواب، بالترفق والهوينا، مع تبسيط الإجابة، وضرب الأمثلة، والحرص على التفهيم، حتى يتحقق المقصود من تعليمه، والله أعلم.

الحادي عشر: نقول إلى كل من ولي أمر المسلمين سواء كانت ولاية عامة أو ولاية خاصة كن رقيقا بمن هم تحت مسئوليتك فقد قال ﷺ: (اللهم من ولي من أمتي شيئا فرفق بهم فأرفق به ومن ولي من أممي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه)^(١)، فكن معينا لهم على قضاء حوائجهم، وإياك أن تماطل بهم أو تسعى للإضرار بهم فإن الله سائلك عن ذلك فإن أحسنت أحسن الله إليك وإن أسأت جازاك الله على إساءتك بما تستحق وكنت مذموما في الدنيا والآخرة. وفي الختام أحب أن أذكر جملا

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم، أخرجه مسلم (١٨٢٨)، والإمام أحمد في "المسند" (٢٦١٩٩)

والبيهقي في "السنن" ٤٣/٩ من طريق عبد الرحمن بن مهدي وأخرجه مطولا ابن زنجويه في

"الأموال" (٥) وأبو عوانة ٤/٤١٣-٤١٤، والطبراني في "الأوسط" (٩٤٤٥) من طريقين عن

من صور رفق النبي ﷺ في دعوته، فإنه خير من نترسم خطاه في الدعوة والعمل والتعب، فأقول:

منها: في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله ﷺ: (لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ)، فتركوه حتى بَالَ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَالْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ)، أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: وأمر رجلا من القوم، فجاء بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَسَنَّهُ عَلَيْهِ^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَقَدْ تَحَجَّرَتْ وَاسِعًا)، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: (إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ، صُبُّوا عَلَيْهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ)، أو قال: (ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ)^(٢)، وهذا من أروع صور الرفق.

(١) متفق عليه، حديث صحيح، رواه البخاري ٢٧٨ / ١ في الوضوء، باب ترك النبي صلى الله عليه وسلم والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد وباب صب الماء على البول في المسجد وفي الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ومسلم رقم (٢٨٤) في الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، والنسائي ٤٨ / ١ في الطهارة، باب ترك التوقيت في الماء.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٢٧٨ / ١ و ٢٧٩، في الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، وأبو داود رقم (٣٨٠) في الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، والترمذي رقم (١٤٧) في الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، والنسائي ٤٨ / ١ و ٤٩ في الطهارة، باب ترك التوقيت في الماء.

ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يجلس معنا في المسجد يُحَدِّثُنَا، فإذا قام قمنا قِيَامًا حَتَّى نَرَاهُ قَدْ دَخَلَ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ، فَحَدَّثَنَا يَوْمًا، فَقَمْنَا حِينَ قَامَ، فَظَنَرْنَا إِلَى أَعْرَابِي قَدْ أَدْرَكَهُ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ، فَحَمَرَّ رَقَبَتَهُ، وَكَانَ رِداءَ خَشْنًا فَالتَفْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ الْأَعْرَابِي: احْمَلْنِي عَلَى بَعِيرِي هَذِينَ، فَإِنَّكَ لَا تَحْمِلُنِي مِنْ مَالِكَ، وَلَا مِنْ مَالِ أَبِيكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لَا أَحْمَلُكَ حَتَّى تُقَيِّدَنِي مِنْ جَبَذَتِكَ الَّتِي جَبَذْتَنِي)، فَكُلَ ذَلِكَ يَقُولُ الْأَعْرَابِي: وَاللَّهِ لَا أَقِيدُكَهَا - فَذَكَرَ الْحَدِيثَ - قَالَ ثُمَّ دَعَا رَجُلًا. فَقَالَ لَهُ: (احْمَلْ لَهُ بَعِيرِي هَذِينَ، عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرًا، وَعَلَى الْآخِرِ تَمْرًا)، ثُمَّ التَفْتُ إِلَيْنَا فَقَالَ: (انْصَرِفُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ. وَعِنْدَ النَّسَائِيِّ مِثْلُهُ إِلَى قَوْلِهِ: (لَا أَقِيدُكَهَا)، ثُمَّ قَالَ: فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقِيدُكَ، فَلَمَّا سَمِعْنَا قَوْلَ الْأَعْرَابِي، أَقْبَلْنَا إِلَيْهِ سِرَاعًا، فَالتَفْتُ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (عَزَمْتُ عَلَى مَنْ سَمِعَ كَلَامِي أَنْ لَا يَبْرَحَ مَقَامَهُ حَتَّى آذَنَ لَهُ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: (يَا فُلَانُ، احْمَلْ لَهُ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرًا، وَعَلَى بَعِيرٍ تَمْرًا)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (انْصَرِفُوا) ^(١).

ومنها: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير المقداد، فقال: (انطلقوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ، فَإِنْ بَهَا ظَعِينَةٌ مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُنَّهَا)، فَانْطَلَقْنَا تَتَعَادَى بَنَّا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا:

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٧٥) في الأدب، باب في الحلم، والنسائي ٨ / ٣٣ و ٣٤ في القسامة، باب القود في الجبذة، وفي سنده هلال بن أبي هلال المدني مولى بني كعب، قال الذهبي: «لا يعرف».

أخرجني الكتاب. قالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتُخرجَنَّ الكتابَ أو لتُلْقَيْنَ الشَّيْبَ، فأخرجته من عقاصها، قال: فاتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: (يا حاطب، ما هذا؟) فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأة مَلَصَقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم فكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يَحْمُونَ بها أموالهم وأهلهم بمكة، فأحببتُ - إذ فاتني ذلك من النسب فيهم - أن أُنَحِّدَ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلتُ كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضيت بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ)، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(١).



(١) رواه البخاري ٧ / ٤٠٠ في المغازي، باب فتح مكة، وباب فضل من شهد بدرًا، وفي الجهاد، باب الجاسوس، وباب إذا اضطرب الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة والمؤمنات إذا عصين الله وتجريدهن، وفي تفسير سورة الممتحنة في فاتحتها، وفي الاستئذان، باب من نظر في كتاب من يحذر من المسلمين ليستبين أمره، وفي استتابة المرتدين، باب ما جاء في التأولين، ومسلم رقم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، وأبو داود رقم (٢٦٥٠) و (٢٦٥١) في الجهاد، باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلمًا، والترمذي رقم (٣٣٠٢) في تفسير القرآن، باب ومن سورة الممتحنة.

القاعدة السابعة

ترك الداعية للخير الذي يأمر به، واقتراه لما ينهى عنه قبيح في العقول والفطرة والشرع

أقول: إن من أقبح القبح أن يراك الناس قد اجتهدت في الأمر بما أنت تارك له، وأن يراك الناس مقترفا لما نهيت عنه، والله إن هذا قبيح جدا، وقبحه لا يستطيع القلم ولا اللسان وصفه، بل هو ممقوت أشد المقت، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات روايات منها: ما روي عن ابن عباس أنه قال: كان أناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لَوَدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دَلَّنَا عَلَى أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه، إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به.

فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فنزلت هذه الآيات. وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون: قَتَلْنَا، ضَرَبْنَا، طَعَنَّا وَفَعَلْنَا، ولم يكونوا فعلوا ذلك، وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك

تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنبھوا من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم».

وهذا كما قال عبد الرزاق عن مَعْمَرٍ، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: «كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ عز وجل. وكذلك قال السدي». وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾: «أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدْعُونَ الْعَمَلَ بما يأمرون به الناس، فعيّرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة». وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: «أي: تتركون أنفسكم..». والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، وقال تعالى عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ فِكْهُمُ إِلَى مَا آتَيْتُكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة: لم أكن لأنهاكم عن أمر»، وعن أسامة رضي الله عنه أنه قِيلَ لَهُ: لَوْ أَتَيْتَ فُلَانًا فَكَلَّمْتَهُ قَالَ: إِنْكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ إِنِّي أَكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ، دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ وَلَا أَقُولُ لِرَجُلٍ، أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا: إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: وَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ

قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاءٍ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)^(١)، ففي هذا الحديث: وعيدٌ شديد لمن خالف قوله فعله، وأنَّ العذاب يُشَدَّدُ على العالم إذا عصى أعظم من غيره، كما يضاعف له الأجر إذا عمل بعلمه. وفي الحديث: (رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي رَجُلًا تَقْرُضُ شِفَاهَهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)^(٢)، والله إن الأمر لعظيم، ونسأل الله تعالى الخلاص من هذه الهوة السحيقة والحفرة العميقة، وما أشد هذه القاعدة على قلوبنا، فإننا أهل التقصير والتفريط فكم قد أمرنا الناس بما لا نفعله، ونهيناهم عما نحن واقعون فيه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله در من قال:

لَا تَنْهَ عَنْ خَلْقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمَ
وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : (مَنْ كَانَ كَلَامُهُ لَا يُوَافِقُ فَعْلَهُ فَإِنَّمَا يُؤَبِّخُ نَفْسَهُ)، فالعلم إن لم يترجم إلى عمل فما الفائدة منه، فعلى طالب العلم كما يججد في الطلب أن يججد في العمل فإنه أولى الناس بقطف ثمرات علمه.

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٦ / ٢٣٨ في بدء الخلق، باب صفة النار، وفي الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، ومسلم رقم (٢٩٨٩) في الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله.
(٢) هذه الرواية ليست عند البخاري ولا مسلم، وإنما رواها أحمد في "المسند" ٣ / ١٢٠ و ٢٣١ و ٢٣٩ من حديث أنس بن مالك، ورواها أيضاً ابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أنس، وهو رواية حسنة.

وقد وصف الله تعالى من لا ينتفع بعلمه بأبشع الأوصاف، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَلَحْ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَٱلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِلُوا ٱلتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْجِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فالأمر خطير والعاقبة فيه وخيمة، إن الله تعالى جعل اهتمام المرء بنفسه وتزكيتها قبل أن يلتفت إلى الآخرين محورا للإصلاح، حتى لا يكون الطعن في سلوكه سبيلا وحجة للآخرين يتعذر بها عن عدم الانصياع للأمر أو النهي، وكم من داعية لا يعمل بعلمه صار من أكبر الفتن للناس في البعد عن قبول الدعوة، فאלله الله أيها الدعاة بالعمل بالعلم، فليكن همك وحرصك على العمل بالعلم أكبر من همك وحرصك على الدعوة لما تعلم، مع أن كليهما من الأهمية بمكان، ولكن لا ينفع أحدهما إلا بالآخر فهما متلازمان التلازم الكبير الذي لا ينفك، فإن أنظار الناس ناقدة وسهامهم نافذة، لاسيما فيمن يقول القول من الخير ولا يعمل به، فالحذر الحذر من أن يواجهك أحدهم بقول: أنت توجهنا لأمر من الخير لا نراك فاعلا له، أو نراك تحذرنا عن الأمر الذي أنت واقع فيه، وهذا أمر سيسمعه كثيرا من يخالف في العمل بالعلم، فكن أيها الداعية المبارك أول من يلتزم بالأمر الذي يدعو له، وأول من يترك الأمر الذي يحذر منه، فإن مخالفة ذلك من الأمور التي تقبح بك،

عافاك الله من كل سوء وبلاء ولكن لا بد وأن ننبه على أمر مهم، وهو: أن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن ترك المعروف لا يستلزم ترك الأمر به، وفعل المنهي عنه لا يستلزم ترك النهي عنه، فهما عبادتان واجبتان وترك إحداها لا يستلزم ترك الأخرى، والله تعالى لما قال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، لا يفهم من هذا أنه عاب عليهم الأمر بالمعروف، وإنما عاب عليهم نسيانهم لأنفسهم من فعل هذا المعروف، ولما قال النبي ﷺ في الحديث المذكور: (كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية)^(١).

فهذا العذاب والعقوبة الواردة في الحديث ليست على أمر الناس بالمعروف ولا عن نهيهم عن المنكر، وإنما هي لترك العمل بالمعروف والتقحم في المنكر، فلا يسوغ لتارك فعل المعروف أن يترك الأمر بفعله، لأنه سيترك واجبين، الفعل، والأمر به، ولا يسوغ لفاعل المنكر أن لا ينهى عنه، لأنه سيقع في بلتين، فعل المنكر، وترك النهي عنه، فهذا أمر وهذا أمر، ولكن الواجب شرعا فعل المعروف والأمر به، وترك المنكر والنهي عنه، لكن إن فوت أحدهما، فلا يسوغ له تفويت الواجب الثاني، فانتبه لهذا بارك الله تعالى فيك، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (ويل للذي لا يعلم ويويل للذي يعلم ولا يعمل، سبع مرات). ويروى في الحديث: (إذا علم العالم ولم يعمل كان كالمصباح يضيء للناس، ويحرق نفسه)^(٢)، وقال سري بن المغلس

(١) سبق تخريجه ص ٩٥.

(٢) الحديث ضعفه الإمام الألباني رحمته الله، وقيل أن إسناده فيه سليمان بن عمرو النخعي وهو كذاب وضاع.

السقطي: كلما ازددت علماً كانت الحجة عليك أوكد. وكان السلف رحمهم الله تعالى يخافون من تقويت العمل بالعلم خوفاً كبيراً حتى قال الشعبي رحمته الله: «ليتني لم أكن علمت من ذا العلم شيئاً». وقال سفيان الثوري رحمته الله: «ليتني لم أكتب العلم، وليتني أنجو من علمي كفافاً لا علي ولا لي». وقال ابن عيينة رحمته الله: «العلم إن لم ينفعك ضرك». قلت: يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به ضره بكونه حجة عليه، ومن المنقول عن لقمان أنه كان يقول لابنه: «يا بني لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم»، وقال بعضهم: «وعالم بعلمه لم يعملن، معذب من قبل عباد الوثن».

فاللهم إنا نسألك العون على العمل بالعلم والتوفيق في الأمر كله وأن لا تجعل علمنا علينا وبالاً، وأن لا تجعلنا فتنة للناس، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



القاعدة الثامنة

العلماء هم الدعاة

وهذا أمر لا شك فيه، فإن الدعوة مفتقرة إلى العلم كما قلنا في بعض القواعد، فلا يجوز الدعوة على الجهل، بل الدعوة مبناها على العلم والبصيرة، وعليه فأهل الدعوة هم أهل العلم بما يدعون له، ولا نعني بقولنا (العلماء) أي من بلغ الرتبة الكبيرة في العلم، وإنما نعني بهم من كان عالماً بالأمر الذي يدعو له، وعارفاً به المعرفة الكاملة، والعلم يتجزأ، فلا يجوز لأحد أن يتكلم فيما لا يعلم، بل الدعوة وقف على أهل العلم العارفين بما يدعون له، فلا يحل لأحد أن يدعو الناس على الجهل، أو يفتيهم على الجهل، هذا أمر مغتبه كبيرة، وخطره لا يوصف، والتفريق بين الدعوة والعلم من البدع المحدثه والأقوال المنكرة والمذاهب العفنة، ومن مفرزات بعض الجماعات التي لا تريد الدعوة إلا على منهاج أهل البدع، فإن العلم الصحيح عدو لهم في تحقيق مبتغاهم من الناس، فأرادوا بمكرهم وكيدهم للأمة أن يفصلوا بين العلم والدعوة، ويجعلوها تخصصاً آخر لا شأن له بالعلم، وهذا أمر منكر وفعل محرم ولا، ولن نوافقهم على ذلك، بل العلماء هم الدعاة، وهل كثرت البدع في العالم الإسلامي وتعددت المخالفات القولية والعملية وفتح باب الشرك الوثنية إلا بسبب تصدر الجهال للدعوة، وهل عطلت صفات الرب جل وعلا إلا بتصدر الجهال للدعوة، وهل تكلم في أهل العلم وقدر في جنابهم الكريم إلا لما

تصدر الجاهل منابر الدعوة إلى الله تعالى، وهل كثر القيل والقال وانتشرت الفتن إلا لما تصدر الجاهل للدعوة، فالأمر خطير والعاقبة منه وخيمة، ولا مخرج منه إلا بالرجوع إلى الأصل الأصيل وهو أن العلماء هم الدعاة.

فلا يحق لغير أهل العلم أن يتكلم في الدعوة إلى الله تعالى، لأن مبناها على العلم والبصيرة، وأهل العلم هم العارفون بها، وحيث قصرنا الدعوة على أهل العلم فنعني بهم علماء الكتاب والسنة، من الذين أخذوا العلم على منهج سلف الأمة، فلا حق لأهل الجهل البسيط ولا الجهل المركب أن يمتطوا صهوة منبر الدعوة.

والواجب على ولي الأمر منعهم من مخاطبة الناس في العلم والدعوة، بل قد قرر الفقهاء رحمهم الله تعالى أنه يجب الحجر على السفیه الذي يتكلم في العلم بما لا يعرف ويهذي في المسائل بالتخريف والهذيان، وقد كان لأهل الكلام اليوناني المذموم دورهم في إفساد علوم الأمة، فأدخلوا على علوم الأمة القواعد الكلامية الفلسفية المنطقية التي تخالف المنقول وتناقض المعقول، وحرفوا بسببها نصوص الوعد والوعيد والصفات وتكلم في ذات الرب جل وعلا، فانقسمت الأمة إلى أحزاب وفرق وطوائف كثيرة بسبب تصدر الجاهل منبر الدعوة حقبة من الزمان ليست باليسيرة وكان للصوفية وعلمائها الدور الكبير في انتشار الشرك بتعظيم القبور والتبرك بترابها وإحياء الموالد الجاهلية المخالفة لما جاء به محمد ﷺ، فهل بنيت القباب على القبور وطيف بها وذبح لها واستغيث بها من دون الله تعالى إلا بسبب تصدر الجاهل للدعوة، وكذلك كان لدعاة الروافض الدور الكبير في تشويه صورة أصحاب النبي ﷺ وسبهم والقذح فيهم وتكفيرهم على العموم إلا نفر

سيراً، وتعظيم آل البيت التعظيم المفضي إلى الشرك بالله تعالى، وما ذلك إلا بسبب تصدرهم للدعوة وهم أهل الجهل والحقاقة وقلة الأدب على سادة الأمة وعلمائها، وكذلك كان للخوارج دورهم الكبير في الخروج على الأمة وسفك دمائها واستحلال ديارها وأعراضها.

ولا نزال نعايش تلك الآثار السيئة إلى اليوم، وما ذلك إلا بسبب تصدرهم للدعوة وهم أهل الجهل وسوء الفهم والطيش والنزق، والأمثلة كثيرة، ولا حل لهذه المعضلات ولا مخرج من تلك البلايا إلا بتقرير هذه القاعدة، وهي أن العلماء من أهل السنة والجماعة هم الدعاة في الحقيقة، ولا صلاح لهذا العالم إلا إذا كان يصدر عن علماء أهل السنة رحم الله تعالى أمواتهم وثبت أحياءهم، فالخير كل الخير في تنصيب علماء أهل السنة والدفاع عنهم وتمكينهم من تعليم الناس، والشر كل الشر في تقريب علماء البدعة ورفع شأنهم وفتح الباب لهم على مصراعيه لمخاطبة الناس، فالعلماء هم الدعاة إلى الله تعالى على بصيرة وهدى، وأما غيرهم فإنه لا يزداد الناس بتنصيبه للدعوة إلا العماية والجهالة والضلال، قال النبي ﷺ: (إن الله تعالى لا ينتزع العلم انتزاعاً من قلوب الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)^(١)، قال الشيخ ناصر العقل حفظه الله تعالى وهو يبين الأوجه الدالة على حصر الدعوة في أهل العلم العارفين بالكتاب والسنة والمتهجين لمنهج أهل السنة

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ١٧٤/١ - ١٧٥ في العلم، باب كيف يقبض العلم، وفي الاعتصام، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، ومسلم رقم (٢٦٧٣) في العلم، باب رفع العلم وقبضه، والترمذي رقم (٢٦٥٤) في العلم باب ما جاء في ذهاب العلم.

والجماعة قال حفظه الله تعالى: «فعلى هذا فالعلماء بهذا التعريف: هم الدعاة بداهة، والعلماء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء هم الدعاة، فأجدر من يتصدر الدعوة بعد الأنبياء - وقد انقضت النبوة وانتهت - : هم العلماء وذلك:

أولاً: لأنهم ورثتهم، والأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً، إنما ورثوا هذا العلم. والدعوة إنما تكون بالعلم فأهل العلم هم الدعاة.

ثانياً: العلماء هم حجة الله في أرضه على الخلق، والحجة لا تقوم إلا على لسان داعية بفقهه وبعلمه وبقدوته، فعلى هذا، فالعلماء هم أجدر الناس بالدعوة.

ثالثاً: العلماء هم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم أولوا الأمر الذين تجب طاعتهم، كما قال غير واحد من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، قال مجاهد: «هم أولوا العلم والفقه وإذا كانوا هم أولوا الأمر فولايتهم للدعوة من باب أولى».

رابعاً: العلماء هم المؤمنون على مصالح الأمة العظمى، على دينها، وعلى دنياها وأمنها؛ ومن باب أولى أن يكونوا هم المؤمنون على الدعوة وشؤونها.

خامساً: العلماء هم أهل الشورى الذين ترجع إليهم الأمة في جميع شئونها ومصالحها. وإذا كانوا يستشارون في جميع مصالح الأمة - في دينها ودنياها - فمن باب أولى أن يكونوا هم أهل الشورى في الدعوة وقيادتها.

سادساً: العلماء هم أئمة الدين، والإمامة في الدين فضل عظيم، وشرف ومنزلة رفيعة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤]، والإمامة في الدين تقتضي بالضرورة الإمامة في الدعوة. وما الدين إلا بالدعوة، وما الدعوة إلا بالدين.

سابعاً: العلماء هم أهل الذكر، والذكر بالعلم والدعوة، كما قال تعالى: ﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]، فعلى هذا هم أهل الدعوة إلى الله تعالى.

ثامناً: العلماء أفضل الناس كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وأفضل الناس هو الداعي إلى الله.

تاسعاً: العلماء هم أزكى الناس، وأخشاهم لله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وإذا كانوا هم كذلك، فهم الأجدر أن يكونوا هم الدعاة على هذه الصفات، وهم الأجدر أن يكونوا هم القادة والرواد في الدعوة.

عاشرًا: العلماء هم الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر بالعلم والحكمة، إذا فالعلماء هم الدعاة.

الحادي عشر: العلماء هم شهداء الله الذين أشهدهم الله على توحيدِهِ، وقرن شهادتهم بشهادته سبحانه وبشهادة ملائكته، وفي هذا تزكيته وتعديلهم، فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، ومن كانوا كذلك فهم المؤمنون على الدعوة، وهم الأولَى بقيادتها وريادتها.

هذا على وجه العموم، فالعلماء هم أهل هذه الخصال. ولا يلزم أن تتوفر كل هذه الخصال في كل عالم، فالكمال لا يكون إلا لله سبحانه لكنهم في الجملة - أي العلماء - لا شك أنهم المتميزون بهذه الصفات الجديرون بها^١. هـ. كلامه حفظه الله تعالى.

وما قاله هنا هو ما ندين الله تعالى به ونثبته لأهل العلم رحم الله تعالى أمواتهم
وثبت أحياءهم على الحق والعمل به والدعوة إليه، والمقصود هنا هو أنه لا صلاح
لأمور الدعوة ولا لأمور الناس إلا إذا تولى الدعوة أهل العلم، غفر الله لهم، فلا
تزال الدعوة والأمة بخير ما تولاهما العلماء، ولكن متى ما اختل الأمر وتوسع الباب
حتى يدخل فيه من ليس من أهله فناهيك عن الفساد الكثير والأزمة المتفاقمة
والفتن المتعاقبة، نسأل الله تعالى أن يجنبنا وأمتنا كل سوء وبلاء إنه ولي ذلك والقادر
عليه، والله أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة التاسعة

الدعوة مبناها على تحقيق المصالح وتكميلها
وتعطيل المفاسد وتقليلها

أقول: إن الدين كله مبني على تحقيق المصالح ودفع المفاسد، بمعنى أن ما لا يحقق المصلحة أو يجلب المفسدة فإنه ليس من الدين في صدر ولا ورد، قال أبو العباس رحمه الله تعالى: «فإن الله أمر بالصالح ونهى عن الفساد وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها»، وقال رحمه الله تعالى: «والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تحصل أعظم المصلحتين بفوات أذناها وتدفع أعظم الفسادين باحتمال أذناها»، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن الشريعة مبناها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»، وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: «التكاليف مشروعة لمصالح العباد، ومصالح العباد ما دنيوية وإما أخروية»، وقال أيضا: «إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في عاجل والآجل معًا»، وقال أيضا: «المعتمد إنما هو أننا استقرأنا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه أحد».

فمراعاة المصالح والمفاسد في الدعوة إلى الله تعالى أصل أصيل وقاعدة راسخة فيها، ولا يمكن بحال أن يتحقق النفع في الدعوة إلى الله تعالى إن تخلف عنها هذا الأصل الأصيل، فعلى الداعية إلى الله تعالى مراعاته، والأدلة على هذه القاعدة كثيرة جدا لا تكاد تحصر، ولكن نذكر لك أهمها:

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فانظر كيف نهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين لما كان سبها يفضي إلى المفسدة، وهو سب الرب جل وعلا، لأن سب آلهة المشركين لا يكون مشروعاً إلا إن كان محققاً للمصلحة ودافعاً للمفسدة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي أن مفسدة صدّ المشركين عن سبيل الله، وكفرهم به، وصدّهم المؤمنين عن المسجد الحرام وإخراجهم منه، أكبر من مفسدة قتالهم في الشهر الحرام، فتحتمل أدنى المفسدتين لدفع أكبرهما، فلا بأس بالقتال في الشهر الحرام في تلك الظروف.

وهذا مثال على تعارض المفاسد أو تزاحم المفاسد، فإذا كان هناك محرمان لا يمكن تركهما جميعاً بل لابد من الوقوع في أحدهما، فيرتكب أقلهما إثماً وأقلهما توكيداً، فلا يقبل من شخص في مثل تلك الحالة أن يقول: قتال المشركين في الشهر الحرام محرم فلا يجوز أن نقاتلهم فيه مهما ترتب على ذلك من أمور، ويتجاهل المضار الناجمة من ترك قتالهم حتى لو كان ترك المقاتلة يؤدي إلى تمكين الكفر بالله والصد

عن سبيل الله وإخراج المسلمين ومنعهم من التعبد في المسجد الحرام، وتلك بلا شك مضار عظيمة إذا ما قورنت بقتالهم في الشهر الحرام، لذا جاز للمسلمين ارتكاب المحظور الأصغر لدفع الخطر الأكبر، وهو ما يعرف بارتكاب أخف الضررين، وإنما يسمى محظوراً أو محرماً باعتبار الأصل .

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فشارب الخمر يتعدى على الآخرين بالضرب والشتم والقتل ويترك العبادة، وهي مفسد عظيمة لا تقاومها المصالح المزعومة، فهذا مثال على تعارض المصلحة مع المفسدة ومراعاة الأغلب منهما، والمفسدة هنا أغلب، لذا نبههم الله جل وعلا إلى ذلك تمهيداً لتحريمها.

ومنها: ما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: (يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير: بكفر - لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون)^(١)، فانظر كيف ترك النبي ﷺ بناء البيت على هذه الصفة المحبوبة له مراعاة لتحقيق المصالح ودفع المفاسد وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه».

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في كتاب الحج، باب فضل مكة وبنائها، وفي العلم، وفي الأنبياء وفي التمني، باب ما يجوز من "اللو"، ومسلم رقم (١٣٣٣) في الحج، باب نقض الكعبة وبناءها، ومالك في الموطأ ١/٣٦٣-٣٦٤ في الحج، والنسائي ٥/٢١٤ في الحج، والترمذي (٨٧٥) في الحج.

ومنها: ما رواه البخاري عن أبي سعيد قال: بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبدالله ابن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟)، قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه. قال: (دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)^(١)، وفي بعض طرق الحديث عند أحمد والطبري: فقال أصحابه: ألا نضرب عنقه؟ فقال: (لا أريد أن يسمع المشركون أني أقتل أصحابي)^(٢)، وأخرج مسلم قصة أخرى نحوها عن جابر رضي الله عنه وفيها: فقال عمر: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال: (معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي)، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية^(٣).

وقد ترجم البخاري للحديث بقوله: «باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولثلاثا ينفر الناس عنه»، فهنا وجدت مصلحة وهي تأديب المارقين وردع المنافقين، ويقابلها مفسدة نفور الناس عن الدخول في الإسلام، وترويج الشائعات المنكرة على الرسول ﷺ، ودفع هذه المفسدة أولى من تحقيق المصلحة المشار إليها، بخلاف ما لو أمنت تلك المفسدة فحينئذ لا يترك تحقيق المصلحة المذكورة.

(١) حديث صحيح رواه البخاري "باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه" ورواه مسلم، والألباني، جميعهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٠٤٥١) والطبري من طريق بلال بن بقر عن أبي بكر.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد (٣/٣٥٣، رقم ١٤٨٤٦)، ومسلم (٢/٧٤٠، رقم ١٠٦٣)، والطبراني (٢/١٨٥، رقم ١٧٥٣). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (٥/٣١، رقم ٨٠٨٧)، وابن حبان (١١/٤٨١٩).

ومنها: ما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال لمعاذ: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة)، قال: ألا أبشر الناس؟ قال: (لا إني أخاف أن يتكلموا)^(١)، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ أمر أبا هريرة أن يبشر بذلك الناس فلقيه عمر فدفعه وقال: ارجع يا أبا هريرة، ودخل على أثره فقال: يا رسول الله لا تفعل؛ فإني أخشى أن يتكل الناس، فخلهم يعملون. فقال عليه الصلاة والسلام: (فخلهم)^(٢).

فتبليغ الناس بهذه البشارة وإدخال السرور عليهم بذلك مصلحة، واتكاهم على ذلك وعدم فهمهم وتركهم العمل مفسدة عظيمة، لذا اعتمد رسول الله ﷺ ما رآه عمر في ذلك وهذا من أكبر الأدلة على تقرير هذه القاعدة.

ومنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن سعد أنه قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطاً وأنا جالس فيهم قال: فترك رسول الله ﷺ منهم رجلاً لم يعطه، وهو أعجبهم إليّ فقمت إلى رسول الله ﷺ فساررتة فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، قال: (أو مسلماً)، فسكت قليلاً ثم غلبنى ما أعلم منه فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً، قال: (أو مسلماً)، فسكت قليلاً ثم غلبنى

(١) رواه البخاري باب "من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا" ورواه الإمام أحمد في

مسنده.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم في صحيحه برقم (٣١) وأخرجه أيضاً: أبو عوانة برقم (١٧)، وابن

حبان برقم (٤٥٤٣).

ما أعلم منه فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً، قال: (أو مسلماً)، قال: (إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه)^(١)، فانظر كيف ميز النبي ﷺ بين الأفراد في العطاء، وبين أن سبب هذا التمييز هو مراعاة المصالح والمفاسد، ولكن لا بد وأن نقرر أن المصلحة المعتبرة هي ما اعتبره أهل العلم، وليس الباب مفتوحاً لأهل الأهواء وصغار الطلبة، بل الأمر يحتاج إلى فهم أهل العلم الراسخين رحمهم الله تعالى، ونضرب لك بعض الفروع لتوضيح المراد من تقرير هذه القاعدة فأقول وبالله تعالى التوفيق:

الأول: لقد قرر أهل السنة رحمهم الله تعالى وجوب طاعة الحاكم في غير معصية الله تعالى، وأنه لا يجوز الخروج عليه ولا نزع اليد من الطاعة إلا إن رأينا كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان وغلب على الظن الانتصار عليه بلا مفاسد أكبر من المصالح المرجوة، فهنا راعى أهل العلم مسألة المصالح والمفاسد فإنه ليس من الحكمة ولا من العقل أن نبعده إن كان يلزم من ذلك إراقة الدماء وضعف الدين وانتشار الفوضى في البلد، وإخافة السبيل وتضييع الحقوق، وغير ذلك من المفاسد، بل بقاؤه

(١) رواه البخاري ٢٧٠/٣ في الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وفي الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، ومسلم رقم (١٥٠) في الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، وأبو داود رقم (٤٦٨٣) و (٤٦٨٤) و (٤٦٨٥) في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والنسائي ١٠٣/٨ و ١٠٤ في الإيمان، باب تأويل قوله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

خير للأمة من إبعاده والحالة هذه، فنحن نرجو في إبعاده مصلحة، لكن إن كانت مصلحة بقاءه أكبر فالمشروع إبقاؤه ونحن نريد في تنحيته عن منصبه دفع مفسدة، ولكن إن كان سيلزم منه مفسدة أكبر فالحكمة هو إبقاؤه في منصبه، والمهم أن أهل السنة رحمهم الله تعالى نظروا إلى مسألة المصالح والمفاسد في مسألة الخروج على الحاكم وإبعاده عن منصبه، فلا يجوز الخروج عليه إلا بهذين الشرطين: أن نرى كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان، وأن يغلب على ظننا عدم ترتب مفاسد أكبر من المصلحة المرجوة، والله أعلم.

الثاني: لقد قرر أهل السنة رحمهم الله تعالى أن صلاة الجمعة والجماعة والحج والجهاد إن كان لا يقيمه إلا إمام المسلمين العام، وكان فيه شيء من الفسق والفجور، فإن الحق والواجب هو إقامة هذه الأمور خلفه، بل قرر أهل السنة رحمهم الله تعالى أنه لا يتخلف عن الصلاة خلف إمام المسلمين في هذه الحالة إلا مبتدع، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك، فإن المأموم يصلي خلفه، عند عامة السلف والخلف. ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر، فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس رضي الله عنه، كما تقدم، وكذلك عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم

الصباح مرة أربعاً، ثم قال: (أزيدكم؟! فقال له ابن مسعود: (ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!!) وفي الصحيح: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حضر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: (إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: يا ابن أخي، إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم). وذلك لأن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فساداً من الإقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لاسيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجوراً، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

الثالث: المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال وأن من الحكمة السكوت عن بعض العلم إن كانت المصلحة في السكوت عنه، فليس كل شيء تعلمه لابد من أن تقوله، لا، بل لا يدفعك للكلام إلا المصلحة، ولا يدفعك للسكوت إلا جلب المصلحة أو دفع المفسدة، فليس العالم بوقا ينطق بما يريده الناس أو يشفي غيظ قلوبهم، أو بما يهونه حتى تكون الخطوة عندهم، لا، من قام في قلبه ذلك فليس بعالم وإن لبس مسوح العلماء فتبليغ العلم لا بد وأن يؤخذ مقرونا بهذه القاعدة، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى معاذاً عن التحديث بالحديث وفيه: (وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)^(١)، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: (حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم وعاءين من العلم، أما أحدهما

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٣٠٠ / ١٣ في التوحيد، وفي الجهاد، وفي اللباس، وفي العلم، ومسلم

رقم (٣٠) في الإيمان، والترمذي رقم (٢٦٤٥) في الإيمان.

فبشئته، وأما الآخر فلو ببشئته لقطع هذا البلعوم^(١)، فكان من الحكمة في حقه أن لا يحدث بهذا النوع من العلم، لما فيه من المفسدة الكبيرة المترتبة على الكلام فيه، وهذا الفعل من أبي هريرة رضي الله عنه من باب تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والله أعلم.

الرابع: لا جرم أن الأدلة وردت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصوص فيه كثيرة وأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يراد تحقيق المصالح ودفع المفاسد، فإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمان من الأزمنة أو مكان من الأمكنة يلزم منه ترتب مفسدة أكبر من المفسدة التي نرجو زوالها، فالحكمة والمشروع الآن هو عدم الإنكار، لأننا إنما نريد أن نتلف مفسدة ونحیی مصلحة، وفي تجويز الإنكار في هذه الحالة قلب الأمر، فبما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الحالة المعينة يفضي إلى مفسد أكبر وأعظم فالحق أنه لا يجوز استعماله، هكذا قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى. وما ذلك إلا لأن الدين مبني على جلب المصالح ودفع المفاسد، والله أعلم

الخامس: ما قرره الفقهاء من أن السنة ترك السنة إن كانت الترك لمصلحة التأليف، وهذا أمر مهم لا بد وأن يفهمه الدعاة، فإن كان الإنسان بين ظهري دولة تدين بمذهب معين، وهو قادم للدعوة أصلاً، وكان أفراد تلك الدولة لا يسمعون لمن يخالفهم في المذهب، وكنت أنت ترى أن من السنة كذا وكذا مما لا

(١) أخرجه البخاري في جامع الأصول، في رواية الحديث ٨/٢٣ برقم (٥٨٥٧).

يراه أهل هذه الدولة، فالذي نراه في حقل أن ترك هذه السنة من باب مصلحة التأليف فإن مصلحة التأليف واستماع الدعوة، أولى مراعاة من مجرد مصلحة فعل هذه السنة، وعلى ذلك فالأولى الجهر بالبسملة أحياناً لمصلحة التأليف، لاسيما في البلاد التي ترى أنها آية من الفاتحة، والأولى ترك القنوات في الوتر أحياناً لمصلحة التأليف، والأولى ترك ضم اليدين أحياناً على الصدر لمصلحة التأليف، والأولى ترك الجهر بالتأمين أحياناً لمصلحة التأليف وهكذا، وما ذلك إلا لأن مراعاة مصلحة تأليف القلوب واتحاد الصف، وعدم الخلاف والفرقة أولى من مراعاة فعل هذه السنة، لأن الشريعة جاءت بتقرير المصالح وتكميلها وتعطيل المفسد وتقليلها. والله أعلم.

السادس: ما قرره الفقهاء رحمهم الله تعالى من أن السنة إذا أدى فعلها إلى مفسدة فإن المشروع تركها وما ذلك إلا لأن دفع المفسد أولى من جلب المصالح، كما في سنن الحج مثلاً، فتقبيل الحجر الأسود إن أدى إلى الوقوع في المحرم من المسابرة والمشائمة والمدافعة التي تفضي إلى إيذاء عباد الله، فإن كان تقبيل الحجر يؤدي إلى هذا، فالمشروع تركه، وكذلك الصلاة خلف مقام إبراهيم - أعني ركعتي الطواف - فإن كان فعلها في هذا المحل يفضي إلى مفسدة كمزاحمة الناس في الطواف المزاحمة الشديدة، وإيذاء عباد الله تعالى فالمشروع تركها، والصلاة في أي بقعة من الحرم، وكالرملة في الطواف، فإن كان يفضي إلى الاصطدام بالناس والدفع في أعجازهم فاتركه، وغيرها من الأمثلة كثير، ودونك هذا الضابط الذي يقول: «كل سنة في الحج أدى فعلها إلى مفسدة فالمشروع تركها» والله أعلم.

السابع: ما كان النبي ﷺ يفعله من تحول الصحابة رضي الله عنهم بالموعظة كراهية السامة عليهم، فلا ينبغي الإكثار على الناس بالموعظة حتى يصل بهم الواعظ إلى الملل، بل عليه مراعاة المصلحة في الموعظة، ففي الحديث: (كان النبي ﷺ يتحولنا بالموعظة في الأيام كراهية السامة علينا)^(١)، وهو في الصحيح، قال النووي رحمه الله تعالى: «اعلم أنه يُستحب لمن وعظ جماعة أو ألقى عليهم علماً أن يقتصد في ذلك ولا يطول تطويلاً يُملُّهم، لئلا يضجروا وتذهب حلاوته وجلالته من قلوبهم، ولئلا يكرهوا العلم وسماع الخير فيقعوا في المحذور»، وروى مسلم في الصحيح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقَصْرَ خُطْبَتِهِ مَنَّةٌ مِنْ فَهْمِهِ، فَأُطِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ)^(٢)، وعن عكرمة أن ابن عباس قال: (حدث الناس كل جمعة مرة فإن أبيت فمرتين فإن أكثرت فثلاث مرات ولا تمل الناس هذا القرآن ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فلإني عهدت رسول الله ﷺ

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، أخرجه البخاري ١/١٤٩ في العلم، ومسلم رقم (٢٨٢١) في المنافقين، والترمذي رقم (٢٨٥٩) في الأدب، والطبراني في الكبير (١٠٤٣٠، ١٠٤٣١).

(٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير قريش بن إبراهيم - وهو البغدادي - فمن رجال "التعجيل" وأخرجه الدارمي (١٥٥٦)، ومسلم (٨٦٩)، والبزار في "مسنده" (١٤٠٦)، وأبو يعلى (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٧٨٢)، وابن حبان (٢٧٩١)، والبيهقي ٣/٢٠٨، والحاكم ٣/٣٩٣ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وأصحابه لا يفعلون ذلك»^(١)، وقال الزهري: «إذا طَالَ الْمَجْلِسُ كَانَ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبٌ»، والله أعلم.

الثامن: لقد اختلفت أنظار أهل العلم في الواعظ والمدرس يقوم بعد الصلاة مباشرة ليلقي درسه أو موعظته، وبقي طائفة من المصلين تقضي ما فاتها من الصلاة، أو كان هناك جماعة ثانية، مع أنه من المعلوم أن المدرس والواعظ سيلقي الدرس بصوت مرتفع، مما قد يوجب التشويش على المصلين، فهل يقدم الدرس، أو يقدم غيره؟ والأقرب عندي والله أعلم أنه لا حرج عليه في إلقاء موعظته ودرسه فهاهنا مصلحتان تعارضتا، مصلحة صلاة الجماعة الثانية ومصلحة إلقاء الدرس أو التنبيه على شيء من مهمات الدين، ولا شك أن مصلحة الدرس أعم وأنفع غالبًا، وبإمكان المتأخرين الصلاة خارج المسجد أو تأخير الصلاة لحين الفراغ من الدرس ما لم يتضايق وقت الفريضة، ولو أمكن الجمع بين الأمرين كان أفضل، كأن تتأخر الجماعة الثانية أو ينتظر المدرس أو الواعظ حتى يفرغوا، ولكن لما كان الغالب أن الناس لا يصبرون بل يخرجون سراعًا من المسجد، وأن الجماعات قد تكثر بعد الصلاة الأولى كان إلقاء الدرس أولى. هذا وقد كان النبي ﷺ أحيانًا يعظ الناس بعد الفراغ مباشرة من الصلاة وقد يوجد المسبوق الذي يقوم لإكمال صلاته ونحوه، ولم ينقل أن النبي ﷺ كان ينتظرهم حتى يفرغوا. روى مسلم في صحيحه

(١) أخرجه البخاري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، باب في آداب التعليم ١٦/٢ برقم

عن أنس رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: (أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود، ولا بالقيام، ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي)، ثم قال: (والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً)، قالوا: وما رأيتم يا رسول الله؟ قال: (رأيت الجنة والنار)^(١).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فكان النبي ﷺ يقل ما يريد التنبيه عليه، من غير نظر لمن فاتته الصلاة، وهذا فيه دليل على رجحان ما ذكرته، والأحاديث التي تدل على وعظه وتدريسه عقب الصلاة مباشرة كثيرة والحمد لله.

التاسع: ترك قتل المنافقين فإن النبي ﷺ كان يعلم المنافقين بأعيانهم وأخبر بهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مع ذلك لم يتعرض لهم بقتل، وذلك كله خشية أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه فيكون هذا الكلام منفراً للناس عن الدين، فهنا مفسدتان ومصلحتان: فالمفسدة الأولى: افتتان الناس عن الإسلام ونفورهم منه. والثانية: الإبقاء على المنافقين وترك قتلهم مع أنهم يستحقون القتل لكفرهم في الباطن، لكن المفسدة الأولى أشد وقعاً فروعيت بارتكاب المفسدة الصغرى دفعاً لكبرى المفسدتين بارتكاب أذناهما. وأما المصلحتان:

فالأولى: تأليف الناس على الإسلام وهي المصلحة الكبرى.

(١) رواه مسلم رقم (٤٢٦) في الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، والنسائي ٣ / ٨٣ في

السهو، باب النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة.

والثانية: إراحة الإسلام والمسلمين من المنافقين ودفع شرهم وأذاهم بقتلهم وهي الصغرى فروعيت المصلحة الكبرى بتفويت المصلحة الصغرى، والله أعلم.

العاشر: أحيانا تكون المصلحة في أن لا ترد على أهل البدع، ولا أن تنظر لهم بعين الاعتبار وأن تحتقرهم بالسكوت وصرف النظر عن كلامهم، لاسيما إن كان الكلام فيما يخصك أنت في ذاتك فأنا أرى والله أعلم أن السكوت عمن نالك بالأذى في كثير الأحيان أولى وأحسن، فإن الفتنة نار، وكثرة الكلام والجدال فيها مما يزيد لهيبها، فالرد على أهل البدع وغيرهم من المخالفين، من عدم الرد عليهم لا بد وأن يراعى فيه جانب تحقيق المصالح ودفع المفسد وليتني أصبر عمن تكلم فيّ لكان في ذلك خير كثير، ولكنني قليل الصبر في هذه المسألة جدا أسأله جل وعلا أن يوفقنا وإياكم لحسن القول والعمل، وأن يفقهنا في ديننا وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا، والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة العاشرة

﴿ العبرة في الدعوة بموافقة الحق ﴾
﴿ لا كثرة الأتباع على غير الهدى ﴾

أقول: إن من الناس من يغتر بالكثرة، ويرى أن الميزان في معرفة المحق من المبطل إنما هو على كثرة الأتباع، وهذا ميزان باطل، وليس له من الأدلة نصيب، بل الأدلة وردت بخلافه، فعلى الداعية أن يكون همه الذي يأكل معه ويشرب إنما هو موافقة الحق، فموافقة الحق في الدعوة هو الهم الأكبر الذي لا بد من مراعاته، فنحن ندعو للحق لا لتكثر من الأتباع على غير الهدى، فالدعوة المبنية على الحق والهدى هي الدعوة الناجحة الباقية وإن قل الأتباع فيها، بل إن عادة أتباع الحق هو القلة لا الكثرة هذا في الغالب، قال تعالى عن قوم نوح بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما: ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فلا يضر الداعية قلة الأتباع إن كان على الحق والهدى، ولا ينفعه كثرة الأتباع إن كان على الضلال والبدعة والمخالفة، بل ضرر كثرة الأتباع على غير الهدى أكبر من نفعهم، فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا

ينقص من أوزارهم شيء، كما في الحديث، مع أن نية الداعية بدعوته تكثير الأتباع خلل في النية وسوء في القصد، فالله الله أيها الداعية الحبيب بالحرص الكبير على موافقة الحق واتباع الدليل، سواء تبعك أحد أو لم يتبعك أحد، سواء أحبك الناس أو كرهوك، قبلوك أو رفضوك فالداعية الناجح هو من وافق في دعوته الحق، ولو لم يتبعه أحد.

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: (فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان والرهط والرهيط، ورأيت النبي وليس معه أحد) حديث صحيح^(١)، والناجون من الأمم قليل، فلا تجعل نجاح الداعية مربوط بكثرة أتباعه ومن يحضر عنده من الناس، وإنما العبرة والميزان هو موافقة الحق، وليست الجماعة الممدوحة من كثرت أعدادها، بل الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، وكم من الدعاة من يجتمع عنده آلاف الناس وليس على شيء من الحق والهدى، ولكنه التحريض والحماس ورفع الأصوات والصراخ وتهيج العامة وإشغال الناس بالقليل والقال وقصاصات المجلات والجرائد، والتحديث بالغرائب من الحكايات والقصص التي لا خطام لها ولا زمام، وكم من الدعاة من لا يكون عنده إلا الجماعة القليلة التي قد تعد على الأصابع، ولكنه على جادة الحق والصراط المستقيم، فإن وافقت الحق في دعوتك فلا حرج عليك أن لا يكون عندك إلا نفر قليل، وإن مراعاة كثرة الأتباع في الدعوة إلى الله قد جر بعض الدعاة إلى أن يقول في دعوته ما يريد به الناس لا ما

(١) رواه البخاري في الطب باب من لم يرق، وفي الأنبياء باب وفاة موسى، وفي الرقاق باب من يتوكل

على الله فهو حسبه، ورواه مسلم في الإيمان، والترمذي في صفة القيامة.

يعرف أنه موافق للحق، فينظر ما الذي يحبه الناس ويتعشقونه فيقول له، حتى يتكثر من الأتباع، فليس همه موافقة الحق، وهذا الأمر إن دخل في اهتمام الداعية أفسد عليه قلبه، وكدر عليه صفاء نيته، وذمته الألسنة، واحتقرته الأعين، وأمره لا يزال في سفال، وسعيه إلى وبال، ولم يبال الله تعالى به، فلا ثواب له ولا أجر، بل الخيبة والخسارة في الدارين، والله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، نعم، إن كثرة الأتباع على الحق والهدى من غير قصده بالذات فالحمد لله، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، وأما أن يكون التكثر من الأتباع على حساب ترك الحق والسكوت عن الباطل والمجاملة في الدين والمداهنة على الأمر المشين فهذا أمر لا يجوز، فنسأل الله تعالى أن يظهر قلوبنا مما لا يرضيه، وأن يكفيننا شر النفوس الأمارة بالسوء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أقول أيها الداعية المبارك: إن العبرة في الدعوة بحلول البركة من الله تعالى، والتوفيق منه سبحانه وتعالى فلربما لا يكون قد تبعك على دعوتك إلا الواحد أو النفر القليل، ولكن الله تعالى يحيي بهم الأمة كلها فالعبرة بالكيف لا بالكم، وكم من داعية تجتمع عنده الآلاف المؤلفة، ولا تنتفع بهم الأمة في شيء بل يكونون عالية عليها في فساد فهمهم وحماسهم غير المنضبط، والتوفيق والبركة لا تكون إلا في صلاح النية وسلامة المقاصد وتوحيد الهم على نصرة الحق ودلالة الناس على الصراط المستقيم، وأن تكون الغاية بالقصد الأول رضا الرب جل وعلا وإحياء دينه في القلوب، وهداية الناس إلى طريقه، كثر الأتباع أو قلوا، فليكن آخر اهتماماتك كثرة الأتباع أو قلة الأتباع، واستمر في العطاء، واتق الله تعالى وأحسن الظن به وتوكل عليه، وصحح الطريق إليه والزم جادة سلف

الأمة في العقيدة والعمل والدعوة وأبشر بالخير الكثير والثواب الجزيل منه جل وعلا، وقد جرت سنة الله تعالى أن الحق عال وإن تطامن في أول الأمر، وأن الباطل في سفال وإن تناول أول الأمر، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، فظهر قلبك من المقاصد التي توجب له الوهن والانقطاع وعليه: فإن افتتحت درسا في العقيدة أو الفقه أو نحوها من علوم الشريعة وقل عندك الحضور فاحذريا أخي من إغلاقه، بل واصل واستمر في العطاء ولو لم يحضر عندك إلا واحد، ما دمت تدرس العلم الشرعي والخير فلا تغلقه أو يضيق صدرك من قلة الحضور، أو تعاقب من حرص على الحضور بخطأ من لم يحضر، فتحرم الحاضر من أجل من غاب، واصل في الدرس واستمر في النفع وأبشر بالخير، فإنما عليك هداية الدلالة والإرشاد لا هداية التوفيق والإلهام، وقم بالذي عليك ولا شأن لك بتقصير غيرك وإن افتتحت موقعا للدعوة إلى الله تعالى على بصيرة وعلم في الشبكة العنكبوتية، وقل الزائرون لموقعك فلا يضق صدرك وأبشر بالخير العظيم، وخدمة الدين هي غاية الشرف، وأما كثرة الزائرين لموقعك من قلتهم فليست بشيء، ولا تنكسر إن رأيت بعض المواقع يزورها الآلاف، فإنها إن كانت على الحق والهدى فهو محض توفيق وفضل من الله تعالى، فلا تحسد أخاك على نعمة الله تعالى عليه، وإن كانت على غير الحق والهدى فإنها هي وبال على أصحابها، وإن رتبت بعض المحاضرات الطيبة في الموضوعات الهادفة ولم يأتك لحضورها إلا القليل من الناس فلا تحزن، ولا تيأس، وأبشر بالخير، لأنك قمت بما هو مطلوب منك، فتقصير غيرك فيما هو مطلوب منه لا تسأل عنه ولا تحاسب

عليه، فعليك بالبذل والترتيب والعطاء وما عليك إن لم يأتك أحد، فإن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه من أمته أحد، وهو نبي يوحى إليه، وعليك بالتحلي بالصبر والحلم، والنجاح عند الله تعالى ليس مربوطاً بكثرة الحضور أو قلتهم، بل بموافقة الحق والهدى والدليل، مع أن الأمر لن يبقى على القلة، كما هو الحال بالتجربة، بل سيفتح الباب، ويكثر الناس، والأمر بيد الله تعالى، وقد سمعت من بعض الثقات أن الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى في أول أمره في التعليم في الجامع الكبير بعنيزة، قد لا يحضر عنده إلا الواحد، بل وربما يمر وقت الدرس ولم يحضر أحد، ولكن لم يقبض الله تعالى روحه إلا وقد تجمهر الطلاب في دروسه بالمئات، بل بالآلاف كما في درسه في الحرم، وفي الدورات الشرعية المقامة في الجامع الكبير، فالتوفيق بيد الله تعالى وحده، مع أن الأمر حتى وإن استمر على القلة فلا يضر، لأن المعترف في الدعوة إنما هو موافقة الحق والهدى، لا التكثر من الأتباع على غير الهدى، فهذه القاعدة الطيبة في الحقيقة تحفظ قلب الداعية من ورود المقاصد التي لا تنبغي، ودافعة للعطاء والاستمرار في البذل بلا انقطاع بإذن الله تعالى، والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الجاذبة عشر
العبارة في الدعوات على الحقائق والمضمون
لا على مجرد الأسماء

نعم، وهذا هو الحق الذي لا يجوز العدول عنه، فإن هناك من الدعوات التي عرفت في العالم الإسلامي من تسمت بالأسماء البراقة الخلافة التي يسرق القلوب جمالها ورونقها، ورفعت الشعارات التي تكيد ببريقها أهل الإسلام، ولكنك إن نظرت إلى مضمون ما ترمي له تلك الدعوات ونظرت إلى أصولها المقررة ومقاصدها المرادة وجدتها بعيدة عن الحق والهدى، بل هي حرب على الدين ونسف لشريعة رب العالمين، ولكن بعض الدعوات الباطلة إنما تريد التلبس ببعض الأسماء البراقة والانطواء تحت الشعارات المقبولة للنفوس لترويج باطلها بين العامة من حيث لا يدري عن خبيثها أحد، فالحذر الحذر أيها الأحبة من الانخداع بتلك الأسماء البراقة التي تسلب القلوب وتسرق العقول بجمالها، فالعبارة في الدعوات والشعارات إنما هو على الحقيقة والمضمون، فلا تعطى الدعوة حكماً على مجرد الأسماء، بل لا بد من النظر في أصولها التي تنبثق دعوتها منها، ولا بد من النظر في سلامة عقيدتها التي تدعو لها، ولا بد من موافقتها في حقيقتها ومضمونها لمنهج سلف الأمة وأئمتها، وأما إن خالفت ذلك فإنها تكون من الدعوات الضالة حتى

وإن تسمت بأحسن الأسماء وأجمل الألقاب، ولذلك فقد حرص أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى على ضبط هذا الباب بتقعيد قاعدة مهمة في التسمية، والقاعدة عندهم تقول: «أهل السنة لا ينتسبون في التسمية إلا للإسلام والإيمان أو ما دل عليه الدليل أو كان مما يميزهم عن غيرهم من سائر الفرق المخالفة للعتيدة الصحيحة».

ولذلك فإن من أعظم مميزات أهل السنة والجماعة أنهم لا ينتسبون إلا إلى الإسلام أو ما دل عليه الدليل أو كانت صفة راسخة فيهم واشتهروا بها بخلاف الفرق الضالة المنحرفة عن منهج الحق فإنها في نسبتها إما أن تنتسب إلى مؤسسها أو لأصل بدعتها أو غير ذلك، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - أما أهل السنة والجماعة فلا، بل الألقاب التي تلقبوا بها هي حق وصدق في ذاتها، وهي تدل على سلامة المنهج ووضوحه وأصله ومستنده.

وإن من أعظم أسمائهم هو ما سماهم به ربهم في كتابه الكريم، وهو من أحب الأسماء إليهم - نسأل الله أن يجعلنا منهم - وهو اسم المؤمنين، فدائماً تجد في كتاب الله تعالى يخاطب عباده الصالحين باسم المؤمنين، وهذا الاسم صادق على المؤمنين جميعاً، إلا أنه أصدق وأليق على أهل السنة والجماعة لأنهم هم المؤمنون حقاً الذين آمنوا بالله وكتابه ورسوله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢]، وأهل السنة والجماعة آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أما من عداهم من الفرق فإنهم لم يحققوا الإيمان

الكامل بالله ولا برسله فإن من أنكر الأسماء والصفات كلها أو بعضها ومن أنكر القدر ومن أنكر رؤية الله تعالى، ومن يسلب عن الله النقيضين، ومن يصف الله بصفات النقص والعيب، ومن لا يقبل ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب بل يُقدِّم آراء اليونان على الكتاب والسنة، فكيف يكون مؤمناً بالله تعالى ورسله، فإن حقيقة الإيمان هو التصديق الجازم المقترن بالقول والعمل، فمن آمن ولم يقل ولم يعمل فليس بمؤمن، أما أهل السنة والجماعة فهم آمنوا بقلوبهم وقالوا بألسنتهم وعملوا بجوارحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤].

وهذه الآيات من سورة الأنفال هي الحد الفاصل بيننا وبين القوم فنقول لهم: تعالوا حتى تتلى عليكم آيات الله، الآيات التي تثبت الوحداية، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد وأنه سبحانه ليس له سمي، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى فوالله إن القوم حتى وإن تلوا آيات بألسنتهم إلا أن قلوبهم من أبعد الأشياء عن الإيمان بها واعتقادها فإنهم يعتقدون أن القرآن لم يأت إلا بالتعطيل المحض وبالكفر الصراح فتراهم يحاربون قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، فيقولون من اعتقد أن الله يدين فقد كفر.

ومن اعتقد أن الله وجهاً ومحيئاً فقد كفر، فيا سبحان الله وهل يكفر من آمن بما قال ربه؟ فهؤلاء القوم الضلال إذا تُتلى عليهم آيات ربهم زادتهم نفوراً وتعطيلاً

وتشبيهاً وتحريفاً وطغياناً أما أهل السنة والجماعة هم الذين إذا تتلى عليهم آيات الله تزيدهم إيماناً إلى إيمانهم فهم المؤمنون حقاً والمقصود أن من أحب الأسماء إلى السلف هو اسم المؤمنين فلهم الحظ الأعظم والنصيب الأوفر من هذا الاسم الشريف الكريم والله أعلم.

ومن أسمائهم المحبوبة لديهم - رحمهم الله تعالى - :

أهل السنة والجماعة؛

فهذا الاسم هو الاسم الذي اشتهروا به وصار علماً عليهم وهو مكون من لفظتين، اللفظة الأولى (أهل السنة) اللفظة الثانية (الجماعة) فسموا بأهل السنة؛ لأنهم اتفقوا على الأخذ بسنة النبي ﷺ في العقيدة والعمل، وسبب ذلك أن النبي ﷺ قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)^(١)، فالسلف أخذوا بسنة النبي ﷺ عقيدة وعملاً، وتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وبسنة الخلفاء الراشدين، وساروا عليها في وقت تفرقت فيه الآراء، وتعددت فيه الفرق، واختلفت فيه النحل؛ ولذلك سمو بأهل السنة، وأما تسميتهم بالجماعة؛ فلامرين، الأول: لأن أهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية التي شهد لها النبي ﷺ بالنجاة في الدنيا والآخرة، وذلك

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود في " السنة " رقم (٤٦٠٧): باب لزوم السنة، والترمذي في العلم

رقم (٢٦٧٨): باب ١٦، وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٢٦ ١٢٧، وابن ماجه في المقدمة رقم ٤٢

باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين.

في حديث الافتراق، قال رسول الله ﷺ: (... وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: (الجماعة)^(١)، فسموا بالجماعة؛ لأن الجماعة مأخوذة من الاجتماع على الشيء وهو الإجماع أيضًا، فهم أجمعوا قاطبة على الأخذ بسنة النبي ﷺ واجتمعوا عليها ولأنه ﷺ أوصى بالجماعة فقال: (وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة)^(٢)، فألف بين قلوبهم حتى توافقت آراؤهم، فأجمعت على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهي جماعة واحدة مجتمعة على الحق، ولا نعني بالجماعة أنها لا بد أن تكون مؤلفة من أفراد، بل الأهم هو موافقة الحق، فالجماعة هو ما وافق الحق وإن كنت وحدك، وإلا فالمعتزلة جماعة والجهمية جماعة، لكنهم جماعة سوء وضلال ليست جماعة حق، فلو قدّر الله تعالى أن لا يعتقد منهج السلف إلا واحد فقط وأهل الأرض كلهم في ضلال فهو الجماعة، وإن كان وحده.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٢٢/٢)، رقم ٣٩٩٢ وأخرجه الطبراني (٧٠/١٨)، رقم ١٢٩. وأخرجه أيضاً: في مسند الشاميين (١٠٠/٢)، رقم ٩٨٨، وابن أبي عاصم في السنة (٣٢/١)، رقم ٦٣، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٠١/١)، رقم ١٤٩.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٤٧/١٢)، قال الهيثمي في المجمع (٢١٨/٥): «رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى طلحة وهو ثقة»، وأخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٧) من طريق آخر عن ابن عمر رضيهما الله عنهما وفي آخره زيادة: (ومن شذ شذ إلى النار)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وقال ابن حجر في التلخيص (١٤١/٣): «في سنده سليمان بن شعبان المدني وهو ضعيف»، وله شواهد كثيرة ولذا صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٧٥٩) ولكن بدون الزيادة.

ومن أسمائهم أيضًا:

الفرقة الناجية والطائفة المنصورة:

فأما تسميتهم بالفرقة الناجية فلأنهم نجوا من بلتين هما: الشبهات والشهوات في الدنيا، فإن الشبهات والشهوات هي مصدر كل بلاء وفُرقة وفجور ونجوا يوم القيامة من النار، وهذه الشهادة هي من نوع الشهادة العامة، وسيأتي التفصيل فيها، بمعنى أن نقول: إن من كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه فقد نجى من النار لكن لا نشهد للواحد منهم بأنه ناجٍ من النار بعينه إلا من شهد له النص. فلأنهم نجوا من الشبهات والشهوات في الدنيا ونجوا من النار يوم القيامة سموا الفرقة الناجية، وقد وردت هذه التسمية في بعض الآثار الله أعلم بصحتها. وأن تسميتهم بالطائفة المنصورة فذلك لأمرين، الأول: لأن النبي ﷺ قال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورون لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله)^(١)، ولا نعلم طائفة منصورون على مر التاريخ إلا أهل السنة والجماعة. فانظر بعين الواقع إلى كثرة من يعاديهم، ومن يكيد لهم، إني لا أكون مبالغًا إن قلت إن الفرق الضالة يكيدون لأهل السنة والجماعة كيدًا كما يكيد اليهود والنصارى لأمة الإسلام، بل أعظم؛ فإن عداوة اليهود والنصارى عداوة ظاهرة لا خفاء فيها، وأما عداوة الفرق الضالة لأهل السنة والجماعة فهو عداوة متكيفة مع الوقت والضغط فتارة يظهر واضحًا كعداء المعتزلة زمن المأمون والشيعة في بعض الدول، وتارة يدخل في الظلام، لكنه مثل عداء المنافقين الذين على عهد رسول الله ﷺ فهم يخرجون معه للجهاد ويحضرون مجالسه غالبًا ومع ذلك فهم من أعداء الدين،

وهؤلاء مثلهم ، ومن استقرأ الأدلة الشرعية وجدها تذكر عداوة المنافقين وتفضح خططهم بإسهاب أكثر مما تذكر عداة الكافرين ؛ لأنه موكول إلى فهمهم فهو أمر واضح ؛ ولا أدلّ على ذلك من أول سورة البقرة، فلم يذكر في الكفار إلا آيتين فقط وذكر في المنافقين أكثر من ثلاث عشرة آية، بل ناهيك بسورة التوبة التي هي الفاضحة، وسورة المنافقون وغيرها. والمقصود أن مذهب السلف لو لم يكن منصوراً من الله تعالى لاندثر وباد كما أن دين الإسلام لو لم يكن من الله تعالى والله تولى حفظه لاندثر وباد والله المستعان. الثاني: أن السلف هم الطائفة المنصورة ؛ لأنهم منصورون في اعتقادهم فهم منصورون بالحجة والبيان، والبرهان والدليل، فلا يناظرهم مناظر أيّا كان إلا رد الله تعالى كيده في نحره وجعله غنيمة لأهل السنة، فلا يأتون بشبهة وإن كبرت إلا ترى الله سبحانه وتعالى يسخر لها جنده فيكسرونها على سنن الكتاب والسنة، أو ليس هذا نصر من الله تعالى لهذه الطائفة القليلة، بلى والذي نفسي بيده ، فهم يلقبون بالطائفة المنصورة، أثرًا ونظرًا والله أعلم.

ومن أسمائهم أيضًا:

السلف:

وهذا الاسم لم يرد فيه دليل شرعي بخصوصه إلا أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على التسمية به، فأطلقوه بينهم بلا نكير، ولم يكن هذا الاسم معروفًا إلا بعد ظهور المذاهب الضالة التي تنتسب إلى الإسلام ويلقبون أنفسهم بالسلف، فأبى الله تعالى إلا أن يجعل الفضل لأهله فتسمى أهل السنة بالسلف وصار شعارًا عليهم والسلف لهم اعتباران، اعتبار زمان واعتبار معتقد: فأما السلف باعتبار الزمان: فهم القرون الثلاثة

المفضلة فقط، الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية كما في حديث عمران بن حصين مرفوعاً: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...) (١).

والحكم بالخيرية في هذه القرون حكم مختلف، فالخيرية في قرن النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم هو باعتبار الأعيان فأعيانهم خير ممن يأتي بعدهم إذ لا يأتي بعد الصحابة من هو خير منهم، وأما الخيرية في القرنين الآخرين فهو باعتبار العموم والأغلب، فالأغلب أن القرن الثاني خير من الثالث والثالث خير من الرابع في الجملة بغض النظر عن الأفراد، فقد يأتي من الأفراد في القرون المتأخرة من هو خير وأفضل ممن قبله عدا قرن الصحابة، وهكذا. وقد قال النبي ﷺ: (لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه) (٢)، هذا الحكم في الغالب لا الأعيان، والله أعلم. فالسلف هم أهل القرون الثلاثة ومن بعدهم خلف.

وأما السلف بالاعتبار الثاني: فيدخل فيهم كل من سار على نهجهم في العقيدة والعمل إلى قيام الساعة، فإذا قيل: هل الحسن البصري من السلف؟ قل: نعم، هو

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ٥ / ١٩٠ في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، وفي الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، وفي الأيمان والنذور، باب إثم من لا يفي بالنذر، ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم، والترمذي رقم (٢٢٢٢) في الفتن، ورقم (٢٣٠٣) في الشهادات، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السنة، والنسائي ١٧ / ١٨ في الأيمان والنذور.

(٢) أخرجه أحمد (٣ / ١٣٢، رقم ١٢٣٦٩)، وأبو يعلى (٧ / ٩٧، رقم ٤٠٣٧)، ونعيم بن حماد (١ / ٤١، رقم ٤٧) من حديث أنس بن مالك، والحديث صحيح.

من أئمة السلف بالاعتبارين باعتبار الزمان وباعتبار المعتقد. وإذا قيل لك: هل أبو العباس ابن تيمية من السلف؟ قل: هو سلفي، باعتبار المعتقد، خلفي باعتبار الزمان، وعلى هذا فقس.

ومن أسمائهم أيضًا:

أهل الأثر وأهل الحديث؛

وغيرها من الأسماء العظيمة التي تدل على سلامة هذا المنهج العظيم.

وأما من عداهم من الفرق فإنهم لم ينالوا هذا الشرف بل هم يتسمون بأسماء من أسس مذهبهم كالأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، والماتريدية نسبة إلى أبي منصور الماتريدي، والجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان، والسبائية نسبة إلى عبد الله بن سبأ اليهودي عليه من الله ما يستحق ونسأل الله أن يعامله بعدله لا بعفوه؛ لأنه أدخل على الإسلام وأهله من البدع المضللة الشيء الذي يفوق الذكر. والزيدية نسبة إلى زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو منهم براء رضي الله عنه. وهي مع التعداد كثيرة والمقصود الإشارة، وإما أن تتسمى بالبدعة التي ابتدعتها، وذلك كالخوارج؛ لأنهم خرجوا على علي بن أبي طالب، بل خرجوا عن المسلمين بالكلية واعتقدوهم كفارًا دمههم حلال ودارهم دار حرب. وكالقدرية، وهم المعتزلة في باب القدر؛ وذلك لأنهم يخرجون أفعال العباد أن تكون مقدورة لله تعالى. وكالجزيرية؛ لأنهم يعتقدون أن العبد مجبور على فعله، وغيرها، أو تتسمى بشيء اشتهرت به وإن لم يكن في حقيقته أنه بدعة، كالمعتزلة؛ لأن رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل مجلس الحسن البصري رحمه الله تعالى.

فاحذر رحمك الله تعالى من الدخول في هذا الميدان المظلم وكن لازماً أهل السنة والجماعة فإنهم أهل الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة. إذا علمت هذا فاعلم أننا في هذا الزمان نعاني من المشكلة نفسها وهي التسمي بغير الأسماء التي دل عليها الدليل ووقع عليها الإجماع، فكثير من المسلمين اليوم يتسمون بأسماء محدثة مولدة ليس عليها دليل بل هي إما لبدعة أحدثوها، وإما على اسم مؤسس فرقتهم، فأنت ترى هذه الجماعات التي عمت بها البلوى وطمت تتسمى بأسماء ليست شرعية، لا تعرف عن أحد من السلف، بل بعضهم - والعياذ بالله - يعقد الولاء والبراء مع هذه النسبة فتراه يحارب وبقوة كل من رفض الانتساب لفرقته وهذا هو عين التمزق والتفرق المنهي عنه في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وإليك بعض الأمثلة:

فنحن نسمع كثيراً عن جماعة يقال لها جماعة التكفير والهجرة، فهذه الجماعة من أخصب الجماعات الموجودة، وهي جماعة ضالة مخالفة للأدلة الشرعية من كتاب وسنة وهي جماعة تعتقد أن الأصل في الناس هو الكفر، ويكفرون المسلمين بلا دليل ويعملون معهم بالتقية، والمقصود أنهم كالحجوارج في كثير من أصولهم، فهم تسموا بجماعة التكفير لأنهم يكفرون المسلمين بسبب وبغير سبب، وتسموا بالهجرة لأنهم يوجبون الهجرة من ديار الإسلام؛ لأنها دار حرب، ولا أدري إلى أين وخاصة في هذا الزمان. فهذه الجماعة بهذا الاسم أعظم دليل على مخالفة القاعدة السابقة (فالتكفير والهجرة) ليس اسماً شرعياً ولا دليل عليه، وهو خلاف منهج السلف.

ومن ذلك أيضاً حزب (التحرير)، وهو حزب أصوله معروفة مقررة، بل هو تسمية أخرى لمذهب المعتزلة وليس المقصود هنا بيان أصول الفرق والأحزاب وإنما

المراد هو بيان أن من تسمى بغير اسم الإسلام والإيمان أو ما دل عليه دليل أو إجماع للسلف فهو مخالف لمنهجهم ومن ذلك حزب التحرير ولا أدري تحرير ماذا؟ أهو تحرير البلاد أم تحرير القلوب من الاعتقاد الصحيح؟.

هذان مثالان مضروران حتى تقوم أنت بمجرد أسماء الجماعات الموجودة والأحزاب والفرق، ثم تنظر فإن دل عليه دليل أو إجماع فهو اسم شرعي، أو لا فيكون مخالفاً لمنهج أهل السنة والجماعة، لكن يجب عليك أن تتنبه لقضية خطيرة جداً - وهي كالخدعة من هؤلاء الضالين المضلين - وهي: أنهم انتبهوا لهذا الشيء أي انتبهوا إلى أن سبب التسمية لها شأن عند أهل السنة والجماعة، من حيث الحكم على أهلها، فأصبحوا يبحثون عن أسماء شرعية موافقة للكتاب والسنة لكنهم على ما هم عليه من الاعتقاد الباطل وذلك كتسمية المعتزلة والأشاعرة بالسلف وأهل السنة والجماعة فإنهم يطلقون على أنفسهم ذلك وقرأ في كتبهم ترى من ذلك الشيء الكثير، فلا تتخدع بذلك وكن على حذر، بل عليك أن تتعرف على الأمر كله ظاهره وباطنه قبل أن تحكم، فأهل الضلال الذين ينفون الصفات يسمون أنفسهم أهل التنزيه، والمعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد والعدل، وبعض الفرق عندنا يسمون أنفسهم حزب الله وحزب التوحيد، والإخوان المسلمين، وغير ذلك، فيجب عليك البحث قبل إصدار الحكم فالأمر أصبح نفاقاً وخدعة والله المستعان.

وإذا علمت هذا فإنه قد يتطرق إلى الذهن سؤال مهم وهو: أنت حكمت على أن من تسمى بغير اسم الإسلام أو ما دل عليه دليل وتسمى به السلف فقد خالفت منهج أهل السنة والجماعة، فهل مخالفته هذه توجب علي أن لا أنظم معه ولا أعمل

معه في الأعمال الدعوية والأنشطة التي يقوم بها حتى وإن كان فيها صلاح للإسلام والمسلمين؟.

فالجواب وبالله التوفيق: هذا السؤال مبني على مقدمات:

الأولى: هل يجوز الانتساب إلى هذه الفرق مع مخالفتها لمنهج أهل السنة والجماعة في التسمية؟.

الثانية: هل يجوز التعاون معهم دون الانتساب إليهم أم أن الواجب هو ترك ما معهم من الخير والشر؟

وجواب المقدمة الأولى: هو أنه لا يجوز الانضمام إلى إحدى هذه الجماعات التي خالفت منهج أهل السنة والجماعة وذلك لأن القول بجواز الانضمام إليها والدخول تحت شعارها إقرار لها على هذه التسمية هذا بالنسبة إلى المخالفة في التسمية فما بالك إذا اقترن مع التسمية مخالفة لأهل السنة والجماعة في التأصيل كما هو واقع اليوم، المهم: أن تعدد الجماعات الموجودة تدعو غالباً إلى منهجها لا إلى الكتاب والسنة فتجد الواحد إذا انضم إليهم أعطوه أصولهم قبل أن يعطوه أصول الإسلام وهذا مشاهد مجرب، فالقول: بجواز الانضمام دليل الرضى بهذا التفرق ونحن لا نقره. هذا جواب المقدمة الأولى.

وأما جواب الثانية: فإن الدخول مع هؤلاء في نشاطاتهم الدعوية فإن الأمر لا يخلو من أربع حالات: إما أن يكون في التعاون معهم مصلحة خالصة لا مفسدة فيها بوجه من الوجوه فهذا لا بأس به. وإما أن يكون التعاون فيه مفسدة من وجه ومصلحة من وجه لكن تغلب مصلحته على مفسدته فهذا لا بأس به. وإما أن يكون

التعاون معهم فيه مفسدة خالصة فحيثئذ لا يجوز التعاون معهم وكذلك إذا غلبت المفسدة، وذلك لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. وتقدير المفسد والمصالح راجع إلى الشرع وشيء من الاجتهاد الخالي من الهوى والله المستعان وعليه التكلان.

قال الشيخ محمد بن عثيمين في جواب سؤال عن جواز الانضمام والانتماء إلى حزب الإخوان أو التبليغ في بلادنا أهو صواب أم خطأ؟ فأجاب: «الذي أرى أنه خطأ وأنه لا ينبغي أن تفرق الأمة هذا إخواني وهذا سلفي كلنا نريد أن نكون أمة واحدة تحت شعار واحد وهو الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ ولا بد أن يطبق الإنسان أحكامه على حسب ما تقتضيه سنة الرسول ﷺ». والله أعلم.



القاعدة الثانية عشر

البدء بالأهم فالمهم مبدأ رئيس

في سلامة الدعوة من التناقض والخلل

أقول: وهذا من فقه الدعوة، ومعناه واضح ومتقرر في العقول والفطر السليمة، وقد ورد الشرع بإثباته وتقديره في مواضع كثيرة، والأصل فيها حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) ^(١) ، قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى: «لا ريب أن المرشدين هم أطباء المجتمع ، ومن شأن الطبيب أن يهتم بمعرفة الأدوية ثم يعمل على علاجها بادئاً بالأهم فالأهم، وهذه طريقة أنصح الأطباء وأعلمهم بالله وأقومهم بحقه وحق عبادته، سيد ولد آدم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم فإنه ﷺ لما بعثه الله بدأ بالنهي عن

(١) حديث صحيح ، رواه البخاري ، في الزكاة ، وفي المظالم ، وفي المغازي ، وفي التوحيد ، ومسلم في الإيمان ، والترمذي في الزكاة ، وأبو داود في الزكاة ، والنسائي في الزكاة .

أعظم أدواء المجتمع وهو الشرك بالله سبحانه، فلم يزل ﷺ من حين بعثه الله يحذر الأمة من الشرك ويدعوهم إلى التوحيد إلى أن مضى عليه عشر سنين، ثم أمر بالصلاة، ثم ببقية الشرائع، وهكذا الدعاة بعده: عليهم أن يسلكوا سبيله وأن يقتفوا أثره، بادئين بالأهم فالأهم ولكن إذا كان المجتمع مسلماً ساغ للداعي أن يدعو إلى الأهم وغيره، بل يجب عليه ذلك حسب طاقته؛ لأن المطلوب إصلاح المجتمع المسلم وبذل الوسع في تطهير عقيدته من شوائب الشرك ووسائله، وتطهير أخلاقه مما يضر المجتمع ويضعف إيمانه. ولا مانع من بدائه بعض الأوقات بغير الأهم، إذا لم يتيسر الكلام في الأهم ولا مانع أيضاً من اشتغاله بالأهم وإعراضه عن غير الأهم، إذا رأى المصلحة في ذلك وخاف إن هو اشتغل بهما جميعاً أن يخفق فيهما جميعاً، وهكذا شأن المصلحين والأطباء المبرزين، يهتمون بطرق الإصلاح ويسلكون أنجعها وأقربها إلى النتيجة المرضية، وإذا لم يستطيعوا تحصيل المصلحتين أو المصالح، أو تعطيل المفسدتين، اهتموا بالأهم من ذلك واشتغلوا به دون غيره، ومن تأمل قواعد الشرع وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسيرة خلفائه الراشدين والأئمة الصالحين، علم ما ذكرته، وعرف كيف يقوم بإرشاد الناس، وكيف ينتشلهم من أدوائهم إلى شاطئ السلامة، ومن صحت نيته وبذل وسعه في معرفة الحق وطلب من مولاه الهداية إلى خير الطرق، وأنجعها في الدعوة، واستشار أهل العلم والتجارب فيما أشكل عليه، فاز بالنجاح وهدى إلى الصواب، كم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ١. هـ كلامه رحمه الله تعالى.

وقال رحمه الله تعالى: «الواجب على الدعاة إلى الله من الخطباء وغيرهم وعلى الأمراء والحكام الصبر في ذلك مع القيام بالواجب قولاً وعملاً، والبدء بالأهم فالأهم

والعناية بما يحتاجه الناس في دينهم ودنياهم ، والتحذير مما انتشر بينهم من المنكرات والدعوة إلى تركها والتحذير منها» ، وسئل رحمه الله تعالى بما نصه ، قال السائل: الإنسان قد يترك بعض السنن والمستحبات أمام بعض الناس يتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، أو يترك الإنكار عليهم في بعض المكروهات ، حتى يتألفهم ، فما رأي سماحتكم؟ فأجاب رحمه الله تعالى بقوله: «ليس الأمر خاصا بالمكروهات بل حتى بعض المعاصي يتركها. مثل إنسان يتعاطى أشياء دون أشياء فإنه يبدأ بالأهم فالأهم ، مثل: إنسان لا يصلي وهو عاق لوالديه ، أو متهم بالخمر ، أو بشيء آخر من المعاصي ، فعلى الناصح أن يبدأ بالصلاة ويوضح له عظم مكانتها وأن تركها كفر ، فإذا صلى أنكر عليه الناصح المنكرات الأخرى إذا رأى المصلحة في ذلك ، وإن رأى أن إنكار الجميع عليه لا يؤثر في المقصود ورجا أن يهديه الله في الجميع فلا بأس بذلك؛ لقول الله سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] ، ولهذا دعا الرسول ﷺ للإسلام وترك الشرك قبل إنكار المنكرات التي هم عليها مما دون الشرك». وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في فوائد ومسائل حديث ابن عباس المذكور آنفاً ، قال: «الثانية عشرة: البداء بالأهم فالأهم».

وهذا هو منهج الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، فإنهم ما كانوا يبدءون أمهم بغير أهم مسائل الدعوة ، وهو تقرير التوحيد وقضايا التوحيد حتى إذا استقرت أمور التوحيد سليمة في قلوب المدعوين ، جاء بعده تقرير بقية مسائل التشريع ، ولذلك فإن كثيراً من شرائع الملة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم لم تقرر إلا بعد الهجرة إلى المدينة ، وأما في العهد المكي فقد كان

الاهتمام منصباً على تقرير مسائل التوحيد، على مدار ثلاث عشرة سنة من عمر النبوة، بل هذا هو مقتضى العقل، فإنه ليس من الحكمة أن تنصب الجهود على معالجة الأمور الصغيرة، مع اقتراف المدعو الأمور الكبيرة من موبقات الإثم وعظائم العصيان، وليس من الحكمة أن ندعو الناس لمسائل الصلاة والزكاة والحج والصوم وهم يطوفون حول القبور وينذرون لغير الله تعالى ويذبحون لغيره جل وعلا، ويدعون غير الله تعالى في كشف الملهمات وتفريج الكربات، وليس من الحكمة أن ندعو تارك الصلاة إلى تربية لحيته وندع دعوته للصلاة، وليس من الحكمة ولا من العقل أن ندعو الناس للدخول في البرلمانات السياسية، والفقه في الأخبار الدولية وهم على جانب من الجهل بأمر الدين كتاباً وسنة.

وإننا والله لنعاني في هذه الأزمنة المتأخرة من بعض الدعاة الذين لا فقه عندهم في مسألة البدء بالأهم فالهمم، فترى الواحد منهم في المجلس الذي يعج بالعوام، وهو يتكلم عن سياسات الدول وما فعله زيد وعبيد والحاكم الفلاني، وما تحليل الصحف الإخبارية والأحداث العالمية، وتراه أشغل الناس بقصاصات الجرائد والمجلات يقرأها على الناس، وهم يحملون بين جنباتهم أطنانا من المخالفات العقدية والعملية، بل لقد سمعنا عن بعضهم أنه زار بعض المدارس الابتدائية وتكلم عن أهمية معرفة الواقع من خلال متابعة الصحف والمجلات والتعليق عليها، وهذا من الخطأ الظاهر، وترى بعض الدعاة قد يتكلم عند العامة وأنصاف المثقفين عن الفرق المخالفة لأهل السنة وما قالوه من الشبه العقدية، وكيف الجواب عنها، وهم لا يفقهون أصلاً الحق، ولا يعرفون من عقيدة أهل السنة إلا النزر

اليسير، أي أنهم لم يتصلعوا من معرفة الحق المتفق مع الكتاب والسنة فكيف نقحمهم في مثل هذه المزالق التي يخشى عليهم من الانخراط في شيء من بلاياها؟

فلا بد من الحكمة في الدعوة، وبعض الدعاة تراه يدعو الناس للاطلاع على ثقافات الأمم وقراءة ما يتعلق بأداب الأمم، والمدعو لا يعرف قراءة القرآن أصلاً، وليس له دور في تدبره وتعقله والاستمتاع بلذيق خطابه هو لم يعرف الآداب التي قررتها شريعته التي يدين بها، فكيف ندعوه إلى الاطلاع على تلك الثقافات والتي هي في الأعم والأغلب إنما بنيت على الكفر والضلالة ومخالفة مقتضى الدين وإذكاء نار الشهوة والتنكب عن صراط الفطرة المستقيمة والعقول السليمة، فأين الحكمة الدعوية من هذا الصنف من الدعاة؟ يشغلون الناس عن ما هو أهم بما هو تافه أو شبه تافه في كثير أحيانه، وليس من الحكمة أن ندعو الناس إلى حفظ المتون العلمية في الفقه والمصطلح والنحو قبل دعوتهم إلى حفظ كتاب الله تعالى وبعض ما صح من الحديث عن رسول الله ﷺ، فإن حفظ كلام رب البشر، وحفظ كلام سيد البشر مقدم على حفظ كلام أي عالم من العلماء، وليس من الحكمة أن ندخل بالناس في عويص المسائل والتي قد لا يفقهونها قبل التدرج معهم في فهمها بتوضيح مقدماتها وأوائلها، فإن تحديث الناس بما يعرفون بما لا يوجب لهم الفتنة مطلب أساسي في الدعوة إلى الله تعالى، وليس من الحكمة أن نهمل تقرير مسائل التوحيد بحجة أننا مهتمون بتعديل نظام الحكم إلى نظام إسلامي، كما يقوله بعض الجماعات التي تنتسب للإسلام، وليس من الحكمة أن نهتم بتصحيح المسار الفقهي عند مَنْ يساره العقدي أصلاً مضطرب، ومخالف لما عليه سلف الأمة من العقيدة والعمل،

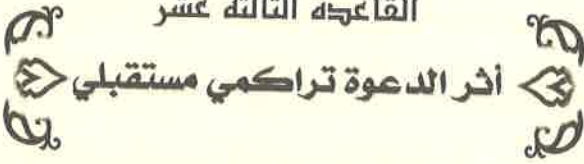
فلا بد أولاً من تقديم الكلام على أصول العقيدة والعبادة، والاهتمام بكلياته، وعدم الاشتغال بالمسائل الخلافية الفرعية لأنها تبدد الطاقات وتضيع الأوقات وتفتت الغايات، وليس من الحكمة ولا من فقه الدعوة أن نقبل على تصحيح السلوكيات الظاهرة مع فساد وتلف الأفكار التي يحملها المدعو بين جنبيه، فإن تلك الأفكار والفهم الفاسد سينسف في لحظة من اللحظات كل ما بنيناه، فلا بد أولاً من الإقبال بالكلية على تصحيح الأفكار وتعديل المفاهيم وتقويم الاغوجاج فيها، فإنها إن استقامت استقام بعدها كل شيء وأما فسادها فإنه سبب لفساد كل شيء.

وكم جر فساد الفكر على الإسلام والمجتمع المسلم من البلايا وكم أحل فيه من الرزايا، فهل قتل الخليفة الثالث إلا بسبب فساد الفكر وخلل الفهم، وهل خرجت الخوارج وترفضت الرافضة وتجهمت الجهمية وحلت البدع في العالم إلا بسبب خلل الفكر وفساد الفهم فإذا لا بد من الإقبال على تصحيح المفاهيم المغلوطة، وتقويم الأفكار المنكوسة، بل وهل وقع الشرك أصلاً في بني آدم إلا بسبب فساد الفكر وخلل الفهم، إذا فالحكمة تقضي أن نبدأ فاسد الفهم ومختل التفكير بتصحيح فهمه وتقويم فكره وأن ننشغل بهذا الأمر معه كثيراً ولو كان هذا على حساب تقويم سلوكياته الظاهرة، لأن المتقرر في قواعد الدعوة أن البدء بالأهم فالمهم مطلب رئيس في الدعوة إلى الله تعالى، وعليه فأقول: لا بد أولاً من تصحيح بناء العقيدة على ما قرره الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمة، ولا بد من الدعوة للتوحيد، وتقويم الخلل فيه، ولا بد من التحذير من الشرك والتحذير من كل وسائله وأبوابه التي تفضي إليه، وهذا قبل كل شيء، ثم بعد ذلك يأتي دور الدعوة

إلى فعل الواجبات وترك المحرمات، ثم يأتي دور الدعوة إلى الحرص على فعل المندوبات والترغيب في فضائل الأعمال والدعوة إلى ترك المكروهات، والمهم الذي أريد إثباته هنا هو أن الدعوة لا بد فيها من التدرج والبدء فالأهم فالمهم من أمور الدعوة، وهذا نابع من فقه واقع المدعو، ونابع من دراسة ما قرره الدليل من الكتاب والسنة، ونابع من الاطلاع المستمر على سير الدعاة المصلحين والأئمة المهتمين من سلف هذا الأمة المباركة، ونابع من التجارب الواقعية والفهم الكامل، وأما التخطي والعشوائية في الدعوة فهو أمر لا يقره الدين، ولا يرتضيه العقل السليم، ونتائجه في كثير من الأحيان لا تكون كما ينبغي، فالله الله أيها الدعاة الموفقون في الاهتمام الكامل بهذه القاعدة الطيبة العريقة المباركة، والله يتولانا وإياكم لما فيه خير البلاد والعباد، وأسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يجعلكم مباركين حيثما كنتم، وأن يكلل جهودكم بالنجاح والتوفيق، والله أعلم.



القاعدة الثالثة عشر



أيها الداعية المبارك: إن الإنسان قد خلق من عجل، كما قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١]، والداعية لا بد وأن يخالف مقتضى هذه الفطرة، لاسيما في مسألة نتائج الدعوة، فإن النتائج لا تأتي في الأعم الأغلب دفعة واحدة، بل المعروف بالتجربة واستقراء التاريخ أن أثر الدعوة تراكمي، أي يأتي رويدا رويدا، ويجمع شيئا فشيئا، ويتضح تباعا، ومستقبلي أي لا ينظر الداعية إلى النتائج في حاضره، بل الأعم الأغلب أن آثار الدعوة تكون مستقبلية، بل ولربما لا يدركها الداعية في حياته، فالأمر يفتقر إلى الصبر والحلم، فالعجلة في تحصيل النتائج من أخطر ما يواجه الداعية، لأن مراعاة العجلة فيها يوجب له الانقطاع عند عدمها، أي عند عدم رؤية النتائج، فعلى الداعية أن يقنع نفسه ويقرر في نفسه ويذكر نفسه دائما بين الفينة والأخرى أن آثار دعوته إنما تكون تراكمية مستقبلية، فإن هذا مما يطمئن قلبه، ويريح نفسه، ويبرد حرقة قلبه عند تأخر نتائج دعوته، وهو مما يبعث الأمل في النفوس، ويطرد اليأس من القلوب، بل وهو مما يحمي الداعية من اتهام الناس وإساءة الظن بهم.

ففي حديث الرجل الذي قال لرجل كثر نصحه له ولم يزدجر، فقال له: (والله لا يغفر الله لك)، وهذا القول مبني على الاستعجال في النتيجة، فقال الله تعالى: (من ذا الذي يتألى علي أن لا أخفر لعبد من عبيدي، قد غفرت له، وأحببت عملك)، قال الرواي: «لقد قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته»^(١).

وفي الحديث لما فعل أهل الطائف بالنبي ﷺ ما فعلوا وجاءه ملك الجبال وقال: (إن شئت أطبقت عليهم الأخشيين)، أبى ذلك الحبيب ﷺ وقال: (بل استأن بهم، لعل الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)^(٢)، والحديث في الصحيح.

وهذا من باب العلم الكامل بأن أثر الدعوة تراكمي مستقبلي، فمقتضى هذه القاعدة العريقة الطيبة إن قام في قلب الداعية فهو من أعظم ما يبعث الأمل في قلبه، وما دام الأمل موجودا في قلب الداعية فإنه لا يزال مستمرا في دعوته، ولكن متى ما انقطع الأمل في الناس فالتوقف عن الدعوة هو المصير ولا بد، والانقطاع عن الدعوة الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة وفهم السلف من المصائب الكبيرة على الأمة، فما دام الداعية يسير على درب واضح المعالم وصحيح التأصيل فلا يضره تأخر النتائج، لأن الأمر إلى الله تعالى من قبل ومن بعد، فعلى الداعية الصبر وعدم الضجر واستعجال

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٩٠١) في الأدب، باب في النهي عن البغي، ورواه أيضاً أحمد في "المسند"

٢ / ٣٢٣ و ٣٦٣، وإسناده حسن

(٢) رواه البخاري ٦ / ٢٢٤ و ٢٢٥ في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، وفي التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ

سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ومسلم رقم (١٧٩٥) في الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى

المشركين والمنافقين، والنسائي في تحفة الأشراف.

النتائج لاسيما وإن مشروعا ضخما كمشروع المنهج السلفي يحتاج إلى جهد ومثابرة ومكابدة وطول زمان، والاستعجال يقوض العمل ويفسد النتائج، فالزلل يلزم المستعجل، لكن لا بد وأن ننبه على أن عدم الاستعجال لا يعني التراخي والكسل، بل الجد والاجتهاد والحرص كلها أمور مطلوبة في ترسيخ هذا المشروع الكبير.

وقد قال نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨-٩]، مما يبين حرصه الشديد وجهده المتواصل، وكذلك الأنبياء من بعده، وعلى رأسهم سيد البشر ﷺ فلم يستعجل إذ ظل يدعو في مكة ثلاثة عشر عاما من غير استعجال النتائج، ولكن مع الجد والاجتهاد في الدعوة حيث كان يلقي الناس في المواسم ويعرض عليهم دعوته، كما خرج من مكة إلى الطائف يدعو إلى ربه، فلم يكن عدم الاستعجال مدعاة للتواني أو الخمول.

وكان ﷺ يرشد أصحابه إلى عدم الاستعجال، فعندما قال له خباب رضي الله تعالى عنه وهم يضيق عليهم في مكة: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، قال لهم بعدما ذكر ما كان يلاقه المسلمون السابقون من أقوامهم: (والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)^(١)، إن استعجال النتائج في الدعوة من قصر نظر الداعي فربما

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، أخرجه البخاري (٣٦١٢) و (٦٩٤٣)، والنسائي ٨/ ٢٠٤،

وابن حبان (٦٦٩٨)، والطبراني (٣٦٣٨)، والبيهقي في "الدلائل" ٦/ ٣١٥ من طريق يحيى ابن

نحكم على الناس أن لا أمل فيهم، وربما نستعجل على أنفسنا قبل النضوج والرسوخ في المسألة المبحوثة والمطروحة وربما يكون الاستعجال بمحاولة القيام بردود فعل تجاه المحاربين للدعوة، والله عز وجل يقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، قال عمرو بن العاص: (لا يزال الرجل يجني من ثمرة العجلة الندامة).

فنتائج الدعوة تراكمية مستقبلية، وإن من الدعاة من إذا بدأ في دعوته فإنه يرسم منهجاً جيداً يسير من خلاله لتحقيق أهدافه، ولكن إذا مضى زمن ولم يتحقق شيء من ذلك، أو تحقق شيء يرى أنه لا يساوي الجهود المبذولة، فيقوم بتعديل منهجه السليم إلى منهج خاطئ يستعجل فيه الثمار، وذلك ناتج عن تصويره الخاطئ في فهم حقيقة ما يجب عليه، وإنه إذا لم تتحقق أهدافه فإنه لم يقم بما أوجبه الله عليه، غافلاً عن الفرق بين الأمرين، أو جاهلاً لذلك، وأنت خبير بأن البلاد التي كثرت فيها المنكرات وتعددت فيها الشهوات وتربى الكثير عليها حتى صارت هي ديدنهم وهجيراهم، فإنه لا بد فيها سعة البال وعدم الاستعجال، وطول النفس في التربية، فبيت وبلاد عشعش المنكر فيها لسنوات عديدة، وصفات تطبعت بها النفوس لأعوام مديدة، يصبح من العسير أن تزول جملة واحدة في يوم وليلة. فلا بد من التدرج في التغيير، والبدء بالأهم فالمهم، وعدم استعجال النتائج، فطريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة ومن سار على الدرب وصل، ومن أدام قرع الباب يوشك أن يفتح له، فالحذر الحذر من اليأس أو استعجال النتائج، وضرورة التأيي وبعد النظر، وهذا الأمر يغفل عنه كثير من الدعاة؛ فنجد أحدهم يتعجل النتائج،

ويستغرب بطء استجابة الناس، وينسى قول الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فيجب على الداعية أن يكون حكيماً، ولا يغفل عما أحدثته وسائل الهدم في عقول الناس وأفكارهم، وأن ذلك قد استغرق وقتاً طويلاً، فلا نستغرب أن نحتاج إلى وقت مناسب لإعادتهم إلى طريق الهداية، ولنعلم أن الكلمة الطيبة تؤتي ثمارها ونتائجها ولو بعد حين، والله المستعان على تلك النفوس الضعيفة العجولة، فإن من الناس من يظن نفسه من أكبر الدعاة وأعظم الدعاة فيريد أن يرى آثار دعوته من أول يوم في دعوته، أو في أوائل دعوته، وهذا أمر إن استمر مع الداعية فمآله للانقطاع، فالله الله أيها الأحباب بهذه القاعدة، وبتذكير النفس بها بين الفينة والأخرى، فقد وجدنا في إقناع النفوس بها راحة كبيرة وفي قلوبنا اطمئناناً عظيماً وثقة بالله تعالى وحسن ظن به، فالحمد لله على هذه الهداية، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



القاعدة الرابعة عشرة

الدعوة بالقدوة والأفعال يؤثر في النفوس
أكثر من تأثير الأقوال

أقول: لا جرم أن الدعوة بالقدوة له أهميته الكبيرة في الإصلاح والإصلاح، وقبول الدعوة ومحبة الناس للداعية، وقبل ذلك الخروج من مقت الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي هو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه بل إنه يدعو إلى الخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى ذلك وهو في نفسه مهتد»، فالدعوة إلى الله بالقدوة الحسنة تصلح النيات، وتوفر الأوقات، وتختزل الطاقات وتمكّن الداعية من أداء أدوار عدة متكاملة من أهمها:

تطبيق الإسلام خُلُقاً ومعاملة وعفة لجذب الناس إليه بالأمثلة الحية، وتتمثل الدعوة إلى الله تعالى بالقدوة الحسنة في الكلام، والسلوك، والقول، والعمل والحال

والمقال، والتطابق والتكامل في كل ذلك. وفي حال التناقض السلوكي يحل غضب الله ومقته، إن من واجب الدعاة إلى الله في العصر الحاضر القيام بالدعوة الإسلامية عن طريق القدوة الحسنة لأنها السبيل الوحيد لهداية الناس، وإصلاح أحوالهم الدينية والدنيوية، ولن يتحقق ذلك إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، والصبر على الدعوة، وعلى أذى الناس، ومن أهمية التربية بالقدوة فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالافتداء بالأنبياء قبله، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَفْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والقدوة في الأدلة يعبر عنها بالأسوة الحسنة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، قال ابن كثير: «هذه الآية أصل كبير في التأسى برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأْسِي بِالنَّبِيِّ ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل».

وقد ذكر أهل التاريخ أن السبب الرئيس في انتشار الإسلام في شرق آسيا هو تطبيق الإسلام وجعله منهج حياة من قبل تجار المسلمين، فالدعوة بالقدوة من أهم أسباب الاستجابة للداعية، وقد كانت الوفود تأتي إلى النبي ﷺ وتسلم بين يديه إسلام طوعية لا كراهية، لما تراه من حسن تعامله وطيب أخلاقه وكريم ضيافته وكبير احترام أصحابه له وتقديرهم وتعظيمهم له، فالداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يكون على جانب كبير من الاهتمام بمسألة القدوة، وأنها تفعل في قلوب الناس الأفاعيل، وهي من باب تصديق القول بالعمل، وقد قسم أهل العلم رحمهم الله تعالى القدوة إلى قدوة حسنة مطلقة: أي معصومة عن الخطأ والزلل، كما هي في

الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وإلى قدوة حسنة مقيدة أي بما شرعه الله عز وجل ؛ لأنها غير معصومة، كما هي في الصالحين والأتقياء من عباد الله من غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغير الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قد يقتدى بهم في أمور دون أخرى، وذلك لاحتمال صدور تصرفاتهم عن ضعف بشري، أو خطأ اجتهادي، لذا كان الاقتداء بهم مقيداً بموافقة شرع الله، وبهذا يكون أسلوب القدوة الحسنة أسلوباً عاماً يشمل التأسي بكل من عمل عملاً صالحاً حسناً كان نبياً رسولاً، أو كان تابعاً للرسل الكرام ناهجاً نهجهم في عمله، بل إن النبي ﷺ قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)^(١)، ولما كان في حجة الوداع كان إذا فعل المنسك قال: (لتأخذوا عني مناسككم)^(٢).

وهذا من التعليم بأسلوب القدوة، بل إن التعلم بالقدوة أسهل وأيسر من التعلم بالقول، لما فيه من عمق التأثير وسلامة الأخذ وكمال الفهم، فإن القول قد لا يفهم أحياناً وأما التطبيق العملي فهو مفهوم لدى العامة، وقد كان بعض الصحابة ربما توضاً وهو لا يريد الوضوء وإنما لتعليم الناس كما فعله علي وعثمان وغيرهما رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد جهر عمر بدعاء الاستفتاح مدة من الزمن ليعلم الناس، وقد كان بعضهم يصلي وهو لا يريد الصلاة ولكن يريد تعليم الناس سنة الصلاة، وقد جهر ابن عباس بالفاتحة في صلاة الجنائز ليعلم الناس أنها سنة القراءة فيها، مع

(١) إسناده صحيح على شرط البخاري، والحديث صحيحه الألباني رحمه الله.

(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (١٢٩٧) في الحج، باب استحباب رمي جرة العقبة يوم النحر،

وأبو داود رقم (١٩٧٠) في المناسك.

أنهم قادرون على تعليم الناس بالأقوال فقط، ولكن التعليم بالاقتداء من أبلغ وأعمق وأبقى آثار التعليم في النفوس.

فالقدوة الحسنة لها أثرها ودورها الكبير في التعليم والتربية الحسنة ونشر الخير بين فئات المجتمع ولما اختلف الناس في فطر رسول الله ﷺ يوم عرفة، أرسلت له بعض النساء بقدح من لبن فرفعه النبي ﷺ وهو على راحلته ليراه الناس وشرب منه، بل ونحن نحس في أنفسنا روعة وجمال الداعية إن كان ذا سمت حسن وكان ممن يفعل ما يقول، وكانت الأمور التي يدعو لها منطبعة على مجيئه وأخلاقه وتفوح روائحها الزكية العطرة منه، وأذكر أنني حضرت خطبة لبعض الأحاب من لا أعلم عليه إلا الخير، ووافق أن الخطبة كانت عن الزهد في هذه الحياة ومتاعها، وكانت من أروع ما سمعت في ذم الدنيا، ولما سلمنا عليه ودعانا إلى بيته فوجئت في الحقيقة لما رأيت بيته وما فيه من التحف الكثيرة والتي أعرف أنا أنها من ذوات الأثمان الغالية، نعم، أخفيت الأمر في نفسي ولم أبده له، ولكن كدر ما رأيته على صفاء الخطبة وروعته وجمالها في نفسي، تكديرا حاولت أن أقنع نفسي أنه من الشيطان، ولكن ما استطعت، لأن العبد مفطور على الربط بين الدعوة وسلوك الداعية، وقد كان بعض سلف الأمة إن طلب منه ترغيب الناس في بعض أعمال الخير انتظر قليلا حتى يتسنى له أن يفعله عدة مرات، ثم يدعو الناس له بعد ذلك، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية، وألسنة الناس حداد غلاظ على من خالف قوله عمله، فالداعية هو محط القدوة في الناس فليتق الله تعالى في نفسه، وهو محط نظر الناس في إساءته وإحسانه.

ويروى أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، وقال: يا هذا أنت اليوم رأسٌ والناس يقتدون بك، فوالله لئن أُجبتَ إلى خلق القرآن ليجيبنَّ بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعنَّ خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل -يعني المأمون- إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله... والداعية الصادق هو الذي يتقي الله تعالى في الناس، فلا يقول القول ولا يفعل الفعل إلا بعد النظر في عواقبه في تأثيره على القدوة من عدمه، ويروى عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه لما قيل له في أمر الرخصة في القول بخلق القرآن ظاهرا مع اطمئنان القلب بالإيمان بسبب شدة الإكراه قال: «يامروزي - أحد تلامذته - اخرج، انظر أي شيء ترى، قال: فخرجتُ إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصي عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء...»، هذا هو من يراعي جانب القدوة، فالداعية إن استشعر كبر الخطر في الإخلال بجانب القدوة استقامت أموره ووفق فيها للحق بفضل الله تعالى، وأما إن أهمل هذا الجانب الخطير المهم فإنه قريباً ما تنزل هيبته من القلوب وتزدريه العيون وترد دعوته العقول، فالمأمول منا جميعاً أن نهتم بهذا الجانب.

وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن القدوة تركز على عدة أمور :

الأول: الصلاح، وهذا أمر يتحقق بالإيمان والتقوى والتعبد مع مراعاة جانب الإخلاص والمتابعة والحذر من الرياء والتسميع والإحداث، فصلاح الداعية في ذاته من أهم الأمور التي تركز عليها القدوة الحسنة.

الثاني: حسن الخلق، وما أعظمه وأجمله وأروعاه في المسلم عموماً وأهل العلم خصوصاً، ناهيك عن الفضائل الكثيرة والأجور العظيمة المترتبة على التحلي بحسن الأخلاق التي وردت بها الشريعة.

الثالث: موافقة القول والعمل، وقد تكلمنا عن هذا سابقاً فإن اجتمعت هذه الصفات في داعية فقد استجمع أصول القدوة الحسنة، والقدوة الحسنة كفيلة بنجاحه في دعوته، نسأل الله تعالى التوفيق للجميع في الدنيا والآخرة والله أعلم وصلى الله على نبينا وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الخامسة عشرة

الدين مبناه على الهدى والاتباع
لا على الهوى والابتداع

أقول: اعلم رحمك الله تعالى أن الدعوة من العبادات لله تعالى، وحيث كانت من الأمور التعبدية لله جل وعلا فلا بد فيها من تحقيق شرطي التعبد لله تعالى، وهما الإخلاص لله تعالى والمتابعة للنبي ﷺ، بمعنى أنه لا يجوز أن تبنى الدعوة على الأمور المنكرة والأفعال المحدثة المستنكرة، بل لا بد فيها من الموافقة للمقرر شرعاً، فالدعوة من أمور الدين، والمقرر أن كل إحداث في الدين فهو رد كما قال النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(١)، وقال ﷺ: (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)^(٢).

والمقرر أن الأصل في التعبدات وقفها على مورد النص الصحيح الصريح، فصارت الدعوة من أولها إلى آخرها مبنية على الموافقة والاتباع لا على الهوى

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم ٢٩٨/٤ في البيوع: باب النجش ووصله في الصلح ٢٢١/٥: باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ومسلم رقم (١٧١٨) في الأقضية: باب نقض الأحكام الباطلة، وأبو داود في السنة: باب لزوم السنة ٥٠٦/٢، وأخرجه ابن ماجة في المقدمة: باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ رقم (١٤).

(٢) رواه أبو داود في "السنة" رقم (٤٦٠٧): باب لزوم السنة، والترمذي في العلم رقم (٢٦٧٨): باب ١٦، وإسناده صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٤ ١٢٧، وابن ماجة في المقدمة رقم (٤٢) باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين.

والابتداع، فالحذر الحذر أيها الأحبة الدعاة من الإحداث في أمور الدعوة، أو الدعوة إلى البدعة والمخالفة، وإنك أيها الداعية الموفق لو نظرت نظرة بسيطة إلى واقع كثير من الدعاة في العالم العربي والإسلامي لوجدت العديد من المخالفات الدعوية، ما بين إحداث الوسائل الدعوية التي تخالف النصوص، وبين الدعوة إلى ما يخالف المتقرر في الشريعة الإسلامية، وهذه المخالفات على مستوى الطوائف والأفراد، فالدعوة إلى إحياء الموالد على مختلف أنواعها وتباين أشكالها من الدعوة إلى المخالفة والبدعة، والدعوة إلى إحياء الليالي الشريفة كليلة الإسراء والمعراج أو ليلة المولد النبوي أو ليلة النصف من شعبان ونحوها كل ذلك من الدعوة إلى المخالفة والبدعة، والدعوة إلى الأذكار الجماعية وإحياء الطرق الصوفية على تباين مناهجها كله من الدعوة إلى البدعة والمخالفة.

فإن الطرق الصوفية وإن اختلفت مناهجها إلا أنها تجتمع على المخالفة والدعوة إلى الهوى والخروج عن المتقرر في الدين، والدعوة إلى تكفير عموم المسلمين من الدعوة إلى البدعة، والدعوة إلى الخروج على حكام الزمان هي من الدعوات المضللة والتي يراد بها تمزيق جسد الأمة وإراقة الدماء وإثارة الفتنة الخامدة والدعوة إلى تحريف أسماء الرب جل وعلا وصفاته من الدعوة إلى البدعة، والدعوة إلى زيارة القبور الزيارة الشركية وتعظيم القبور بالبناء عليها والطواف حولها والذبح عندها ودعائها من دون الله تعالى هو من الدعوة إلى الشرك والبدعة، والدعوة إلى التقريب بين الأديان وإزالة الفروق العقدية هي من الدعوة إلى الكفر والزندقة والدعوة إلى نسف الدين وتبديل المناهج الشرعية بالمناهج الغربية بحجة عدم صلاحية مناهج الإسلام لهذا الزمان هي من

الدعوات الكافرة الفاجرة المضللة القذرة، والدعوة إلى إسقاط هيبة العلماء وفتح باب الفتيا على مصراعيه لمن هب ودب بحجة الحرية الفردية هي من الدعوات التي تهدم الدين وتفسد في الأرض، والدعوة إلى إقصاء الدين عن منهج الحياة والسياسة والحكم والدور التعليمية والمؤسسات في الدولة وحصر أمره في المسجد فقط، فلا دين في السياسة ولا عقيدة تضبط حريات الأفراد والجماعات هي من الدعوات الكافرة التي إن قبلت وانتشرت فناهيك عن الفساد الكبير على العباد والبلاد وناهيك عن الشر الكبير والخطر المدهم على الأمم في هذه الأرض، والدعوة إلى التقريب بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والسني والبدعي بحجة الاتفاق في مفهوم الإنسانية فقط دعوة إلى البدعة ومخالفة المقرر شرعا في عقيدة الولاء والبراء، والدعوة إلى إحياء العصية المميتة المقيتة سواء أكان منها العصية القومية أو العصية المذهبية الطائفية أو العصية للجنس والبلد والنسب، كلها من الدعوات الفاجرة البعيدة عن الدين وما قررته النصوص من أن مبدأ الحب والبغض لا بد وأن يحصر في الإيمان والتقوى، وأن أكرمنا عند الله أتقانا، وأنه لا تفاضل عند الله تعالى لا في المال ولا في الجمال ولا في الحسب ولا في النسب ولا في الديار ولا بالطول ولا بالقصر ولا بالعربية ولا بالأعجمية، وإنما هو التفاضل بالإيمان والتقوى والدعوة إلى تحكيم القوانين الوضعية وإبعاد الحكم والتحاكم إلى شريعة الله تعالى هي دعوة إلى الكفر والفساد في الأرض، بل وصف الله تعالى أهلها بأنهم الكافرون الظالمون الفاسقون وأنهم يبغون حكم الجاهلية، والدعوة إلى تقديس الأشخاص بغير ما معهم من الحق دعوة إلى إحياء منهج الوثنية في الأرض، إلى غير ذلك من الدعوات الآثمة الفاجرة، والتي بناها أصحابها على مخالفة الحق ومصادمة الدليل، وكلها دعوات ضالة لا يجوز الانطواء تحت لوائها ولا الدخول في

شعاراتها، ولا تمجيد أصحابها فإن من عظم صاحب البدعة فقد أعان على هدم الإسلام، فكل دعوة بنيت على غير الهدى فإن حقيقتها أنها تدعو إلى الهوى، ولا يقبل الله تعالى الإحداث والابتداع في دينه، فكل إحداث في الدين فهو رد، والحق محصور في أهل السنة والجماعة، فدعوتهم ﷺ وأرضاهم هي الحق الحقيق بالقبول والاعتماد، لأنها سارت على ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام في العقيدة والعمل، فقد أخذوا بالكتاب والسنة باطنا وظاهرا في الأقوال والأعمال والاعتقادات، فلا يتجاوزون الدليل طرفة عين ولا أقل من ذلك، فدعوتهم مبنية على الاتباع لا على الابتداع، وعلى الهدى لا الهوى.

وهم الفرقة الناجية والجماعة الموفقة والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى، يقولون بما قال به الدليل، ويدورون حيث دار الدليل ويقفون حيث وقف الدليل، فالدليل هو قائدهم والحجة الصحيحة هي ناصرهم، والله تعالى هو وليهم ومولاهم فنعم المولى ونعم النصير، جعلنا الله وإياك من أتباعهم، ومن سار على منهاجهم باطنا وظاهرا، ونسأل الله تعالى أن يعيذنا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال أبو العباس رحمه الله تعالى: «والعبادات مبناه على الشرع والإتباع لا على الهوى والابتداع فإن الإسلام مبني على أصليين: أن لا نعبد إلا الله وحده وأن نعبد به بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لا نعبده بالأهواء والبدع» والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة السادسة عشرة
من أصول الدعوة البراءة
من المشركين ومن أهل البدع

أقول: وهذا أمر مجمع عليه بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة رحم الله تعالى أمواتهم وثبت أحياءهم، فالدعوة الصحيحة لها أصول كثيرة، ومن أهم أصولها البراءة من المشركين ومن أهل البدع والمراد بالبراءة منهم أي مجانبتهم ومصارمتهم ومعاداتهم وبغضهم وإعلان التبري منهم أمام الملأ، فلا مداينة ولا مجاملة على حساب الدين بيننا وبينهم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ففي هذا دليل على أنه يجب البراءة من المشركين، وأن من أصول الدعوة إلى الله: البراءة من المشركين أما الداعية الذي لا يتبرأ من المشركين، فهذا يس بداعية، وليس على طريقة الرسول ﷺ، وإن زعم أنه يدعو إلى الله، والكفر بالطاغوت مقدم على الإيثار بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فلا بد من البراءة من المشركين وأهل البدع أما الذين يقولون: ما لنا ولعقائد الناس، من دخل في جماعتنا وصار معنا فهو أخونا، وعقيدته له، هذه ليست دعوة من الله عز وجل، وإنما هي دعوة إلى الحزبية والعصبية، كما قاله أهل العلم من أهل

السنة فهذه المقالة الخطيرة تبيع عقيدة الولاء و البراء، والتي هي من أهم أصول الدين والعقيدة، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فمفهوم البراء في الشريعة الإسلامية والعقيدة السلفية عقيدة أهل السنة والجماعة يقتضي بغض أعداء الله تعالى ومعاداتهم والتبري منهم والتجافي عنهم ومصارمتهم وعدم التودد لهم بقول أو فعل أو إشارة، ومجاهدتهم بكل أنواع الجهاد بالقلب واللسان واليد والسيف والقلم، فنجاهد كل طائفة منهم بما يناسبها من الجهاد، وأن لا نشبه بهم فيما هو من عاداتهم وعباداتهم، وهجرهم وفضح أستارهم وكشف مخططاتهم وإدخال الغيظ في قلوبهم، وإهانتهم وعدم إكرامهم والخط من قدرهم واضطرارهم إلى أضيق الطريق وعدم بداءتهم بالسلام، وألاً يروا منا فعلاً أو يسمعوا قولاً يوجب دخول السرور على قلوبهم، ومحاصرة اقتصادهم ومحاوله تضيق مجالات التعامل معهم حتى لا يستفيدوا من أموال المسلمين ويقاتلونهم بها وتكون أموالنا عوناً لهم علينا، وأن لا تكون بيننا وبينهم علاقات وصدقات ودية، فإن هذا منافٍ لمعنى التبري منهم، بل الواجب قطع العلاقات معهم إلا فيما اضطررنا إليه ولم نجد بداً من التعامل معهم فيه، فلا بأس ولكن الضرورة تقدر بقدرها، وبالجمله: فكل ما من شأنه أن يكون برهاناً على صدق البغض القلبي الذي عليه مدار البراء فإنه داخل في مفهومه، فمن تحقق فيه مقتضى البراء المطلقة فلا بد أن نتبرأ منه البراء المطلقة التي تقتضي عداوته العداوة المطلقة وبغضه البغض

المطلق، وهذا فرض واجب على كل أحد، وهي من الأمور التي نتقرب بها إلى الله تعالى، وأنت خير - إن شاء الله تعالى - أن البراءة المطلقة إنها تكون في حق الكافر الكفر الأكبر، والمشارك الشرك الأكبر، والمنافق النفاق الاعتقادي، فالكافر لا بد أن نتبرأ منه البراءة المطلقة ونعاديه ونبغضه المعادة والبغض المطلق والمشارك شركاً أكبر لا بد أن نتبرأ منه البراءة المطلقة ونعاديه ونبغضه المعادة والبغض المطلق، والمنافق النفاق الاعتقادي لا بد أن نبرأ منه البراءة المطلقة ونعاديه ونبغضه المعادة والبغض المطلق للآية السابقة ولقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي أن من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتيقهم بظاهره فقط لا بباطنه ونيته، وذلك كما قال أبو الدرداء: (إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم)، رواه البخاري. وقال الثوري: قال ابن عباس: (ليس التقية بالعمل وإنما التقية باللسان)، وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقال تعالى منكرًا على من يوالي الكفار: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وهي تفيد إفادة قطعية وجوب البراءة المطلقة لمن اتصف بالكفر أو الشرك الأكبر أو النفاق الاعتقادي، فهذا بالنسبة للبراء المطلق والبراء الكلي. وأما مطلق البراء أو البراء الجزئي، فإنه يكون لعصاة الموحدين

سواء كانت المعصية معصية شهوة أو شبهة، ويدخل في ذلك المبتدعة الذين لم يكفروا ببدعتهم كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والخوارج والكلابية والمرجئة ونحوهم فنبراً منهم لكن ليس البراء المطلق؛ لأن معهم أصل الإسلام وإنما نبراً منهم مطلق البراء أي بعض البراء لا كل البراء، ومطلق البراء ممن تحقق فيه ما يقتضيه، يوجب مطلق العداوة أي بعضها لا كلها ويوجب مطلق البغضاء أي بعضها لا كلها، وهذا يؤيد مذهب أهل السنة أنه قد يجتمع في الشخص الواحد موجب المحبة والعداوة، وموجب الثواب والعقاب، وبعبارة أخرى نقول: عصاة الموحدين نحبههم ونواليهم بما معهم من الإيمان، ونبغضهم ونعاديهم بما معهم من الفسوق والعصيان، وإننا في هذه الأزمنة لنعاني أشد المعاناة من بعض من ينتسب للدعوة وهو على جانب كبير من موالة الكفار وأهل البدع، وإننا لنرى صوراً كثيرة جداً من موالة الكفار وأهل البدع، ومن باب التوضيح نضرب لك بعض الأمثلة على هذه الموالة التي تضرب في أصل الولاء والبراء، والتي صار يوصف بالتحضر والتقدمية والانفتاح من يقوم بها، فأقول:

منها: الرضا بكفرهم وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة، وهذه الصورة ناقضة للتوحيد من أساسه وقد جعلها العلماء من جملة نواقض الإسلام، فنبراً إلى الله منها ومن أهلها، والله أعلم.

ومنها: التولي العام للكفار باتخاذهم أنصاراً وأعواناً وأصدقاء وإخواناً أو الدخول في دينهم أو إعانتهم على مراسم كفرهم بقول أو عمل، والله المستعان.

ومنها: التحاكم إليهم عند نزول الحوادث وترك التحاكم للشريعة، فما أن تنزل نازلة بالمسلمين إلا ويرفعون الأمر إلى الكفار ليحكموا فيه، وهذا خطر جدًا؛ لأنه نوع من الإيثار بما هم عليه من الكفر قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، والله أعلم.

ومنها: مودتهم ومحبتهم والسعي الحثيث في تحقيق ما يرضيهم ولو كان على حساب الإسلام وقضاياه وهذا مزلق خطير وطامة كبيرة

ومنها: الركون إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، والمراد بالركون إليهم أي الاعتماد عليهم في سائر الأمور أو أغلبها اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا وفكريًا وغير ذلك، والله المستعان.

ومنها: مداهمتهم ومجاملتهم ومداراتهم على حساب ديننا، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ومنها: اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومنها: طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن طِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

ومنها: توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة وقيادة الجند أو توزيعهم، ونحو ذلك.

ومنها: التشبه بهم فيما هو من عباداتهم أو عاداتهم ومشاركتهم في أعيادهم وفي مراسم كفرهم الخاصة بهم وتهنتهم على ذلك.

ومنها: تهنتهم باستقلال بلادهم والدعاء لهم بمزيد من الرخاء والاستقرار كما هو حاصل هذه الأزمنة في كثير من بلاد الإسلام.

ومنها: البشاشة لهم والطلاقة وانشرح الصدر لهم وإكرامهم، وتقديمهم في المجالس وتقريبهم، وإفساح الطريق لهم، وبداءتهم بالسلام، قال النبي ﷺ: (لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه)^(١).

ومنها: السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم، وقد قال النبي ﷺ: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)^(٢).

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن، وإسناده صحيح على شرط مسلم. وهو في "مصنف عبد الرزاق" (٩٨٣٧) ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أبو عوانة في الاستئذان كما في "إتحاف المهرة" ٥/ ورقة ١٥٠ وقد صححه الألباني في "الإرواء" و"السلسلة الصحيحة".

(٢) رواه أبو داود رقم (٢٧٨٧) في الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك، وله شاهد عند الترمذي رقم (١٦٠٥) في السير، وأبي داود رقم (٢٦٤٥) في الجهاد، من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن جرير بن عبد الله، وقال الترمذي: وأكثر أصحاب إسماعيل قالوا: عن إسماعيل عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ... الحديث، يعني أنه مرسل، وقال: المرسل أصح، وقد صحح البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم.

ومنها: معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم فيه.

ومنها: تعظيمهم بإطلاق الأوصاف عليهم كصاحب الفخامة أو السيد الرئيس أو صاحب العظمة.

ومنها: مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم.

ومنها: تفضيلهم على المسلمين، وهذه طامة يقع فيها كثير من المغرورين بما عليه الغرب من الحضارة والتقدم.

ومنها: التآمر معهم وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم ومكاتبهم بعورات المسلمين ونقاط الخلل فيهم.

ومنها: فرح القلوب بانتصارهم على المسلمين كما قد فرح بعض المنافقين هذه الأزمنة بانتصار بعض دول الكفر على بعض دول الإسلام.

ومنها ولعله آخرها: من هرب إلى ديارهم مبغضًا الإقامة في ديار المسلمين ومعتزًا بالكافرين ومحتميًا بهم كما هو حاصل من بعض المنافقين في هذه الأزمنة

والمقصود من هذه القاعدة: أنه لا يجوز بناء أمر الدعوة على التساهل مع أهل الكفر والبدعة، بل لا بد وأن يكون هناك مصارمة لأهل البدع والكفر والزندقة وإظهار العداوة لهم والتبري منهم، وإن اضطر الداعية إلى دعوتهم فلا بد من الرفق واللين في أول الأمر، ولكن اللين والرفق في أمر الدعوة في الظاهر لا يلزم منه محبتهم ولا موادتهم في الباطن، وهذا أصل كبير من أصول الدعوة لا بد من الاهتمام به وتذكير الدعاة به بين الفينة والأخرى، والله الموفق والهادي على سواء السبيل.

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



القاعدة السابعة عشرة

تقديم تقرير العقيدة الصحيحة في قلوب الناس مقدم على الاشتغال بغيره

أقول: لقد أكثرت عليك في الاهتمام بأمر العقيدة، وما ذلك إلا لعظم الخطر في المخالفة، فلا تلمني على ذلك، ولأن المخالفات العقدية في الدعوة إلى الله تعالى هي الغالبة على كثير من الدعاة إلى الله ممن ينتسب للإسلام، فليكن - أيها الداعية الموفق - صحيح أمر العقيدة في قلوب العامة هو المقدم على غيره من الأمور الثانوية الجانبية التي قد يستغنى عنها إلى وقت آخر، فلا تلتئنه بغيره من الأمور، بل لا بد من تذكير الناس به بين الفينة والأخرى، وقد كان الشغل الشاغل عند الأنبياء والرسل إنما هو تقرير أمور العقيدة السليمة في قلوب من بعثوا له، ونسف العقائد الفاسدة المخالفة للحق، وتقويم الأفكار الباطلة في العقول والمتقرة في القلوب، فالداعية الناجح الموفق هو من سار على منهاجهم واقتفى آثارهم في هذا الأمر وفي كل الأمور الدعوية، فإن الأنبياء والرسل هم سادة الدعاة ومنهم نتعلم أمور الدعوة إلى الله تعالى، فكان الاهتمام بأمر العقيدة وتقريرها في قلوب الناس هو مهمهم الأكبر الذي لا يشتغلون عنه بأمر غيره، لأن أمر العقيدة إذا سلم من درن الشرك والبدعة والشبهة فما عداه من الأمور أيسر إن شاء الله تعالى، ولا أقول إن الداعية لا يتكلم في غير العقيدة، ولكن أقول: لا بد وأن يكون اهتمامه الأكبر هو تقرير العقيدة

الصحيحة، بل إن الداعية الموفق هو من يقرر في قلوب الناس أن تلك الأمور العملية إنما ترد إلى الأمر الاعتقادي، لأن المتقرر عند عامة أهل العلم رحمهم الله تعالى أن الأعمال والأقوال في الظاهر إنما مردها قبولاً ورداً وصحة وبطلاناً إلى الأمور الباطنية وأن العقيدة هي أساس العمل وقاعدته التي لا بد من إحكامها والاهتمام بها أكثر من غيرها، وسيأتي مزيد تقرير لارتباط الأعمال بالعقيدة في قاعدة مستقلة إن شاء الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فلا بد من اغتنام الفرصة في تقرير العقيدة، واستغلال المناسبات العامة والخاصة في تعريف الناس بأمور العقيدة الصحيحة، على ما يتناسب مع عقولهم وأفهامهم.

وقد مكث النبي ﷺ وهو يقرر أمور العقيدة في قلوب الناس في العهد المكي قرابة الثلاثة عشرة سنة، ولم ينته الأمر لما هاجر إلى المدينة بل ازداد التقرير والتنبيه على أمور العقيدة، إذا علمت هذه الأهمية لأمور العقيدة فإننا نجد من الدعوات والطوائف في هذه الأزمنة المتأخرة من يمنعون الكلام في أمور العقيدة بحجة أنها تفرق ولا تجمع، وتفسد ولا تصلح، بل لا يفرق الناس ويتحزبون إلا إن تكلموا في العقيدة والتوحيد، وهذه الطائفة والدعوات في حقيقتها أنها ضالة مضلة، ودعوات فاسدة، لأنها تنسف الكلام على أهم نقطة في الدعوة إلى الله تعالى، فنحن لا نريد الناس أن يجتمعوا على البدعة بتكثير سوادهم فقط، بل لا نريد الاجتماع إلا على الحق المتفق الاعتقاد الصحيح.

فإبعاد العامة عن سماع العقيدة الصحيحة وتقرير أمور التوحيد من الجرائم الخطيرة، والفواحش الكبيرة، ومن الطوائف من تقول: إن المهم هو تجميع الناس تحت مظلة الإسلام، بغض النظر عن عقائدهم فالمهم هو التجميع ولا نسأل عنهم هل هذا سني أو بدعي أو رافضي أو معتزلي أو أشعري، لا تسأل عن ذلك، وهذا في الحقيقة دعوة إلى غير الحق، لأنه مفاد هذه الدعوة نبذ ما تقرر بالدليل من مبدأ الولاء والبراء، والذي هو من أهم ركائز عقيدة أهل الإسلام، فالله تعالى ميز في كتابه بين المؤمن والكافر والبر والفاجر فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

والأدلة على وجوب التمييز بين الناس باعتبار الدين لا تكاد تحصر، فهذه الدعوات المبنية على عدم التفريق بين المؤمن والكافر والبر والفاجر دعوات تنسف الدين وتلغي أصله الأعظم وهو الولاء والبراء، وما ذلك إلا بسبب إبعاد التوحيد عن واقع الناس، وهناك من الدعوات من تقول: إن أهم المهمات هو أمور الحكم والسياسة وما بعدها من الأمور فيأتي تبعاً لها، فتراهم يتركون الناس على المخالفة والبدعة ولا يتكلمون في التوحيد والعقيدة ولكنهم يلهثون وراء المناصب والبرلمانات ويتسابقون على كرسي الولاية تسابق الكلاب على الفريسة، وهذا خطأ عظيم على الدين، وعلى العامة من المسلمين، بل المهم أن تقرر مسائل التوحيد وتوضح للناس المقصود من أصل وجودهم في هذه الحياة، فتقرير التوحيد وتوضيح العقيدة هو الأمر الذي لا بد وأن يكون في المرتبة الأولى من اهتمامات الداعية وأن لا يشتغل عنه بغيره من الأمور، فالعقيدة أولاً يا دعاة الإسلام، العقيدة أولاً يا دعاة

الإسلام، العقيدة أولاً يا دعاة الإسلام، ومن الطوائف من تجعل مسألة الإمامة هي أعظم مسائل الدين وأهم ركيزة ينبنى عليها أمور العقيدة كما هو الحال عند الرافضة، وهذا أمر قد علم بطلانه بالأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة وتقريرات سلف الأمة، فليست مسألة الإمامة والحكم ولا مسألة اللهث وراء الكراسي السياسية والمناصب البرلمانية بأهم من تقرير العقيدة الصحيحة السليمة في قلوب العامة، بل من قدم شيئاً على أمور العقيدة فإنما أتى من جهله وقلة فهمه أو من شهوة كدرت عليه صفو المشرب أو من شبهة أفسدت عليه مبدأ المصالح والمفاسد، وهناك من الطوائف من تجعل أول الواجبات المتحتمات على العبد إنما هو النظر والقصد إلى النظر أو الشك، كما هو الحال عند علماء الكلام والفلاسفة وهذا أمر باطل، بل تقرير التوحيد في القلوب هو أول الأمور ونهاية الأمور، فإن العبد لا يدخل في الإسلام إلا بالتوحيد، وعليه أن يستمر على سلامة التوحيد والعقيدة حتى يفارق هذه الحياة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)^(١)، فالتوحيد هو أول الأمر وقال عليه الصلاة والسلام: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)^(٢).

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، غير عصام بن خالد، فمن رجال البخاري. وأخرجه البخاري (١٣٩٩) و (١٤٥٦) و (١٤٥٧)، والبيهقي ٤/ ١٠٤ من طريق أبي اليمان، وأخرجه النسائي ٦/ ٧ و ٧٨ وابن حبان (٢١٦) من طريقين عن شعيب بن أبي حمزة، به. وقد تقدم برقم (٦٧).

(٢) رواه مسلم رقم (٩١٦) في الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله، والترمذي رقم (٩٧٦) في الجنائز، باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت، وأبو داود رقم (٣١١٧) في الجنائز، باب في التلقين، والنسائي ٤/ ٥ في الجنائز، باب تلقين الميت

فالتوحيد هو آخر الأمر، فتقرير التوحيد في قلوب العامة أصل كبير من أصول الدعوة إلى الله تعالى، ولا يكون الداعية موصوفاً بالنجاح إلا إذا كان تقرير مسائل التوحيد هو شغله الشاغل، وعلى ذلك سار الأنبياء وأتباعهم من أهل العلم، ونحن على دربهم سائرون إن شاء الله تعالى، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على هذا الأمر إلى أن نلقاه، وقد جمعني مجلس مع سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى، وكان المجلس قد امتلأ بكبار المعلمين من الدكاترة من منسوبي الجامعات، وطلبة العلم، فكان الشيخ رحمه الله تعالى يتكلم عن أنواع التوحيد الثلاثة، والتي يدرسها طلاب الصف الابتدائي عندنا، فقلت: هكذا العلماء، فإن التوحيد هو وظيفة حياتنا، وهو الحكمة والغاية من وجودنا، فهو موضوع حياتنا الذي لا ينتهي، وموئل عزنا الذي لا ينقضي، مهما كبرت مناصبنا وكثرت أموالنا وتعددت معارفنا، وامتلات أجوافنا من العلم وصار الواحد منا يوصف بأنه دكتور أو بروفيسور ونحوها من الأوصاف الحياتية الكبيرة عند أهلها فإن التوحيد وتقرير التوحيد لا يزال هو الموضوع الأول والآخر في الحياة، فمن وجد في نفسه كبراً عن سماع أوليات مسائل التوحيد وأنها لا تناسب إلا الصغار فقد ضل، فالتوحيد وتقرير التوحيد وتصحيح مسائل العقيدة لا بد وأن تكون في المرتبة الأولى من اهتمامات الداعية، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.



القاعدة الثامنة عشرة

الحكمة في الدعوة أصل من أصولها التي تبني عليها
الدعوة الناجحة والمنضبطة على هدي النبوة

أقول: لقد تكلمنا سابقا عن شيء مما يتعلق بهذه القاعدة، ولكن لأهميتها لا بد وأن نزيد في تفاصيلها فأقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والمراد بالحكمة ما قرره ابن القيم رحمه الله تعالى من أنها فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، إذا فالحكمة منه، ونعمة عظيمة من الله تعالى يمتن بها على من يشاء من عبادة، وهي من الأشياء التي يمكن اكتسابها بالمراس والمران، ولما شقت الملائكة صدر النبي ﷺ وغسلته، جيء بإناء من ذهب مملوء حكمة وإيمانا فأفرغته الملائكة في صدره ﷺ، قال بعض العلماء: «وهذا يثبت أن الحكمة من أعظم الأمور الأساسية في منهج الدعوة إلى الله تعالى، حيث امتلأ بها صدر رسول الله ﷺ وهو صاحب الدعوة مع الإيثار، وهو قضية الدعوة في لحظة واحدة، كما يؤكد قيمة وأهمية الحكمة من خلال مجيئها يحملها جبريل ﷺ وهو روح القدس، في طست من ذهب، وهو أغلى المعادن، في مكة المكرمة وهي البقعة المباركة ؛

ليمتلئ بها صدر محمد ﷺ، وهو خير الخلق، بعد غسله بهاء زمزم وهو أطهر ماء وأفضله».

وهذا مما يبرز أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، والحكمة في الدعوة هي حزام الأمان من الخلل بإذن الله تعالى، وهي الطريق لتحقيق المصالح ودفع المفسد، وتحصل بها المقاصد الدعوية بأقرب طريق وأقل كلفة، إذا فالحكمة في الدعوة أمر مطلوب، والداعي إلى الله مأمور بتوخي الحكمة حين دعوته، وحينما طبق الصحابة رضوان الله عليهم الحكمة في دعوتهم، وساروا على هدي المصطفى ﷺ ونهجه دخل الناس في الإسلام أفواجا، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض ولكن لا يفهم من الحكمة في الدعوة أنها تعني الرفق، والحلم مع المدعو فحسب، بل إن مراتب الحكمة تتجاوز ذلك كثيرا، فمن الحكمة أن يكون الداعي رفيقا لنا مع المدعوبين كما قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه مخاطبا موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٠٦﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

ومن الحكمة أحيانا استخدام الشدة والتأنيب أحيانا، ذلك لأن الحكمة تعني وضع كل شيء في موضعه، فهي لين في وقت اللين، وشدة في وقت الشدة، يقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا فرعون لما طغى وتكبر: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ مُثْبَوْرًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وإن من الحكمة أيضاً أن يكون الداعي قدوة في قوله وفعله، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، ومن أصول الحكمة مراعاة حال المدعوين، إذ ليس من الحكمة استخدام أسلوب واحد في الدعوة مع الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والمتعلم والجاهل، والرئيس والمرؤوس، والهادئ والغضوب، بل لا بد من تنوع أسلوب المخاطبة كل بما يناسبه، إن الداعي الناجح هو الذي يعطي كل إنسان ما يلزمه من أفكار وتوجيهات، ويحاول أن يقنعه بالأسلوب الذي يناسبه ويناسب مداركه.

قال سماحة الشيخ ابن باز رحمته الله: «ومن الحكمة إيضاح المعنى وبيانه بالأساليب المؤثرة التي يفهمها المدعو وبلغته التي يفهمها حتى لا تبقى عنده شبهة، وحتى لا يخفى عليه الحق بسبب عدم البيان، أو بسبب عدم إقناعه بلغته، أو بسبب تعارض بعض الأدلة، وعدم بيان المرجح، فإذا كان هناك ما يوجب الموعظة وعظ وذكر بالآيات الزواجر، والأحاديث التي فيها الترغيب والترهيب، حتى ينتبه المدعو، ويرق قلبه، وينقاد للحق، فالمقام قد يحتاج فيه المدعو إلى موعظة وترغيب وترهيب على حسب حاله، وقد يكون مستعداً لقبول الحق، فعند أقل تنبيه يقبل الحق، وتكفيه الحكمة، وقد يكون عنده بعض التمتع، وبعض الإعراض فيحتاج إلى وعظة وإلى توجيه وإلى ذكر آيات الزجر»^١ هـ.

ومن مراتب الحكمة المجادلة بالتي هي أحسن من ضرب الأمثلة، وبيان الحق بالأدلة العقلية والنقلية، وتوضيح الحجج الصادقة، ونقض الحجج الباطلة، مع تحري الوصول إلى الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ» [العنكبوت: ٤٦]، وليحذر الداعي أن يتحول قصده من الدعوة إلى إظهار التفوق في النقاش، أو الغلبة في الجدل، ولكن ليكن القصد والغاية الإقناع والوصول إلى الحق، كما أن من أعلى المراتب التي يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله دفع السيئة بالحسنة، وهي مرتبة رفيعة لا يناها إلا فئة نالت حظاً عظيماً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٥-٣٤].

وفي جميع الأحوال يجب على الداعي قول الحق، والصبر على الأذى، صبر المؤمنين العاملين، لا صبر الخانعين المستسلمين، ومن الحكمة في الدعوة تحين الفرص المناسبة للدعوة، وأن لا تكون كيفما اتفق بل لا بد من التخطيط والنظر، ومن الحكمة في الدعوة تحديث الناس على قدر أفهامهم وعقولهم، وأن لا تُحمَّل عقولهم وأفهامهم من الكلام ما لا تحتمل فتكون لبعضهم فتنة، ومن الحكمة أن لا ينكر على أخطاء الولاة والعلماء أمام العامة، حتى وإن كانت هناك أخطاء محققة، ولكن الإنكار العلني على هذه الطائفة مجانب للحكمة والعقل والدين، ومن الحكمة الدعوية محاولة دعوة الناس إلى الالتفاف حول العلماء والأمراء، وتأليف القلوب عليهم، والتحذير من الدعاوى المناوئة لذلك، ومن الحكمة في الدعوة الحرص على دعوة الكبراء والوجهاء لأن في صلاحهم صلاح لمن تحت ولايتهم وأيديهم، ومن الحكمة الدعوية عدم قبول عطايا الحكام حتى لا تكون لهم على العالم منة بها يستذل ويهان، ومن الحكمة البدء في الدعوة بتقرير العقيدة وتصحيح مسائل التوحيد قبل كل أمر دعوي، ومن الحكمة سياسة الأمور بدراية كاملة وعقل

حصيف ونظر ثاقب، وأما النزق والحق والطيش والصفافاة والصراخ فإنها تفسد ولا تصلح وتهدم ولا تبني، ومفاسدها أكبر من مصالحها المرجوة، ومن الحكمة في الدعوة الرفق والحلم والصفح عن المخطئ والتجاوز عن الكلمة النابية في سبيل الدعوة، ومن الحكمة سبر الأمور بمنظار الشرع والحرص على مراعاة المصالح والمفاسد، ومن الحكمة الصبر على الناس ومداراتهم والتلطف بهم حتى يصل الداعية بهم لبر الأمان، فإن ربان السفينة لا ينتقم ممن أغضبه بتغيير سيرها إلى المهلكة، ومن الحكمة في الدعوة كتم الأمور التي يكون في إظهارها مفسدة خالصة أو راجحة، ولا أقول إن الداعية يكون كومة من الأسرار ولا يدري الناس عن حقيقة أمره، وكذلك لا يكون خرقاً بالحديث عن كل شيء وفي كل شيء، بل لا بد من الرزانة والعقل، فالأمر الذي يكون في إبدائه مفسدة خالصة أو راجحة فالحكمة كتمه عن الناس، ومن الحكمة التحلي بالأخلاق الحسنة والتجافي عن الأخلاق المذمومة الممقوتة التي تمجها الطباع والعقول.

ومن الحكمة أن لا يستدلك جاهل ولا ييأس من فضلك محتاج ولا يطمع فيك ظالم ولا تفتح باباً لقلة الأدب عليك، ومن الحكمة أن تتكلم حيث كانت المصلحة في الكلام وأن تسكت حيث كانت المصلحة في السكوت، وإن لا تمازح في موضع الجد، وأن لا تماري مع اتضاح الحق، وأن لا تجرئ العامة على أحد من المسلمين لا سيما الأمراء والعلماء، وأن لا تطرق أمراً يملكك على الاعتذار، وأن لا يخالف قولك عملك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ومن الحكمة موافقة الناس في ما كان من عاداتهم في حدود الدليل، وأن لا تتميز عليهم بملبس ولا بمسكن ولا بمركب، فإذا كان الله تعالى قد أخبرنا أنه لا يبعث رسولا إلا بلسان قومه لأنه أدعى للقبول، فكيف بموافقة القوم فيما عدا هذا؟ لا جرم أنه أدعى للقبول من باب أولى، وهي الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ، ومن الحكمة مشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم ومواساتهم بالمقدور عليه من المال والجاه والشفاعة الحسنة والاهتمام بأمورهم الخاصة وفتح الباب للمشورة، وأن لا يكون الداعية مغلقا على نفسه، لا يعرفه الناس إلا في مواضع الدعوة فقط من درس أو محاضرة، بل لا بد وأن يكون مع الناس المعية التي لا توجب له في خاصة نفسه ضررا أو مفسدة وهكذا كانت حاله مع أصحابه ﷺ، ومن الحكمة مراعاة أحوال المدعويين في تطويل الكلام أو اختصاره، مع أن الاختصار هو معهود الشرع في الأعم الأغلب، فخير الكلام ما قل ودل وأغنى عن غيره.

ومن الحكمة رحمة الناس وتهئية الجو قبل الدعوة وحسن التحضير واختيار الطريقة المناسبة في الإلقاء، ومن الحكمة الجمع بين مسلكي الترغيب والترهيب في الدعوة، فإن الداعية الموفق هو من لا يحمل الناس بالترغيب على الأمن من مكر الله، ولا يحملهم بالترهيب على القنوط واليأس من روح الله، وإنما يسلك بهم جادة الوسطية بالجمع بين هذين المسلكين، وخير الأمور أوساطها، ومن الحكمة رد الخطأ لذات الخطأ، ولا يتكلم الداعية عن ذوات المخطئين إلا إن قام داعي المصلحة الخالصة أو الراجحة، ومن الحكمة ضرب الأمثلة التوضيحية للتفهيم لأن من الناس من لا يفقه الأمر النظري المجرد عن المثال الذي يفهمه، ومن الحكمة اختيار أبسط الألفاظ وأيسرها وأقربها

للفهم وأبعدها عن التعقيد والحيرة، فإن الله تعالى بنى أمر هذا الدين على التيسير والتخفيف لا على التعسير والإثقال ومن الحكمة قبول الحق ممن جاء به وإن جاء به المخالف، ورد الباطل ممن جاء به وإن جاء به المحب الصديق، ومن الحكمة في الدعوة الحرص على مبدأ سد الذرائع وقطع أسباب الشر والتحذير من الطرق التي تفضي إلى الحرام في الحال أو المآل، ولكن بتوسط، بحيث لا يقفل الباب مطلقاً ولا يفتحه مطلقاً ولكن الطريق التي توصل إلى الحرام في غالب الظن هي التي يجب سدها، ومن الحكمة احترام ذوات الناس واحترام أنسابهم وعدم الخوض فيما لا يعني، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وبالجملة فإن مفهوم الحكمة واسع لا يكاد يحيط به قلم الكاتب، وإن من أهم ما يورث الحكمة هو تدبر كتاب الله تعالى وتعقله وتأمل معانيه ومعرفة أسباب نزوله، وكثرة الدعاء بالتوفيق والفهم، والانكباب بالكلية على قراءة السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، قراءة تفقه وتدبر واستنباط للفوائد، لا قراءة سرد تاريخي فقط، فإنه ﷺ أعظم الدعوة إلى الله تعالى وأفضل الدعوة وأنجح الدعوة، وأحكم الدعوة، فمن سار على منهجه في دعوته فقد أفلح الفلاح الكامل، وكانت دعوته على منهاج النبوة، وكذلك سير أصحابه الكرام، رضوان الله تعالى عليهم، فإنهم خير دعاة الأرض بعد نبيهم ﷺ، والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة التاسعة عشرة
فهم واقع المدعوين
مهم في نجاح الدعوة

أقول: إن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (إنك تأتي على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله...) (١)، والشاهد منه هو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف واقع المدعوين هناك، وأخبر بها معاذاً حتى تكون دعوته متفقة مع ما يتناسب مع حال المدعو، وحتى لا تكون الدعوة في واد، وما يحتاجه الناس في واد آخر، وإني لأعجب من داعية يقصر في هذا الأمر، ولذلك ففي الأعم الأغلب لا تكون الدعوة مؤثرة في الناس إلا إن كان الداعية على فهم كبير وعلم ودراية بواقع البلد التي يريد الدعوة فيها، فلو لم يكن فهم واقع المدعوين مهم في الدعوة لما تكلف النبي ﷺ تنبيه معاذ لذلك الأمر، ولأن فهم الواقع من الأمور التي تعصم بإذن الله تعالى من الزلل والخطأ في دعوة الناس، ولكن الناس في فهم واقع المدعوين خصوصاً والناس عموماً على طرفين ووسط، فمن الناس من يرى قدسية مسألة فهم الواقع وأنها من أعظم الواجبات على الدعاة ولربما تجرأ لسانه بالقدح في بعض أهل العلم في جهلهم - زعم - بفهم الواقع،

(١) سبق تخريجه ص ١٣٧.

فتراه يهمل التعلم وحضور حلقات أهل العلم وقراءة الكتب في المسائل الشرعية بحجة أنه مشغول بفقه الواقع، مع أنه لا دور له في إصلاح الواقع وإنما هو الاكتفاء بإخبار الناس بأنه حصل كذا وكذا، وهذا غلو في هذه المسألة، وقابلهم طائفة لا حرص لهم بفهم واقع الناس، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

والوسطية في هذه المسألة هي الخير، ففهم الواقع المطلوب هو ذلك الفهم الذي يوضح واقع الناس لبنني عليه دورنا في الدعوة ونحكم عليه بما يخصه من الأحكام الشرعية في الفتاوى والقضاء ففهم الواقع ليس مقصودا لذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق المصالح الشرعية ودفع المفاسد عن البلاد والعباد، فما كان من فقه الواقع محققا للمصلحة الخالصة أو الراجحة، ودافعا للمفاسد الخالصة أو الراجحة فهو الفهم المطلوب، فلا نلغيه مطلقا، ولا نعتمده وندعو له مطلقا.

وإنما نعتمد منه ما كان محققا للمصالح المعتبرة شرعا، ودافعا للمفاسد المأمور بدفعها شرعا، ولما أراد النبي ﷺ أن يهاجر أصحابه إلى بلد يكونون فيه بمأمن من ظلم قريش وتعذيبها اختار لهم الهجرة إلى الحبشة، لأنه يعرف أن فيها ملكا لا يظلم الناس عنده، فلم يرسلهم إلى فارس ولا إلى الروم ولا لغيرها من البلاد وهذا هو ما ينفع فيه فهم الواقع، وهو دليل على معرفته الكاملة بما يدور حوله من أحوال الأمم، ولما كان واقع الأمة العربية يغلب عليها طابع الأمية فإن الشريعة لم تعلق أمور تعبداتها على الحساب الذي يحتاج إلى فهم دقيق ومتابعة مستمرة، وإنما علقت على أمور ظاهرة يعرفها العامي والعالم، فقال النبي ﷺ: (نحن أمة أمية لا نكتب

ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا.. الحديث^(١)، ولما بال الأعرابي في مسجده ما ضربه وما كهره ولا زجره، بل نهى صحابته عن زجره بقولهم: (مه، مه) وعن ضربه لما قاموا له ليضربوه، لعلمه ﷺ بواقعه من أنه لا يدري عن الحكم الشرعي ولا عن المسجد ولا عن حرمة المسجد، فترفق به بناء على علمه بواقعه، ولما فتح مكة قال: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)^(٢)، لعلمه أن أبا سفيان من سادات قريش، ومن طبيعة السادة حبهم أن يخصوصوا بشيء دون غيرهم.

فصارت هذه الكلمة فتحة عظيمة على أبي سفيان وآله، وكذلك مراسلاته ومكاتباته ﷺ إلى أمراء البلاد والأقاليم المجاورة، تنم عن فهم كبير لواقع هؤلاء وما هم عليه من العقائد، ولم يكن في القرآن المكي كلام عن المنافقين كثيرا، لأنه لم يكن في مكة نفاق، وإنما هو الكفر الصراح، ولكن القرآن المدني كثر فيه الحديث عن المنافقين وصفاتهم، لكثرة النفاق في المدينة ومن حولها، وهذا تغير في بعض الخطاب لتغير واقع المدعوين، ولما ربط ثمانية بن أثال في المسجد كان يعرض عليه الإسلام

(١) رواه البخاري ٤ / ١٠٨ في الصوم، باب قول النبي ﷺ: (لا نكتب ولا نحسب)، وباب هل يقال: رمضان أو شهر رمضان، وباب قول النبي ﷺ: (إذا رأيتم الهلال فصوموا)، وفي الطلاق، باب اللعان، ومسلم رقم (١٠٨٠) في الصوم، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، وأبو داود رقم (٢٣١٩) و(٢٣٢٠) و(٢٣٢١) في الصوم، باب الشهر يكون تسعاً وعشرين، والنسائي ١٣٩ / ٤ و ١٤٠ في الصوم، باب كم الشهر.

(٢) رواه مسلم رقم (١٧٨٠) في الجهاد، باب فتح مكة، وأبو داود رقم (٣٠٢٤) في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة.

طيلة مدة إيقافه، ثم قال بعد ذلك: (أطلقوا ثيامة)^(١)، مع أنه لا يزال على كفره ولكن لأنه سيد أهل اليثامة، والسيد لا يحب الذل، ولا القيد، فأثر فيه العفو النبوي الكريم تأثيراً بليغاً حتى أسلم واغتسل وتوعد قريشاً بأن لا يصل لها من اليثامة حبة حنطة، وهذا أنفع أسلوب مع السادة، وهو التلطف والعفو، وهذا منبثق من فهم النبي ﷺ لواقع ثيامة، وقد كان النبي ﷺ يتخول الصحابة بالموعظة في الأيام كراهية السامة عليهم، لعلمه ﷺ بواقع النفس البشرية.

وقد كان في أول الدعوة مستخفياً بدعوته لا يعلنها أمام العامة وإنما كان يخص بها من يغلب على ظنه أنه يستجيب له، وهذا من فقه الواقع، لأنه يعلم أن الدعوة في بداياتها كانت ضعيفة، وكلمة الكفر قوية، ففقه الواقع وفهم حال المدعو أمر مهم، ولكن كما ذكرت لك لا ينبغي الاشتغال به قبل العلم الشرعي، لأن المتتفع بفهم الواقع حقيقة هو من ينزل هذا الواقع على النصوص الشرعية، قال الشيخ صالح الفوزان: «وأما الاشتغال بواقع العصر كما يقولون، أو فقه الواقع؛ فهذا إنما يكون بعد الفقه الشرعي؛ إذ الإنسان بالفقه الشرعي ينظر إلى واقع الناس وما يدور في العالم وما يأتي من أفكار ومن آراء، ويعرضها على العلم الشرعي الصحيح؛ ليميز خيرها من شرّها وبدون العلم الشرعي؛ فإنه لا يُميّزُ بين الحقِّ والباطل والهدى والضلال؛ فالذي يشتغل بادئ ذي بدء بالأمور الثقافية والأمور الصحافية والأمور السياسية، وليس عنده بصيرة من دينه؛ فإنه يضلُّ بهذه الأمور؛ لأنَّ أكثر ما يدور

(١) الحديث صحيح، رواه البخاري ١/٤٦٢ في المساجد، وفي الخصومات، وفي المغازي، ورواه مسلم

رقم (١٧٦٤) في الجهاد، وأيضاً أبو داود في الجهاد رقم (٢٦٧٩).

فيها ضلالة وداعية للباطل وزُخِرُفٌ من القول وغرور، نسأل الله العافية والسلامة»^١هـ. وسئل الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى عن مسألة فقه الواقع والضوابط الشرعي فيها، فقال رحمه الله تعالى: «فقه الواقع يعني: فقه واقع الناس الذين هم عليه. هذا فقه الواقع، ومن المعلوم أن واقع الناس لا بد أن يكون معلوماً لدى الإنسان حتى يعرف ماذا يعيش فيه، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن: (إنك تأتي قومًا أهل كتاب)، فأخبره عن واقعهم وحالهم، لكن لا يجوز بحال من الأحوال أن يطغى على الفقه في الدين، وأن يكون ليس للشاب أو لغير الشاب هم إلا أن يبحث فيما حصل في أمر لا يمكنه إصلاحه -أيضاً- لو أراد الإصلاح، فالفقه في الدين هو الأصل، ولهذا قال النبي ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(١)، والفقه في الواقع نحتاج إليه لنطبق الفقه في الدين على أحوال الناس؛ لأنه لا يمكن أن تحكم على شخص بأنه فسدت صلاته مثلاً حتى تعلم أنه فعل مفسداً أو أن صيامه بطل حتى تعرف أنه فعل مبطلاً، لكن لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يطغى فقه الواقع على فقه الدين، بحيث لا يكون للإنسان هم إلا مطالعة الجرائد والمجلات، وما أشبه ذلك ويعرض بذلك عن مطالعة الكتاب والسنة»^١هـ.

فالمطلوب ليس هو فقه الواقع فقط، بل المطلوب فقه الواقع ومعرفة الواجب في هذا الواقع قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بتوعين من الفهم:

(١) إسناده صحيح، أخرجه أحمد (٣٠٦/١) (٢٧٩١) والدارمي (٢٣١) و (٢٧٠٩) الترمذي (٢٦٤٥)

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع.

ثم يطبق أحدهما على الآخر فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجر فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله.

إن غالب من يكتب في هذا الشأن يعقدون فصولا عن ثقافة الداعية، ويعنون بهذه الثقافة هي تأهيل الداعية لبناء خلفية معرفية عن الواقع المعاصر - الذي يعايشه - السياسي، والاجتماعي، والنفسي وغير ذلك، ولا يعطون العلم الشرعي المؤصل المبني على الدليل من الكتاب والسنة حقه إلا على سبيل الإشارة، مع أن الذي لا شك فيه أن العلم الشرعي يمثل العمود الفقري للداعية في دعوته ؛ لأن به يميز الأمور، ويحافظ على الأصل، ويستطيع أن يتعامل مع الجديد وفق الضوابط الشرعية والأصول المرعية، ولذلك تجد كثيرا من المعاصرين يغرقون في الجوانب الثقافية المذكورة، وأصبحت قراءة كتب الشرق والغرب من أولى أولوياتهم وأكبر اهتماماتهم، حتى إن بعض من يكتب في مثل هذا تجد استشهاده بنظريات الغرب وذكر أسماء منظريهم أكثر من ذكر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أئمة العلم والدين في القديم والحديث، ولذلك فإن الخطاب الدعوي في كثير من الجهات مترهل ومهزوز، فالقرينة ترايبية والفكرة سحابية !! والشعارات تأخذ

مساحات كبيرة في ذهن غالب الدعاة أكثر من المبادئ والقواعد والأصول، وبسبب هذا تجد الترحل والتقلب سمة بارزة على هذا اللون من المثقفين، ولذلك لا بد من معرفة أن ثقافة الداعية تكمن في العلم الشرعي المؤصل، ولا يعني هذا بالضرورة إغفال النظر في باقي الفنون والعلوم، لكن لا يسمح تمريرها إلا عن طريق غربلتها عبر الأدلة الشرعية والقواعد والأصول المرعية، ولعل الأمر قد اتضح إن شاء الله تعالى، والله أعلم.



القاعدة العشرون

كل داعية لا بد من تمحيصه بالابتلاء، ولا مخرج له إلا بالصبر واحتساب الأجر

أقول: الابتلاء سنة الله تعالى في خلقه، فكل مخلوق فلا بد وأن يصيبه من الابتلاء ما كتبه الله تعالى وكل يبتلى على قدر إيمانه، فأشد الناس بلاء هم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، ولا يتصور أحد من الخلق أن الأمر سيمر هكذا من غير تمحيص ولا ابتلاء، بل لا بد وأن يكون هناك ابتلاء، وحيث كان العلماء هم ورثة الأنبياء فإنه لا بد وأن يصيبهم من البلاء من جنس ما أصاب الأنبياء، وإن لم يكن الأمر على قوته وشدته لأن الأنبياء أكمل إيماناً من غيرهم، ولكن لا بد وأن يصيبهم شيء من ذلك هذا أمر مفروغ منه، بل هو علامة الصدق، فإذا رأيت الداعية لا يبتلى فقد يكون عدم ابتلائه لخلل في نفسه، وتمني الابتلاء لا يجوز لأن النبي ﷺ قد نهى عن لقاء العدو، وما يدرية لعله يتمنى فيصيبه من البلاء ما لا صبر له عليه فيفتن.

وقد جزم الدليل بمجيء الابتلاء لتمحيص الدعاوى قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ① وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فأخبر جل وعلا أنه يبلو الناس بالشَّرِّ تارة

وبالخير تارة، وكل ذلك فتنة، يكون فتنة لمن أصابه الخير والسرّاء ويكون فتنة لمن أصابه السوء والضراء، وكل ذلك داخل في ابتلاء الله حيث اختبار الله للناس، وعلى هذا فالناس أفرادٌ وجماعات، تارة يُبتلون بالخير وتارة يُبتلون بالمصائب، وكل ذلك موافق لحكمة الله جل وعلا، فهو الذي يقدّر ما يشاء، ويقضي بما يشاء له الملك كله وله الحكم كله، كل ما يجري في ملكوته بدون استثناء، فإنها هو صادر عن أمره موافق لحكمته موافق لمشيئته جل وعلا، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالعلماء والدعاة إلى الله تعالى لهم النصيب الأوفر من هذا الابتلاء، فمنهم من يبتلى بالخير ومنهم من يبتلى بالشر والمصائب، فأما الابتلاء بالخير فالمخرج منه كمال الحمد وكمال الشكر، وأن يكون من الأسباب المعينة على طاعة الله تعالى وأن يسخر هذا الخير في نفع الناس، وفيما يقربه إلى الله تعالى، وأما إن كان الابتلاء بالمصائب والشر فالمخرج منه إنما يكون بالصبر واحتساب الأجر، وأن يعلم أن الفرج مع الصبر وأن مع العسر يسرا، وأن الله تعالى ما أجراه عليه إلا ليريد به الخير والرفعة في الدارين.

فإن العالم لا يعلو صيته ولا يظهر أمره في الأعم الأغلب إلا بعد التمهيد والابتلاء، فمنهم من يبتلى بالقتل، ومنهم من يبتلى بالحبس والجلد، ومنهم من يبتلى في عرضه بالانتهاك أو بالتعذيب بالحديد والنار، ومنهم من يبتلى بمحاربته في رزقه ومصدر كسبه، ومنهم من يحارب بالطرد من بلاده وإبعاده عن أهله، إلى غير ذلك من صور الابتلاء، وهكذا سنة الله تعالى في أنبيائه، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الطريق شاق، ناحٍ فيه نوح، وذُبَح فيه يحيى، وأُلْقِيَ في النار إبراهيم، وشُجَّ فيه وجه المصطفى ﷺ، وقُتِل فيه الشهداء، وأنت تريد الجنة وأنت راقد على فراشك بدون تعب!

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ^١ مَسْتَهْمِ الْبُاسَاءِ وَالصَّارِءِ وَزُلْزِلُوا﴾ ، حتى الرسول نفسه كاد أن يشك.. ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَأَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] ١. هـ. بل قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وهذا التمييز لا يكون إلا بالفتنة والاختبار، فلا غرابة في أن يبتلى العالم والداعية لا سيما إن كانت دعوته على علم وبصيرة، فإن ابتلي العالم فعليه بمراعاة عدة أمور:

الأول: أن يعلم أن هذا الأمر مما كتبه الله تعالى عليه في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال ﷺ: (كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)^(١)، وقال ﷺ: (كل شيء بقدر الله تعالى حتى العجز والكيس)^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما نفعاك

(١) حديث صحيح ، رواه مسلم رقم (٢٦٥٣) في القدر ، باب حجاج آدم وموسى ﷺ ،
والترمذي رقم (٢١٥٧) في القدر باب رقم (١٨) برواية: (قدر الله المقادير...) وأحمد (١٦٩/٢) (٦٥٧٩).

(٢) حديث صحيح ، أخرجه مالك (الموطأ) (٥٦١). وأحمد (١١٠/٢) (٥٨٩٣) والبخاري في خلق أفعال العباد (١٧) موقوفاً.

إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما ضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك رفعت الأقلام وجفت الصحف^(١).

فإن المصيبة إن علقت بقضاء الله تعالى وقدره خفت على صاحبها بإذن الله تعالى، وأنت خير بأن أهل السنة رحمهم الله تعالى قد أجمعوا على جواز الاحتجاج بالقدر عند نزول المصيبة، كما قال النبي ﷺ: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل)^(٢)، فالداعية إن لم يكن يعلق ما يصيبه من الابتلاء بمسألة القضاء والقدر فقد يكسل أو يفتر أو يكثر تسخطه على حاله وحال الأمة، وما أكثر التشكي في هذه الأزمنة من بعض الدعاة، وهذا أمر لا ينبغي، بل الداعية عليه أن يعلق أموره بالقضاء والقدر.

الثاني: أن يعلم الداعية أن ما أصابه من السوء والضرر لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أزمة الأمور كلها بيد الله تعالى وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثالث: أن يتيقن الداعية أن ربه هو الحكيم ذو الحكمة الكاملة، فحيث أصابه هذا الضرر والسوء فليعلم أنه خير له، لأن الله تعالى لا يقدر على عبده المؤمن إلا ما هو خير له ولكن إن عامله بالصبر وعدم الجزع، كما قال النبي ﷺ: (عجبا لأمر

(١) أخرجه الإمام أحمد رقم (٢٦٦٩) و(٢٧٦٣) و(٢٨٠٤) والترمذي رقم (٢٥١٨) في صفة القيامة، باب رقم (٦٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٢/٤) (٢٦٦٤)، وابن حبان (٢٩/١٣) (٥٧٢٢)، وابن ماجه (٣١/١)، (١٣٩٥/٢) (٤١٦٨، ٧٩)، والنسائي في "الكبرى" (١٦٠، ١٥٩/٦)، وأبو يعلى (١٢٤/١١).

المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن^(١)، والداعية والعلماء هم سادات المؤمنين، فلا جرم صدق الحديث عليهم من باب أولى من صدقه على عامة أهل الإيمان ممن ليس لهم دور في العلم ولا في الدعوة إلى الله تعالى، فعليك أخي الداعية أن لا تنظر إلى المصيبة بمعزل عن حكمة الله تعالى، فالله تعالى له الحكمة البالغة العظيمة والمصلحة الكبيرة فيما أصابك، فأنت وإن كنت ترى في أول الأمر أن ما أصابك شر وضرر محض ولكن في نهايات الأمور ترى الخير الكثير الطيب من الآثار العظيمة من هذا الابتلاء سواء رأيته في الدنيا أو رأيته في الآخرة، فالله تعالى لا يجري على عبده المؤمن ما هو ضرر محض وشر محض تعالى الله عن ذلك، فإن الفتنة مأخوذة من فتن الذهب، وهي عرضه على النار حتى يذهب خبثه وما علق به من المواد الأخرى، فحال الذهب بعد هذا الإحراق البليغ أكمل من حاله قبل ذلك، وكلما كثر تحريقه وزاد كلما زاد نقاؤه وصفاءه، فالفتنة إن نزلت بك أيها الداعية المبارك فلا تجزع، واعلم أنك تُصفى وتُنقى مما دخل عليك من الشوائب القلبية والعملية التي لا بد من تكفيرها.

الرابع: الصبر الصبر، الصبر، فوالله لا مخرج للداعية مما نزل به إلا بالصبر، وهو حبس النفس عن فعل ما لا يليق فالصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ومن لا صبر له فلا إيمان له، وسريع الجزع والضجر لا يضر إلا نفسه، والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقه، لكن عواقبه أحلى من العسل، وتذكر أن الملائكة تقول لأهل الجنة:

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (٢٩٩٩) في الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، والإمام أحمد

﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَيَغْفَى الْدَارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، فالتمكين لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْفُؤُومَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ولا إمامة في الدين إلا بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِقَائِلِينَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٣٤]، والصبر من الأعمال التي لا يقدر قدر ثوابها إلا الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَيِّتُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وبالصبر يضاعف الخير في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى بعد ذكره لقصة نبيه أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ٣٥ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٣-٤٤]، وبالصبر يعرف العبد قدر نعمة الله تعالى عليه فلا يكفرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ ٣٦ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٧ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، والداعية وإن سخر به واستخف بحاله وأهين بالسجن والتعذيب والضرب بالسوط فالعاقبة له، وأقسم بالله أن العاقبة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٣٨ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ٣٩ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰرِغُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

والصبر أصل من أصول التقوى، ولكن الصبر قليل في الناس، ولا يؤتاه إلا الموفقون ممن أراد الله تعالى بهم خيرا، فالصبر أجمل لباس يلبسه الله تعالى الداعية عند حلول البلياء، ومن لا صبر له فقد آن أو انقطاعه وتلفه، والله ما وجد الصالحون حلو عيشهم إلا في الصبر، ولأهمية الصبر فقد ذكره الله تعالى في أكثر من اثنين وثمانين موضعا، وما ذلك إلا لأن الصبر بمنزلة البيت الذي يحتمي به الإنسان من حر البلاء وزمهرير الفتنة، والله المستعان.

الخامس: احتساب الأجر، وهو مرتبة فوق الصبر، والمراد به الصبر على المصيبة رجاء ثبوت الأجر الوارد فيها أو في الصبر عليها على وجه العموم، فإن من الناس من يصبر على المصيبة لعجزه عن مقاومتها ولكن على مضض من أمره، ولكن من الناس من يصبر على البلاء علما منه بعظيم منزلة الصبر رجاء ثواب الله تعالى الذي وردت به الأدلة مع رضاه ربه وأنه لا يختار له إلا ما هو أصلح له، فهذا عنده صبر واحتساب، فلا تراه يكثر الشكوى إلا لله تعالى، وتراه كثير الحمد والشكر لربه، وهذا هو المثاب عند حلول المصائب، فلا مخرج لما يصيب الداعية من الآلام والنكبات إلا بالصبر واحتساب الأجر.

السادس: تحقيق كمال الرضا عن الله تعالى، مقرونا بكمال الحمد وكمال الشكر، وهي من أعلى المراتب السامية، ولا تجدها على الحقيقة باطنا وظاهرا إلا عند آحاد لعارفين بالله تعالى، فمرتبة الحمد والرضا والشكر لا يوفق لها إلا عباد الله لمخلصين، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياك منهم.

السابع: التسلي بالأوراد الشرعية، كقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وقول: «اللهم آجرني في مصيبي واخلف لي خيرا منها»، وقول: «قدر الله وما شاء فعل»، ونحوها مما ورد من الأقوال عند حلول المصيبة، فإنها برد اليقين على الأرواح والدواء من كل داء، والمهم أيها الداعية الكريم أنه لا بد وأن تعلم أنك لا بد وأن تبلى، وقليل من يسلم من البلاء، فإن ابتليت فتعامل مع البلاء بما ذكرته لك، وفي الحقيقة لا أعلم نبيا ولا رسولا لم يتبل، ولا أعلم عالما له في الأمة قدم صدق إلا وقد ابتلي، هذا أمر لا بد منه، فقد ابتلي نوح بقومه، وبموت ولده وفلذة كبده أمامه، وابتلي بزوجه الكافرة، وابتلي يوسف بأن ألقاه أحب الناس له في البئر، وابتلي بالسجن والغربة، وصور الابتلاء لا تنتهي، فابتلوا بالتكذيب والرمي بالأوصاف القبيحة، وبالقتل والطرْد، وبالتعذيب والنكال، وابتلي الصحابة في الله تعالى بلاء عظيما لا يوصف هوله، فمنهم من كان يلقي في رمضاء مكة على ظهره ويوضع الحجر الكبير على صدره وابتلي آل ياسر في الله أعظم البلاء حتى ماتت سمية بنت خياط أم ياسر أمام عيني زوجها وولدها بحربة أدخلها الملعون في مكان عفتها، ومات ياسر أبو عمار أمام عيني ولده من التعذيب، وكان بعضهم يلبس الحديد في الحر ويقلب فيها في حر الرمضاء حتى يكون الحديد كالجرم، وأما السوط فقد كان له دوره الكبير في ظهور أهل العلم رحمهم الله تعالى، ولكنهم صبروا على ما أودوا وثبتوا على منهجهم بفضل الله تعالى، فأين أنت منهم أيها الداعية المبارك.

ومن باب التنبيه أنقل لك جملا من ابتلاء السلف الصالح حتى ترى كيف كانت أحوالهم، رحمهم الله تعالى، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

فمنها: أصيب عروة بن الزبير رضي الله عنه في قدمه؛ فقرر الأطباء قطعها، فقطعت، فما زاد على أن قال: «اللهم لك الحمد فإن أخذت فقد أبقيت، وإن ابتليت فقد عافيت»، فلما كان من الغد ركلت بغلة ابنه محمداً - وهو أحب أبنائه إليه، وكان شاباً يافعاً - فمات من حينه، فجاءه الخبر بموته، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: «كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة، وكان لي سبعة من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة. وعافاني فيما مضى من حياتي ثم ابتلاني اليوم بما ترون، أفلا أحمده على ذلك؟!». هكذا كانوا رضي الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم في فسيح جناته. فهلاً تشبَّهنا بهم.

ومنها: يروى عن عمر الفاروق رضي الله عنه أنه كان يكثر من حمد الله على البلاء، فلما سُئِلَ عن ذلك قال: (ما أصبت ببلاءٍ إلاَّ كان لله عليّ فيه أربع نعم: أنه لم يكن في ديني، وأنه لم يكن أكبر منه وأني لم أُحَرِّم الرضا والصبر، وأني أرجو ثواب الله تعالى عليه).

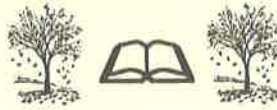
ومنها: ما جرى للإمام أحمد رحمه الله تعالى في فتنة القول بخلق القرآن، فقد جرت عليه أمور كثيرة من الجلد بالسياط والحبس، والتهديد بالقتل، على أن يقول بخلق القرآن فأبى، فعذب في الله تعالى أشد العذاب، وتكسرت على ظهره السياط تلو السياط، وكان يحمل مغمى عليه، قد هانت عليه نفسه في الله تعالى، وتالله إنه للإمام أهل السنة والجماعة بحق.

ومنها: ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فقد أصابته الفتن من كل جانب، وهو كالجلبل الأشم في وجهها بفضل الله تعالى وتثبيت منه جل وعلا،

والله ما ضرته منها فتنة، ولكنه الجور والظلم التي يفت الكبود، فسجن، وطرد، وهدد بالقتل مرات، وهو المؤمن الصابر المحتسب، فكم له من صولات وجولات مع أهل النفاق والبدعة والزندقة، لا يخاف من سلطان جائر ولا سيف مسلول ولا سوط لاسع، جنته وبستانه في قلبه، إن قتل فشهادة، وأن نفى فسياحة، وإن حبس فخلوة بالله تعالى، وهكذا العلماء، تحزب له أهل البدع ووشوا به إلى سلاطين الجور، وجمعوا له الجموع فكان أبو العباس يدك عروش بدعتهم على صخرة الحق، فلا يجدون تجاهه إلا سلاح فرعون مع موسى عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، إنه التهديد عند انقطاع الحجة وانسداد الطريق على أهل الأهواء والضلال، فصبر واحتسب الأجر وثبت على منهجه حتى لقي ربه وهو في سجن القلعة، ثبات حتى الممات، فالفتن لا مفر للعالم الصادق منها، والله تعالى هو مولانا فنعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والخلاصة: أن الابتلاء سنة ماضية، يتلى الناس على قدر دينهم، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن قل دينه قل بلاؤه، وأشد الناس ابتلاء هم الأنبياء ﷺ، والواجب عند نزول البلاء هو الصبر والرضا وعدم التسخط، فمن صبر ورضي أجر على مصيبتيه، وكفر بها من سيئاته، ومن سخط وقعت عليه مصيبتيه، ولم يؤجر عليها، وليعلم أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، والمرء بحاجة إلى تمحيص ومراجعة حتى يتميز الخبيث من الطيب، والمؤمن من غيره؛ فالسعيد من اعتصم بالله، وأناب ورجع إلى الله والمؤمن الصادق ثابت في السراء والضراء، لكن لا بد وأن تعلم أن

البلاء يكفر السيئات، ويرفع الدرجات وهذا هو مبتغى الدعاة، وعفو الله أوسع. إن الصبر كما أنه من عوامل نجاح الدعاة هو أيضًا زادهم وعدتهم به تزكو نفوسهم وتطهر أفئدتهم، نسأل الله أن يجعلنا من أهل الصبر والإنابة، واعلم أن النصر إنما هو لمن اتقى وصبر، فشمر أخى الداعية عن ساعد الجدد وارض بما قسم الله تعالى، واصبر وصابر واجتهد وجاهد، والله مع الصابرين بمعيته الخاصة، والله يتولانا وإياك وهو أعلى وأعلم.



القاعدة الحادية والعشرون



مقصود الداعية في دعوته الاعتذار إلى الله تعالى
بإقامة الحجة وهداية المدعويين

أقول: إن الداعية إلى الله تعالى له في دعوته مقصدان:

الأول: هداية المدعو، وهذا قصده في المقام الأول، ولكن أنت خير بأن هداية التوفيق والإلهام إنما يملكها الله تعالى وحده لا شريك، فإن أنت دعوت ودعوت ولم توفق في دعوتك لهداية أحد على يدك، فلا تحزن ولا تكن في ضيق من أمرك فإن قدم الداعية ما في قدرته في هداية المدعويين ولكن ما كتب الله تعالى لهم الهداية، فلا حرج عليه لأنه يكون بذلك محصلاً للأمر الثاني وهو: الاعتذار إلى الله تعالى، ودليل هذين الأمرين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْتَهُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، فقوله تعالى: ﴿مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ هذا فيه بيان المقصود الأول من قيام الداعية بدعوته، وهو الاعتذار إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

هذا فيه بيان المقصود الثاني: وهو هداية المدعو، فإن لم تتحقق هداية المدعو فقد اعتذرت إلى الله تعالى، ولكن على الداعية أن يقدم المقدور عليه في دعوة الناس، وبيان وجه الحق لهم، ويستفرغ طاقته وجهده في الدعوة إلى الله تعالى بالوسائل المتاحة، حتى لا ينسب إلى تقصير، والله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما على

الداعية من حرج لو بذل ما في وسعه ولم يوفق للهداية أحد، فإن الهداية التي يملكها الدعاة بإذن الله تعالى إنما هي هداية الدلالة والإرشاد، وأما هداية التوفيق والإلهام فما هي بيد أحد، بل هي بيد الله تعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي هداية دلالة وإرشاد، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، أي لا تهدي غيرك هداية توفيق وإلهام، ولذلك فقد كان الله تعالى يعاتب نبيه ﷺ أحيانا على حزنه عند عدم هداية بعض الناس، لأنه قد بذل ما في وسعه في هدايتهم، ولكن الله تعالى ما أراد لهم الهداية، فلم الحزن، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]؛ لأنك أيها النبي قد بلغت البلاغ المبين وبينت لهم الشريعة والدين، ولكن أنا لم أرد لهم الهداية لحكمة بالغة، فما عليك، فأما البلاغ فقد بلغت، وهذا هو الواجب عليك، وأما هدايتهم فلا مدخل لك فيها، لأنها من أمري، وأنا أملك القلوب بين يدي، فإن منعتهم منها فلا تحزن عليهم، ولا تكن في ضيق من أمرك، ولا يتكدر خاطرك عليهم، لأنك بلغت وبرئت ذمتك وهذا فيه دليل على أن الداعية يدور في أمر دعوته بين أمرين: إما أن يهدي الله تعالى به القلوب وهذا مطلب كبير، ولكنه بيد الله تعالى وحده، وإما أن يكون بدعوته قد برئت ذمته واعتذر إلى الله تعالى، والله أعلم.



القاعدة الثانية والعشرون

كل قبيح في الشرع نهى عنه الداعية

فلا بد من دلالة الناس على ما يضاده

من الأمور الحسنة المشروعة

أقول: هذه القاعدة كبيرة، وهي من أصول الدعوة إلى الله تعالى، وبيانها أن يقال: إن الناس إن لم يشتغلوا بالحق اشتغلوا بالباطل، فحتى يتم التوازن فلا بد عند نهى الناس عن الحرام الممنوع، أن يبين لهم البديل والطريق الصحيح الجائز المشروع، فلا يكتفي الداعية أن يمنع الناس فقط، بل لا بد وأن يبين لهم البدائل المشروعة، وهذا فيه أمان من عودة الناس إلى الباطل، لأن وقتهم قد شغل بالحق، وقد اهتم الشارع بهذه المسألة، فقد حرم تعالى الربا وأحل البيع فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وحرّم قول راعنا وأمر بقول انظرنا، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فلم يكتف بمجرد التحريم حتى شرع لهم بديلا عن القول الممنوع، ومنع النبي ﷺ الأنصار من الاحتفال بيومين كانت من أيام الجاهلية، وقال: (قد أبدلكم الله بهما خيرا منهما يوم الفطر ويوم الأضحى) والحديث في الصحيح^(١)، ومنعهم من زيارة القبور البدعية ورغبهم في الزيارة الشرعية، ومنع من السلام ابتداء على أهل الكتاب، ولكنه شرع

(١) رواه أبو داود رقم (١١٣٤) في الصلاة، باب صلاة العيدين، والنسائي ٣ / ١٧٩ في العيدين، باب صلاة العيدين، وأخرجه الإمام أحمد (١٠٣ / ٣) وإسناده صحيح.

تحيتهم بقول: «السلام على من اتبع الهدى» ونهى الله تعالى الأعراب بعد دخولهم في الإسلام مباشرة أن يقولوا: آمنا، وأمرهم بأن يقولوا أسلمنا، ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: (لا تقولوا السلام على الله؛ فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته...) ^(١)، فنهى عن القول الممنوع وأبدلهم بالقول المشروع، وقال ﷺ: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان) ^(٢)، وعن الحسن، أن عقيل بن أبي طالب، تزوج امرأة من بني هاشم فدخل عليه القوم، فقال: (ألا ترفثوني)، فجعلوا يقولون: بالرفاء والبنين. فقال: لا تقولوا هكذا ولكن قولوا: (بارك الله لكم، بارك عليكم، إنا كنا نؤمر بذلك..)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا تقولوا ما شاء الله وما شاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده) ^(٣)، ونهاهم عن قول: (والكعبة) وأبدلهم بقول: (ورب الكعبة)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ برجل قد شرب فقال رسول الله ﷺ: (اضربوه)، قال: فمنا الضارب بيده ومنا الضارب بنعله ومنا الضارب بثوبه فلما

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في صفة الصلاة ٢ / ٢٥٧ - ٢٦١، ومسلم في الصلاة رقم (٤٠٢) وأبو داود في الصلاة رقم (٩٦٨) والترمذي في الصلاة رقم (٢٨٩) والنسائي في الافتتاح ٢ / ٢٣٧، ورواه أحمد برقم (٣٨٢/١).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤٩٨٠) في الأدب، وأحمد (٣٨٤/٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٥) وإسناده صحيح.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد (٢٠٦٩٤) والبيهقي في دلائل النبوة ٧ / ٢٢، والدارمي (٢٦٩٩) والبخاري معلقاً في "التاريخ الكبير" ٤ / ٣٦٣-٣٦٤، وابن ماجه (٢١١٨).

انصرف قال بعض القوم أخزأك الله قال رسول الله ﷺ: (لا تقولوا هكذا ولا تعينوا الشيطان عليه ولكن قولوا رحمك الله) ^(١)، ونهى أحدا أن يقول: خبث نفسي، ولكن يقول: (لقت نفسي)، وفي سنن أبي داود: (لا يقولن أحدكم الكرم. فإن الكرم: الرجل المسلم، ولكن قولوا: حدائق الأعناب) ^(٢)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يقل أحدكم عبدي أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل: غلامي، جاريتي، وفتاي، وفتاتي) ^(٣)، ونهاهم عن تلبية الكفار بقول: (إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) فأهل النبي ﷺ بالتوحيد فقال: (ليبك اللهم ليبك، ليبك لا شريك لك ليبك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)، ونهى عن السفاح وشرع النكاح.

وهكذا في أدلة كثيرة تفيد صحة هذه القاعدة والله الحمد والمنة فليست وظيفة الداعية تنتهي عند النهي عن الفعل القبيح، بل لا بد له من أن يبين للناس البديل الشرعي عنه، والذي يصرف قلوبهم عن هذا الأمر القبيح، فمثلا: إن نهينا الناس عن اقتناء القنوات الفضائية فإننا نبين لهم أن هناك قنوات طيبة إسلامية، تغني عن

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري ١٢ / ٧١ في الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وباب الضرب بالجريد والنعال، وأبو داود رقم (٤٤٧٧) في الحدود وأحمد (٢/ ٢٩٩) والنسائي في تحفة الأشراف (١٠/ ١٤٩٩٩)

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود رقم (٤٩٧٤) في الأدب، باب في الكرم وحفظ المنطق، ورواه البخاري ومسلم ومالك بروايات أخرى

(٣) حديث صحيح، رواه البخاري ٥ / ١٢٩ - ١٣١ في العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، ومسلم رقم (٢٢٤٩) في الألفاظ، وأبو داود رقم (٤٩٧٥) في الأدب أحمد (٢/ ٤٢٣) واللفظ

هذه القنوات الهابطة الفاسدة، هناك قنوات قامت على نصر السنة وبيان الشريعة وتصحيح العقيدة، وفيها البركة والخير والهداية والكفاية عن القنوات التالفة فأخرج هذه القنوات الهابطة وأدخل القنوات الطيبة النافعة، وإن نهينا الناس عن السماع المحرم الممنوع من السماع الصوفي البدعي، وعن سماع الغناء التافه الذي يثير نزعات الشهوة ومواقعة الحرام، فإننا نبين للناس أن هناك نوعاً من السماع الرحامي الهادف الجميل العذب الطيب وهو سماع كلام الله تعالى والتلذذ به، أعني به القرآن الإقبال على كتاب الله تعالى قراءة وسماعاً وتدبراً وحفظاً واستنباطاً لفوائده وعملاً بأحكامه واتعاضاً بحكمه وقصصه وأخباره، فإن سماع كلام الله تعالى هو راحة القلوب واطمئنان النفوس، وانسراح الصدور، وهو الغذاء الحقيقي للروح، وهو الهدى والنور والحق والبيان والتذكرة والفرقان والشفاء.

فلا نكتفي بمنع الناس من الحرام، بل لا بد من بيان ما يغنيهم عن مواقف الحرام من البدائل الشرعية، وإن نهينا الناس عن السفر في السياحة إلى بلاد الكفر والإباحية فإننا مع بيان كبير الخطر من هذه السفرات المحرمة التي لا يجنى من ورائها إلا كل قبيح، لا بد وأن نبين للناس أن هناك من الأماكن السياحية الطيبة المأمونة ما يغني عن هذه السفرات الآثمة، وأعظمها السياحة الدينية في السفر إلى الأماكن المقدسة من مكة والمدينة، أو بعض المناطق الجميلة في مناظرها ولكن لا منكرات تظهر فيها علناً، كما هو الحال في بلادنا المملكة العربية السعودية، فإن بلادنا والله الحمد والمنة تزخر بالمواقع الطيبة ذات المناظر الجميلة التي تكفي وتروي ظمأ القلب في هذا الجانب، مع أن المتعة الحقيقية الكاملة لا ولن توجد في هذه الحياة

الدنيا، بل لا توجد إلا في جنة عرضها السموات والأرض، فكمال المتعة هناك، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهلها، فإن من أقبل على الفكرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما ورد فيهما من صفات الجنة وعظيم النعيم المقيم واللذة الأبدية والراحة الكاملة فيها وما فيها من أصناف الحبور والسعادة، فإن مناظر الدنيا كلها عن بكرة أبيها لتكون في عينه أحقر من البعوضة، ولا يملأ قلبه إلا دخول هذه الدار الطيبة، نسأل الله تعالى باسمه الأعظم أن لا يجرمنا من دخولها، نعم، من تفكر في الجنة ونعيمها فبالله عليك ماذا تكون الدنيا ونعيمها عنده؟ لا شيء، فإن نعيم الدنيا مشوب بالكدر والتنقيص والآلام.

وأما نعيم الجنة فهو النعيم الكامل والراحة التامة والحبور والسعادة الأبدية، لا فقر فيها، ولا أمراض ولا ديون، ولا موت ولا مطالبات بالحقوق ولا خسارة ولا حروب ولا سفك دماء، ولا كوارث من زلازل أو براكين أو فيضانات أو حوادث، بل لا حزن فيها أصلاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ] [فاطر: ٣٤-٣٥]، والمقصود أن البديل الشرعي موجود والله الحمد والمنة، بل إن الناس لم يشغلوا بالحرام إلا لما أهملوا البديل الشرعي، ولا تظن أخي الداعية أن تنبيه الناس إلى البدائل الشرعية من فضول الدعوة، لا بل هو من جملة أصولها التي لا بد من بيانها، وإن نهينا الناس قراءة الروايات الهابطة والتي تفسد ولا تصلح وتهدم ولا تبني، وتؤخر ولا تقدم، فإننا نبين لهم أن المكتبة الإسلامية تزخر والله الحمد بالكتب القصصية الرائعة، سواء ما كان منها في سيرة أعظم نبي ﷺ، أو ما

كان منها في سيرة أصحابه الكرام، أو ما كان منها في سيرة أئمة الهدى، رحمهم الله تعالى، أو ما كان منها في بيان الأحكام التي جاءت بها الشريعة حتى يعبد العبد ربه على بصيرة، والمهم أن البديل موجود، فمن استجاب فالحمد لله تعالى وهذا هو المطلوب، ومن لم يستجب فالحجة قائمة عليه والذمة برئت من عهده في بيان الحق له، والله تعالى له الأمر من قبل ومن بعد، وأمر هداية القلوب لله تعالى وحده لا شريك له، وإن نهينا النساء عن الدخول في الأسواق العامة التي يحصل فيها الاختلاط بين الرجال والنساء، فإننا نبين لهم أن هناك في البلد والله الحمد والمنة أسواق خاصة بالنساء، وفيها ما لا يوجد أحياناً في الأسواق العامة، وإن نهيناهن عن الذهاب للمستشفيات العامة المختلطة، أو المستوصفات المختلطة فإن بلادنا والله الحمد فيها من المستشفيات والمستوصفات الخاصة بالنساء ما يعرفه الجميع والله تعالى وسع علينا بوجود هذه البدائل الشرعية والله الحمد والمنة، ولكن من الناس من لا يريد إلا الحرام والمخالفة، وهذا لا شأن لنا به، كما قال تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤]، وهذا الصنف موجود في الناس، ولا تحسب أخي الداعية أنك مع بيان البدائل الشرعية أنك ستقابل بالترحيب من بعض النفوس الفاسدة، والمهم أن عليك بيان الحق وإلا فمن الناس من يقول الله تعالى فيه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وهذا يصدق على من يرى طريق الحق ولا يمنعه من سلوكه إلا العناد والمكابرة ومحبة مواجهة الحرام، فيقول له أهل الحق: هلم إلى طريق الحق، فيقول: لا، ويقول له شياطين الإنس والجن: هلم إلى طريق الباطل، فيقول: على الرحب والسعة، وهذا أمره إلى الله تعالى، فهو ربه وله مرجعه وعليه حسابه، وهو أعلم وأبصر به، والمهم أن من الأمور المطلوبة من الداعية مع نهى الناس عن الحرام، أن يبين لهم البديل الشرعي، وكذلك إن نهينا بعض الناس عن الاحتفالات البدعية المنكرة لبعض الموالد أو المشاركة في احتفالات النصارى في أعيادهم الكفرية الوثنية، فإننا مع بيان الخطر والمخالفة العقدية في هذه المشاركة، لا بد وأن نبين لهم أن الله تعالى قد أبدلنا ما هو خير وأنفع وأصلح لنا في العاجل والآجل، وهو يوم الفطر ويوم الأضحى، فهي الأعياد المشروعية لنا نحن أهل الإسلام وما عداها فهو من المنكرات القبيحة ومن البدع المحدثه في الدين، وكل إحداث في الدين فهو رد، وإن نهينا الناس عن السفر للتعليم إلى بلاد الكفار، فإننا نبين لهم أن بلاد المسلمين والله الحمد تزخر بالجامعات العالمية الكبيرة والتي تشتمل على كل التخصصات التي يحتاج لها الناس في موضوع حياتهم سواء أكان منها الجانب الشرعي، أو الجانب الأمني، أو الجانب التعليمي أو الصحي أو غيرها من سائر التخصصات، فما الحاجة إلى السفر للبلاد الكافرة، وما الحاجة إلى بعث أولاد المسلمين إلى البلاد التي تخالفهم في عقيدتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، أفلا نعتبر ببعض من ذهب لتلك البلاد ورجع إلى بلاده متنكرا على عقيدته وأخلاقه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والمهم أن بلادنا فيها من الجامعات والكليات ما يغني عن الذهاب إلى بلاد الكفر

وما الذي تفوق علينا فيه الكفار حتى نضطر إلى الذهاب لهم؟ ولكنه الجهل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولعل ما أريد إثباته في هذه القاعدة الطيبة قد وصل لك إن شاء الله تعالى والخلاصة أن الداعية عليه مع بيان الأمر القبيح، أن يبين للناس المخارج والبدائل الشرعية، مع أنني جلست متفكرا في كلمة البدائل الشرعية ردحا من الزمان أهى كما ينبغي أم فيها هضم للشرع؟ وذلك لأن الأمر المشروع هو الأصل في المسلم ابتداء، ولكنه استعاض عنه بسبب غلبة الجهل والشهوة بالأمر المحرم، فنحن إن رددناه إلى الأمر المشروع فإننا لا نكون بذلك قد نقلناه إلى البديل، بل نكون قد نقلناه من البديل المحرم إلى الأصل المشروع، فالأمر المشروع هو الأصل، وهي المطلوبة من المسلم في دينه وشريعته، ولكن الأمر خفيف، وذلك لأن من قرر هذه القاعدة، لم يلحظ إلا أن الناس قد تعودوا على فعل الحرام، حتى صار كأنه هو الأصل عندهم، فأراد أن ينقلهم مما يعتقدون أنه الأصل إلى بديل عنه، فسمى ما انتقلوا له البدائل الشرعية والله ربنا أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.



القاعدة الثالثة والعشرون

كسب قلوب المدعوين

من أهم أسباب نجاح الداعية

أقول وبالله تعالى التوفيق: إن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن القلب هو ملك الأعضاء والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت الجنود، وإن خبث الملك خبثت الجنود، وهي كلمة تروى عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأعظم من هذا قول ربنا جل وعلا: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والمراد أنه حكم عليه بالحياة لما أحيا قلبه بنور الإيمان واليقين، وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الْحَلَالُ بَيْنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ تَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)^(١)،

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ١ / ١١٧ في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، وفي البيوع، باب الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات، ومسلم رقم (١٥٩٩) في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات، وأبو داود رقم (٣٣٢٩) في البيوع، والترمذي رقم (١٢٠٥) في البيوع، والنسائي ٧ / ٢٤١ في البيوع.

والشاهد أنه جعل صلاح البدن مرهون ومعلق بصلاح القلب، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأبي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه)^(١)، وفيه أن الثبات إنما حقيقته ثبات القلب، وأن صلاح القلب وطلاحه هو الحاكم على صلاح الأعضاء وفسادها، فحيث كان القلب بهذه المنزلة الخطيرة فلا بد وأن يكون أكبر انصباب اهتمام الداعية على هذه المضغة المهمة.

فإن الداعية إن استطاع أن يكسب قلب المدعو، فإنه يكون بذلك قد قطع مسافات طويلة في الدعوة، لأن انشراح القلب للداعية سبب في نجاح دعوته، وسبب في قبول الدعوة، فكسب القلوب ليس بالأمر السهل ولا الهين، بل له دوره الكبير جدا في القبول والرد، والصلاح والطلاح، والموافقة والممانعة ولذلك فقد كان النبي ﷺ حريصا الحرص الكامل على تأليف القلوب وكسبها، ليكون ذلك أعون له على قبول الدعوة، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالفضاظة وغلظ القلب من الأسباب التي تقفل القلوب عن الداعية، لأن النفوس قد فطرت على كراهة القاسي

(١) حديث صحيح، رواه مسلم رقم (١٤٤) في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأحمد (٣٨٦/٥) (٤٠٥) والبخاري (٢٦٣/٧)، رقم (٢٨٤٤).

الغليظ، ثم أمره بما يوجب كسب القلوب، من العفو، والدعاء والاستغفار لهم، ومشاورتهم في الأمر.

وهذه الأمور كلها مما تشرح صدور المدعوين للداعية، فالداعية الموفق هو من وفقه الله تعالى لهذه الأمور، فإن قلوب المدعوين ستسيل بين يديه بسببها، فأما العفو فهو الخلق الذي لا مثيل له في الدعوة، ولذلك فإن ثمامة بن أثال رضي الله عنه قد أسلم لما عفا عنه النبي ﷺ؛ لأنه بعفوه هذا قد أسر قلبه، وعفا عن الأعرابي الذي بال في مسجده، فكان من آثار هذا الكريم أن ثبت الله تعالى قلبه، وازداد حبه للنبي ﷺ حتى قال: (اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر معنا لأحد)، وعفا عن الأعرابي الذي جبهه من عمامته القطرية حتى أثر في النبي ﷺ، وأعطاه، ثم أعطاه، حتى شكر الأعرابي للنبي ﷺ عطيته وكرم أخلاقه أمام الملأ، وعفا عن كفار قريش لما أقدره الله تعالى عليهم، ومكنه من رقابهم، وقد فعلوا به وبأصحابه يوم قوتهم الأفاعيل إذ كان بين أظهرهم، فلما قدر على رقابهم، وسيفه مصلت قال كلمته التي سطرها التاريخ: (يا معشر قريش اذهبوا فأنتم الطلقاء).

إنه والله العظيم الخلق الكريم، لأن الله تعالى هو الذي رباه على عينه جل وعلا، فصار عفوه هذا سببا في إسلام الكثير منهم، لأن الداعية ليس من خلقه الانتقام لذاته، والتفرعن بعد السيطرة، بل الداعية ينبغي له أن يكون ذا عفو وتواضع وصفح لأن المقصود هو هداية الناس لا الانتقام منهم، وهذا كما قال الله تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام أنه قال لإخوانه وقد فعلوا به ما فعلوا.. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، إنها الأخلاق

الكريمة الرفيعة التي قد جاوزت الوصف، أما نحن فناهيك عن القسوة والفظاظة التي تكون منا حال السيطرة، والله المستعان، وقد عفا عن الأعرابي الذي انتهب فرصة نوم النبي ﷺ وسل السيف على رسول الله ﷺ وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: (الله)، فاضطربت يده وسقط السيف منه، فأخذه النبي ﷺ وقال للإعرابي: (وأنت من يمنعك مني؟) فتوسل له الأعرابي، فأطلقه وعفا عنه^(١)، فصارت سببا في إسلامه.

هكذا تكسب القلوب فالعفو عن المدعو حال خطئه من أكبر الأسباب التي توجب انشراح صدره وكسب قلبه، ثم تكون الهداية والاستجابة بإذن الله تعالى، والصور كثيرة جدا لا تكاد تحصر، لأن العفو هو سجيته المعهودة منه ﷺ، ولذلك فقد استجاب لدعوته من الناس من لا يحصيهم إلا الله تعالى، لأن العفو مفتاح القلوب، وقد علم النبي ﷺ ابن مسعود التشهد وكفه بين كفيه، بالله عليك، لو علمك أحد العلماء شيئا من الدين وكفك بين كفيه، فما حالك مع هذا التعليم الرائع، لا جرم أنه سيكون من العلم الذي يقر في القلوب، وتبادر بامتثاله لأن القلب قد أسر بهذه الحركة التي لا يراد منها إلا كسب القلوب واستمالة العواطف وبيان كبير الحرص على التعليم، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن اتصال شيء من بدن الداعية إلى بدن المدعو حال إلقاء الدعوة من الأمور الموجبة للقبول، وما ذلك إلا لعشق القلوب لهذه اللطافة الكريمة والحرص المتناهي، وانظر

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في: ٦٤ كتاب المغازي، ومسلم رقم (٨٤٠) و (٨٤٣) في صلاة

المسافرين، باب صلاة الخوف، والنسائي ٣ / ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٨ في صلاة الخوف.

كيف علم النبي ﷺ معاذًا الذكر بعد الصلاة، فعن الصنابحي، عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي يومًا ثم قال: (يا معاذ، والله إني لأحبك)، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ والله إني لأحبك. فقال: (أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك...) (١).

يا لله كم لهذا التعليم من الأثر الكبير والقبول العظيم، لم يعلمه مباشرة لا، بل قدم أمورًا توجب كسب القلب وبيان كبير الاهتمام، وإظهارًا للفضل، أخذ بيده فحصل اتصال بين الداعية والمدعو، ثم أخبره بكبير الحب له في الله، ثم علمه بعد ذلك ما أراد، فهل هناك مجال للرد والتقايس عن القبول أو التشاغل بأمور أخرى؟ بالطبع لا، فكسب القلوب هو أعظم الأسباب التي توجب نجاح الداعية، وإننا لنشكو في هذا الزمان الفجوة الكبيرة بين الدعاة والمدعويين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، واسمع لأبي هريرة رضي الله عنه وهو يذكر صورة من صور التعليم العظيم من أعظم المعلمين عليه الصلاة والسلام، فإنه لما أراد أن يعلمه أمورًا من الدين لم يعلمه هكذا جزافًا، لا، بل أخذ بيده، وعدد الأمور المراد تعليمها له بعدد يده هو، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه: (مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلْ بِهِنَّ، أَوْ يُعَلِّمْ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟) قال أبو هريرة، فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وَعَدَّ خَمْسًا، فقال: (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ. وَارْضَ

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤/٥، رقم ٢٢١٧٢)، وأبو داود (٨٦/٢، رقم ١٥٢٢) والنسائي في الكبرى

(٣٢/٦، رقم ٩٩٣٧) والحاكم (٤٠٧/١، رقم ١٠١٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين.

بما قسم الله لك تكن أغني الناس، وأخسِنُ إلى جارِكَ تَكُنْ مُؤمِنًا، وأحِبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مُسْلِمًا ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب^(١).

وقد كان النبي ﷺ إذا أردف الواحد من الصحابة لا ينزل من على الدابة إلا وقد تعلم منه أموراً كثيرة، لأن الحمل والإرداف على الدابة من الأمور التي تكسب قلوب المدعويين، فإنه لو رأيت إنساناً منقطعاً في الطريق، ثم أركبته معك في السيارة، ولا طفته ثم دعوته إلى أمر من أمور الدين فإنه سيكون ذا قلب منشرح وصدر متسع لما تقول، لأنك أحسنت له وأركبته معك، فالنبي ﷺ علم معاذاً وعلم جمعا من الصحابة وهم معه على ظهر الدابة فأرداف المدعو وإركابه معك في السيارة من الأمور التي توجب ميل قلبه لك وحبه لك، فعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ رَدَفَ رسولِ الله ﷺ، ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرَّحْلِ، قال: (يا معاذُ بنَ جبل)، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: (يا معاذُ بنَ جبل)، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: (يا معاذُ بنَ جبل)، فقلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: (هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟)، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) ثم سار ساعة، ثم قال: (يا معاذُ بنَ جبل)، قلتُ: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: (هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟)

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٠٦) في الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، ورواه أيضاً أحمد

في "المسند" ٢ / ٣١٠ وابن ماجه رقم (٤٢١٧) في الزهد، باب الورع والتقوى، والبيهقي في

شعب الإيمان " وهو حديث حسن.

قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: (حَقُّ العباد على الله: أن لا يعدَّ بهم)، وفي رواية قال: كنتُ ردِّفَ رسولِ الله ﷺ على حمار يقال له: عُفَيْر...^(١)، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)^(٢).

فالداعية الموفق هو من يقدم بين يدي دعوته أموراً يكسب بها قلوب المدعويين، وكان عليه الصلاة والسلام يخدم أهل بيته، فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها سئلت ما كان رسولُ الله ﷺ يعملُ في بيته قالت: (كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيُخَصِّفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ...)، ومن كسبه لقلوب المدعويين ما كان يفعلُه مع نسائه رضي الله عنهن، فعن عائشة قالت: (كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في وكنت أتعرق العرق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع في...)، وأي لطافة بعد هذه اللطافة، فهكذا تكسب

(١) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ١٣ / ٣٠٠ في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، وفي الجهاد، باب اسم الفرس والحمار، وفي الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك، ومسلم رقم (٣٠) في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، والترمذي رقم (٢٦٤٥) في الإيمان، وأحمد (٥/ ٢٢٨).

القلوب، وإن كسب القلب فقد استسلمت الجوارح كلها وانقادت، فالقلوب أمرها عظيم، فلا ينبغي إهمالها.

وإننا لنشكو إلى الله تعالى في هذا الزمان من بعض الدعاة ينفرون ولا يجمعون، ويسئون ولا يحسنون، فلا ترى الواحد منهم إلا ساع في الإضرار بالغير، وهؤلاء في الحقيقة ليسوا بدعاة وإن ظهروا بصورة الدعاة، ومنهم من تأبى عليه هيبته أن يتصرف بما يخل بها عنده، فلا تراه مبتسما ولا مازحا، تالله إنها الهيبة الكاذبة والتعامل الممل، فما الذي يرجوه هؤلاء من الناس؟ هل يرجون استجابة أو محبة أو قبولاً؟ لا أدري كيف ينظر هؤلاء إلى الدعوة، وترى البعض منهم قد سخر جهده وقلمه ووقته في تتبع الأشرطة بحثا وتنقيا عن الأخطاء، أي عن أخطاء بعض الدعاة الآخرين لعله أن يظفر منها بشيء، فيعلنها أمام العامة، وأن فلانا عنده كيت وكيت من الأخطاء، فلا تراه واعظا ولا مذكرا، بل ناقدا منقبا عن الزلل والخلل، وهذا حاله كالذباب لا يقع إلا على كل قبيح، لا والله ما هكذا تكون الدعوة، وما على هذا ربانا ديننا، ومن صور كسب النبي ﷺ لقلوب المدعويين الممازحة الصادقة الهادفة الموزونة، فالمزاح أمر تحبه القلوب وتعشقه النفوس، ولكن لا بد وأن يكون موزونا، فروى أحمد عن ثابت البناني عن أنس أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا كان يهدي للنبي ﷺ الهدية من البادية فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج فقال النبي ﷺ: (إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ)، وكان النبي ﷺ يحبُّه وكان رجلا دميما فأتاه النبي ﷺ يوما وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يُبصره فقال الرجل أُرسلني من هذا فالتفت فعرف النبي ﷺ

فَجَعَلَ لَا يَأْكُلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرُهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتُ بِكَاسِدٍ أَوْ قَالَ لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ غَالٍ...) ^(١)، وعن حميد، عن أنس بن مالك أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: (إني حاملك على ولد الناقة)، فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: (وهل تلد الإبل إلا النوق) ^(٢)، وعن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا. قال: (إني لا أقول إلا حقاً) ^(٣).

بل حتى الصغار نالوا من مزاحه نصيب واهتمام، فعن أنس قال: إن كان رسول الله ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: (يا أبا عمير، ما فعل النغير) ^(٤)، وعن النعمان ابن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناوها ليلطمها وقال: أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ فجعل النبي

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، أخرجه الإمام أحمد رقم (١٢٦٤٨) والحديث في "مصنف عبد الرزاق" (١٩٦٨٨)، ومن طريقه أخرجه الترمذي في "الشمال" (٢٣٩)، وأبو يعلى (٣٤٥٦)، والبزار (٢٧٣٥ - كشف الأستار)، وابن حبان (٥٧٩٠)، والبيهقي ٦/ ١٦٩.

(٢) إسناده صحيح، أخرجه أحمد رقم (١٣٨١٧) وأخرجه البخاري في "الأدب" (٢٦٨)، وأبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي في "السنن" (١٩٩١)، وفي "الشمال" (٢٣٨) وغيرهم.

(٣) إسناده حسن، أخرجه أحمد (٣٤٠ / ٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥) والترمذي رقم (١٩٩١) في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، وقال: هذا حديث حسن.

(٤) حديث صحيح، أخرجه البخاري ٤٣٦ / ١٠ في الأدب، ومسلم رقم (٢١٥٠) في الأدب، وأبو داود رقم (٤٩٦٩).

يُحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: (كَيْفَ رَأَيْتَنِي أَنْقَذْتُكَ مِنَ الرَّجُلِ؟) قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدْ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخُلَانِي فِي سَلَمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا) ^(١)، وَقَالَ مَرَّةً لَامْرَأَةً: (زُوجُكِ، ذَلِكَ الْبَيَاضُ فِي عَيْنَيْهِ؟)، قَالَتْ: عَقْرَى، وَمَتَى رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: (وَهَلْ مِنْ عَيْنٍ إِلَّا وَفِيهَا بَيَاضٌ؟) ^(٢)، وَقَالَ لَامْرَأَةً عَجُوزَ: (إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزَ)، فَقَالَتْ: وَمَا لَهْنٌ؟ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَقَالَ لَهَا: (أَمَا تَقْرئين الْقُرْآنَ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ ^(٣) جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ^(٤) عُرُبًا أَتْرَابًا ^(٥) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ^(٦)) [الواقعة: ٣٥-٣٨] ^(٣).

وَجَاءَ شَابٌ مَفْعَمٌ بِحُبِّ الزَّنا، فَمَا إِنْ حَدَثَهُ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ حَتَّى انْقَلَبَتْ الْمَوَازِينُ، وَصَارَ الزَّنا أَبْغَضَ شَيْءٍ إِلَى هَذَا الشَّابِّ، إِنَّهَا الْقُلُوبُ، فَالْمَوْفُوقُ مِنْ وَفْقِهِ اللَّهِ

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٤٩٩٩) فِي الْأَدَبِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَزَاحِ، مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ عَنِ الْعِيزَارِ بْنِ حَرِيثَ عَنِ النُّعْمَانِ ^(١)، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَأَحْمَدُ (٢٧١/٤) وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ.

(٢) الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْأَحْيَاءِ "الْمَغْنِي عَنْ حَمَلِ الْأَسْفَارِ" (٢/٧٩٦) رَقْمَ (٢٩٢١) فَقَالَ: «حَدِيثُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ لَامْرَأَةً يُقَالُ لَهَا أُمُ الْيَمَنِ قَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي يَدْعُوكَ: أَهْوُ الَّذِي بَعَيْنُهُ بَيَاضٌ...» الْحَدِيثُ. الزَّيْبِرُ بْنُ بَكَارٍ فِي كِتَابِ "الْفَكَاهَةِ وَالْمَزَاحِ" وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ بْنِ سَهْمٍ الْفَهْرِيِّ مَعَ اخْتِلَافٍ ١. هـ.

(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي "الشَّائِلِ" بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ مَزَاحِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ مَرْسَلًا. قَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي "تَخْرِيجِ الْأَحْيَاءِ" وَأَسْنَدُهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي "الْوَفَاءِ" مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ، وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، وَكَذَا الطَّبْرَانِيُّ فِي "الْأَوْسَطِ".

تعالى لكسب القلوب، والصور كثيرة جدا، فإن قلت: وبأي شيء نكسب القلوب؟ فأقول: أولا، لا بد من قراءة السيرة قراءة تأمل فإن أعظم من كسب القلوب هو محمد ﷺ، فقراءة سيرة قراءة تأمل وتدبر مما يطلع الداعية على هذا الأمر، ثم أقول: أعظم ما كسبت به القلوب هو حسن الأخلاق، فحسن الأخلاق له الدور الكبير في تحقيق هذا، فإنك لو تأملت معي جملا من الصور التي ذكرتها لك في هذه القاعدة لوجدت أن الذي يجمعها كلها هو حسن الخلق، فالعفو والصفح عن المخطئين مما يكسب القلوب، والمشاورة في الأمر مما يحقق هذا، والممازحة البريئة الهادفة الصادقة الموزونة مما يحقق هذا الهدف أيضا، والدخول مع الناس ومشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم مما يحقق هذا، والدعاء لهم وإظهار المحبة لهم بالقول والفعل، ونفع الناس بالمقدور عليه من العلم والجاه والمال وإظهار الشفقة والنصح لهم كل هذه الأمور مما يكسب بها الداعية قلوب الناس وأعظم من ذلك كله الصدق مع الله تعالى والإخلاص له، وحسن عبادته والإقبال عليه، فإن من أقبل على الله تعالى بالصدق والتعبد والإخلاص أقبل الله تعالى بقلوب الناس عليه، فإن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يقلبها كيف شاء، كما في الحديث، فمن أحبه الله تعالى فقد أحبه كل شيء، ومن أبغضه الله تعالى فقد أبغضه كل شيء، ففي الحديث الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جَبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ). وفي رواية مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ، فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا

فأحْبُوهُ، فيحبُّهُ أهل السماء، ثم يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قال: فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثم ينادي في أهل السماء: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثم تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ^(١).

وبالجملة فالأمر يحتاج إلى الحلم والرفق والصبر وكثرة الدعاء وقوة التضرع إلى الله تعالى، والله تعالى هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) رواه البخاري ١٣ / ٣٨٧ في التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، وفي الأدب، باب المقة في الله تعالى، ومسلم رقم (٢٦٣٧) في البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، والموطأ ٢ / ٩٥٣ في الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، والترمذي رقم (٣١٦٠) في التفسير.

القاعدة الرابعة والعشرون

تحديث الناس على قدر أفهامهم

حزام أمان من الفهم المغلوط

أقول: إن العقول متفاوتة، والأفهام مختلفة، والناس يختلفون في الفروق الفردية، فليس كل أحد ينفع معه ما ينفع مع الآخر، بل لا بد وأن يكون الداعية ذا دراية تامة أو شبه تامة بعقلية المدعو وفهمه وجودة إدراكه، فالتفكير يختلف، والنفوس لا يسبر غورها إلا الله تعالى، فالداعية الموفق لا بد وأن يكون على حيلة من هذا الأمر، فكم من الفساد الذي حصل بسبب الإخلال بهذا الأمر، فلا يجوز للداعية أن يحدث قوماً بحديث لا تحتمله عقولهم، لأنه بذلك سيفتنهم، فعن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال سمعت علياً يقول: (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله)^(١)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما أنت بمُحدِّث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)^(٢). أخرجهم مسلم في مقدمة كتابه. قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى ووفقه لكل خير: «أي لا يُلقَى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يُخفى عليهم معناها، أو تشوِّش عليهم، وإنما يُلقَى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نواذر المسائل، وخواص المسائل، فهذه

(١) جامع الأحاديث، مسند علي بن أبي طالب ٣٠/ ٢٨٠.

(٢) صحيح مسلم، باب معرفة الركعتين ١١/ ١.

تلقى على طلبة العلم والمتفهمين المتمكنين، وهذا من الحكمة ووضع الشيء في موضعه، لما تكون أمام عُصاة يشربون الخمر ويزنون، ويسرقون، وتقول: الله غفور رحيم، الله قريب مجيب، الله سبحانه وتعالى يغفر ويسمح، فيزيدون في الشرور، لكن حين تقول لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعد الزناة بالعذاب وتوعد على السرقة وعلى المعاصي بالعذاب الشديد، فتذكر لهم نصوص الوعيد، من أجل التوبة، ولو أتيت عند متمسكين وطيبين فذكرت لهم آيات الوعيد، فهذا ربها يزيدهم وسواساً، أو تشدداً، فأنت تذكر لهم آيات التيسير وأحاديث التيسير، والتسهيل، والرحمة، الفرج، إلى غير ذلك، من أجل أن لا يزيدوا ويشتدوا ويغلو، فكل مقام له مقال، وتوضع الأمور في مواضعها، هذا هو الميزان الصحيح، والناس ليسوا على حد سواء، كل يخاطب بما يستفيد منه ولا يتضرر به، فلا تأتي بآيات الوعد والرجاء عند المتساهلين، ولا تأتي بآيات الوعيد عند المتشددّين، بل تكون كالطبيب تضع الدواء في موضعه المناسب، هكذا يكون طالب العلم إذا كانت هناك أمور غامضة، لا يعرفها العوام، ولا تتسع لها عقولهم، من المسائل العلمية، فلا تُلقى على العوام، وإنما تُلقى على طلبة العلم، وعلى الناس الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، وقال علي عليه السلام: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)، فالخلاصة؛ أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يُلقى عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم فرائب المسائل التي لا يعرفها إلاّ الراسخون في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة

سهلة يتدرّجون بها شيئاً فشيئاً، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في "صحيح البخاري"، لأنه لم يصل إلى هذا الحد لكن لَقَّنَه "الأربعين النووية" والأحاديث القريبة، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، وإنسان مبتدئ بعلم العربية، لا تأمره بقراءة كتاب سيبويه، لكن تأمره بقراءة "الأجرومية"، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو، شيئاً فشيئاً، ولذلك ألف العلماء المختصرات والمتوسّطات والمطوّلات، من أجل إن طالب العلم يمشي مراحل، شيئاً فشيئاً، الحاصل: أن كل شيء له شيء، وكل مقام له مقال.

قلت: وقد بوب على ذلك البخاري في الصحيح في كتاب العلم بقوله: «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه»، ثم ذكر رحمه الله تعالى جملاً من الأحاديث الواردة في هذا فتحديث الناس بما لا تحتمله عقولهم من الأسباب الموجبة للتكذيب والرد، والأفهام المغلوطة الفاسدة فيحدث كل أحد حسب قدرته وفهمه وعقله، قال في تيسير العزيز الحميد على أثر ابن مسعود: «فيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة»، وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: (ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه علمه إلا كان ضلالاً عليه)، وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: «ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه»، فإنه من باب وضع الحكمة غير موضعها، فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها - وهو الغالب - وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق، وإلى العمل بالباطل. وإما لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم، ولكن المحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون، بل صار التحدث بها كالعابث بنعمة الله. ثم إن ألقاها لمن لا

يعقلها في معرض الانتفاع بعد تعقلها كان من باب التكليف بما لا يطاق. وقد جاء النهي عن ذلك. فخرج أبو داود حديثاً عن النبي ﷺ: (أنه نهى عن الغلوطات) ^(١)، قالوا: وهي صعب المسائل أو شرار المسائل، وفي الترمذي - وغيره - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أتيتك لتعلمني من غرائب العلم فقال ﷺ: (ما صنعت في رأس العلم؟) قال: وما رأس العلم؟ قال: (هل عرفت الرب؟) قال: نعم. قال: (فما صنعت في حقه؟) قال: ما شاء الله، فقال رسول الله ﷺ: (اذهب فأحكم ما هنالك ثم تعال أعلمك من غرائب العلم) ^(٢).

وهذا المعنى هو مقتضى الحكمة، لا تعلم الغرائب إلا بعد إحكام الأصول، وإلا دخلت الفتنة، وقد قالوا في العالم الرباني: إنه الذي يربي بصغار العلم قبل كباره. وهذه الجملة شاهدها في الحديث الصحيح مشهور. وقد ترجم على ذلك البخاري فقال: «باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا»، ثم أسند عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟)، ثم ذكر حديث معاذ الذي أخبر به عند موته تأثيماً، وإنما لم يذكره إلا عند موته؛ لأن النبي ﷺ لم يأذن له في ذلك لما خشي من تنزيله غير منزلته، وعلمه معاذاً لأنه من أهله. وفي مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ما أنت

(١) إسناده ضعيف لجهالة عبد الله بن سعد: وهو ابن فروة البجلي مولاهم وقال الساجي: ضعّفه أهل

الشام، أخرجه البيهقي في "المدخل" (٣٠٣)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه".

(٢) رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مُرسلاً

وهُوَ ضَعِيفٌ جداً. ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء "المغني عن حمل الأسفار".

بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة^(١)، قال ابن وهب: «وذلك أن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على غير وجهه»، وخرج شعبة عن كثير بن مرة الحضرمي أنه قال: «إن عليك في عملك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك»، وقد ذكر العلماء هذا المعنى في كتبهم وبسطوه بسطاً شافياً والحمد لله، وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً ممن لا يقدر قدر هذا الموضوع يزل فيه فيحدث الناس بما لا تبلغه عقولهم، وهو على خلاف الشرع، وما كان عليه سلف هذه الأمة، وقال الإمام أبو داود في رسالته إلى أهل مكة: «وربما أتوقف عن مثل هذه - يعني: إبراز العلل - لأنه ضرر على العامة لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث، لأن علم العامة يقصر عن ذلك»، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَشَّتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَشَّتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ)^(٢)، وقد نهى النبي ﷺ معاذاً عن التحديث بما حدثه به من أن من قام بحق الله تعالى من تحقيق التوحيد فإنه لا يعذبه، خوفاً من اتكال الناس عليها، ونهى أبا هريرة أيضاً عن التحديث بقوله: (من لقيت وراء هذا الحائط يشهد إلا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)^(٣)، والحديث في صحيح مسلم، وذلك بعد مراجعة عمر له، وقوله:

(١) سبق تخريجه ص ٢١٨.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٣.

(٣) سبق تخريجه ص ١٠٩.

(يا رسول، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون)، وقد ترك النبي ﷺ قتل بعض المنافقين مخافة أن لا تحمل عقول بعض الضعفاء ذلك فيتحدثون أن محمداً يقتل أصحابه، وترك عليه الصلاة والسلام هدم الكعبة وبناءها على قواعد إبراهيم خوفاً من أن بعض ضعفاء الفهم يتحدثون أنه معاول الهدم بدأت في هدم القبلة التي يأمر الناس بالتوجه لها، فلو كانت قبلة صحيحة لما هدمها، والأدلة كثيرة على هذه القاعدة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وقد كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى يكره كثرة الحديث في أمر الفتنة بالأحاديث التي ظاهرها الخروج على الأمير، وثبت بإجماع السلف الإنكار على من يحدث الناس بغرائب العلم. وعليه فتفريعا على هذه القاعدة نقول: إن كان عقل السائل لا يحتمل الجواب، لا يجوز لك إجابته، أو حاول أن تعطيه من الجواب ما يتفق مع مفهمه ومدركات عقله.

وقال بعض العلماء تفريعا عليها أيضا: «وإن من أسوأ الأخطاء المنهجية والتربوية معاً، تدريس الحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة لتلاميذ المدارس، مع ما يصاحب ذلك من تشويه في العرض وتقصير في تعريف التلاميذ بمنزلة الصحابة وفضلهم وحقهم على الأمة، حيث ينشأ عن ذلك تعارض في ذهائهم بين الصورة الفطرية التي تصوروها عن أصحاب رسول الله ﷺ، وما ينبغي أن يكونوا عليه من الاستقامة، وبين الصورة التي تلقوها من المدرسة، فلا يستطيعون معرفة الحق من ذلك ولا يستوعبونه نظراً لصغر سنهم، ولقلة ثقافتهم،

حتى لو حاولت أن توضح لهم الصورة الصحيحة فإنهم لا يكادون يقتنعون لأن الشبهة التي أثرت قد انقدحت في أذهانهم».

وقال الشيخ محمد رحمه الله تعالى تفريعا على هذه القاعدة: «وانتبهوا لهذا أن مسائل الصفات لا يبحث فيها عند العامة، كما قال علي بن أبي طالب: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله)، وقال ابن مسعود: (إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، تأتي العامي مثلاً تريد تتحدث عن شيء من الصفات ولا سيما الصفات الخبرية، سوف يأخذ بالتمثيل على طول، يعني حتى بما وردت به السنة، لما قال الرسول: (يقبض السماوات بيمينه ويهزها)، وهز يده عند العامي أرى ألا تفعل، لأن العامي ماذا يتصور؟ على طول يريد أن يتصور أن يد الله عز وجل مثل يد الإنسان فالمسائل التي يخشى منها مفسدة أكبر من المصلحة، مع أن المصلحة سوف تتحقق بدون هذا»، ورحم الله الغزالي إذ قال في إحياء علوم الدين: «كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار».

ونقول أيضاً تفريعا على هذه القاعدة إنه ليس من الحكمة الدعوية بث أخطاء الحاكم أمام العامة، لأن الناس لا يجنون منها في الأعم الأغلب إلا الويل والشبور والندامة، فإن نشر أخطاء الحكام أمام الناس أمر لا خير فيه، بل الواجب على العلماء مناصحتهم سرا لا علانية، فإنه لا خير ولا مصلحة في إيغاط قلوب العامة على الحكام، وعلى ذلك وردت الأدلة المحذرة من الخروج على الحكام، والأمره بنصحهم سرا لا علانية.

ونقول أيضا: إنه ليس من الحكمة الدعوية إقحام صغار الطلبة في كبراء الاعتقادات وعويص المسائل التي لا تحملها عقولهم، بل العالم الرباني هو بمنزلة تزيين البيت الحسن بصغار العلم قبل كباره، وكم من طالب دخل في كبار المناظرات قبل أن يتقن عمل صغارها فصارت له فتنة وأدت به إلى الانقطاع.

ونقول أيضا: لقد حذر أهل العلم رحمهم الله تعالى من بث الشبهة أمام العامة لأن عقولهم لا تحمل عرض الشبه، لا سيما في أبواب الاعتقادات والحدود والحدود على هذا الأمر، فالشبه تخطف القلوب والعقول وتحير الألباب، ويرثي فيهم كالأعمى الشبهة ولا يفهمون الجواب فينتج ذلك لهم الاعتقادات الفاسدة، ولهذا لا بد من إخراج لا يرى عرض المناظرات أمام الملأ في بعض القنوات الفضائية ابتغاء هدايتهم في هذه المسألة، لا سيما وأن بعض المناظرين الذين يتأخرون عن النقاش قد يكون ضعيفا في العلم الشرعي، فيهزم، فتنسب هزيمته إلى هزيمة أهل السنة، ولقد كان من الأمر شيء ما رضينا بعرضها أمام العامة، ولكن الله الأمر من قبل ومن بعده فتح أنه قد يكون فيها مصلحة، ولكن المفاصد التي تحتف بها أكبر وأعظم، وهو المنع من إتباع القواعد أن درء المفاصد مقدم على جلب المصالح، وأن الشرع يوجب على من يخطئ خير الخيرين، ودفع أعظم الفسادين، وأنت خير بأن من يجلس أمام تلك المناظرات ليس بالضرورة أن يكون عالما يعرف ويميز الحق من الباطل، بل أغلب من يجلس أمامها هم العامة ولذلك كثر الكلام في مسائل الدين وقدح في المسلمات العلمية التي ما كنا نسمع فيها كبير نقاش ولكن الآن صار العامة يتكلمون في المسائل الكبار والتي لا يكون الكلام فيها إلا لأهل العلم الراسخين، كله بسبب تلك المناظرات

التعميد تعريض هنا وهناك، فعرض المناظرات ليس بالأمر الذي يحسن أما العامة ولكن لا حياة لمن يتنادي، والله المستعان.

ولو نقول أيضا: لقد نما إلى علمي أن بعض طلبة العلم قد جمعوا بعض الأخطاء على بعض العلماء المعاصرين ثم بدؤوا يثنونها هنا وهناك على طلاب العلم الصغار، ويتردد قولهم في بعض المدارس المتوسطة أو الثانوية، وهذا مجانب للمصلحة والحكمة، وليس هو من الدعوة في صدر ولا ورد، بل هو من الفضيحة والتشهير الذي لا يجوز، فأى مصلحة وأي حكمة بالله عليك في أن يتعرف هؤلاء الطلاب الصغار على هذه الأخطاء، وهم أصلا قد يجهلون مهمات أمور العقيدة والدين، فهذا الفعل مذموم ولا نراه يصدر من أصحاب العقول الكاملة، ولكنه الحسد والحقد الدفين، والذي خرج مخرج النصح والتوجيه والتحذير، فهو إفساد في صورة الإصلاح، فإن كانت هناك أخطاء محققة فليس هذا من العلم الذي يقال عند الجميع كعملنا تفق، بل لا بد من مراعاة المصالح العامة، وأنا أرى أن تجنب الطلاب المتبعين هذه الأمور هو الحكمة وعين المصلحة، والله المستعان، والمهم أيها الأحبة أنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال، ومراعاة المصالح والمفاسد مطلوب في مثل هذه الأمور، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

كثيرا له بسلفا



فيملعات الساري

البحار الساري

تالفة لنا

من يعه به ثلثة رابعة فصله

تبعه ليلعاً فصله

سفالنا فصله نأ ثلثة لا

القاعدة الخامسة والعشرون

ترك ما يسوغ تركه من الأمور المندوبة
من باب التأليف والتعليم هناك محمود شرعاً

أقول: لو سألت وقلت: ما الحالات التي يكون ترك المندوب محموداً؟ فأقول:
الجواب على هذا السؤال أن يقال: يكون ترك المندوب أفضل في الحالات الآتية:
الأولى: إذا كان يقصد بتركه تأليف القلوب، وهو ما تمليه هذه القاعدة، فإذا كان
ترك المندوب يوجب تألف القلوب وعدم اختلافها واتحاد الصف فإنه يترك، لأن
مصلحة تأليف القلوب وبقاء الأخوة أهم من مراعاة مصلحة الإتيان بهذا المندوب،
قال أبو العباس ابن تيمية رحمته الله: «يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب
بترك هذه المستحبات لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل
هذا»^١ هـ. أي المندوب، وقال أبو العباس أيضاً: «ومعلوم أن ائتلاف الأمة أعظم في
الدين من بعض هذه المستحبات فلو تركها المرء لائتلاف القلوب كان ذلك حسناً
وذلك أفضل إذا كان مصلحة ائتلاف القلوب أعلى من مصلحة ذلك
المستحب»^١ هـ.

قلت: ودليل ذلك أن المقرر شرعاً أنه إذا تعارضت مصلحة روعي أعلاهما
تفويت أدناهما، فإذا تعارضت مصلحة تأليف القلوب وبقائها متأكفة متحابة مع

مصلحة فعل مندوب معين، بحيث يؤدي فعل إحداها إلى تفويت الأخرى فإننا
نقدم المصلحة العليا بتفويت المصلحة الدنيا، فأَي المصلحتين أهم وأكبر في نظرك؟
لا شك أن مصلحة التأليف أولى بالمراعاة وأخرى بالنظر وأجدر بالاهتمام لاسيما
وأن الجماعة حرصت كل الحرص على بقاء القلوب متفقة متآلفة متحابّة ولذلك
فإنها قد قطعت جميع الوسائل المفضية إلى اختلاف القلوب كما هو معلوم ويدل عليه
أيضاً أن النفع المتعدي إذا تعارض مع النفع القاصر، فإنه يقدم النفع المتعدي على
النفع القاصر، وفعل هذا المندوب نفعه قاصر على صاحبه وأما تركه فإنه يحصل
تآلف القلوب والاتحاد والكلمة وائتلاف الأرواح وعدم تناكرها، وهذا نفع متعدٍ، فإذا
تعارض الفعل مع التمسك، وكانت مصلحة الترك أعظم لأنها ذات نفع متعدٍ فلا شك
أنهم رأوا أن التمسك - يقدم على الفعل - لأننا بهذا الترك نحصل نفعاً متعدياً وهذا واضح،
ويدل عليه أيضاً أن المتقرر في القواعد أن المفضل قد يصير فاضلاً والفاضل قد
يصير مفضلاً، وذلك يلقن أن المصلحة من عدمها، فأَي طرف كانت فيه المصلحة
فهو الفاضل، ويكون الطرف الذي فارقت المصلحة مفضولاً، إذا علمت هذا فاعلم
أن فعل المندوب هو مصلحة ولا شك ولكن تركه في هذه الحال المعينة فيها مصلحة
لأعظم وأكبر وأهم، فالمصلحة المقترنة بالترك أعظم من المصلحة المقترنة بالفعل
فراجع الترك على الفعل في هذه الحالة، وهذا هو عين الفقه، أعني مراعاة المصالح
والمفاسد، فإن قلت: فهلا مثلت لذلك ليكون واضحاً، فأقول: نعم والفروع كثيرة
ولو كنت أقصر على بعضها طلباً للاختصار فأقول:

وه قبلته ثم فالتة له القرب

منها: إذا صليت بقوم من الحنفية أو صليت معهم ورأيت أن ترك رفع اليدين مع المواضع الثلاثة يوجب تأليف القلوب فاتركه، ونعني بالمواضع الثلاثة أي عند الهوي للركوع وعند الرفع منه وبعد القيام من الركعتين، ذلك لأن مذهب الأحناف عدم رفع اليدين في هذه المواضع وأما في تكبيرة الإحرام فالمذاهب متفقة على الرفع في هذا الموضع فإذا كان رفعك ليديك في هذه المواضع يفضي إلى الاختلاف والتنازع والتنافر والطمع فيك أو عدم قبولهم لتوجيهك ونصحك الذي أتيت من أجله فإن الأفضل لك تركه في هذه الحالة المعينة ذلك لأن مصلحة التأليف أولى مراعاة من مجرد مصلحة فعل هذا المندوب، لاسيما وأن بعض الأحناف فيه تعصب شديد لمذهبه، فكان المناسب والحالة هذه أن يترك هذا المندوب المعين في هذه الحالة المعينة مراعاةً لمصلحة التأليف، ولما كنت في بعض البلاد التي تعتمد مذاهب الحنفية صليت بهم إماماً وكنت أرفع يدي في هذه المواضع ولما فرغت من الصلاة أردت أن أقوم للموعظة والتذكير ففوجئت أن إمام المسجد الأصلي أخذ اللاقط قبلي وتكلم مع الجماعة بلغتهم التي لا أفهمها فلما فرغ خرج أكثر من في المسجد إلا نفرأ يسيراً ولما سألت عن الذي قاله ذلك الإمام وجدت أنه قال: إن هذا الرجل إنما جاء يعلمكم مذاهباً غير مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، حتى هو خرج من المسجد فوقع الاختلاف وأسيء بي الظن ورفض أهل المسجد الموعظة وحرموا منها من جل أني فعلت سنة كان علي أن أتركها لمصلحة التأليف، ولكنني كنت قليل الفقه في هذه المسألة، وقد قررها أبو العباس ابن تيمية أكمل تقرير ولكن جهلي بها هو الذي وقعني في مثل هذا الأمر فانتبهوا رحمكم الله تعالى لهذه المسألة والله يتولانا وإياكم.

هو أعلى وأعلم.

ومنها: قرر أبو العباس رحمه الله تعالى في الفتاوى أن الفقيه إذا كان يرى سنية القنوت في الوتر، وصلى بقوم لا يرون القنوت في الوتر وطلبوا منه أن لا يقنت بهم فإن المشروع في حقه ترك القنوت في هذه الحالة المعينة، وعلة ذلك طلب تأليف القلوب واتخاذ الكلمة وقطع أسباب الشقاق والخلاف المفضي إلى التنازع والتحزب وذلك لأن المندوب إذا كان في تركه تحصيل ذلك فالمشروع تركه لأنه إذا تعارض مصلحتان روعي أعلاهما بتفويت أدناهما، ولأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها والله أعلم.

ومنها: قرر أبو العباس في الفتاوى أن السنة ترك الجهر بالبسملة لورود الأدلة بذلك كحديث أنس في الصحيحين: (أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين)، ولمسلم: (لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها)، وفي رواية: (لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم)، ولا بن خزيمة: (كانوا يسرون)^(١)، ولكنه قرر أيضاً أن الجهر بها إذا كان فيه مصلحة تأليف القلوب فإن الأفضل في هذه الحالة المعينة أفضل، ومثال ذلك: إذا صلى الإنسان بقوم من الشافعية فإنه من المناسب جداً الجهر بالبسملة لأن الشافعية يرون الجهر بها، وقد حدثني من أثق به أنه صلى إماماً في بعض الدول الأفريقية ولم يجهر بالبسملة فأعادوا الصلاة وقتلوا عليه وكادت تكون فتنة، فالجهر بالبسملة وإن كان فعلاً مفضولاً إلا أنه في بعض الأحوال يكون فاضلاً وذلك إذا اقترنت به مصلحة

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ١٨٨/٢ في صفة الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، ومسلم رقم (٣٩٩) في الصلاة، ومالك في الموطأ ٨١/١ في الصلاة، وأحمد ١٧٦/٣، ٢٧٣، وابن خزيمة رقم (٤٩٤)، والترمذي في الصلاة رقم (٢٤٦).

التأليف، فإن مراعاة مصلحة التأليف أولى من مراعاة فعل هذا المندوب، وهذا هو الذي ندرسه لطلابنا، أعني الحرص على النظر في المصالح والمفاسد والله أعلم.

ومنها: الجهر بالتأمين فلا شك أن الجهر بالتأمين في الصلاة الجهرية هو السنة ولكن إذا صليت بقوم لا يرون الجهر به وهو مذهب بعض الحنفية، أو صليت بينهم فإن من المصلحة ترك الجهر بالتأمين تأليفاً لقلوبهم وتحصيلاً لأعلى المصلحتين، وقد حدثنا بعض الدعاة أنه صلى في مسجد في دولة ألبانيا وكان المسجد كبيراً وعامراً بالمصلين فلما قال إمامهم: «وَلَا الضَّالِّينَ» رفع أخونا الداعية هذا صوته بالتأمين ويقول: ولا يسمع في المسجد إلا تأميني فقط فلما فرغوا من الصلاة رماني القوم بأبصارهم عن قوسٍ واحدة وبدءوا يتناجون فيما بينهم وبعضهم قام وهو ينفض يده في وجهي منكرأ ما فعلته، يقول: وإنما أتيت مذكراً وواعظاً فقلت: أنه من المناسب ترك التذكير في هذه الحالة، وهذا الداعية جزاء الله خيراً وأجزل له الأجر والثوبة لو أنه فقه هذه المسألة وترك الجهر بالتأمين لما حصل ما حصل ولتمكن من وعظهم وإيصال صوت الخير إليهم بقلوب مقبلة وإني بهذه المناسبة لأنادي وبأعلى صوتي: إن من أهم المهمات أن يتعرف الداعية على المذهب المعتمد في البلاد التي يريد الدعوة فيها، وهذا واجب المؤسسة التي سينطلق منها، وذلك حتى يأخذ للأمر عدته ولا يقع في مثل هذه الإحراجات التي تكون سبباً لإفساد وتعطيل مقصوده الذي جاء من أجله وهذا من باب الدفع وقد تقرر أن الدفع أيسر من الرفع فدفع الأمر قبل وقوعه أيسر من رفعه إذا وقع كما هو محسوس ومجرب والله

بينا أعلى وأعلم.

الحالة الثانية: يستحب ترك المندوب أحياناً لئلا يظن وجوبه، أو أنه سنة راتبة لا ينبغي الإخلال بها فإذا ترتب على المداومة على المستحب إلحاقه بالواجبات فالسنة تركه أحياناً حتى يتقرر في القلوب أنه ليس بواجب، وهذا في المندوبات التي ليست براتبه، أما السنن الراتبة فإنها لا تترك، قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله: «لا ينبغي المداومة عليها - أي قراءة سورة السجدة في فجر يوم الجمعة - بحيث يتوهم الجهال أنها واجبة وأن تاركها مسيء بل ينبغي تركها أحياناً لعدم وجوبها»، وقال أيضاً: «لا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمتنع الرجل من تركها ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله»^١ هـ. وقال أيضاً: «وقد يكون ترك المندوب أفضل إذا كان الجهال يظنون أنها سنة راتبة أو واجبة فترك حتى يعرف الناس أنها ليست براتبة لاسيما إذا داوم عليها الناس فينبغي تركها أحياناً فالفعل الواحد يستحب فعله تارة ويترك تارة أخرى بحسب المصالح»^١ هـ. كلامه رحمه الله تعالى، وخلاصة هذه الحالة أن يقال: أما الأمر الواجب فإنه لا يترك مطلقاً، وأما السنة الراتبة فإنها أيضاً لا تترك، وأما النوافل التي ليست براتبة فإنها تترك أحياناً إذا خيف من المداومة عليها ظن الآخرين بأنها تصف مصاف السنن الراتبة المؤكدة، أو تصف مصاف الواجبات، وكذلك إذا تطرق إلى ذهنه هو نفسه أنه يأثم بتركها فالمستحب له ترك هذا الفعل أحياناً، وعلة ذلك سد ذريعة اعتقاد ما ليس بواجب واجباً، وسد ذريعة اعتقاد ما ليس بسنة راتبة بأنه سنة راتبة، وهذا مأخذ صحيح. وعلى ذلك فروع كثيرة أذكر لك بعضها:

منها: تكرار تجديد الوضوء، فإن تكراره سنة لكن إذا خيف من ظن الجهال أن الوضوء لكل صلاة بلا حدث من الواجبات فإنه يستحب تركه أحياناً لبيان أنه ليس بواجب ففي صحيح مسلم من حديث بريدة أن النبي ﷺ صلى الصلوات

يوم الفتح بوضوء ومسح على خفيه فقال عمر: يا رسول الله لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال: (عمداً صنعته يا عمر)^(١)، والله أعلم.

ومنها: جلسة الاستراحة، فإنها وإن كانت سنة إلا أنها ليست من السنن الراتبة التي يحافظ عليها دائماً بل السنة أحياناً تركها، فإنها لم ترد إلا في حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: (رأيت النبي ﷺ يصلي فإذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي جالساً)^(٢)، قال ابن القيم رحمته الله: «وإنما ذكرت - أي جلسة الاستراحة - في حديث أبي حميد ومالك بن الحويرث ولو كان هديه ﷺ فعلها دائماً لذكرها كل من وصف صلاته ﷺ». ا.هـ. مع أن أهل العلم اختلفوا في سنتها أصلاً، لكن القول الصحيح هو أنها سنة من سنن الصلاة ولكن ومع القول بأنها من سنن الصلاة إلا أنها ليست من السنن المؤكدة فحيث كان الأمر كذلك فإن المستحب ترك هذه الجلسة أحياناً، حتى لا يظن الظان أنها من الواجبات أو يظن الظان أنها من السنن المؤكدة والله أعلم.

ومنها: حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً)^(٣). فهذه الركعات الأربع من النفل المطلق الذي ليس براتب،

(١) حديث حسن صحيح، رواه مسلم رقم (٢٧٧) في الطهارة، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد، وأبو داود رقم (١٧٢) في الطهارة، باب الرجل يصلي الصلوات بوضوء واحد، والترمذي رقم (٦١) في الطهارة، باب ما جاء أنه يصلي الصلوات بوضوء واحد، والنسائي ٨٦/١ في الطهارة، باب الوضوء لكل صلاة.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠٨/١.

(٣) رواه أبو داود رقم (١٢٧١) في الصلاة، باب الصلاة قبل العصر، والترمذي رقم (٤٣٠) في

الصلاة، باب ما جاء في الأربع قبل العصر، وأحمد (١١٧/٢) (٥٩٨٠) وإسناده حسن.

وقد سئل عنها أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى فأفتى بأن المستحب تركها أحياناً، وهذه هو الصحيح إن شاء الله تعالى لأن ما ليس بسنة راتبة سن تركه أحياناً، فالأفضل ترك هذه الركعات الأربع أحياناً حتى لا تصف مصاف السنن الراتبة فضلاً عن ظن اعتبارها من الواجبات والله أعلم.

ومنها: التنفل قبل المغرب، فإنه سنة ولكن ليس من السنن الراتبة المؤكدة لحديث: (صلوا قبل المغرب صلوا قبل المغرب)، ثم قال في الثالثة: (لمن شاء)^(١). ولكنها ليست من السنن الراتبة، فحيث كان الأمر كذلك فالمستحب تركها أحياناً لأن ما ليس بسنة راتبة فإنه يسن تركها أحياناً. واختاره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وهذا الترك يقصد به التفريق بين السنة الراتبة والنفل المطلق والله ربنا أعلى وأعلم.

ومنها: التنفل بين الأذنين لحديث: (بين كل أذنين صلاة، بين كل أذنين صلاة)، ثم قال في الثالثة: (لمن شاء)^(٢). والصلاة بين الأذنين نوع من التنفل المطلق

(١) متفق عليه، ورواه البخاري ٤٩ / ٣ في التطوع، باب الصلاة قبل المغرب، رواه أبو داود رقم (١٢٨١) في الصلاة، باب الصلاة قبل المغرب، وليس الحديث عند مسلم بهذا اللفظ وإن عزاه بعضهم إليه كالتبريزي في "مشكاة المصابيح"، وغيره، وقد جاء في رواية مسلم رقم (٨٣٨) في صلاة المسافرين باب بين كل أذنين صلاة، عن عبد الله بن مغفل المزني بلفظ: قال رسول الله ﷺ: (بين كل أذنين صلاة)، قالها ثلاثاً، قال في الثالثة: (ولكن ليس فيه ذكر صلاة المغرب)، بل هو عام في كل صلاة ويشمل المغرب.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ٨٨ / ٢ و٨٩ في الأذان، باب كم بين الأذان والإقامة، وباب بين كل أذنين صلاة لمن شاء، ومسلم رقم (٨٣٨) في صلاة المسافرين، باب بين كل أذنين صلاة، وأبو داود رقم (١٢٨٣) في الصلاة، باب الصلاة قبل المغرب، والترمذي رقم (١٨٥) في الصلاة، باب ما جاء في الصلاة قبل المغرب، والنسائي ٢ / ٢٩ في الأذان، باب الصلاة بين الأذان والإقامة، وأحمد (٨٦ / ٤).

وليس هو من السنن المؤكدة الراتبة التي يحافظ عليها دائماً، وحيث كان الأمر كذلك فالمستحب للعبد أن يتركه أحياناً حتى يميز بهذا الترك بينه وبين النفل الراتب وحتى لا يظن الجاهل أنه من الواجبات واختاره شيخ الإسلام أبو العباس رحمه الله تعالى والله أعلم.

ومنها: الجلوس على العقبين بين السجدين فإنه من سنن الصلاة كما ثبت ذلك في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه لما سئل عن ذلك أجاب بقوله: (تلك السنة)، فقليل له: إنا لنراه جفاء بالرجل فقال: (لا بل هو سنة نبيك ﷺ)، ولكن هذه الهيئة بين السجدين ليست من السنن الراتبة المؤكدة التي ينبغي المحافظة عليها في كل جلسة بين السجدين وإنما يفعلها أحياناً ويتركها أحياناً، وهذا الترك لها أحياناً من السنن حتى لا تصف هذه السنة مصاف الواجبات ولا تصف مصاف السنن المؤكدة والله أعلم.

ومنها: لقد قرر أبو العباس في الفتاوى أنه لا ينبغي المداومة على قراءة سورة السجدة والإنسان في صلاة الفجر يوم الجمعة وذلك حتى لا يظن الظان أنها من الواجبات المتحتمات، وأن تاركها مسيء بل ينبغي تركها أحياناً حتى لا يظن الجاهل أنها من الواجبات وهذا مأخذ صحيح لا غبار عليه. والله أعلم.

ومنها: التورك في الصلاة الرباعية أو الثلاثية هو من سنن الصلاة إلا أنه ومع لقول بأنه سنة إلا أنه ينبغي تركه أحياناً وإظهار ذلك ليعلم الجاهل أنه ليس من واجبات الصلاة ولا من السنن المؤكدة الراتبة فالمستحب للمصلي أن يتركها أحياناً لأن ما ليس بسنة راتبة فالسنة تركه أحياناً وعلى ذلك فقس والله ربنا أعلى وأعلم.

الحالة الثالثة: من الحالات التي يسوغ فيها ترك المندوب ما اختاره شيخ الإسلام أبو العباس رحمه الله تعالى من أن المندوب إذا صار شعاراً للمبتدعة واختلطوا بأهل السنة فإنه لابد من أن يتميز السني عن المبتدع ولا سيما الرافضة فإذا لم يحصل التميز إلا بترك هذا المندوب المعين في هذه الحالة المعينة فالمشروع فيه الترك، ولا يعني أبو العباس الترك الدائم، بل هو ترك عارض يقصد منه تميز السنة عن المبتدعة وقد نص أبو العباس على ذلك في رده على الرافضي في المنهاج فإنه قال: «إذا كان في فعل مستحب مفسدة راجحة لم يصّر مستحباً ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعاراً لهم - أي الرافضة - فإنه لم يترك واجباً بذلك لكن قال: في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السني من الرافضي ومصلحة التميز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب وهذا الذي ذهب إليه يحتاج إليه في بعض المواضع إذا كان في الاختلاط والاشتباه مفسدة راجحة على مصلحة فعل ذلك المستحب لكن هذا أمر عارض لا يقتضي أن يجعل المشروع ليس بمشروع دائماً» اهـ. كلامه رحمه الله تعالى، والمقصود أن تطبيق المندوب لابد وأن ينظر فيه للمصلحة والمفسدة فمن آتاه الله تعالى هذا الفهم فقد أوتي خيراً كثيراً، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل.



مخالفة نية لم نأثرت لصلها

القاعدة السادسة والعشرون

وسائل الدعوة توقيفية باعتبار ما خالف النص منها، واجتهادية فيما لم يخالف النص

أقول: هذه مسألة طال حولها الجدل، وما اعتمدناه في هذه القاعدة هو الراجح إن شاء الله تعالى وقد اختلف أهل العلم رحمهم الله تعالى في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فقليل بأنها اجتهادية مطلقا وهذا القول فيه توسع غير مرضي، وقيل بأنه توقيفية مطلقا، وهذا فيه إقفال للباب إقفالا غير مرضي وقيل هي اجتهادية وتوقيفية، فما دامت الوسيلة لا تتنافى ولا تتعارض مع الدليل، فلا حرج فيها، وأما الوسائل التي تتعارض مع شيء من الأدلة فإننا نمنعها، فهي الاجتهادية باعتبار مخالفتها يتعارض منها مع شيء من النصوص، وتوقيفية باعتبار ما يتعارض من النصوص المنع القول بها، فلا نفتح الباب مطلقا، ولا نقفله مطلقا، بل نفتحه في غير النصوص المنع القول بها الدليل فإننا نقول: لا خير فيه، وهذا القول أظنه هو الراجح الذي يخطبه الله تعالى في القول الوسط في هذه الأقوال، وخير الأمور أوسطها، وأنت تعلم من أين هذا القول مفرع على قاعدة الوسطية عند أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى، والتي هي تقول: «أهل السنة وسط بين فرق الأمة كوسطية الأمة بين الأمم»، فلا تضيق على الدعوة في الوسائل فيما لم يخالف النص الصحيح الصريح، وإنما المنع في تلك الوسائل المخالفة للنصوص الصحيحة الصريحة، ولنا في هذا القول تتبع القاعدة اليهودية أن لغاية تبرر الوسيلة، لا، بل نحن نؤمن إن الغاية لا تبرر الوسيلة إلا بدليل من الشرع،

ولكننا لا نرى أن الوسائل التي لم تكن معروفة بأعيانها على عهد النبي ﷺ من

المحدثات إن لم تكن تخالف النصوص الثابتة، فإن كان المقصود من توقيفية أنها موقوفة على الشرع ويجب أن لا تخالف الكتاب والسنة وطريقة السلف فهذا صحيح، وهي بهذا المعنى توقيفية قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلِكْتَسِبَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(١).

وإن كان المقصود بالتوقيفي أنه يقتصر على ما كان في عصر الرسول ﷺ ويترك ما حدث بعده مما لم يكن في زمانه وإنما مرده لتحسن الصنعة مع أن أصله كان موجوداً ويدخل في العموم المعنوي لما كان في عصره، فإن كان هذا معنى توقيفي؟ فليست كذلك، فمثلاً الكتاب والتأليف للعلماء من أعظم وسائل الدعوة ومع ذلك لم تكن في زمن الرسول ﷺ، إنما حدثت فيما بعد وأجمع عليه العلماء، والذي في عصره كان كتابة كتب الرسائل، ولم يكن التأليف في عصره ولا من بعده بل كان عمر ينهى عن الكتابة من أجل المحافظة على القرآن، ومع ذلك فلا شك أن أصول الدعوة توقيفية، لكن الشأن في الأمور الحديثة، وعلى كل حال فالمسألة خاضعة للنظر والاجتهاد، فمن توصل بنظره واجتهاده إلى أنها توقيفية، فليتعبد لله تعالى بهذا القول، ولكن لا حق له أن يجعلها من المسائل العقدية الكبيرة التي ينكر فيها على المخالف، بل على الجميع تقوى الله تعالى وبيان الحق وطرق الدليل، وإحكام اللسان عن الكلام الذي لا ينبغي، فمن قال بأنها توقيفية، فلم يأت ببدع من القول، ومن قال بأنها اجتهادية فلم يأت ببدع من القول، ومن قال بأنها اجتهادية باعتبار وتوقيفية باعتبار كما هو القول الذي تعتمده هذه القاعدة فلم يأت ببدع من القول.

فمثلا ما يسمى بالمظاهرات التي يدعى فيها النظام إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، هذه الوسيلة لا تجوز لما فيها من الخروج على الحكام، ولما فيها من التعريض للنفس للخطر، ولما فيها من إثارة الرأي العام على الحكام بما لا يخدم الأمة عقباه، ولما فيها من إتلاف الأموال وإهلاك الحرث والنسل، ولما فيها من إغارة على الأبرياء بأخطاء الحكام أما لعامة، ولما فيها من الإنكار العلني على الحكام، وهذا كله دور الكبير في الفوضى وإثارة الفتنة.

ومثال ثان: ما قاله الشيخ صالح آل الشيخ في شرح مسائل الجاهلية: "ما يسمونه في زمن الإمام أحمد والشافعي "التغيير" التغيير نوع من الأشعار التي يُزهد بها الناس؛ يزهد فيها الناس بالدنيا ويرغبون فيها بالآخرة، كانت تُلقى على الناس على وجه فيه ألحان، وربما صاحبها طرق الجلود القديمة حتى ينفق عنها الغبار فسميت تلك الطريقة تغييرا، أهل السنة أنكروها، وقالوا إنها بدعة، ونحو ذلك من كلامهم، بل أقاموا على أصحابها الحجة بأن هذه مخالفة للسنة ومخالفة للهدى، لم؟ لأن المقصود من تلك الوسيلة هي ترقيق قلوب الناس، والشرع القرآن والسنة إنما أتى لترقيق قلوب الناس، فإذا أحدثت طريقة في هذه المسألة وهي الترخيق والترغيب، غير الطريقة الأولى، فإنها ولو كانت نافعة في الدعوة، لكنها وثيقة بخلافها وتلك الوسيلة ليس بابها الاجتهاد، والتغيير من جنس ما يكون في هذه الزمرة من الأناشيد الصوفية ونحو ذلك ممن تأثر بهم من الأناشيد وغيرها، ولهذا مشبهة بالتغيير الأول الذي نهى عنه أهل العلم".

ومثال ثالث: ما عرف في كثير من الأزمنة بإحياء حب النبي ﷺ بالاحتفال ببلية مولده، والاحتفال ببلية الإسراء والمعراج، أو الاحتفال ببلية الهجرة، كل من يفعل ذلك إنما يزعم أن فيه تجديدا لحبه ﷺ وتذكر أحواله ودعوته وجهاده ومناضلاته في

حياته لنصح قديمه الله تعالى، ولكن هذه الأفعال أفعال منكرة، قد أنكرها سلف الأمة وأئمتهم ولم يرتفعوا بها، وجعلوها داخلة في قول النبي ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (١)، قوله: (وكل بدعة ضلالة) (٢)، فهذه الوسائل ليس الباب أمامها مفتوحاً للأفعال وسائل قد عورض بها النص الصحيح الصريح.

ومثال ذلك نظم المناظرات المفتوحة العلنية أمام العامة ممن قد لا يفقه أمر دينه ويخاف عليه من الضرر، فإعلان هذه المناظرات مما يزعم أنها من الوسائل الدعوية في تبصير الناس بل جعلها في الحقيقة ما جلبت على المسلمين إلا الشر والضرر والبلاء، وقد حذر السلف رحمهم الله تعالى من مناظرة أهل البدع، وحذروا من الدخول معهم في المناظرات الكلامية أمام العامة، بل وحذر كثير منهم رحمهم الله تعالى من تأليف الكتب في عرض الشبه الكلامية مقرونة بالرد عليها، لأنها قد تقع فيه ثلاث مخاطر: قد تدل على ضعف الفهم والشبهة ولا يفهم الجواب، فساد الذريعة فساد الفهم والتخبط في الاعتقاد أحكم أهل السنة رحمهم الله تعالى سد هذا الباب، والمصلحة فيما رأوه رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، ونحن على درجهم سائرون، فقد دعينا عدة مرات للمناظرة في بعض المحافل، ولكننا رفضنا خوفاً على دين العامة من الخلل وسداً للذريعة في إيهام الفهم، فتم في العامة على سلامة فطرتهم هو الأولى، فالدعوة إلى صحيح الاعتقاد بلغة العامة المنقولة على الهواء ليراها ملايين الناس ليس من طريق الدعوة الصحيح لأن السلف نهوا عنها وحذروا منها، والله أعلم.

قليل بالفتح كالب

(١) عفي عنه راجع دة بحفاة
(٢) سبق ترجمه ص ١٦.

(٣) سبق ترجمه ص ١٦.

ونقول أيضا: إنه ليس من وسائل الدعوة الصحيحة الدخول في البرلمانات الكافرة، بحجة الوصول إلى الحكم، لأن هذه البرلمانات قد بنيت على الكفر ومخالفة شريعة رب العالمين، والدخول فيها إقرار لها ولبقائها، ولأنه في الأعم الأغلب لا يمكن أهل الإيمان فيها بالفوز، وإن فازوا بكثرة الأصوات فإن الدول الكافرة لا تمكنهم من حكم الدولة بالإسلام، فالدخول فيها إنما يتضمن المفاصد الخالصة أو الراجحة فلا خير في هذه الوسيلة ولا بركة فيها، ولا يجني منها المسلمون إلا الويلات، فالحذر الحذر من الدخول في هذه البرلمانات الكافرة التي بنيت على نفس شريعة الله تعالى، واستبدالها بالقوانين الوضعية الكفرية الوثنية، والله أعلم.

ونقول أيضا: الدعوة إلى الله تعالى بترجمة معاني القرآن الكريم، وهذا لا حرج فيه، بل فيه من الخير الكثير والنفع العظيم ما الله تعالى به عليم، ولكن لا بد وأن تصدر هذه الترجمة من الجهات المعتمدة والتي يشرف عليها أهل السنة والجماعة حتى لا يدخل فيها بعض البدع من تحريف الكلم من بعد مواضعه، مع أن ترجمة معاني القرآن الكريم ليست من الأمور المعروفة في العهد الأول، ولكنها تدل عليها الأدلة الكثيرة الآمرة بإبلاغ هذا القرآن وإسماعه للناس، وهذه الترجمة لا تأخذ حكم القرآن الكريم، ولكنها تجري مجرى كتب التفسير، والله أعلم.

ونقول أيضا: الدعوة إلى الله تعالى بتوزيع الأشرطة النافعة الطيبة والتي تتضمن تصحيح العقيدة وتصحيح العبادة، ونشر الخير والسنة وإحياء الدين وإماتة البدع، وكذلك طباعة الكتب النافعة الطيبة، كل ذلك من الأمور الطيبة التي فيها الخير الكثير والنفع العظيم، مع أن الدعوة بطباعة الكتب ليس من المعروف في العهد

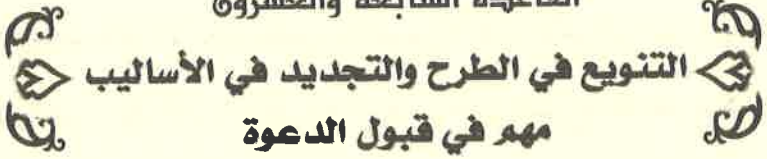
النبي الكريم، ولكن لما لم يكن ثمة دليل يمنع منها فهي من الوسائل الدعوية المقبولة، والتي نتج عنها من الخيرات ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وعلى ذلك انعقدت كلمة أهل السنة والأئمة، والله أعلم.

ونقول أيضا: الدعوة إلى الله تعالى عبر مواقع الشبكة العنكبوتية، بافتتاح موقع أو المشاركة في المواقع المتاحة الطيبة، فالدعوة إلى الله تعالى في هذه المتدنيات طيب جدا، وقد حصل فيه من النفع ما الله به عليم، ولكن لا بد من مراقبة الله تعالى، وتقواه جل وعلا، والحذر من الدخول إلى بعض المواقع الكفرية الإلحادية، أو المواقع الإباحية الفاتنة، وإلا فالتتائج الدعوية في هذه الشبكة لا يمكن إنكارها والله الحمد والمنة، والله أعلم.

والمهم حتى لا نطيل: أن من منع الاجتهاد في وسائل الدعوة وبنائها على التوقيف إنما نظر إلى تلك الوسائل المخترعة التي خولف بها النص وعورض بها الدليل، فغلب جانب التوقيف فيها، ومن قال بأنها اجتهادية إنما نظر إلى تلك الوسائل الطيبة التي أخرجها الله تعالى لعباده ولا تخالف شيئا من الأدلة فجاء القول الثالث ليجمع بين القولين وتحرر به وجهة نظر الفريقين، فإن كانت تلك الوسيلة تخالف شيئا من الأدلة فنقف في وجهها ونقول: وسائل الدعوة توقيفية بهذا الاعتبار، وإن كانت الوسيلة لا تخالف شيئا من النصوص، فنقول: لا حرج فيها، لأن وسائل الدعوة اجتهادية بهذا الاعتبار، ولعلنا قد بينا لك ما نريده إن شاء الله تعالى، والله ربنا أعلى وأعلم.



القاعدة السابعة والعشرون



أقول: لما قررنا في القاعدة السابقة أن وسائل الدعوة منها ما هو مقبول لعدم مخالفته لشيء من الأدلة ومنها ما هو مردود لمخالفته بعض الأدلة، أتينا بهذه القاعدة حتى نبين أن من الأسباب التي توجب قبول الدعوة هو تنوع الأساليب، والتنوع في الطرح، فإنه في الأعم الأغلب أن النفوس تمل من الطريقة الواحدة، وأنها مفطورة على حب التغيير والتجديد، ولذلك فقد راعت الشريعة هذا الجانب في أنها في بعض العبادات قد نوعت في صفاتها، كصفات الوضوء والوتر والحج والأذكار وغيرها كثير، بل إن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن العبادات الواردة على وجوه متنوعة فإنها تفعل على جميع وجوها في أوقات مختلفة، فالتنوع في الوسائل الدعوية أمر مهم ومطلوب لنجاح الدعوة، بل إنك لو تدبرت كتاب الله تعالى لوجدت أن الله تعالى قد نوع في الأساليب الدعوية، فتجد فيه الدعوة بالترغيب والدعوة بالترهيب، والدعوة بطرح السؤال، والدعوة بضرب المثال، والدعوة بذكر الآثار المترتبة على الفعل، والدعوة بالقصة، وغيرها من الوسائل الدعوية، والنبي ﷺ كان في دعوته ليس على وتيرة واحدة، بل كان يغير الطرح وينوع في الأسلوب، والسيرة حافلة بهذه الأساليب التي تحبها النفوس، ولا تمل منها القلوب، فدعا الناس بالقول والفعل

وقضاء الحوائج والابتسامة واحترام الذوات وبلمدح المعتدل، وبالعفو عن المخطئ، وبضرب المثال، وطرح السؤال، وبالجهاد في سبيل الله تعالى وبالترغيب وبالترهيب، والصور في ذلك كثيرة لا تكاد تحصر، فالنفوس لا تحب الأمر الواحد، بل هي تحب التجديد والتغيير، فإن كان لا يتنافى مع شيء من دليل الشرع فلا حرج فيه، بل هو المطلوب وهو من جملة الأسباب التي يوفق بها الداعية إلى الاستجابة والقبول، وقد جربنا هذا الأمر في الدعوة فوجدنا آثاره طيبة والله الحمد والمنة، ونضرب لك بعض الأمثلة على ذلك حتى تكون على دراية مما نريد فأقول:

منها: عقد المسابقات في الأمور الهادفة، والتي لا يراد منها إلا دلالة الناس على الخير وترغيبهم في مراجعة العلم وقراءة الأمر النافع، وقد حصل بهذه المسابقات الخير الكثير، ولكن لا بد من مراعاة أن لا يكون مبناهما على العوض من الطرفين، فالمسابقة في المسائل العلمية التي يحتاجها الناس من التنوع في طرح العلم، ومن الأساليب النافعة والتي بانت آثارها الطيبة، والله أعلم.

ومنها: إقامة الدورات المكثفة في العطل الرسمية، فهذا الأمر قد استفاد منه طوائف من طلبة العلم لا يحصيهم إلا الله تعالى، وفيه من عمارة الأوقات بالعلم وحفظ الوقت من الضياع واستغلاله بالأمر المفيد ما قد بانت نتائجه على كثير من الطلبة والله الحمد والمنة.

ومنها: تغيير روتين الدروس الذي عشعش عليها، وأنا أعرف بعض المشايخ ربما خرج بطلابه إلى البرية في يوم الدرس لإلقاء الدرس عليهم هناك، فيجد في هذا الدرس من النفع والقبول ما لا يجده في الدرس المعتاد على الطريقة المعهودة،

وبعض المعلمين في المدارس قد يغير مكان درسه من الفصل إلى المسجد في المدرسة مثلا أو في المكتبة، أو في مكان آخر، فتكون أذهان الطلاب معه، ويستفيدون من هذا الدرس الشيء الكثير، فهذا التنوع في الطرح أمر مهم في جذب القلوب وحفز الهمم، بل وأذكر مدرسا لنا في المرحلة الثانوية كان يطلب من بعض الطلاب تحضير الدرس وإلقائه هو بنفسه على زملائه الطلبة، ثم يقوم المدرس بسد الثغرات وإكمال الدرس وبعض التعليق على شرح الطالب، وكان يفعلها في الفصل الدراسي أكثر من مرة، فكان لها من الوقع في نفوسنا ما لا يوصف، حتى حببنا هذا الأستاذ في مادته، وجعلنا نتابع معه أولا بأول، لا وأذكر أن بعض الطلاب يدخل إلى قاعدة الاختبار في هذه المادة من غير سبق مراجعة ولا مذاكرة، لأنها حاضرة في ذهنه، لوعة هذا التجديد والتنوع في الطرح، بينما قد أدخل حصتي وأجد أغلب الطلبة نائما من حصّة من قبلي، لرتابة الأسلوب ورفض التجديد، وفي الحقيقة أن ديننا المطهر لا يعارض التجديد في الطرح، ولا تنوع الأساليب، ولكن لا بأمر يخالف النص الصحيح الصريح، بل لا بد وأن يكون هذا التنوع في دائرة الموافقة للنصوص، لا يخرج عنها إلى المخالفة والمعارضة، فانتبه لهذا، وإننا قد ابتلينا في هذه الأزمنة بأناس يجاربون التجديد والتغيير، ويلزمون الناس بالأمر القديم، وكما قيل: مكانك راوح، وكم تقريرا رفعناه عن بعض المناهج وأنها لا تتناسب مع معطيات العصر ولا فهم الطلاب في هذا الزمان، واقترحنا صياغتها هي بعينها بنفس معلوماتها، ولكن بالأسلوب المفهوم والأمثلة الجديدة المعاصرة، ولكن قوبل طلبنا بالتجاهل أو الرفض الصريح أحيانا، وقد اقترح بعض الدعاة إلى الله تعالى على بعض الجهات

الرسمية إخراج ما يخصها من الكتب والمؤلفات في أشرطة كمبيوتر ممغنطة حتى يستفيد منها أكثر عدد ممكن ولكن لم يلق اقتراحه قلباً حبة للتجديد والتنويع، وهذا أمر لا بد من مناقشته، وكشف الشبهة عند المانعين منه، وأن تصحح بعض المفاهيم في هذه المسألة، وهي أننا والله العظيم لا نريد نفس شيء من موروث الأمة من العلم النافع والعمل الصالح، ولكننا نريد أن نبحث عن الطريق الأمثل الذي نستطيع من خلاله أن نوصل ما في هذا الموروث إلى العامة، فلا داعي لهذا التشديد الذي ما أنزل الله تعالى به من سلطان، أو ننسب في طلب التجديد والتغيير إلى أمور نحن لم نقصدها ولم تدر في بالنا، فالأمر الذي نعينه هنا في هذه القاعدة هو التغيير في وسائل طرح الدعوة كما نوع القرآن وسائل الطرح، وكما كانت الحال عليه في دعوة النبي ﷺ، ولا نقصد التغيير الباطل الممنوع، مما ينادي به بعض الطوائف الضالة، فنحن بهذا القول سلكنا منهج الوسطية، فلا نمنع التغيير والتجديد في الوسائل مطلقاً، ولا نقول به مطلقاً، بل نقول به في دائرة ما وافق الدليل، لا فيما خالف النص، والله أعلم وقد سلكت في التأليف والله الحمد والمنة مسلك التنويع في طرح المسائل العلمية، فقد طرقت المعلومة بالنثر تارة، وبالسؤال والجواب تارة، وبالشعر تارة، وبالتأصيل والتفصيل تارة أخرى، وهذا من توفيق الله تعالى، واستمع لما قاله الله تعالى عن نوح عليه السلام أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٣﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٥﴾﴾ [نوح: ٥-٩].

وهذا هو التنوع الذي نعينه، والمقصود أن كل تغيير في الطرح وكل تجديد في الأساليب الدعوية لا يتعارض مع شيء من النصوص الشرعية فهو من قبيل ما لا حرج فيه، فالبرامج الدعوية إذا كانت على نمط واحد فإن المدعو قد يمل، لذا لا بد من تقديم البرامج المتنوعة، إذا كانت البرامج متنوعة تشد انتباه المستمعين وتترك أثراً عميقاً في قلوبهم ومن ثم على سلوكهم والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.



القاعدة الثامنة والعشرون

الدعوة لا بد وأن يستجمع فيها بين

مبدأي الترغيب والترهيب

أقول: إن المتقرر في قواعد أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى أن أهل السنة وسط بين فرق الأمة كوسطية الأمة بين الأمم، وصور تلك الوسطية كثيرة جداً، ومن صورها هذه القاعدة.

فهذه القاعدة التي نحن بصدد شرحها لك منبثقة من تلکم القاعدة العريفة الكبيرة الطيبة، وبيان ذلك أن يقال: إن الله تعالى قد أمرنا بأن نستجمع في عبادته بين الرغبة والرهب، فلا يجوز لنا ولا يجب منا أصلاً أن نعبد بالخوف وحده، ولا أن نعبد بالرجاء وحده، لأن من عبد الله تعالى بالخوف وحده فهو على شفا جرف أن يئأس من رحمة الله تعالى وأن يقنط من روح الله تعالى، ومن عبد الله تعالى بالرجاء وحده فهو على هاوية من الأمن من مكر الله تعالى، فلا هذا صواب ولا الأول صواب، بل الحق الحقيق بالقبول والاعتماد والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة رحم الله تعالى أمواتهم وثبت أحياءهم هو الجمع بين الرغبة والرهب، هو حال عباد الله الصالحين كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، أي يعبدوننا راغبين فيما عندنا وراهبين من عقوبتنا، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ

يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ^٩ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ٩]، فقلوه: ﴿تَحَذَّرُوا الْآخِرَةَ﴾ هذا هو الخوف والرهب، وقوله: ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ هذا هو الرجاء والرغب، ولا تستقيم أحوال الناس إلا بهذا الأمر، ولذلك ما ضل من ضل في هذا الباب إلا بسبب الإخلال بهذا الأمر، وقد ضل في هذا الباب المرجئة والوعيدية، وذلك أن الناس قد انقسموا في هذه المسألة إلى ثلاث فرق، طرفين ووسط، فمن الناس من عبد الله تعالى بالرجاء فقط تغليياً منه لأدلة الوعد وهم المرجئة فإنهم غلبوا جانب الرجاء ولم ينظروا إلا إلى أدلة الوعد فقط وغفلوا أو نقول: تغافلوا عن الأدلة الأخرى، وأوصلهم ذلك الأمر إلى الوقوع في الذنوب والمعاصي وموبقات الآثام بلا خوف ولا حياء، ذلك لأن فعل الذنوب عندهم لا دخل فيه في نقص الإيمان، فأمنوا مكر الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ^{١٠} فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَتَقَوْمَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والفرقة الثانية: عبدت الله تعالى بالخوف فقط، وذلك تغليياً منهم لأدلة الوعيد فقط فما نظروا إلى أدلة الوعد، وإنما قصرُوا نظرهم على أدلة الوعيد فقط، فأوصلهم ذلك إلى الوقوع في اليأس من روح الله والقنوط من بِحَمْدِ اللَّهِ وهؤلاء هم الوعيدية وغيرهم، وكلا القولين خطأ وقصور، فالأولون فرطوا وتساهلوا والآخرين أفرطوا وشددوا وتجاوزوا الحد المشروع وكل واحدة من الفرقتين أخذت بطرف من الأدلة فقط وتركت الطرف الآخر وهذا بجانب لمسلك الوسطية الذي سار عليه أهل السنة الذين عبدوا بالخوف والرجاء، فجعلوا العبادة قائمة عليهما، هذا هو منهج القرآن فإنه يقرن الترغيب بالترهيب، وذلك في آيات كثيرة، فأهل السنة

يجمعون في تعبدهم بين الرغب والرهب، وهذا ينتج الخشية، فالخشية مزيج من الخوف والرجاء فإن من عبد الله بالرجاء فقط أمن من مكر الله، ومن عبد الله بالخوف فقط أيس من روح الله ورحمته ومن عبد الله بهما فهو الموحد الصادق، فالخوف والرجاء بالنسبة للعبادة هما كجناحي الطائر، ومن المعلوم أن الطائر لا يستقيم طيرانه إلا بالجناحين كليهما، فالأصل عند أهل السنة استواء الخوف والرجاء، فالخوف مانع من الوقوع فيما نهى الله أو ترك ما أمر الله به والرجاء يدفع العبد لاستطلاع ثواب الله تعالى ورحمته ومغفرته وقبول عمله، ومن المعلوم في الفطر السليمة أن الأمن من مكر الله واليأس من روح الله أمران خطيران يوصلان العبد إلى الهلكة، والنجاة هو خلطهما وعبادة الله تعالى بهما، ولكن وإن كان الأصل استواءهما في قلب العبد إلا أنه يغلب أحدهما إذا توفرت مقتضياته فعند الموت وحلول سكراته يغلب جانب الرجاء حتى يوصله ذلك إلى إحسان الظن بربه جلّ وعلا، وكذلك عند توبته من الذنوب والمعاصي يغلب جانب الرجاء أيضاً حتى لا يقنط من توبة الله عليه، وأما عند الصحة والغنى وخوف الوقوع في المعصية فإنه يغلب جانب الخوف، فإذا ورد لأحدهما سبب أو حالة تقتضي تغليب أحدهما فليغلبه وإلا فالأصل استواءهما، وقول أهل السنة هذا هو القول الوسط لأنه أخذ بكل أطراف الأدلة وعمل بكل النصوص الواردة في هذا الشأن، وذلك لأن أهل السنة - رحمهم الله تعالى - وسط بين فرق الأمة كوسطية الأمة بين الأمم. فالداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يدعو إلى الله تعالى بين الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، وهذا له أدلة كثيرة في القرآن، فتراه يقرن بين الآيات التي تتكلم عن الجنة وما فيها

من النعيم المقيم والدرجات العلى، وبين ذكر النار وما فيها من أنواع العذاب الأليم والشقاء الأبدي، وتراه يجمع بين وصفه بالمغفرة والرحمة وبين كونه شديد العقاب، كما قال تعالى: ﴿يَتَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ﴾ [غافر: ٣].

فلا تستقيم حياة الناس في أمورهم الخاصة والعامة والتعبدية والعادية إلا بالجمع بين الخوف والرجاء، فعلى الداعية أن يكون كلامه في الدعوة جامعاً بين هذين الأمرين، ولعل الأمر قد اتضح إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة التاسعة والعشرون

الأصل في الوعظ التحول والإيجاز

أقول: إن النفوس قد جبلت على حب الاختصار، ولذلك فإن من جملة ما اختص به النبي ﷺ - وهو أكبر الدعاة على الإطلاق - أنه قد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، والمتقرر عند عامة العقلاء أن خير الكلام ما قل ودل، فالتطويل في موضع الإيجاز عيٍّ والعكس بالعكس، فالأصل في الكلام الاختصار، وهذا مهم في جانب الموعظة للداعية أيما أهمية ولذلك ففي الحديث: (كان النبي ﷺ يتحولنا بالموعظة في الأيام كراهية السأمة علينا...) ^(١).

والتطويل في الكلام في المواعظ مما يوجب الملل، ونحن معاصر الدعاة مأمورون بأن لا ننفر الناس، كما قال عليه الصلاة والسلام: (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) ^(٢)، قال الحافظ في الفتح: «والمعنى كان يراعي الأوقات في تذكيرنا ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل»، وقال رحمه الله تعالى: «يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملل وإن كانت المواظبة

(١) رواه البخاري، وبوب عليه بقوله: «باب ما كان النبي ﷺ يتحولهم بالموعظة والعلم كيلاً ينفروا».

(٢) رواه البخاري ١/ ١٧١ في العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتحولهم بالموعظة، ومسلم رقم (١٧٣٤) في الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير.

مطلوبة لكنها على قسمين إما كل يوم مع عدم التكلف وإما يوماً بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط وإما يوماً في الجمعة ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والضوابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه لا يجلس للموعظة إلا يوم الخميس، وقال الحسن رضي الله عنه: «حدثوا الناس ما أقبلوا عليكم بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلموا أن لهم حاجات»، وعن علقمة أنه (كان إذا رأى من أصحابه هشاشاً - يعني انبساطاً - ذكرهم)، بل إن الموعظة بقراءة القرآن في الصلاة هي أكبر المواعظ، ومع ذلك أمر النبي ﷺ بالتخفيف على الناس فيه، فلأن يكون التخفيف في غيره من المواعظ من باب أولى، وقال عمر: (لا تبغضوا الله إلى عباده، يكون أحدكم إماماً فيطول عليهم ما هم فيه، ويكون أحدكم قاصاً ويطول عليهم ما هم فيه)، وفي الآداب للبيهقي: (وَقَالَتْ عَائِشَةُ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَرَ: إِيَّاكَ وَإِمْلَالِ النَّاسِ وَتَقْنِيطَهُمْ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: حَدَّثِ الْقَوْمَ إِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ قُلُوبُهُمْ، فَإِذَا انْصَرَفَتْ عَنْكَ قُلُوبُهُمْ فَلَا تُحَدِّثُهُمْ، قِيلَ: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا حَدَّثُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ فَقَدْ أَقْبَلَتْ عَلَيْكَ قُلُوبُهُمْ فَإِذَا أَتَاكَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَتَنَاءَبُوا فَلَا تُحَدِّثُهُمْ)، وقال رحمه الله تعالى: «وَرَوَيْنَا فِي كَرَاهِيَةِ التَّطْوِيلِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ»، وقال النووي رحمه الله تعالى في الأذكار: «باب استحباب الإقتصار في الموعظة والعلم»، ثم قال رحمه الله تعالى: «اعلم أنه يُستحب لمن وعظ جماعة أو ألقى عليهم علماً أن يقتصد في ذلك ولا يطول تطويلاً يُمِلُّهم، لئلا يَضْجَرُوا وتذهب حلاوته وجلالته من قلوبهم، ولئلا يَكْرَهُوا العلمَ وسَمَاعَ الخير فيقعُوا في المحذور»، قال ابن رجب رحمه الله: «وكان النبي ﷺ كثيراً ما يعظ أصحابه في غير الخطب

الرَّاتِبَةِ، كخطب الجمع والأعياد وقد أمره الله تعالى بذلك، فقال: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولكنه كان لا يُديم وعظهم، بل يتخوهم به أحياناً.

ومن المعلوم أن خطبة الجمعة مبنية على الموعظة، ومع ذلك يقول النبي ﷺ فيها: (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه)^(١)، فتقصير الخطبة مع إتمامها من جملة الفقه، وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: (كنتُ أصلي مع النبي ﷺ، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً). وخرجه أبو داود ولفظه: (كان رسول الله ﷺ لا يُطِيلُ الموعظةَ يومَ الجمعة، إنما هو كلمات يسيرات). وخرج مسلم من حديث أبي وائل قال: (خطبنا عماراً فأوجَزَ وأبْلَغَ)، وكلام السلف رحمهم الله تعالى كان قليلاً، ولكنه غزير البركة، وأما الغالب على كلام الخلف فهو الطول والتعمق والتشقيق، ولكنه قليل البركة، وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: «باب الموعظة ساعة بعد ساعة»، قال في عمدة القاري: «أي هذا باب في بيان أن الموعظة ينبغي أن تكون ساعة بعد ساعة لأن الاستمرار عليها يورث الملل».

فهذا الأمر متقرر بالدليل والتعليل، والنفوس لها نفور من التطويل لأنه يورث السآمة والإملال، فإن طالت موعظة الواعظ فهو الأحق بالوعظ من غيره، وقال صاحب كتاب البصيرة في الدعوة إلى الله: «فالموعظة الحسنة لا بد أن تكون مختصرة، فالنفس البشرية لا تحتمل الإطالة، ولا يمكن للعقل البشري التركيز في حالة

(١) رواه مسلم رقم (٨٦٩) في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، وأبو داود رقم (١١٠٦) في

الصلاة، باب إقصار الخطب، أحمد (٢٦٣/٤) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

الإسهاب غالباً، وهو أمر مشتهر ومعروف بالتجربة والعرب قديماً تهرب من التطويل إلى الاختصار، ومن الاستطراد إلى الاقتضاب، والمقدم فيهم من يوجز الجملة، ويضغط العبارة، وهو منهج أكده الإسلام، وأرشد إليه، ونبه على ضده». والمهم أن الاختصار والتخول في الموعظة من الأمور التي لا بد من الحرص عليها، والداعية الموفق هو من ينتهي من موعظته والناس في شغف وتطلع للزيادة، فمراعاة النفوس في جانب التطويل والإيجاز لا بد منه فالأصل في الدعوة هو التخول والإيجاز ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن في بعض الأحوال إن اقتضى الأمر أن تطيل وكانت النفوس راغبة لا نافرة، والقلوب لك مصغية والآذان لك سامعة، والأعين لك متجهة، ورأيت أن المصلحة الشرعية في هذه الحال أن تطيل وتفصل، فلا حرج، ولكن لا تجعله ديدناً لك، ولا عادة لك، بل اجعل الأصل هو التخفيف، واجعل التطويل في الأمر العارض والواعظ بالتخفيف يستفيد عدة أمور:

الأول: كسب قلوب المدعوين.

الثاني: التحبيب في الموعظة، وعدم كراهتها أو تثاقلها.

الثالث: الترغيب في الجلوس والاستماع وعموم النفع.

الرابع: تيسير الإلقاء وحفظ الكلمة ولم شمل عناصرها.

الخامس: اتصال فهم السامع وعدم تشوشه بكثرة الكلام.

السادس: إمكانية حضور أكبر عدد ممكن، فإن الناس لا يتفلقون من المواعظ إلا أن أحسوا أن الواعظ قد أطل، لا سيما المواعظ في المساجد.

السابع: إقبال القلوب واشتياقها للموعظة، فإن الموعظة إن كانت غبا، فإن للناس يزدادون لها شوقاً.

الثامن: عدم حبس الناس عن أعمالهم.

التاسع: حتى لا يكون التطويل فتنة لبعض الناس فيفتح أمامه الباب ليتكلم في الوعاظ وأهل الدعوة إلى الله تعالى.

العاشر: أن الاختصار يوجب ضبط الموضوع من قبل الملقى، فإن التطويل قد يوجب في الغالب تعدد الموضوعات والخروج من هذا الموضوع والدخول في آخر، ثم العودة للموضوع الأول ثم الشروع في موضوع ثالث ورابع، وهذا شيء معروف، ومجرب.

الحادي عشر: أن في الاختصار إحياء للسنة التي تكاد تنسى.

الثاني عشر: أنه المتفق مع البلاغة والفصاحة والفطرة وميل النفوس.

الثالث عشر: أنها أدعى لقبول الكلام والوعظ.

الرابع عشر: أنه أبعد عن إحراج الواعظ، فإن من الحضور من قد يكون جريئاً ويتكلم على الواعظ ويأمره بالتخفيف، وقد حصل هذا أمام عيني عدة مرات، مما جعلنا في الجامع نكتب ورقة صغيرة أمام الواعظ بأن لا يتجاوز خمس دقائق، حتى لا نقع نحن وإياه والحضور في الإحراج، فإن الواعظ إن تكلم عليه وعلى وعظه أحد الجماعة يأخذ فكرة عن جماعة هذا المسجد مما يجعله قد لا يقبل الوعظ فيه مرة أخرى، ولا خير في مخالفة السنة. فأنا أرجو من أحبابي الدعاة مراعاة هذا الأمر، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الثلاثون

الخلاف في الأمور الاجتهادية

لا يفسد للود قضية

أقول: إن الخلاف قسمان: خلاف في المسائل العلمية، وخلاف في المسائل العملية، ونعني بالمسائل العلمية أي مسائل العقيدة، ونعني بالمسائل العملية أي المسائل الفقهية، والقاعدة هذه لا شأن لها بالخلاف العقدي، وإنها لها شأن بالخلاف الفقهي، وأنت بارك الله تعالى فيك خبير بأن المسائل العملية الشرعية لا تخرج عن ثلاثة أقسام: إما مسائل متفق عليها بين أهل العلم رحمهم الله تعالى، فهذه يجب علينا اتباع الإجماع فيها، فالإجماع حجة شرعية يجب قبولها واعتمادها والمصير إليها وتحرم مخالفتها، ويجب أن ينكر على المخالف فيها، بل لقد قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن من خالف الإجماع القطعي المعلوم من الدين بالتواتر والضرورة فإنه يكفر بذلك، وهذا القسم لا شأن لقاعدتنا به كذلك، والقسم الثاني: مسائل ثبت الخلاف فيها والدليل ينصر أحد القولين نصراً ظاهراً فهذه يجب الأخذ فيها بمقتضى الدليل، ولا تجوز مخالفتها، ويجب الرجوع عن القول المخالف لظاهر الأدلة، كالخلاف في ستر وجه المرأة وفي الاختلاط وفي حكم صلاة الجماعة، ونحوها فالدليل فيها دليل ظاهر في أحد القولين، فهذه المسائل وإن كانت خلافية إلا أن الواجب فيها متابعة

الدليل، لأن الدليل ظاهر في أحد القولين، وهذه المسائل لا تدخل معنا في القاعدة كذلك، والقسم الثالث: المسائل الاجتهادية، وهي المسائل التي ثبت فيها الخلاف بين أهل العلم رحمهم الله تعالى، ولكن الدليل محتمل لكلا القولين، كمسألة النزول في السجود، هل هو على الركبة أو اليدين، ونحوها من المسائل.

فهذه المسائل هي التي تدخل في قاعدتنا، وعلى ذلك فأقول: لا يدخل معنا في هذه القاعدة، الاختلاف في المسائل العقدية، ولا المسائل المجمع عليها، ولا المسائل الخلافية التي كان الدليل فيها ناصر لأحد القولين، وإنما هي تخص المسائل الاجتهادية فقط، فالخلاف في المسائل الاجتهادية لا يجوز أن يكون سببا لتنافر القلوب واختلاف البواطن، ولا أن نعقد عليها الولاء والبراء ولا أن تكون سببا للوقعة في أعراض إخواننا من الدعاة، ولا أن تكون مسببة للمخالف، بل الواجب على كل أحد أن يتعبد لله تعالى بما ظهر له من هذه المسائل أنه الراجح، ويعذر بعض المجتهدين بعضا فيما اختلفوا فيه، ولا يحل لأحد أن يلزم الناس بقبول رأيه، ولا أن يحمل الناس على قوله، بل الواجب طلب العذر، وأن تبقى محبة الدين والإيمان فيما بيننا، فالخلاف في هذه المسائل إنما يكون خلافا في الظاهر فقط، فلا يجوز أن يتعدى الظاهر، وأما إذا نفذ للقلب، وصار عقدا للولاء والبراء والقدر والتشريب، فناهيك عن المفسدات الكبيرة الخطيرة التي تترتب على ذلك، فالله الله أيها الحبيب بسعة الصدور وطلب الأعداء لإخواننا الذين يخالفوننا في الرأي في مثل تلك المسائل، وعلى ذلك كان النبي ﷺ يربي أصحابه، فإنه قد ثبت خلافهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم في كثير من المسائل الشرعية الاجتهادية، ومع ذلك فلا تزال أخوة

الإيمان بينهم قائمة، والمحبة بينهم وافرة، لا يبطلها خلاف، ولا يزيلها نقاش أو حوار، فالنفوس سليمة والصدور سليمة، لأنه كان قصد القوم هو طلب الحق، فمتى ما ظهر الحق لهم وافقوا القائل به، وأخذوا بقوله، فلا تثريب ولا قدح ولا سب ولا شتم، ولا اتهام للنيات، ولا نيل من الأعراض، وأما الحال في الأزمان المتأخرة فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، روى البخاري بسنده عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال لما رجع من الأحزاب: (لا يصلين أحدُ العصر إلا في بني قريظة)، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد ذلك منا فذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم^(١).

ووجه الاستشهاد به هو أن النبي ﷺ لم يعنف على أي من الطائفتين، لأن المسألة اجتهادية وهي خاضعة للنظر والتأمل، فكل تعبد لله تعالى بما آداه إليه اجتهاده، ولا تزال القلوب متفقة والنفوس مطمئنة، والنبي ﷺ ترك كل واحدة من الطائفتين على ما رأته أنه هو الراجح، ولا ينكر على واحدة منهن، لأن الأمر محتمل وفي الحديث: (كُنَّا نَسَافِرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمِنَّا الصَّائِمُ، وَمِنَّا الْمَفْطَرُ، فَلَا يَجِدُ الْمَفْطَرُ عَلَى الصَّائِمِ، وَلَا الصَّائِمُ عَلَى الْمَفْطَرِ، وَكَانُوا يَرَوْنَ: أَنَّهُ مَنْ وَجَدَ قُوَّةَ فَصَامَ، فَحَسَنَ، وَمَنْ وَجَدَ ضَعْفًا فَأَفْطَرَ، فَحَسَنَ)، وفي رواية النسائي قال: (كُنَّا

(١) رواه البخاري ٣١٣/٧ في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، وفي صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً، ومسلم رقم (١٧٧٠) في الجهاد، باب المبادرة بالغزو، وابن حبان (٤/٣٢٠، رقم ١٤٦٢).

نُسَافِرُ مع رسول الله ﷺ، فَمِنَّا الصَّائِمُ، وَمِنَّا الْمُفْطَرُ، فَلَا يَعْيبُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطَرِ، وَلَا الْمُفْطَرُ عَلَى الصَّائِمِ^(١)، وهذا من سعة الأفق واتساع الصدر وتربية الناس على الاجتهاد والنظر في المسائل، وليت أهل زماننا يدركون هذا الأدب الرفيع، فإنه ما إن يخرج مجتهد بقول ليس هو القول الذي عليه الفتوى في البلد، مع أن المسألة اجتهادية، إلا وتُفَوَّقُ له سهام الاتهام والقبح واتهام النية، وأنه لا يريد إلا كيت وكيت، ويريد فتنة العامة، وإثارة الغوغاء والدھماء والرأي العام ويريد إسقاط هبة أهل العلم، إلى غير ذلك من الاتهامات التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وإنما هو التسلط والقهر، وإذلال الناس، وطالب العلم إن نشأ في هذه الظروف فإنه إن لم يكن قوي الشكيمة قوي النفس، وإلا فسينكسر ويترك الطريق من أوله، أو سيكون متابعاً لغيره فيما يقول طلباً للسلامة من القبح وتوجيه سهام النقد اللاذع، وهذا أمر لا يجوز، نعم، هناك أمور مسلمة متفق عليها في الشريعة، ولكن نحن لا نبحث في هذه المسائل، فقولنا فيها معروف ولله الحمد والمنة، ولكننا نتكلم عن ترك المجتهدين وما يرونه في المسائل الاجتهادية وعدم سد الأبواب في وجوههم أو التضييق عليهم بلا حجة ولا برهان، وكم، وكم من الكلمات التي سمعناها وسمعها غيرنا من هذا القبيل، ولكن لا شأن لنا بأحد، فالمعتمد عندنا هو الدليل،

(١) رواه مسلم رقم (١١١٦) و (١١١٧) و (١١٢٠) في الصيام، باب أجزء المفطر في السفر إذا تولى العمل، وأبوداود رقم (٢٤٠٦) في الصوم، باب ما جاء في الرخصة في السفر، والترمذي رقم (٧١٢) و (٧١٣) في الصوم، باب ما جاء في الرخصة في السفر، والنسائي ٣/ ١٨٨ و ١٨٩ في الصوم.

ولو خالف فيه من خالف، وعلى هذه النظرة نربي طلابنا، مع كبير التوصية لأنفسنا ولطلابنا بالتواضع للحق والخلق واحترام العلماء وعدم الخط من شأنهم، والتأدب بأداب الخلاف فيما بين أهل العلم وطلابه، وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنهم كانوا جُلُوساً، فذكروا ما يُوجب الغسل، فاختلف في ذلك رهط من المهاجرين والأنصار، فقال الأنصاريون: لا يجب الغسل إلا من الدَّقِّ، أو من الماء، وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل، قال أبو موسى: فأنا أشفِيكم من ذلك، قال: فقممت فاستأذنت على عائشة، فأذن لي، فقلت لها: يا أُمّاهُ - أو يا أُمّ المؤمنين - إني أريد أن أسألكِ عن شيء، وإني أَسْتَحْيِيكِ؟ فقالت: لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أُمّك التي ولدتك، فإنما أنا أُمّك، قلتُ: فما يُوجب الغسل؟ قالت: على الخير سقطت، قال رسول الله ﷺ: (إذا جلس بين شعبها الأربع، ومَسَّ الحِتانُ الحِتانَ، فقد وجب الغسل)، وفي رواية الموطأ: (أن أبا موسى أتى عائشة زوجَ النبي ﷺ فقال لها: لقد شَقَّ عليَّ اختلافُ أصحابِ النبي ﷺ في أمر، إني لأَعْظُمُ أن أَسْتَقْبِلَكَ به فقالت: ما هو؟ ما كنت سائلاً عنه أُمّك فاسألني عنه، فقال: الرجل يُصيب أهله، ثم يُكْسِلُ ولا يُنْزِلُ؟ فقالت: إذا جاوز الحِتانُ الحِتانَ، فقد وجب الغسل، فقال أبو موسى الأشعري: لا أسأل عن هذا أحداً بعدك أبداً^(١)).

(١) رواه مسلم رقم (٣٤٩) في الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الحِتانين، والموطأ ١/٤٦ في الطهارة، باب واجب الغسل إذا التقى الحِتانان، والترمذي رقم (١٠٨) و(١٠٩) في الطهارة، باب ما جاء إذا التقى الحِتانان وجب الغسل.

والشاهد أن الصحابة مع ثبوت الخلاف بينهم في هذه المسألة، إلا أنهم كانوا يطلبون الحق فيها، والقلوب لا تزال على صفائها والنفوس لا تزال على نقائها، فهو مجرد خلاف في الظاهر فقط، ولم ينفذ للقلوب، وهذا هو عين ما نريده من أحبتنا من طلبة العلم، لقد اختلف الأئمة في كثير من الأمور الاجتهادية، كما اختلف الصحابة والتابعون قبلهم، وهم جميعاً على الهدى ما دام الاختلاف لم ينجم عن هوى أو شهوة أو رغبة في الشقاق، فقد كان الواحد منهم يبذل جهده وما وفي وسعه ولا هدف له إلا إصابة الحق وإرضاء الله جل شأنه، ولذلك فإن أهل العلم في سائر الأعصار كانوا يقبلون فتاوى المفتين في المسائل الاجتهادية ماداموا مؤهلين، فيصوبون المصيب ويستغفرون للمخطئ، ويحسنون الظن بالجميع، بل لقد كان في الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ومن بعدهم من يقرأ البسملة ومنهم من لا يقرأها ومنهم من يجهر بها ومنهم من يسر، وكان منهم من يقنت في الفجر، ومنهم من لا يقنت فيها، ومنهم من يتوضأ من الرعاف والقيء، والحجامة، ومنهم من لا يتوضأ من ذلك، ومنهم من يرى في مس المرأة نقضاً للوضوء ومنهم من لا يرى ذلك ومنهم من يتوضأ من أكل لحم الإبل أو ما مسته النار مساً مباشراً، ومنهم من لا يرى في ذلك بأساً، وهكذا كان سلفنا الصالح، يختلفون في بعض المسائل ولكن خلافهم لا يفسد قلوبهم ولا يعكر صفو أخوتهم الإيمانية، ولا يزيل مفهوم المحبة الدينية، ولا يكون سبباً للوقعة في بعضهم بالقدح والثلث والتشريب ومن المقرر في القواعد أن الحق يقبل ممن جاء به، وأن الباطل يرد ممن جاء به، فقد كانوا يقبلون الحق حتى وإن جاء به من هو أصغر منهم في العلم والسنة والإيمان، ويردون الباطل

ممن جاء به وإن كان يفوقهم في العلم والدين والإيمان، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق، وقد يفتح الله تعالى على قليل العلم وصغير السن ما لا يفتحه على الكبير العالم، والفضل فضل الله تعالى.

فالحق أيها الأحبة لا يعرف بالسن ولا بالشهادة، ولا بالمنصب، ولا بالقرب من ولاية الأمر أو البعد عنهم، بل الحق يعرف بموافقة الدليل كتابا وسنة، وحيث كان الأمر كذلك فلم التراشق بالتهم في الخلاف الاجتهادي الخاضع للنظر والتأمل، ولم القدح في الأعراض ولم الثلب في النيات، ولم إهانة الطلاب بما لا يسوغ من الألفاظ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال صاحب كتاب أدب الخلاف في الإسلام: «فالخلاف بين سلف الأمة وأئمتها لم يمنع من أن يصلي بعضهم خلف بعض كما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأئمة آخرون يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم ولو لم يلتزموا بقراءة البسملة لا سرا ولا جهرا، وصلى الرشيد إماما وقد احتجم فصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يعد الصلاة مع أن الحجامة عنده تنقض الوضوء. وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة فقليل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل يصلى خلفه؟ يقال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب. وصلى الشافعي رحمه الله الصبح قريبا من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله فلم يقنت والقنوت عنده سنة مؤكدة قليل له في ذلك، فقال: أخالفه وأنا في حضرته». وقال أيضا: «ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق. وكان مالك رحمته الله أثبت الأئمة في حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ وأوثقهم إسنادا، وأعلمهم بقضايا عمر وأقاويل عبدالله بن عمر وعائشة

وأصحابهم من الفقهاء السبعة رضوان الله عليهم أجمعين، وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى وقد حدّث وأفْتى ﷺ، وألف كتابه "الموطأ" الذي توخى فيه إيراد القوي من حديث أهل الحجاز، كما نقل ما ثبت لديه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وبوّبه على أبواب الفقه فأحسن ترتيبه وأجاد، وقد اعتبر "الموطأ" ثمرة جهد الإمام مالك لمدة أربعين عاما، وهو أول كتاب في الحديث والفقه ظهر في الإسلام وقد وافقه على ما فيه سبعون عالما من معاصريه من علماء الحجاز، ومع ذلك فحين أراد المنصور كتابة عدة نسخ منه، وتوزيعها على الأمصار، وحمل الناس على الفقه الذي فيه حسما للخلاف كان الإمام مالك أول من رفض ذلك، فقد روي عنه أنه قال: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سبق إليهم وأتوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. فقال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبدالله... فأبى رجل هذا الإمام الجليل الذي أبى أن يحمل الناس على الكتاب الذي أودع فيه أحسن ما سمع من السنة وأقوى ما حفظ وأدرك من العلم الذي لا اختلاف فيه عند أهل المدينة وذلك الحشد من علماء عصره.

فهذا الأدب الجم الكبير لا يوفق له إلا الموفقون الملهمون ممن أراد الله تعالى به خيرا، وهو ثمرة العلم الصحيح المؤصل على هدي السلف الصالح، فالعلم الذي لا يثمر لصاحبه الأدب والتقوى والتواضع ليس في الحقيقة من العلم النافع، ففي الحقيقة أن إثارة الخلاف بين المسلمين، أو تنمية أسبابه خيانة عظمية لأهداف الإسلام، وتدمير لهذه الصحوة المعاصرة التي أحييت الأمل في النفوس، وتعويق

لمسيرة الإسلام، وتشتيت لجهود العاملين المخلصين لا يرضي الله جل شأنه، ولذلك فإن من أكثر وأهم واجبات المسلمين اليوم عامة والدعاة منهم خاصة بعد الإيمان بالله تعالى: العمل على توحيد فصائل حملة الإسلام ودعائه والقضاء على كل عوامل الخلاف بينهم، فإن كان لا محالة فليكن في أضيق الحدود، وضمن آداب سلفنا الصالح، ولا يمنع اختلاف الآراء من التقاء القلوب لاستئناف الحياة الإسلامية الكريمة ما دامت النية خالصة لوجه الله تعالى، وعندها فلن يعدموا التوفيق والتأييد من الله ومن المعلوم بارك الله تعالى فيك أن من أصول الإسلام الحث على التقارب والتآلف، وسد أبواب التنافر والتخالف، فكل سبب يفضي إلى التنازع واختلاف القلوب فالشريعة سدته وأحكمت سده فحرمت الغيبة والنميمة والكذب واللعن وفحش القول والفعل وحرمت بيع المسلم على بيع أخيه وشراءه على شراء أخيه، وخطبته على خطبة أخيه، وحرمت الظلم والقهر ومنع أصحاب الحقوق من حقوقهم وأمرت بالعدل والإنصاف إلى غير ذلك من الأحكام المقررة في الشريعة، فإنك تجدها في الأعم الأغلب يراد بها بقاء القلوب متفقة مؤتلفة لا متنافرة مختلفة، فالأصل الأصل في الدين هو الحث والترغيب والأمر بالاجتماع والاتلاف والتحذير من زيف القلوب والفرقة والاختلاف، ومن أسباب الخلاف بيننا هو جعل المسائل الاجتهادية أصلاً للولاء والبراء والقدح والشريب، وهذا أمر لا يحل، فعلى لدعاة إلى الله تعالى أن يبينوا للناس أدب الاختلاف وأن يوصوا الناس بإحياء مبدأ لأخوة الإيمانية والرابطة الشرعية وعلى العلماء وفقهاء الله تعالى لكل خير أن يعذروا لمخالف لهم في المسائل الاجتهادية وأن لا يثرب بعضهم على بعض فيما اختلفوا فيه

منها، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أي قوتكم وجماعتكم ونصركم... ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَآخَذْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والأوامر بالاعتصام بحبل الله تعالى وإقامة دينه مقرونة بنواه عن التفرق والنزاع مع التنبيه إلى النتائج الحتمية المتمثلة في الفشل الذي يعنى العجز عن الوصول إلى غاية معينة وهي فشل الأمة وعجزها عن القيام بوظيفتها في هداية البشر والخلافة الراشدة في الأرض ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد بين عليه الصلاة والسلام ذلك خير بيان، وهو المين للذكر المبلغ للوحي في نواه صريحة: (لا تقاطعوا وتدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً)^(١).

وأمرت الشريعة بإصلاح ذات البين، وحذرت من فسادها قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوتِهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، وحديث: (ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى)، أخرجه مسلم من حديث أنس وفي حديث أبي هريرة: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا

(١) رواه البخاري ٩ / ١٧١ في الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ومسلم رقم (٢٥٦٣) في

البر والصلة، والموطأ ٢ / ٩٠٧ و ٩٠٨ في حسن الخلق، وغيرهم.

تباغضوا ولا تدابروا^(١)، وخرج أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء عنه عليه السلام: (ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟) قالوا بلى يا رسول الله قال: (إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة)^(٢).

ولا نعني بهذا الكلام أنه لا بد وأن تتفق الأمة على قول واحد في كل المسائل الاجتهادية، فإن هذا متعذر بل الخلاف واقع، والخلاف فيها سائغ، ولكن الذي ندعو له هو التأدب بأدب الخلاف عند حصوله ومن أعظم آدابه طلب الحق وطلب العذر للمخالف، وصفاء القلوب بعده، وأن لا يكون سببا للتدابير والتطاعن والتشاحن وكتابة التقارير السرية لولاة الأمور، وأن لا يكون سببا لهضم حقوق الناس والنيل من أعراضهم والقدح فيهم والتشريب عليهم، وأن لا يكون سببا للتنقص منهم وإبعادهم عن مناصبهم فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



(١) صحيح، أخرجه أحمد ٢/ ٢٧٧، والبخاري في النكاح وفي الأدب، ومسلم رقم (٢٥٦٣) في البر والصلة، ومالك في الموطأ ٢/ ٩٠٧-٩٠٨ في حسن الخلق، وأبوداود رقم (٤٨٨٢ و ٤٩١٧) في الأدب، والترمذي رقم (١٩٢٨) في البر والصلة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٥/ ٥٠٠) رقم (٢٧٥٠٨) والترمذي في جامعه، وأبي داود في سننه، وأيضاً البزار في البحر الزخار، وقد صححه الألباني في غاية المرام.

القاعدة الحادية والثلاثون

اهتمام الداعية بزيادة روحه بالازدياد والترقي
في مدارج العلم والتعبد موجب للاستمرار والعطاء

أقول: إن الأمر في الدعوة لا بد فيه من التوازن، فالداعية الذي يفقد مبدأ التوازن لا بد وأن يكون عنده خلل في أمر دعوته، طال الزمان أو قصر، ولذلك فقد حرص القرآن على بيان منهج الأنبياء في الدعوة والتعبد، فمن التوازن أن يكون الداعية حريصاً على أمرين:

الأول: أن يكون حريصاً على أمره في خاصة نفسه من تصحيح التعبّد لله تعالى، والازدياد من الخير من قيام الليل والصدقة والتزود من زاد التقوى بشتى أنواع التعبّد المشروعة، من كثرة الذكر والحمد والثناء لله تعالى، ولذلك فإنك تجد ربنا جل وعلا في كتابه الكريم إذا ذكر أعمال الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى مباشرة يقرنها بأعمالهم وتعبداتهم في خواص أنفسهم، كما قال تعالى عن نوح، بعد ذكر ما جرى بينه وبين قومه قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فكان قوله تعالى: ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، سيقّت مساق التعليل، فشكره الله تعالى له دوره الكبير على الصبر على الدعوة، ومعاناة قومه فيها، وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨]، والأواب هو كثير

التوبة والرجعة إلى الله تعالى، مع أنه من الأنبياء، ولكن الله تعالى لم يذكر نتائج دعوته، وإنما ذكر اهتمامه بزاد روحه، مما يفيد أهمية زاد الروح للداعية، وقال تعالى عن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال تعالى عن أيوب: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿١١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿١٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١-٤٣]، وهذه أنواع من العبادات اهتم بها نبي الله أيوب، فصارت زادا لروحه وصبره على بلواه، وقال تعالى عنه في موضع آخر: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقال تعالى عن بعض أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فإذا كان أنبياء الله تعالى في حاجة كبيرة لزاد أرواحهم في الترقى في مجالات التعبد والتقوى والاتصال بالله تعالى، وأن لهذا الأمر العظيم دوره الكبير في صبرهم وجهادهم في الدعوة، وأن الله تعالى أبرز هذا الجانب المهم في حياتهم، ونبه عليه، دل ذلك كله على أنه لا بد وأن يهتم الداعية به الاهتمام الكامل، وأن لا ينسى روحه وقلبه من التعبد وتقوية الاتصال بالله تعالى بكثرة ذكره وحمده وشكره، وأن يحرص على أن يجعل بينه وبين الله تعالى عبادات لا يعلم بها أحد من الخلق، لأنه هذا ادعى للإخلاص، فكلما ترقى الداعية في مدارج التعبد والتقوى وكان حريصا على تقوية الصلة بربه جل وعلا، كلما كانت قواه في الدعوة متجددة، وعزيمته على الاستمرار بإذن الله تعالى قوية، ولا يهيمه تكذيب المكذبين ولا قدح القادحين ولا تثبيط المبطلين، بل لا تراه إلا ويمضي قدما في سبيل دعوته ويبذل فيها الغالي والنفيس، بل

إنك تراه يستحلي العذاب والصعوبات التي تواجهه في دعوته، بل إن حسن الصلة بالله تعالى وقوتها سبب إن شاء الله تعالى لقبول القلوب واستجابة المدعوين، لأن من تقرب إلى الله تعالى بما افترضه وندب له فإن الله تعالى يحبه، وإن الله إذا أحب عبدا نادى: (يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل: يا أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض)، فإذا كان الداعية بهذه المثابة فناهيك عن استسلام القلوب لدعوته، واستعذاب الأذان لمقولته، وطرب النفوس للجلوس معه.

فالله الله أيها الداعية بالحرص على زاد الروح، وإن خير الزاد التقوى، بل التقوى هي خير اللباس وخير البناء وخير الزاد، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وكذلك التزود من العلم، أمر لا بد منه للداعية، فإنه إن كان يصدر فقط ولا يستورد ولا يزداد من العلم فإنه سينقطع في يوم ما، ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعاء من التزود من العلم فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فأمره الله تعالى بأن يدعوه بأن يزيده من العلم فإذا كان النبي ﷺ يؤمر بالازدياد من العلم، فكيف بغيره من الدعاة؟ لا جرم أنهم مأمورون به من باب أولى.

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وقل يا محمد: رب زدني علما إلى ما علمتني، أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم»، وقال ابن عيينة رحمه الله: «ولم

يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل»، وللمزمدي وابن ماجه عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: (اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً، والحمد لله على كل حال) ^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ^(٢)، فأعظم زاد للداعية إلى الله تعالى هو العلم المثمر للتقوى والعمل والتعبد الصحيح.

ولذلك فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بقيام الليل بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْأُمُزْمِلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ١-٨]، فأمره هنا بأنواع من التعبادات، لأنه سيلقي عليه قولاً ثقيلاً، ولا يتمكن من تحمله إلا بالتزود من العبادة، ولعل مرادي قد اتضح إن شاء الله تعالى، فليس هناك سقف علمي أو

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٥٩٣) في الدعوات، ابن ماجه رقم (٢٥١) في المقدمة، من حديث موسى ابن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال الحافظ في "التقريب": «محمد بن ثابت عن أبي هريرة مجهول، وإسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو منكر الحديث».

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٥٠٦١) في الأدب، باب ما يقال عند النوم، وفي سننه عبد الله بن الوليد ابن قيس التجيبي البصري، وهو لين الحديث كما قال الحافظ في "التقريب": «والحديث ضعفه الألباني».

تعبدي إذا وصل له الداعية قال: هنا محط الرحال، لا، بل لا يزال الداعية إلى الله تعالى في الترقى في مدارج التعبد والتقوى والتعلم والتعليم حتى يتوفاه الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على تحقيق هذا الأمر، ولذلك فقد كان أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى يجلس في مصلاه من بعد صلاة الفجر إلى اشتداد الضحى، ويقول: هذه غدوتي، لو لم أتغذها لخارت قواي. أو كما قال رحمه الله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، فلا طريق لتحمل أعباء الدعوة والصبر عليها إلا بالتعبد والصبر، فإن هذا هو زاد الأرواح، والأبدان التي لا تتغذى أرواحها بمثل هذا النوع من الغذاء فإنها ستخور قواها وتذهب مع الريح عزائمها، فالازدياد من العلم والتقوى والتعبد الصحيح من أعظم الأسباب التي يكون بها التوفيق والثبات بإذن الله تعالى، قال النبي ﷺ: (العبادة في الهرج كهجرة إلي)^(١). والمراد بالهرج أي الفتنة واختلاط الأمور، وقبل أن يرسل الله تعالى موسى ﷺ إلى فرعون قال له: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وإننا لنشكو إلى الله تعالى من حال بعض الجماعات التي لا تأبه بالعلم، ولا تحض أتباعها عليه، ولا ترغبهم فيه، ولا تنظر إلى أهله بنظرة التقدير والهيبة والاحترام وهي مع ذلك تأمر أتباعها بالدعوة إلى الله تعالى وبالخروج في سبيل الله تعالى، مع أن الأفراد الجدد في الدعوة لم يأخذوا الحظ الوافر من العلم، وهذا أمر فيه نظر، بل فيه

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤٨)، والترمذي: في الفتن (٢٢٠١)، وابن ماجه

من الخطر ما فيه، فإن الخلل في الدعوة لا يخلو إما أن يكون سببه ضعف العلم، أو ضعف التعبد وتصحيح القصد، ولكن إن صح القصد وحرص الداعي إلى الله تعالى على الازدياد من العلم والتعبد فإنه في الأعم الأغلب سيكون حليفاً للتوفيق والنجاح والثبات، والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



القاعدة الثانية والثلاثون

من علم شيئا

وجب عليه الدعوة إليه بقدره

أقول: إن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على المسلم، ولكن هذا الوجوب يختلف باختلاف أحوال المسلم في العلم، والضابط في هذا أن من تعلم شيئا من العلم وعرفه على وجهه الصحيح فإن الواجب عليه أن يدعو غيره له، وليس بشرط أن يكون راسخا في العلم حتى تجوز له الدعوة، لا، بل من علم أمرا من أمور الدين على وجهه المعتمد عند أهل العلم رحمهم الله تعالى فإنه يجب عليه الدعوة بقدر ما يعلمه من العلم، فمن كان عارفا بصفة الضوء بدليلها مثلا، فله الدعوة في هذه الجزئية، ومن كان عارفا بكتاب الطهارة مثلا، فالواجب عليه الدعوة إلى الله تعالى في هذه الجزئية من الدين، وهكذا فمن دعا إلى الله تعالى فيما يتقنه من العلم فلا لوم عليه، ولكن لا يتجاوز الحد فيدعو إلى الله تعالى على الجهل والتخرص والظنون الكاذبة التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وعلى ذلك قوله ﷺ: (نضر الله امرءا سمع مني مقالة فوعاها فأداها كما سمعها...) الحديث^(١)، والشاهد منه أنه

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥٩، وابن ماجه ٨٤ / ١ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وفي الباب عن زيد بن ثابت، عند الترمذي وابن ماجه، وصححه ابن حبان في صحيحه، وعن جبير بن مطعم عند أحمد وابن ماجه.

دعا لمن أدى عنه المقالة الواحدة التي سمعها، ولكن عليه أن يؤديها كما سمعها، وهذا الدعاء منه ﷺ دليل على صحة هذا الفعل، فلو كانت الدعوة لا تحل إلا في حق الراسخين في العلم لما كان لهذا الدعاء وجه، فتأمل هذا، ولكن كما قلنا سابقاً في قاعدة: «العلماء هم الدعاة»، من أن كل من عرف وعلم أمراً من الدين فهو عالم فيه، والعلم يتجزأ، والاجتهاد يتجزأ في أصح قولي أهل العلم رحمهم الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: (بلغوا عني ولو آية)^(١)، وهذا دليل على أن البلاغ واجب على قدر ما يعلمه الإنسان، وهذا هو القول الوسط، فإن من الناس من لا يرى تبليغ العلم واجباً إلا إذا بلغ الإنسان رتبة كبيرة في العلم، وهذا فيه نوع غلو، ومن الناس من يرى أن كل مسلم عليه البلاغ حتى وإن لم يكن ذا علم، كما هو حال بعض الجماعات التي تنتسب للإسلام، فإنهم يأمرون رعاياهم حديثي التوبة بالدعوة إلى الله تعالى مباشرة، ويخرجون بهم إلى الدعوة إلى الله تعالى ويأمرونهم بإلقاء الكلمات بحجة أن من قام في الدعوة فالله تعالى يفتح عليه، وهذا فيه تفريط وقصور والوسط هو الخير وهو أن كل من تعلم مسألة من العلم وأتقن تعلمها فالواجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بقدر ما عنده من العلم، ولا يجوز له أن يتكلف ما لا علم به، ولما تعلم ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه أركان الإسلام من النبي ﷺ قال له: وأنا رسول من ورائي من قومي، فأقره النبي ﷺ على هذا، ولم يقل له: حتى تستكثر من العلم، فدعا قومه بما تعلم من النبي ﷺ وجاء بهم ينطقون الشهادة

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٣٤٦١) والترمذي (٢٦٦٩) والطحاوي في "شرح مشكل

الآثار" (٣٩٨) والترمذي (٢٦٦٩) وأحمد (١٥٩/٢) (٦٤٨٦).

بين يدي النبي ﷺ ويبايعونه فالدعوة مربوطة بالعلم، فمن علم أمرا من أمور الدين وجبت عليه الدعوة فيه بقدره، والله ربنا أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الثالثة والثلاثون
لكل مقام مقال،
وليس كل ما يعلم يقال

أقول: لقد قررنا سابقا أن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل
المفاسد وتقليلها، وأنها مبنية على تحصيل أعلى المصلحتين، ودفع أكبر الفسادين،
وأن المتقرر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وبناء على ذلك فإن الدعوة إلى
الله تعالى لا بد وأن تبنى على هذه القواعد الشرعية المعتمدة بالدليل كتابا وسنة،
وأنها - أي الدعوة - لا تزال سليمة مادام الداعية يراقب هذه القواعد وينظر في
المصالح والمفاسد، وعلى هذا: فإن رأى الداعية إلى الله تعالى أن المصلحة في
السكوت عن نوع من العلم أو في مسألة من المسائل، وأن الحكمة الدعوية تقتضي
منه السكوت في هذه الحالة فالمشروع له أن يسكت، وليس لأنه يعلم هذه المسألة فلا
بد أن يبينها، فإن العلم بالشيء أمر ووجوب بلاغه أمر آخر، فإن البلاغ لا بد وأن
يربط بتحقيق المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، ولكن لا بد وأن يكون
رقابة المصلحة والمفسدة خالية وبعيدة عن الشهوات وحظوظ النفس لأن من
الدعاة من تملكه الخوف من كل شيء، فتراه يقدر المصالح والمفاسد بناء على هذا
الذعر العظيم الذي امتلأت به جوانب نفسه، فالمصالح والمفاسد لا تكون معتبرة
إلا إن كانت متفقة مع ما اعتبره الشرع منها، فإبلاغ العلم والدعوة إلى الله تعالى لا
بد وأن تكون مرتبطة بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، ولذلك فقد نهى النبي ﷺ

معاذا عن التحديث بما حدثه به في شأن فضل كلمة التوحيد، لما قال له: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا)، فقال معاذ: أفلا أبشر الناس؟ قال: (لا تبشرهم فيتكلموا)^(١)، فلما كان إخبار الناس بهذا الأمر فيه نوع مفسدة مقابلة، صار من الحكمة الدعوية السكوت عنه، وعدم إخبار الناس، وذلك خوفا من اتكالمهم على هذا الأمر وترك العمل أو التساهل فيه، مع أن إبلاغ العلم من الواجبات المحتمات، ولكن لما كانت الدعوة بإبلاغه مرهونة بتحقيق المصالح ودفع المفاسد صار من الحكمة السكوت عنه، لأنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال، وهذا الأمر هو الذي حدا بأبي هريرة رضي الله عنه أن يسكت عن وعاء من الأحاديث التي سمعها من النبي ﷺ، لأنه لو بثه لحصلت المفسدة، فرأى ﷺ أن الحكمة في السكوت عن هذا النوع من العلم، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى أنه فيما يخص ذم ولاية الصبيان من بني أمية، وذكر بعض ما يحدثونه في الدين من التقديم والتأخير والتغيير، وأبو هريرة قد حفظ من الحديث ما لم يحفظه غيره من أصحاب النبي ﷺ، فلو أنه تعرض له أحد هؤلاء الأمراء الصبيان بالسوء لذهب أكثر الحديث، فكانت الحكمة في السكوت عن هذا النوع من العلم، ولأنها من الأحاديث التي لا يتعلق بها عمل، وإنما هي في بيان بعض الأخبار التي ستكون في الأمة بسبب إمارة الصبيان من بني أمية، فليس كتمها من الأمور الموجبة للمفسدة في الأمة، ويحمل أيضا على أنها من جملة الأحاديث التي فيها الخبر عن الملاحم والفتن التي تقع بين الناس، مما لو أخبر

به لبادر الناس إلى تكذيبه، كما قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به هو الفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال وما سيقع، التي لو أخبر بها قبل كونها لبادر كثير من الناس إلى تكذيبه، وردوا ما أخبر به من الحق. كما قال: (لو أخبرتكم أنكم تقتلون إمامكم وتقتلون فيما بينكم بالسيوف لما صدقتموني)». ولذلك قال رحمه الله: (حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم وعاءين من العلم، أما أحدهما فبثته فيكم، وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم)^(١)، وما ذلك إلا لأنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال، إن من الناس من إذا تعلم شيئاً من العلم قام وبثه في الناس ولو كان في بثه مفسدة، المهم أنه لا بد وأن يقوله براءة للذمة كما يتوهمه، وهذا خطأ، بل الدعوة مربوطة بالنظر في المصالح والمفاسد، ولأحمد بسنده عن يزيد بن الأصم قال أبو هريرة: (يَقُولُونَ أَكْثَرَتْ فَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ رَمَيْتُمُونِي بِالْقَشْعِ وَمَا نَاطَرْتُمُونِي). قلت: وهذا هو العقل والرأي السديد، قال ابن بطال رحمه الله تعالى على قول أبي هريرة في الحديث السابق: «وكذلك ينبغي لكل من أمر بمعروف إذا خاف على نفسه في التصريح أن يُعَرَّضَ. ولو كانت الأحاديث التي لم يحدث بها من الحلال والحرام ما وَسَعَهُ تركها»، وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كشف المشكل: «ولقائل أن يقول كيف استجاز كتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال: (بلغوا عني) وكيف يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما إذا ذُكِرَ قُتِلَ راويه وكيف يستجيز المسلمون من الصحابة الأخيار والتابعين قتل من يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالجواب أن هذا الذي كتبه ليس من أمر الشريعة فإنه لا يجوز كتبها وقد كان أبو هريرة يقول لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فكيف يظن به أن يكتُم شيئاً من الشريعة بعد هذه الآية وبعد أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ عنه وقد كان يقول لهم: (ليبلغ الشاهد منكم الغائب)، وإنما هذا المكتوم مثل أن يقول: فلان منافق وستقتلون عثمان، و(هالك أمتي على يدي أغيلمة من قريش)^(١) بنو فلان فلو صرح بأسمائهم لكذبوه وقتلوه. اهـ كلامه رحمه الله تعالى، وقال في مرعاة المفاتيح: «وأراد بالوعاء الذي لم يبهه، ما كتبه من أخبار الفتن والملاحم وتغير الأحوال في آخر الزمان، وما أخبر به الرسول الله ﷺ من فساد الدين على يدي أغيلمة من سفهاء قريش، وقد كان أبو هريرة يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم، أو المراد الأحاديث التي فيها تبين أسماء أمراء الجور، وأحوالهم، وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكتفي عن بعض ذلك ولا يصرح خوفاً على نفسه منهم، كقوله أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة»، وقال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى وأجزل له الأجر على حديث كتم أي هريرة ﷺ لبعض العلم: «كان في ذلك الجراب أحاديث الفتن التي تكون بين المسلمين فإن النبي ﷺ أخبرهم بما سيكون من الفتن التي تكون بين المسلمين ومن الملاحم التي تكون بينهم وبين الكفار ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك، وقد قال ﷺ: (لو

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد (٣٢٤/٢) والبخاري في الفتن (٢٤٢/٤).

أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتم وتهدمون البيت وغير ذلك لقلتم كذب أبو هريرة)، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم».

وقد كانت رغبة النبي ﷺ أن يهدم البيت وبينه على قواعد إبراهيم ويجعل له بايين، باب يدخل الناس منه، وباب يخرجون منه، ولكن هل طبق النبي ﷺ هذه الرغبة، مع أنها من العلم، وهل بثها بين الناس؟ والجواب: لا، بل بقي البيت على ما هو عليه، فما المانع؟ إنه تحقيق المصالح ودفع المفساد فلما كان تبليغ هذا العلم والقيام به يوجب شيئا من المفساد ويعطل جملا من المصالح كانت المصلحة الدعوية السكوت عنه، وعدم بثه في الناس، فروى الحاكم وغيره عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لهدمت البيت حتى أدخل فيه ما أخرجوا منه في الحجر فإنهم عجزوا عن نفقته وجعلت لها بايين بابا شرقيا وبابا غربيا وألزقته بالأرض ولوضعت على أساس إبراهيم)^(١)، ولما حدث أبا هريرة بقوله: (اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة)، عاد ونهاه عن التحديث بذلك لما راجعه عمر رضي الله عنه^(٢)، وما ذلك إلا لأن إبلاغ العلم لا يكون كيفما اتفق، لا، بل لا بد وأن يكون منظورا فيه إلى تحقيق المصالح ودفع المفساد، لأنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال، ولهذا كان

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٦)، والنسائي في "المجتبى" ٢١٦/٥، وفي "الكبرى" (٣٨٨٦)، وابن

خزيمة (٣٠٢١)، والبيهقي في "السنن" ٨٩/٥، وأحمد (٢٦٠٢٩)

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٩.

السلف يعملون بذلك كثيراً ، فانظر إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى حيث أنكر على أنس ابن مالك رضي الله عنه حين حدث الحجاج بن يوسف بحديث قتل النبي ﷺ للعننين؛ قال لأنس وأنكر عليه: لم تحدث الحجاج بهذا الحديث؟! قال له لأن الحجاج عاث في الدماء ، وسيأخذ هذا الحديث يتأول به صنيعة ، فكان واجباً أن يُكتم هذا الحديث وهذا العلم عن الحجاج ؛ لكي لا يكون في فهمه وعقله - الذي ليس على السواء وليس على الصحة - أن هذا الحديث يؤيده ، أو أن هذا الحديث دليل معه ، فيفهمه على غير فهمه . فالحسن رحمه الله أنكر على أنس رضي الله عنه - وهو الصحابي - تحديثه ، وندم أنس رضي الله عنه بعد ذلك على تحديثه الحجاج بحديث العننين . وحذيفة - قبل أبي هريرة - كتم أحاديث من أحاديث الفتن ، لأنه رأى أن الناس لا يحتاجونها ، والإمام أحمد كره أيضاً التحدث بالأحاديث التي فيها الخروج على السلطان ، وأمر أن تشطب من مسنده ؛ لأنه قال: لا خير في الفتنة ، ولا خير في الخروج وأبو يوسف كره التحديث بأحاديث الغرائب . ومالك رحمه الله كره التحديث بأحاديث فيها ذكر لبعض الصفات ، والمقصود من هذا: أنه في الفتن ليس كل ما يعلم يُقال ، ولا كل ما يُقال لا بد وأن يُقال في كل الأحوال . لا بدّ من ضبط الأقوال ؛ لأنك لا تدري ما الذي سيحدثه قولك؟ وما الذي سيحدثه رأيك؟ وما الذي سيحدثه فهمك؟ والسلف رحمهم الله أحبو السلامة في الفتن ، فسكتوا عن أشياء كثيرة ؛ طلباً للسلامة في دينهم ، وأن يلقوا الله جلّ وعلا سالمين .

وقد ثبت أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال لابنه حين حدّث في القيام ببعض الأمر في الفتنة ؛ قال لابنه: (يا هذا ! أتريد أن تكون رأساً في الفتنة! لا ، لا والله).

فنهى سعد بن أبي وقاص ابنه عن أن يكون سعد أو أن يكون ابنه رأساً في الفتنة ، ولو بمقال أو بفعال ، ولو رآها حسنة صائبة ؛ فإنه لا يأمن أن تكون عاقبتها غير حميدة .

والناس لا بدّ أن يزنوا الأمور بميزان شرعي صحيح ، حتى يَسْلَمُوا ، وحتى لا يقعوا بالخطأ . ثم إن للأعمال وللأفعال وللتصرفات ضوابط لا بدّ من رعايتها ؛ فليس كل فعل يُحمد في حال يُحمد في الفتنة إذا كان سيفهم منه غير الفهم الذي يُراد أن يُفهم منه . وقد أثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قوله المشهور : (ليس كل ما يُعلم يقال ، ولا كل ما يقال حضر أهله ، ولا كل ما حضر أهله حان وقته) ، بل المعروف عنه عليه السلام أنه كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، فليس كل ما يعلم يقال ، وقال مالك رحمه الله تعالى : (لا يكون المرء إماماً وهو يحدث بكل ما سمع) ، وقد كان السلف رحمهم الله تعالى يكرهون تحديث الناس بالمتشابه من العلم ، وكانوا يحذرون من بث الشبه بين الناس حتى ولو كانت مقرونة بالجواب ، خوفاً من فهم الشبهة وتشرب القلب بها وعدم فهم جوابها ، وعن عبد الرحمن بن عوف أنه قال محدثاً عن عمر بن الخطاب عليه السلام : (لو شهدت أمير المؤمنين أتاه رجل فقال : إن فلاناً يقول لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً ، فقال عمر : لأقومن العشية ، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم ، قلت : لا تفعل ، فإن الموسم ، يجمع رعاك الناس ، يغلبون على مجلسك فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها فيطيروا بها كل مطير ، فأمهل حتى تقدم المدينة ، دار الهجرة ، ودار السنة ، فتخلص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار ، ويحفظوا مقاتلتك وينزلوها على وجهها ، فقال : والله لأقومن في أول مقام

أقومه بالمدينة)، فانظر إلى حكمة هذا العاقل الحصيف ذي الرأي السديد، كيف اقترح على عمر رضي الله عنه تأخير الأمر إلى القدوم إلى دار العلم والفهم الصحيح السليم. فهذه القاعدة طيبة جدا في فهم الدعوة والمطلوب فيها على الوجه الصحيح وعن علي رضي الله عنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟)، وفي رواية (أيها الناس، تحبون أن يكذب الله ورسوله؟ حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون)، وقال ابن مسعود: (ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، وفي رواية: (إن الرجل ليحدث بالحديث، فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم الحديث، فيكون عليه فتنة)، وقال أيوب: «لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم»، وعن وهب بن منبه قال: (ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق، يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يحدث كل قوم بما تحمله قلوبهم وعقولهم من العلم).

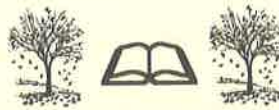
إن الدعوة ليست صراخا في المنابر بشتى الموضوعات أمام من هب ودب، وليست هي قتل عضلات أمام العامة حتى تثبت لهم بأنك لا تخاف ولا تخشى في الله لومة لائم، لا، بل هي قائمة على تحقيق المصلحة الخالصة أو الراجحة، ودفع المفسدة الخالصة أو الراجحة، ولقد قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى قاعدة سد الذرائع، وخرجوا عليها من الفروع ما لا يحصى، ومما ذكره تحتها هذه القاعدة التي نحن بصدد شرحها، فإن كان إبلاغ العلم والدعوة إلى الله تعالى في هذا الأمر المعين في هذه الظروف الحالة لا يحقق المصلحة الشرعية المطلوبة، ولا يدفع المفسدة المطلوب شرعا دفعها، بل لا يكون من ورائه إلا بث المفسد وموت المصالح

فالواجب السكوت، وقد قرر أهل العلم رحمهم تعالى أن إنكار المنكر إن كان سترتب عليه ما أهو أنكر منه فالواجب السكوت وعدم الإنكار، ولو رجعت إلى قاعدة الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى لوجدت أن الفروع عليها هي بعينها الفروع على هذه القاعدة فلا داعي لإعادتها، وعليه: فمن المقرر أنه ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل صحيح صالح للنشر، لقصور العقول أحيانا عن تحمله، أو لسوء التعامل معه، أو لعدم تنزيل الكلام منازلته الصحيحة، وما أجمل ما قاله بعض أهل العلم وهو يتكلم عن بعض الأطروحات وبعض الكتابات التي لم يراع فيها جانب تحقيق المصالح ودفع المفاسد، قال: «وهذا الأمر يتعلق بالقالب الذي يقدم من خلاله العلم، واللغة المستخدمة في التبليغ، ومدى ملاءمة المقام للتحديث بهذا العلم، كما يتعلق بمضمون الخطاب فالناس يسعهم من الجهل ما لا يسع طالب العلم والعالم، فينبغي أن يراعي المتحدث في هذا الباب هذه النقطة، فما يقدمه الباحث في هذا الباب على أنه ظن يظنه بعض الناس أمرا يقينيا قطعيا، وما يورده من أحاديث ولو بأسانيدها ولو مع التنبيه والإحالة على المصادر قد تكون عند البعض صحيحة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد كونها مسبوقة بقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو قلت ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ولا شك أن إشغال الناس بها لا ينفعهم في هذه المباحث وإدخالهم في مثل هذه المضائق خطأ فلديهم من الالتزامات الشرعية ما هو أولى بهم من هذه المباحث فإشغالهم بها لا شك أولى وأنفع فكيف إذا كان في مثل هذه الأطروحات وهذه الكتابات ما يحمل البعض على ترك العمل والقعود انتظارا لخروج مهدي من هنا أو هناك، فكيف إذا كان فيها ما يهيج الجو

لكل مدع للمهدوية مثلاً فيجد له أتباعاً ممن تقاصرت عقولهم وفهومهم عن ملكة التمحيص والنقد، لا شك أن الأمر حينئذ يكون أخطر وأخطر، وكيف إذا كان في هذه الكتابات ما يمهّد الجو للطاعنين في الدين بدعوى معارضة الواقع لواقع النصوص الشرعية فالقوم يربطون الكتاب والسنة بما سيكون على سبيل التفصيل والتنزيل ففلان هو المهدي وفلان هو الدجال وفلان هو القحطاني وفلان هو السفيناني، والناس منصورون في مكان كذا بتاريخ كذا يحده تحديداً زاعماً أن القرآن والسنة قطعي في هذا الباب، فإذا تخلف ما قطع به صار عند بعض الناس فتنة إذ لم يعودوا بالتكذيب لصاحب الكتاب بل عادوا بالتكذيب لله ورسوله والعياذ بالله، وقد وقع شيء من هذا، فله كم من خير ضل وكم من صالح زل بسبب هذه الكتابات»، وقال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من العلم ما لا يؤمر به الشخص نوعاً أو عيناً إما لأنه لا منفعة فيه له لأنه يمنعه عما ينفعه، وقد ينهى عنه إذا كان فيه مضرة له، وذلك أن من العلم ما لا يحمله عقل الإنسان فيضر»، وقال رحمه الله تعالى: «المسائل الخبرية العلمية قد تكون واجبة الاعتقاد وقد تجب في حال دون حال وعلى قوم دون قوم وقد تكون مستحبة غير واجبة وقد تستحب لطائفة أو في حال كالأعمال سواء وقد تكون معرفتها مضرة لبعض الناس فلا يجوز تعريفه بها»، وما أروع ما قاله الإمام الشاطبي: «ليس كل علم يثبت وينشر وإن كان حقاً، وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك، فتنبه لهذا المعنى، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها

فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها، فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لا ثقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية».

وهل سكت النبي ﷺ عن التصريح بأسماء المنافقين وتحديدهم بأعيانهم إلا لأنه لا مصلحة يجنيها الدين بمعرفة أسمائهم، وإنما هي الفتن والقلقل فكان من الحكمة السكوت عن التصريح به، والمهم أيها الداعية المبارك أن تعتمد هذه القاعدة الطيبة المباركة في سيرك في الدعوة إلى الله تعالى، فقد بانت بركتها واتضحت ثمرتها في القديم والحديث، والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الرابعة والثلاثون

﴿ فقه فن التعامل مع نفوس المدعوين ﴾

﴿ مقرب ومحقق لمقصود الدعوة ﴾

أقول: إن الله تعالى لما خلق البشرية جعل لها مفاتيح، وجعل على قلوبها أقفالا، فمن وفقه الله تعالى من الدعاة لمعرفة مفاتيح القلوب فقد أوتي خيرا كثيرا، وهذه النفوس التي فينا لها فن للتعامل معها، فمن فقهه فإن النفوس ستسلم له زمام قيادها في الأعم الأغلب، وفهم هذا الفن، من مهمات الدعوة إلى الله تعالى، ومنه ما يكون سجية في الداعية قد فطره الله تعالى عليه، ولكن منه ما لا يتحقق إلا بالتعلم والتطبيق والصبر والمجاهدة وتعويد النفوس عليه.

ونحن في زماننا هذا والله الحمد والمنة، قد كثرت فيه الدورات التدريبية والتي تخص كيفية التعامل مع هذه النفوس، فالنفوس الصعبة لها مفاتيحها، والنفوس المعاندة لها مفاتيحها، ونفوس الكبراء والأغنياء لها مفاتيحها، ونفوس الفقراء لها مفاتيحها، وهكذا وهذا يحتاج إلى خبرة ودربة وفهم لحياة الناس وواقعهم، وهذه الدورات المنتشرة هنا وهناك لها دورها الكبير في تعريف الداعية لأوضاع النفوس وأحوال القلوب وما يصلح لها من التعامل وما لا يصلح فمعرفة فن التعامل مع هذه النفوس من الأسباب التي توجب قبول الدعوة وله من الثمرات الزكية والعوائد الطيبة على الداعية والمدعو ما لا يحيط بوصفه القلم، وإننا لا نعرف أحدا من الدعاة فقه هذا الفن كما فقهه نبينا ﷺ وصحابته الكرام وسلفنا الصالح، فهم أكمل الدعاة وأكمل

الناصحين، وأكمل من حقق الدرجة العليا في فقه التعامل مع النفوس على مختلف ألوانها وتباين منازلها وإن دراسة السيرة والنظر في تاريخ هؤلاء العظماء لكفيل بأن يزرع في قلبك - إن كنت ذا فهم - هذه المسألة المهمة في الدعوة، وليس الغرب ما يتقن هذا، بل نحن المسلمين أصل الأصول في هذا الباب فالنفوس والأرواح لها مفاتيح، وهذه المفاتيح لا تعرف إلا بمعرفة الطريق الموصل لهذه النفوس، وهذه الطريق هي التي نعنيها بقولنا: (فن التعامل مع النفوس) فليس المراد وصول العلم إلى أذن المدعو فقط بل لا بد من السعي الحثيث في معرفة الأمور التي تفتح قلبه، حتى تنفذ فيه الدعوة إلى الله تعالى، وحتى يكون ذلك أدعى للقبول، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى جملاً من تلك الفنون الجميلة والتي صار لها بالتجربة عظيم الأثر في قلوب المدعوين، ولها من الأدلة الشرعية ما يثبتها، فبالنظر إلى مجموع الأدلة في هذه المسألة وجدنا أن هناك أصولاً في فن التعامل مع النفوس، وذلك في عدة أمور:

الأول: كما ترغب في أن تكون متحدثاً جيداً.. عليك بالمقابل أن تجيد فن الإصغاء لمن يحدثك.. فمقاطعتك له تضيع أفكاره وتفقد السيطرة على حديثه.. وبالتالي تجعله يشعر بالخرج منك ويستصغر نفسه وبالتالي يتجنب الاختلاط بك.. بينما إصغائك إليه يعطيه الثقة ويحسسه بأهميته وأهمية حديثه عندك.

الثاني: حاول أن تتقني كلماتك.. فكل مصطلح تجد له الكثير من المرادفات فاختر أجملها.. كما عليك أن تختار موضوعاً محبباً للحديث.. وأن تبتعد عما ينفر الناس من المواضيع.. فحديثك دليل شخصيتك.

الثالث: حاول أن تبدو مبتسماً هاشأً باشأً دائماً.. فهذا يجعلك مقبولاً لدى الناس حتى ممن لم يعرفوك جيداً.. فالابتسامة تعرف طريقها إلى القلب.

الرابع: حاول أن تركز على الأشياء الجميلة فيمن تتعامل معه.. وتبرزها فلكل منا عيوب ومزايا.. وإن أردت التحدث عن عيوب شخص فلا تجاهبه بها ولكن حاول أن تعرضها له بطريقة لبقة وغير مباشرة كأن تتحدث عنها في إنسان آخر من خيالك.. فهو حتماً سيقيسها على نفسه وسيتجنبها معك.

الخامس: حاول أن تكون متعاوناً مع الآخرين في حدود مقدرتك.. ولكن عندما يطلب منك ذلك حتى تباعد عن الفضول، وعليك أن تباعد عن إعطاء الأوامر للآخرين فهو سلوك منفر.

السادس: حاول أن تقلل من المزاح.. فكثرت تخط من القدر، والمزاح ليس مقبولاً عند كل الناس.. وقد يكون مزاحك ثقيلاً فتفقد من خلاله من تحب.. وعليك اختيار الوقت المناسب لذلك.

السابع: حاول أن تكون واضحاً في تعاملك.. وابتعد عن التلون والظهور بأكثر من وجه.. فمهما بلغ نجاحك فسيأتي عليك يوم وتكشف أقنعتك.. وتصبح حينئذ كمن يبني بيتاً يعلم أنه سيهدم.

الثامن: ابتعد عن التكلف بالكلام والتصرفات.. ودعك على طبيعتك مع الحرص على عدم فقدان الاتزان.. وفكر بما تقوله قبل أن تنطق به.

التاسع: لا تحاول الادعاء بما ليس لديك.. فقد توضع في موقف لا تحسد عليه.. ولا تحجل من وضعك حتى لو لم يكن بمستوى وضع غيرك فهذا ليس عيباً.. ولكن العيب عندما تلبس ثوباً ليس ثوبك ولا يناسبك.

العاشر: اختر الأوقات المناسبة للزيارة.. ولا تكثرها.. وحاول أن تكون بدعوة.. وإن قمت بزيارة أحد فحاول أن تكون خفيفاً لطيفاً.. فقد يكون لدى مضيفك أعمال وواجبات يخجل أن يصرح لك بها، ووجودك يمنعه من إنجازها. فيجعلك تبدو في نظره ثقيلاً.

الحادي عشر: لا تكن لحوحاً في طلب حاجتك.. ولا تحاول إحراج من تطلب إليه قضاؤها.. وحاول أن تبدي له أنك تعذره في حالة عدم تنفيذها وأنها لن تؤثر على العلاقة بينكما.. كما يجب عليك أن تحرص على تواصلك مع من قضاوا حاجتك حتى لا تجعلهم يعتقدون أن مصاحبتك لهم لأجل مصلحة.

الثاني عشر: حافظ على مواعيدك مع الناس واحترمها.. فاحترامك لها معهم.. سيكون من احترامك لهم.. وبالتالي سيبادلونك الاحترام ذاته.

الثالث عشر: ابتعد عن الثرثرة.. فهو سلوك بغض ينفر الناس منك ويحط من قدرك لديهم.

الرابع عشر: ابتعد أيضاً عن الغيبة فهو سيجعل من تغتاب أمامه يأخذ انطباعاً سيئاً عنك وأنت من هواة هذا المسلك المشين حتى وإن بدا مستحسناً لحديثك.. وابتعد عن النيمة.

الخامس عشر: عليك بأجل الأخلاق (التواضع) فمهما بلغت منزلتك، فإنه يرفع من قدرك ويجعلك تبدو أكثر ثقة بنفسك.. وبالتالي سيجعل الناس يحرصون على ملازمتك وحبك. وهذه النقاط منقولة من رسالة في فقه التعامل مع الناس، وهي نقاط طيبة، جرى الله من قالها خير الجزاء، وهي جامعة لأصول فن التعامل مع

الناس، من اعتمدها من الدعاة فإن كلامه وموعظته وتوجيهه سيكون مقبولا بإذن الله تعالى، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آل وصحبه وسلم تسليما كثيرا.



القاعدة الخامسة الثلاثون والسادسة والثلاثون

الدعوة إلى الله تعالى

لا تحد بزمن دون زمان ولا بمكان دون مكان،
وعطاء الداعية لا يحد بزمن ما دام حيا قادرا

أقول: هما قاعدتان متقاربتان، فشرحهما سيكون واحدا فأقول: لقد دأب أنبياء الله تعالى بالدعوة إلى الله تعالى في كل وقت، وعلى كل حال، كما قال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٣﴾ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَغْفِسُوا أَنِّي أَنذَرْتُهُمْ وَاصْرُؤُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٤﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح: ٥-٩].

فقد بذل نبي الله نوح عليه السلام حياته ووقته وجهده في الدعوة إلى الله تعالى، فكانت دعوته هي الهاجس الذي يقلقه، والشغل الذي امتلأ به قلبه، فلا يصرفه عنها تكذيب ولا سخرية ولا رد ولا صدود، وإنما هو العزم الذي لا يفتر، وجذوة النور في همة لا تنطفي، فكان يغشى قومه في الليل والنهار بالدعوة إلى الله تعالى، وكان ينوع الدعوة عليهم سرا تارة وجهرا تارة، فماذا بقي من حياة نبي الله نوح لم يسخره في خدمة دينه ودعوته؟ لا جرم أنها همة قد فاقت الحدود، وانظر إلى نبي الله تعالى يعقوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهو في سياقة الموت وسكراته، يدعو

أبناءه إلى الله تعالى، فقال تعالى عنه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَآلَةَ آبَائِكَ ابْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وهو في سكرات الموت، لم ينس هم الدعوة إلى الله تعالى، ذلك لأن الدعوة لا تعرف زمانا ولا مكانا، فكل الأوقات تصلح للدعوة إلى الله تعالى وكل الأمكنة تصلح للدعوة إلى الله تعالى، ولكنها المهم التي تقوى وتفتر وإلا فالأسباب ميسرة، والظروف صالحة للدعوة، إلا أن المهم والعزائم تنفل بسبب الغفلة وحب العاجلة، وانظر إلى نبي الله تعالى يوسف عليه السلام، وهو في السجن، غريبا مظلوما، ومع هذه الآلام والتهم الكاذبة التي هي كفيلة بأن تشغل القلب والعقل والروح، يقوم في السجن داعية إلى الله تعالى، لأن الدعوة لا تعرف مكانا دون مكان، فكما أن أرض الحرية خارج السجن أرض صالحة للدعوة، فكذلك أرض الحبس والقهر أرض صالحة للدعوة، ولكن أين المهمة التي تفل الحديد كهمة يوسف عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى عنه بعد أن حكى جل وعلا عرض الرؤيا عليه من قبل الشابين السجينين معه، وقبل تفسيرها لهم قال تعالى: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَزْنَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، فالسجن والحال فيه لا تكاد تخفى على العارف بها، ولكن الدعوة لا تعرف مكانا دون مكان، فكل الأمكنة تصلح للدعوة إلى الله تعالى، ولكن مع الترتيب الجيد والمهمة الصادقة والعزيمة التي تقلب العسير يسيرا

بفضل الله تعالى، فكل مكان في الأرض يمكن أن يكون محطة للدعوة إلى الله تعالى،
الولائم والاستراحات ومدرجات الملاعب والحدائق العامة والمتنديات العامة
والخاصة، ومقاهي الانترنت، والأسواق العامة بل وحتى عند الإشارات المرورية،
وفي السجون، وفي محل الوظيفة، وغيرها من الأمكنة، وكذلك في الأزمنة.

فالداعية داعية في حال الصحة والمرض، وفي حال الفراغ والشغل، وفي حال
السراء والضراء وفي حال الفرح والحزن، وفي حال الغنى والفقر، وحتى لو كبرت
سنه وانحنى ظهره فلا يزال داعية إلى الله تعالى، فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة
العمر التي لا بد وأن تكون هاجسا لا ينقطع، فمن كثر تفكيره في الدعوة وصارت
همه وشغله الشاغل فسوف يفتح له من الأبواب فيها ما لا يفتح على غيره وجرب
تجد ما قلته لك صحيحا، والدعوة إلى الله تعالى ليست مرتبطة بالدوام الرسمي ولا
بالعمر الوظيفي فمتى ما تقاعد الداعية تخلى عن دعوته أو فترت الهمة فيها وكثر
التقصير فيها، لا، بل الدعوة هي الوظيفة الحقيقية التي لا نهاية لها إلا الموت،
والدعوة ليست مقصورة على المسجد فقط، ولا على الجهات الرسمية المعنية بهذا
الأمر فقط، بل الدعوة حق لكل مسلم عالم بما يدعو إليه حتى وإن لم يك موظفا
حكوميا، وقد كان النبي ﷺ يدعو إلى الله تعالى في كل مكان، في المواسم
والاجتماعات العامة والخاصة وكان يغشى الكفار في متندياتهم التي يجتمعون فيها
ويخلو بالواحد منهم بل وكان يدعو إلى الله تعالى حتى على ظهر الدابة، كما ورد
بذلك عدة أحاديث، فليس هناك مكان ولا زمان إلا وهو صالح للدعوة، ولكن مع
الجد والعزم والترتيب الحكيم المقرون بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، وقال وهو في

سياقة الموت: (ألا وإن من قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)^(١)، ولما ذكرت له أم سلمة كنيسته رأيتها بأرض الحبشة وكان في سياق الموت ويعاني من سكراته رفع رأسه وكشف خرقة كانت على وجهه وقال: (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)^(٢)، وكان يقول وهو في السكرات أيضاً: (لا إله إلا الله ألا إن للموت لسكرات الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم)^(٣)، ويردها ﷺ، وهو في هذا الوقت الصعب والظروف الرهيبة، ومع ذلك فلا تزال الدعوة إلى الله تعالى هي الهاجس والشغل والهم الوحيد، الله أكبر إنها الدعوة التي لا يحدها زمان ولا مكان، والداعية إلى الله تعالى داعية في بلاده وفي خارج بلاده والمهم أنني أريد أن أبين لك أن الله تعالى قد اختارك أيها الداعية المبارك من بين سائر الناس أن تكون داعية إلى منهجه، ومرشداً وهادياً إلى سبيله وصراطه المستقيم، وهذه نعمة كبيرة، فلا بد وأن تشكر الله تعالى على هذه النعمة، وأن تقوم بهذه الأمانة الكبيرة خير قيام، وأن تقدرها قدرها، وأن تعرف حق الله تعالى فيها، وأن لا يشغلك عنها زوجة ولا ولد

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (٥٣٢) في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٤٢٧) و (٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨) (١٦)، والنسائي في

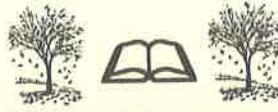
"المجتبى" ٤١ / ٢، وأحمد (٢٤٢٥٢)

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٥١٥٦) في الأدب، ورواه أيضاً ابن ماجه رقم (٢٦٩٨) ورواه أحمد في "

ولا وظيفة ولا مال ولا تحصيل معاش ولا خوف من أحد، فكن داعية إلى منهج الله تعالى في كل مكان وفي كل زمان على حسب الطاقة والوسع، وكما قال المتنبّي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة السابعة والثلاثون
الدعوة الصحيحة تقوم
على ركني التصفية والتحلية

أقول: إن الله تعالى قد بعث رسله للناس لتحقيق عدة أمور، وهي التي يسميها أهل العلم رحمهم الله تعالى بوظائف إرسال الرسل وهي كثيرة ويجمعها لنا عدة أمور:

فمن ذلك: البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥].

ومن ذلك: الدعوة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن ذلك: التبشير والإنذار، قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٦].

ومن ذلك: إصلاح النفوس وتزكيتها، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَیْ ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

ومن ذلك: تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة، ويدل عليها كل آية فيها الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ومتابعة الآباء على الباطل وتفنيد عبادة الأصنام وهي كثيرة جداً.

ومن ذلك: إقامة الحجّة، قال تعالى: ﴿لَعَلَّأ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومن ذلك: سياسة الأمم وفصل الحكومات بين أفرادها بالحق والعدل، قال تعالى: ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: (كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي بعث نبي)^(١)، وحيث كانت هذه الأمور هي مقاصد بعثة الرسل والوظيفة التي أمر الرسول بها، فهي بعينها ما يطلب من الداعية إلى الله تعالى، لأن العلماء هم الدعاة، وهم ورثة الأنبياء، فالداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يكون على الطريقة التي كانت عليها الرسل، ومن المعلوم بإجماع المسلمين أن النبي ﷺ هو آخر الأنبياء وآخر الرسل، فلا نبي بعده، فأقام الله تعالى أهل العلم من أمته رحم الله تعالى أمواتهم وثبت أحياءهم مقام الأنبياء في الأمم السابقة، وإذا رأيت المقاصد السابقة رأيتها تدور بين أمرين:

(١) أخرجه البخاري ٦ / ٣٦٠ في الأنبياء، باب ذكر بني إسرائيل، ومسلم رقم (١٨٤٢) في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، وأحمد (٢/ ٢٩٧).

الأول: إما فكر أو عقيدة فاسدة تربي ونشأت عليها الأمم فبعث النبي لتقويمها وتصحيحها، وإما غرز العقيدة الصحيحة والتربية على التعبد الصحيح والعمل المتفق مع ما يريده الله تعالى من العباد، فالأول هو ما نعينه بمبدأ التصفية.

والثاني: هو ما نعينه بمبدأ التحلية، ووظيفة الداعية إلى الله تعالى تقوم على هذين المبدأين، والأمرين المهمين، والتي هي خلاصة الدعوة إلى الله تعالى، فلا بد من إخراج المخالفات من الأفكار والعقائد والأعمال الفاسدة من قلوب المدعوين، وزرع الأفكار والعقائد والأعمال الصحيحة في القلوب، والأمر عسير ولكنه يسير مع توفيق الله تعالى وصدق النية والعزيمة والإصرار على التصحيح والمواصلة وعدم الانقطاع.

وعليه: فلا بد من اقتلاع الشرك من القلوب والأعمال والعقول، وهو التصفية، وزرع التوحيد الصافي والعقيدة الصحيحة المتفقة مع الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وهو التحلية، ولا بد من نسف البدعة من واقع الناس وتكريهم فيها وبيان عظم مضادتها للدين والعقل وبيان العواقب الخطيرة المترتبة عليها، وهو التصفية، ومن ثم تقرير السنة في القلوب وتحبيب الناس في السنة والعمل بها، وتحبيب الناس في علماء أهل السنة وتبغيضهم لدعاة أهل البدع، وهو التحلية، ولا بد من تحذير الناس من المعصية وبيان الأدلة في النهي عنها، والأدلة التي تبين العقوبة على فاعلها وبيان أثرها القبيح السيئ على الفرد والمجتمع والكون، وفي العاجل والآجل، وهو التصفية، ومن ثم دعوة الناس إلى الطاعة والتعبد الصحيح والتقرب إلى الله تعالى

بأنواع القربات، وهو التحلية، ولا بد من هدم الأفكار المنحرفة المعوجة التي بنيت على خلاف الحق والتي تدعو أصحابها إلى الأعمال المخالفة للكتاب والسنة، لا بد من إخراج هذه الأفكار الفاسدة ومحاربة هذه الآراء الشاذة الكاسدة من القلوب والعقول، وهو التصفية، ثم بث الأفكار الصحيحة المتفقة مع الكتاب والسنة.

فإن تقويم الأفكار وتصحيح الفهم من أهم الأمور، لأن كل المخالفات التي ظهرت وتظهر ولا تزال ستظهر في البلاد والعباد إنما سببها الفهم المغلوط والتفكير المنكوس الذي لم يبين على الفهم الصحيح، فتقويم الفكر وتصحيح الفهم من الأمور الكبيرة الخطيرة التي لا بد وأن تكون من مقدمات اهتمامات الداعية إلى الله تعالى، فكل الفرق المخالفة لأهل السنة من الخوارج إلى آخر فرقة إنما أتيت من الفهم المنكوس المغلوط الفاسد، فمبدأ التصفية بإزالة تلك الأفكار، ومبدأ التحلية بزرع الأفكار الصحيحة من أكبر مهمات الداعية إلى الله تعالى، ولا بد من نسف الأحاديث الضعيفة والمرويات الواهية والنقولات المكذوبة الموضوعة من بطون الكتب الحديثية والفقهية والسلوكية وغيرها وبيانها للناس، وبيان أسباب ضعفها وتحذير الناس من العمل بها، وهذا من أعظم ما يخدم به دين الله تعالى، ومن أعظم ما ينصر به النبي ﷺ، وهو مبدأ التصفية، ومن ثم لا بد من بث الأحاديث الصحيحة وتيسير فهمها للناس، ودعوة الناس إلى الاقتصار في أخذ أمورهم الدينية اعتقاداً وعبادة ومعاملة عليها، وهو مبدأ التحلية، ولا بد من تحذير الناس من الأخلاق الفاسدة المذمومة، والعوائد الكاسدة والأعراف والسلوم المخالفة للدين والنقل والفطرة السليمة والعقل الصريح، لا بد من تحذير الناس من سفاسف

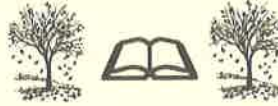
الأخلاق وترهات التصرفات، وهو التصفية، ومن ثم غرز الأخلاق الطيبة والدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة النبيلة التي جاء بها الكتاب والسنة، فالتحذير من سوء الأخلاق هو مبدأ التصفية، والأمر والدعوة والترغيب في محاسن الأخلاق ومعالي الأمور هو مبدأ التحلية.

ولا بد من بيان الشبه التي يعتمد عليها أهل الباطل، وهو مبدأ التصفية، ومن ثم لا بد من كسرها على دليل الكتاب والسنة وإزهاق روحها بسيف الحق، وهو التحلية، ولا بد من دعوة الناس إلى اطراح ما اعتادوه من الأمور التي تخالف الكتاب والسنة من القنوت التالفة والمتابعات السخيفة والاهتمامات الساجدة، وهو التصفية، ولا بد مع ذلك من دلالة الناس على البدائل الطيبة النافعة المشروعة، والتي لا تجني منها الأمة أفرادا وجماعات إلا كل خير، وهو التحلية، ولا بد أيضا من تحذير الناس من القدوات السيئة، وإخراج محبتهم من القلوب، من الاقتداء بمطرب أو ممثل أو لاعب كرة، أو غير ذلك ممن يتخذهم كثير من الناس قدوات لهم في أعمالهم وهديبهم، فهذه القدوة التالفة تزرع الأخلاق المذمومة، وتورث أمورا لا تحمد عقباها على الأمة.

فالاهتمام بإخراج القدوة الطالحة هو مبدأ التصفية، ومن ثم فلا بد من زرع القدوة الصالحة في القلوب، ودلالة الناس على القدوة الصالحة الناصحة، والتي لا تجني الأمة من الاقتداء بهم إلا كل خير ونور وصلاح في العاجل والآجل، وهم الأنبياء والصحابه الكرام والسلف الصالح والأئمة الذين هم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، فاقتلاع القدوة الطالحة من القلوب هو مبدأ التصفية، وزرع

القدوة الصالحة وتحبيب الناس فيها هو مبدأ التحلية، فأنت ترى أيها الداعية المبارك الموفق أن عمل الداعية إلى الله تعالى يدور على مبدأي التصفية والتحلية، فهو كالطبيب، فإن عمل الطبيب يدور على إخراج المادة الفاسدة التي أوجبت التلف والألم، وزرع المادة الطيبة التي تزيل هذا الألم وتذهب أثره.

فكما أن للأبدان طبيبها، فللقلوب طبيبها، وكما أن للآلام الحسية علاجها فللأدواء المعنوية شفاؤها، فالدعاة هم أطباء القلوب، وطبهم هو أنفع الطب وخير الطب، لأنه طب يورث جنة عرضها السموات والأرض، فالأمر كبير، والنتائج طيبة، ولكن يحتاج إلى صبر ومصابرة وجهد ومجاهدة وكثرة استعانة بالله تعالى، ويحتاج إلى عزيمة صادقة وعمل دؤوب وتخطيط حكيم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



القاعدة الثامنة والثلاثون
لا يأس من هداية أحد،
كما أنه لا أمان من ضلال أحد

أقول: إن الله تعالى قد وكل بكل واحد منا قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويعده بالخير، وقرينه من الشياطين يأمره بالشر ويعده بالكذب والبهتان، قال النبي ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ)، قالوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِالْحَقِّ) ^(١)، وقد ورد الدليل بأن للشيطان لمة بابن آدم، وللشيطان لمة، فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فيإعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فيإعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله) ^(٢).

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (٢٨١٤) في صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأحمد (٣٨٥/١) (٣٦٤٨) والدارمي ٣٠٦/٢ والطبراني في "الكبير" (١٠٥٢٣) وابن حبان (٦٤١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩/٥)، رقم (٢٩٨٨) وقال: «حسن غريب». وفي بعض النسخ: «حسن صحيح غريب»، وأخرجه النسائي في الكبرى ٣٠٥/٦، رقم (١١٠٥١) وابن حبان في صحيحه رقم (٤٠).

وعليه: فما دام العبد لا يزال في هذه الحياة فلا يأس فيه للعودة إلى الحق إن كان ضالاً بعيداً عن الهدى، ولا أمان عليه من الانتكاسة والضلال إن كان مهتدياً، فما دامت مادة الملك والشيطان تعتلجان في قلبه وتنزلان على روحه، فإنه إن غلبت مادة الملك صار العبد في منعة وهداية، وإن غلبت مادة الشيطان صار العبد في شقاء وغواية، فعلى الداعية إلى الله تعالى أن لا ييأس من هداية أحد، مهما بلغ في الضلال ما بلغ، ومهما بلغ في البدعة والمخالفة ما بلغ، فما دامت الروح بين جنبيه فالهداية ممكنة، وإياك أن تيأس من واقع أحد من الناس مهما كان في الغواية والضلال والبعد عن الله تعالى، فكم من ضال بعيد عن الحق والهدى قد اهتدى وصار من أعوان الحق وأنصار السنة بكلمة واحدة، لا تستعظم هداية أحد أو توبته، ولا تتصور أنها بعيدة عنه أو مستحيلة أبداً فكل إنسان فيه بذرة صالحة يحتاج من يحياها في قلبه ويوقظها في روحه، وتذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من أعدى أعداء رسول الله ﷺ وحاول قتله، حتى لما طمع بعض الناس في هدايته استبعدها آخرون، حتى قال قائلهم: (لو أسلم حمار آل الخطاب ما أسلم عمر)، وشاء الله أن يسلم، ويصبح حصناً من حصون الإسلام المنيعة، فليس هناك شيء عظيم على الله فتأمل فقلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء جل وعلا، بل اليأس من هداية أحد أظنها من جملة الذنوب، لأنها نابعة من اليأس من روح الله تعالى وفضله على هذا المدعو، وفي الحديث الصحيح: (من قال هلك الناس فهو أهلكهم)^(١) قال مالك

(١) حديث صحيح، رواه مسلم رقم (٢٦٢٣) في البر والصلة، باب النهي عن قول: هلك الناس،

الموطأ ٢ / ٩٨٤ في الكلام، باب ما يكره من الكلام، وأبو داود رقم (٤٩٨٣) في الأدب، باب لا

يقال: خبث نفسي، وأحمد (٢/ ٢٧٢) والبخاري في الأدب المفرد (٧٥٩)

رحمه الله تعالى: «إذا قال ذلك تحزناً لما يرى في الناس، يعني في دينهم فلا أرى به بأساً، وإذا قال ذلك عجباً بنفسه، وتصاغراً للناس، فهو المكروه الذي تُهي عنه»، ذكره أبو داود في سننه، وقال أبو سليمان الخطابي: معنى هذا: «ألا يزال الرجل يعيب الناس، ويذكر مساوئهم، ويقول: قد فسد الناس، وهلكوا ونحو ذلك من الكلام، وإذا فعل الرجل ذلك، فهو أهلكتهم وأسوؤهم حالاً فيما يلحقه من الإثم في عيبتهم، والإضرار بهم، وربما أذاه ذلك إلى العجب بنفسه، ويرى أن له فضلاً عليهم، وأنه خيرٌ منهم، فيهلك».

وأذكرك أيها الداعية بالحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: (إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر كأنه يقول: مذنب، فجعل يقول: أقصر أقصر عما أنت فيه، قال: فيقول خلني وربي، قال: حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت علينا رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أبداً، ولا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أنتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي، فقال: لا يا رب قال: اذهبوا به إلى النار)، قال أبو هريرة: (والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)^(١).

فالحذر الحذر من هذه الكلمة القبيحة السيئة، وقد كان فرعون لعنه الله من أفجر الناس، ومع ذلك فقد بعث الله تعالى له نبيين كريمين، موسى وهارون عليهما وعلى

(١) الحديث رواه الإمام أحمد ٢/٣٢٣ و٣٦٣، وأبو داود رقم (٤٩٠١) في الأدب باب في النهي عن

نبينا الصلاة والسلام وأمرهما أن يقولوا قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى، ومن ذا يكون كفرعون في طغيانه وجبروته وكفره، ومع ذلك يأمر الله تعالى موسى وهارون أن يقولوا له الكلمة الطيبة اللينة، لعل ذلك يكون سبباً في هدايته، أي أن الأمل فيه لم يفقد، ولا يزال طريق الهداية مفتوحاً أمامه، ولكنه أبى وتجبر حتى أهلكه الله تعالى، وهل نحن نفقد الأمل فيمن هو دونه من أهل الذنوب والمعاصي، ولكنها النفس الأمارة بالسوء والشيطان الذي يقنط القلوب من بعض الناس، فلا تأس من هداية أحد، وقد كان النبي ﷺ يأمل الهداية من كل أحد حتى لكان يجلس مع عتاة الكفرة يدعوهم إلى الله تعالى، وكان يغشى نواديهم وأسواقهم، وهم من هم في الكفر والمعاندة، ولكنه الأمل الذي لا بد وأن يكون في قلب الداعي إلى الله تعالى، فإنه متى ما انطفأ هذا الأمل فسيحصل اليأس من إصلاح الواقع، وهو الأمر الذي لا نريد أحداً من الدعاة أن يصل له، إنه لا يجوز أن نسحب بساط الهداية من أحد كائناً من كان، إلا من ختم الله تعالى على قلبه وأخبر عن عدم هدايته، كإبليس، فهذا لا نفع فيه، وأما غيره، فأين الدليل الدال على عدم هدايته، أعندنا برهان من الله تعالى أن فلاناً لن يهتدي، ولذلك فالقول الصحيح أن غلبة الظن بعدم هداية المدعو ليس بعذر في التقاعس عن دعوته مع أنه لا يجوز أصلاً أن يغلب على ظننا عدم هداية أحد مهما بلغ في الكفر والعدوان، وأوصيك بالدعاء، فالدعاء الدعاء أيها الدعاة، فإنه مفاتيح القلوب.

فكم من دعوة صادقة صارت سبباً في هداية الطغاة والمعاندين ممن كنا لا نحسب لهدايتهم حساب، واحذر كل الحذر من العبارات التي يطلقها أهل اليأس والكسل

كقولهم: (فسد الزمان)، أو كقولهم: (وهل أنت وكيل آدم على ذريته)، أو كقولهم: (السيل عرمرم، وأنت لا تقدر على منعه)، أو كقولهم: (عليك بخاصة نفسك)، ونحو هذه العبارات التي لا يراد منها إلا تفتير الهمم، وكسر العزائم في الدعوة إلى الله تعالى، والواقع والتاريخ يشهد بخلافها، بل الأدلة تشهد بخلافها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فهذا شأن بعض الناس هو لا يدعو، ولا يترك الدعاة في طريق دعوتهم حتى يفتر همهم عن الدعوة بتلك العبارات، وإن بعض الناس إذا رآك مهتماً بدعوة أحد قال لك: أو لم تسمع إلى قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فيقرأها ويحملها على غير محلها، وقد قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ الناس إذا رأوا منكراً فلم ينكروه أَوْشَكَ أَن يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ)^(١).

فالدعوة والاستمرار عليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الهداية التي يشملها عموم قوله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فليست الهداية هي التقاعس عن الدعوة أو ترك الناس وحالهم في عمية الجهل والتخبط في ظلمات الشبهات والشهوات، هذا ضلال وشقاء وليس بهداية، قال النووي رحمه الله تعالى: «وهذه الآية الكريمة

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين، أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود (٤٣٣٨)، والمروزي (٨٦)

و(٨٧) والبخاري (٦٥)، وأبو يعلى (١٣٢)، وابن حبان (٣٠٤).

مما يَغْتَرّ بها كثير من الجاهلين ويحملونها على غير وجهها، بل الصواب في معناها: أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به فلا يَضُرّكم ضلالة مَنْ ضلّ. ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وإن نوح عليه الصلاة والسلام تعتبر حياته أعظم مدرسة للدعاة إلى الله تعالى، وللذين يريدون أن ينشروا توحيد الله، فإن نوحاً مكث تسعمائة وخمسين عاماً كان حصيلته ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ويقال له بعد هذا الجهد الطويل. ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: ٣٦]، ويقدر الله بعد هذا الجهد الذي يتعب من أجله نوح في الليل والنهار وفي السر والجهر، وفي مجتمعاتهم وفي أفرادهم، حتى أصبح القوم كلما رأوه استغشوا ثيابهم وغطوا وجوههم، لا يريدون أن ينظروا إليه، ووضعوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون أن يسمعوا دعوته، وهم يعلمون ما عنده، ولا يريدون أن يقبلوا منه إطلاقاً، ومع ذلك يستمر ويستمر، كأنها تربية للأنبياء من بعده، ولنا نحن وللدعاة إلى قيام الساعة أننا لا نياس من هداية أحد كائناً من كان. إن كثيراً من الأحبة قد ينصح أخاه أو قريبه في معصية، وتراه يقطع الأمل بمجرد أن يقول له: لا تنصحنى، فإني أعرف ولا أقبل منك شيئاً، وهذا نعتبه خلاف ما كان عليه أنبياء الله ورسله.

والتاريخ القديم والمعاصر ممتلئ بالنماذج التي تصور كثيراً من الناس أنه لا فائدة من نصحتها أو التأثير عليها أو الطمع في هدايتها، وإذا بها تتوب وتعود وينصالح حالها، ولا يخفى ما في يأس الإنسان من هداية أحد أو رجوعه عن الباطل من سوء ظن بالله أنه لا يقدر على هداية ذلك الإنسان أو تدركه رحمته، فعليك ألا تيأس، وتحبب إلى أخيك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولن تعدم أثر ذلك الرفق واللين

أبدًا، والله معك، كما قال: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وأبشر بالخير العظيم على صبرك وجهادك في إصلاح الناس، حتى ولو لم تصل النتائج إلى ما تريد، فأنت مسئول عن إيصال الخير للغير، ولست مسئولاً عن قبوله للخير، كما قدمنا، لذلك نقول دائماً: لا تيأس من الناس مهما بدرت منهم المعاصي والمخالفات والأخطاء، واعتبر أنهم أمل هذه الأمة، وأنهم في يوم من الأيام سوف تفتح لهم أبواب التوبة، وسوف تراهم صادقين مخلصين، تائبين متوضئين، ألا ترى أن النبي ﷺ لما قال له ملك الجبال: لو شئت أطبقت عليهم الأخشيين، مع أنه ﷺ قد عانى منهم الأمرين ولاقى منهم ما لم يلاقه أحد، ومع ذلك يقول: (لا، بل استأن بهم، فإني أرجو الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)^(١)، إنه الأمل الذي لا ينقطع، إنه حسن الظن بالله تعالى، إنه الداعية الذي لا ينظر في خاصة نفسه وما حصل له، بل همه هداية الناس وإصلاح الناس.

إن اليأس من إصلاح واقع الناس أو واقع أحد من الناس من الأمور التي تنبئ عن عجز في قلب الداعية إلى الله تعالى، وعن ضعف في المهمة، وعن سرعة استسلامه للظروف، وعن نوع سوء ظن بالله تعالى، فالداعية في حرب مستمرة مع هذه الواردات التي يلقيها الشيطان على قلبه حتى يخرجها عن دائرة الأمل في الإصلاح، فلا ترفع راية الهزيمة، ولا تخضع لهذه الواردات، وكن قوي العزيمة، ماضي المهمة قريب الرجاء في الله تعالى، بعيد اليأس، نشيط النفس في الإصلاح

والإصلاح، ولا تنظر إلى الحال الراهنة، ولكن انظر إلى فسحة الأمل واتساع الأفق بالخيرات والفرج، وازرع في قلبك أن الله تعالى قادر القدرة الكاملة على إصلاح القلوب، إذ هي خلق من خلقه، لا تخرج عن قهره ولا عن ملكه ولا عن سلطانه، ولا تصرفه جل وعلا، فمتى ما استعصى عليك شيء منها فابتهل إلى الله تعالى بالتضرع والدعاء وانطرح بين يديه وأبشر بالفرج، ثم على الداعية أن ينظر في واقع استجابته لله تعالى، لأن الله تعالى يجازي العبد بجنس عمله، كما تقرر في القواعد أن الجزاء من جنس العمل، فلعل السبب في عدم الاستجابة لك هو التقصير الصادر منك في الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ، فليس اللوم على المدعو دائما، بل قد يكون اللوم في عدم الاستجابة يكون في بعض الأحيان من الداعية نفسه، فلا نعلق تقصيرنا على الناس، ونلوم الناس دائما، بل نحن لا بد وأن نراجع أنفسنا ونحاسبها هل نحن نسابق في الاستجابة لله تعالى إذا دعانا لما يحيينا؟ هل نحن صدقنا معه في دعوة الناس؟ هل صفت قلوبنا في دعوتنا من حظوظ الدنيا؟ ذلك لأنه قد يكون تخلف استجابة الناس لنا بسبب تخلفنا أو تباطؤنا عن الاستجابة لربنا جل وعلا، وكلنا ذلك الرجل المقصر المذنب الذي يحتاج إلى التوبة في كل آن وحين، ثم أضيف لك أمرا آخر، وهو: أن الشيطان - نعوذ بالله تعالى منه - ما فتى يسعى بكل ممكن وكل عزيمة وكل همة على إضلال المهتدين، وكذلك أعوانه وأتباعه من شياطين الجن والإنس ما قصرُوا في السعي الخبيث في إخراج الناس من النور إلى الظلمات.

فكم، وكم من الجهود التي بذلت في إضلال الخلق، وكم، وكم من الأموال التي أنفقت في ذلك، بلا توان ولا يأس ولا فتور ولا شكوى فياسبحان الله، ونحن

على أننا الدعاة إلى الحق والناس في حاجة ماسة إلى دعوتنا، وهم غرقى يفتقرون إلى من يمد لهم يد الإنقاذ من بحار الشبهات ومستنقعات الشهوات، ثم نفتر ونياس، ونستسلم من أول الأمر، لا، والله، هذا ليس من طبع المؤمن الواثق بربه، فكما أن الشيطان قد أقسم بأنه سيأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أياننا وشمائنا حتى يخرجنا عن دائرة الهدى والشكر، فنحن معاشر الدعاة لا بد وأن نأقّي المدعوين من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وشمائهم حتى نرجعهم إلى دائرة الهدى والشكر.

فالحرب بالحرب والقوة بالقوة، والدعوة بالدعوة، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكما أنه يدعو حزبه بكل ما أوتي من قوة ليكونوا من أصحاب السعير، فنحن - إن شاء الله تعالى - سندعو الأمة لما يوجب لهم بفضل الله تعالى أن يكون من أصحاب النعيم المقيم والدرجات العلى في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالحذر الحذر من أن يخالط اليأس القلوب.

والحذر الحذر من رفع راية الهزيمة، فالحرب سجال، والأيام دول، والله ناصر دينه ومعل كلمته، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة التاسعة والثلاثون

خطاب الداعية لا بد وأن يكون مستمداً
من الكلمة الطيبة والقول اللين

أقول: قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال تعالى لموسى وهارون وقد بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثم أقول: إن الدعوة أيها الأجيال مبناها على حسن الخطاب، فإن حسن الخطاب يسرق القلوب، ويشرح الصدور ويفتح الأفهام، ويهدي النفوس إلى الاستماع، ويبسط النفوس، فهو - فطرة - محب للنفوس وقريب إلى الأرواح، لا تململ من سماعه الأذان، ولا تمجج العقول، إن حسن الخطاب له دوره الكبير في الاستجابة للداعية.

وقد أمر الله تعالى به في الآيات السابقة الذكر، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، فحسن الخطاب ولين الكلام مطلوب في الدعوة حتى وإن بلغ المدعو

ما بلغ في العتو والتكبر والتجبر، كما أمر الله تعالى به موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لما بعثهما إلى فرعون، فلين الخطاب والكلمة الطيبة لها آثارها الطيبة وعوائدها الحميدة على القلوب والأرواح، فكم من ضال قد اهتدى بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتي هي أحسن، ولذلك فقد كان القرآن الكريم في الصدارة والمرتبة الأعلى في هذا الشأن، فإنه أصدق الكلام وأحسن الكلام وأعذب الكلام، ذلك لأنه كلام الله تعالى، والذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولذلك فقد كان المشركون إن استمعوا له أخذ بمجامع قلوبهم الأخذ الكبير، فما انفكوا عن سماعه إلا وقد عرفوا الحق وعلموه، ولكنهم يأبون الاعتراف لكبر في صدورهم ما بلغوه، وما هم ببالغيه، فخطاب الداعية لا بد وأن يكون منبثقا من هدي الكتاب والسنة، لأنها خير الكلام وأصدق الكلام، كما قال ﷺ: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ) ^(١)، ثم لا بد وأن يكون الخطاب في الدعوة رصينا موثقا ذا حلاوة في عباراته، بعيدا عن التقعر في الكلام والتشديق في اختيار الألفاظ الغريبة التي تتعب الفهم، والتنطع في الأساليب، فعن أبي هريرة رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: الثَّرَثَارُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ، الْمُتَفَيِّهُونَ أَفَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخِيَارِهِمْ، أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا) ^(٢)، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: «قُلْتُ: الثَّرَثَارُ: الْكَثَارُ فِي الْكَلَامِ وَالْمُتَفَيِّهُ: الَّذِي يَتَوَسَّعُ فِي الْكَلَامِ وَيَفْهَقُ بِهِ فَمَهُ»، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: «الْفَهَقُ: الْإِمْتِلَاءُ». وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٢٥٢) والبخاري في الأدب المفرد (١٣٠٨) والبيهقي في الأدب (٥١٩).

(إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَليغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَاقِرَةُ بِلِسَانِهَا) (١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (هلك المتنطعون) - قالها ثلاثاً - (٢).

فالتأدب بآداب الكلام في الإسلام من مهمات الخطاب في الدعوة إلى الله تعالى، ثم لا بد وأن يكون حديث الداعية تفوح منه روائح الخوف على المدعو، والشفقة عليه، والرغبة في هدايته ومحبة الخير له، وأنه يحب له ما يحبه لنفسه، وأنه لا يريد من وراء دعوته إلا النصح والخير له في العاجل والآجل، فإن المدعو إن اشتتم هذه الرائحة من كلام الداعية لانت نفسه للقبول، وأقبل قلبه على الفهم والاستماع، ولو نظرت إلى ما يصدر به الأنبياء دعوتهم لأهمهم لتبين لك جلياً أهمية هذا الأمر، فإنهم كانوا يقولون لأهمهم «يَتَقَوَّمُ»، وهذا من إظهار العلاقة والرابطة، وقال الله تعالى عن النفر من الجن لما أسلموا وولوا إلى قومهم منذرين: «يَتَقَوَّمَنَّا» وهذا من لين الخطاب في الدعوة إلى الله تعالى، وقال تعالى عن موسى لما بعثه إلى فرعون: «أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» ﴿٢٠٦﴾ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكُبَ ٱلْكِبْرَ وَهُدْيُكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ [النازعات: ١٧-١٩].

أيها الناس، انظروا إلى هذه الكلمات الطيبة الموجهة إلى أعتى عتاة الأرض - فرعون - أي هلم وأقبل إلى الأمر الذي تحصل به زكاتك وفلاحك في الدنيا

(١) أخرجه الترمذي رقم (٥٠٠٥) في الأدب، باب ما جاء في المشدق في الكلام، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٢٨٥٧) في الأدب، باب ما جاء في الفصاحة والبيان وأحمد في "المسند" رقم (٦٥٤٣) وإسناده حسن.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٧٠) في العلم، باب هلك المتنطعون، وأبو داود رقم (٤٦٠٨) في السنة، باب في لزوم السنة، وأحمد (٣٨٦/١) وهو حديث صحيح.

والآخرة، هلم إلى الأمر الذي تحصل به طهارتك في الباطن ويصفو به قلبك لله تعالى، فلم يأت الأمر بالدعوة مباشرة، وإنما كان الأمر على وجه السؤال المقرون بالعلة والبشارة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تَزَكَّى به، أي: تسلم وتطيع»، وهل أدلك على عبادة ربك الذي خلقتك وأنعم عليك فيوجب لك ذلك الخشية والإنابة، هذا الكلام اللين الطيب يقال لفرعون، وما أظن أحدا قد بلغ مبلغ فرعون، وما أظن أحدا من الدعاة الآن ولا قبل الآن ممن ليس بنبي قد بلغ مبلغ النصح كموسى، فإن تصورت ضلال أحد فلن يكون كضلال فرعون، وإن تصورت نصح أحد فلن يكون كنصح موسى عليه السلام، فإن كان فرعون يقال له هذا الكلام الطيب الجميل العذب فكيف بغيره من أهل الضلال وإن كان موسى عليه السلام يؤمر في دعوة هذا الفاجر الشقي بالكلمة الطيبة والقول اللين فكيف بغيره من الدعاة، لا جرم أنه مطلوب فيهم الطلب المؤكد.

ويحكى أن بعض أهل العلم دخل على بعض الخلفاء ينصحه، فأغلظ عليه في الدعوة والنصح، فقال له هذا الخليفة: إنك لم تبلغ في النصح مبلغ موسى عليه السلام، ولم أبلغ في الضلال والمخالفة مبلغ فرعون، وقد قال تعالى له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، والله أعلم.

أيها الدعاة الكرام: لقد كان الرسول ﷺ لين الكلام بشوش الوجه، وكان ﷺ متواضعا محببا إلى الكبير والصغير، يقف مع العجوز ويقضي غرضها، ويأخذ الطفل ويحمله، ويذهب إلى المريض ويعوده، ويقف مع الفقير، ويتحمل جفاء الأعرابي، ويرحب بالضيف، وكان إذا صافح شخصا لا يخلع يده من يده حتى يكون

الذي يصفحه هو الذي يخلع، وكان إذا وقف مع شخص لا يعطيه ظهر حتى ينتهي من حديثه، وكان دائم البسمة في وجوه أصحابه عليه السلام لا يقابل أحداً بسوء ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ لَهُمْ^١ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فإذا فعل الإنسان ذلك كان أحب إلى الناس ممن يعطيهم الذهب والفضة. لا شك أن الكلمة الطيبة والعبارة الحسنة تفعل أثرها في النفوس، وتؤلف القلوب وتذهب الضغائن والأحقاد من الصدور.

أيها الداعية الموفق: إن الشريعة المباركة جعلت الكلمة الطيبة من جملة الصدقات، فقال عليه الصلاة والسلام: (الكلمة الطيبة صدقة)^(١)، وما ذلك إلا لعظم وقعها على القلوب وشدة محبة النفوس لها، وأن لها دورها الكبير على القلب والروح في القبول والاستجابة، واعلم بارك الله فيك أن القول هو الأصل في تبليغ الدعوة إلى الله فالقرآن - وفيه معاني الدعوة إلى الله - هو قول رب العالمين نزل به الروح الأمين على محمد عليه السلام ليكون به التبليغ قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وكان تبليغ رسول الله لرسالة ربه للناس بالقول، قال تعالى مخاطباً رسوله وأمرأه أن يقول للناس: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وكذلك أمر الله رسله أجمعين بتبليغ أقوامهم رسالة ربهم بالقول المبين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ آعْبُدُوا

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٢٧٠٧) ومسلم (١٠٠٩) وأحمد (٨١٨٣) وابن حبان

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ» [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ 'يَفِرَّعُونَ مِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ آلْعَالَمِينَ» [الأعراف: ١٠٤].

فلا يجوز للداعي أن يغفل مكانة القول في تبليغ الدعوة ولا أثر الكلمة الطيبة في النفوس. فالقول إذن هو الوسيلة الأصيلة في إيصال الحق للناس. وقد نص أهل العلم رحمهم الله تعالى على أن القول في الدعوة يجب أن يكون واضحاً بيناً لا غموض فيه ولا إيهام، مفهوماً عند السامع لأن الغرض من الكلام إيصال المعاني المطلوبة إلى من يكلمه الداعي فيجب أن يكون الكلام واضحاً غاية الوضوح.

ولهذا أرسل الله رسله باللسنة أقوامهم حتى يفهموا ما يدعونهم إليه ويستطيعون بيانه إليهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وجعل الله تعالى وظيفة الرسل الكرام التبليغ المبين الواضح لتقوم الحجة على المخاطبين، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمَنِتْ﴾ [النور: ٥٤]، ومقياس الوضوح ليس نفس الداعي وفهمه فقد يكون الكلام واضحاً بالنسبة له غامضاً بالنسبة إليهم. وكذلك ليس المقياس وضوح القول بذاته فقد يكون الكلام واضحاً بنفسه ولكنه غير واضح بالنسبة إليهم. فالمقياس إذن هو أن يكون واضحاً عندهم وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فالبيان لهم، لا للداعي ولا للكلام بذاته.

وفي الحديث عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً) أي بيناً ظاهراً يفهمه كل من يسمعه.

وكذلك أن يكون الكلام خالياً من الألفاظ المستحدثة التي تحتمل حقاً وباطلاً وخطأً وصواباً، وعلى الداعي أن يحرص على استعمال الألفاظ الشرعية المستعملة في

القرآن والسنة وعند علماء المسلمين لأن هذه الألفاظ تكون محددة المعنى واضحة المفهوم خالية من أي معنى باطل قد يعلق في ذهن المدعو، وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة هذا النهج في الكلام قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]؛ لأن في كلمة: ﴿رَاعِنَا﴾ في لسان اليهود معنى باطلاً كانوا يقصدونه عند مخاطبتهم رسول الله ﷺ بهذه الكلمة فأمر الله المسلمين أن يتركوها ويستعملوا كلمة انظرنا بدلاً منها حتى لا يتحجج اليهود فيستعملوا كلمة راعنا يريدون بها الشتيمة والتنقيص، وإذا اضطر الداعي إلى استعمال بعض الألفاظ المستحدثة فعليه أن يبين مقصوده منها حتى لا يتبادر إلى الأذهان المعاني الباطلة التي تحملها هذه الألفاظ أو التي يفهمها الناس منها.

والمهم أن كلام الداعية لا بد وأن يكون منبثقا من الدعوة بالكلمة الطيبة والتي هي أحسن، بعيدا عن الألفاظ الغريبة والمستهجنة والسباب والشتائم، وبعيدا عن القدح والتجريح وكثرة التشريب على المدعوين، وبعيدا عن الألفاظ التي توغر الصدور وتقفل القلوب، وبعيدا عن الألفاظ الجارحة للمشاعر والتي لا يجنى من ورائها إلا الصدود وبعد القلوب عن القبول، وبعيدا عن التصريح بالأسماء حال تصحيح الأخطاء ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبعيدا عن الكلمات التي فيها نبرة التعالي والفخر بالعلم والدراية، وبعيدا عن الكلمات التي تحمل بين طياتها التنقص واتهام النيات، بل لا بد من أن تكون كلمات الداعية عذبة رقيقة تسيل على القلوب كما يسيل الماء البارد على الكبود الظامئة في قائظة النهار الحار، وإنني لأعجب من بعض الدعاة عند معالجة بعض الأخطاء يدخل نفسه في أهل الخطأ، ويقول: فنحن،

وكلنا، وأنا أولكم، وكلنا ذاك الرجل المقصر، ونحو هذه العبارات التي ليس فيها تهجم ولا نبز ولا تجريح، وإياك أعني واسمعي يا جارة، وهو توفيق من الله تعالى، وفضل منه جل وعلا يؤتیه من يشاء، ولذلك فإن من أخطاء بعض الدعاة، تنكب المنهاج الأوسط في الدعوة، فيعدل عن الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، إلى إيذاء بعض المدعوين بالقول أو الفعل ظنًا منه أن ذلك أسرع وأنجح في البلاغ، وأدعى للاتباع، وينسى هؤلاء أن الدعوة في الأعم الأغلب، لا توجه إلا للمخطئ والعاصي والجاهل، وأن هؤلاء أحوج ما يكونون إلى الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة والبيان الشافي من الداعي، وهذا يأتي بالدربة والتعويد.

فعود نفسك على الكلمة الهادئة والنبرة المشفقة واللفظة الحانية، وإياك وفحش القول فإن النبي ﷺ لم يكون فاحشا ولا متفحشا، وإن من شر الناس من يتقيه الناس خوفا من شره، وهروبا من سلاطة لسانه، وقدوتنا في ذلك النبي ﷺ، فقراءة متأنية في سيرته وسيرة أصحابه لتطلعك على أنهم بنوا دعوتهم على الكلمة الطيبة والقول اللين، وفقنا الله تعالى وإياك لحسن القول وحسن العمل، وجنبنا جميعا فحش القول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.



القاعدة الأربعون

التفاؤل والأمل مطلب

في العطاء والثبات والاستمرار

أقول: في الصحيحين من حديث عائشة، رَوَى النَّبِيُّ ﷺ، أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحِدٍ؟ قَالَ: (لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(١)، لو تأملنا هذا الحديث لوجدنا أن رسوخ الأمل في قلب النبي ﷺ والتفاؤل الطيب بالمستقبل

(١) رواه البخاري ٦ / ٢٢٤ و ٢٢٥ في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، وفي التوحيد، باب ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، ومسلم رقم (١٧٩٥) في الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، والنسائي في تحفة الأشراف (١/ ١٦٧٠٠).

الزاهر هو الذي يحدوه للثبات والاستمرار في دعوته، إنه لما خابت كثير من المحاولات في الآباء المعاندين لم تنقطع نفسه وتقف جهوده عند معاندة الكبار، بل اطلع على من في أصلاهم وأحسن الظن بربه جل وعلا بأنه سيخرج من أصلاهم من يعبد ولا يشرك به شيئا، فأى قلب هو هذا القلب الكبير، وأي أمل هذا الأمل العريض في القبول والاستجابة، لكنه رسول الله ﷺ، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله تعالى، إننا لا نحب أن نسمع من الداعية عبارات التفتير واليأس والقنوط من واقع الناس، فإنها لإحدى الكبر إن صدرت من أفواه الذين هم أمل الأمة بعد الله تعالى، وأي شيء ننتظره من بقية الناس إن كان اليأس والقنوط من الواقع قد اخترق قلوب الدعاة إلى الله، والذين هم ألصق الناس بمعرفة الشرع، ولذلك فمهما تأزم الموقف، ومهما كثر الفساد، ومهما حصل من الصدود فلا تزال الآمال قائمة، ولا تزال الأمة بخير.

والمستقبل لهذا الدين وإن رغمت الأنوف، والبشائر بالنصر والتمكين ترى علينا في الليل والنهار، ولا يزال الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ولا تزال كلمة الحق هي العليا، نعم الباطل كثير، ولكنه كالزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، ولذلك فقد كان النبي ﷺ يحب الفأل، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا طيرة وخيرها الفأل)، قالوا وما الفأل؟ قال: (الكلمة الصالحة يسمعونها أحدكم)^(١)، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٥٥) وفي الأدب المفرد (٩١٠) ومسلم

عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة)، وفي رواية: (الكلمة الطيبة)^(١)، فإن النفوس لها وقود يسيرها نحو العزيمة الماضية ألا وهو التفاؤل والأمل فلا تياس من إصلاح واقع الناس مهما كان متأزما، فإن فرج الله تعالى قريب، ولكنه الابتلاء والامتحان وإن التفاؤل الطيب باب من أبواب حسن الظن بالله تعالى، فتفاءل وعود نفسك على التفاؤل، فيأيك والتشاؤم، ولسنا نعني بهذا الكلام أن يسبح المرء منا في أوهام التفاؤل السلبي بل المقصود التفاؤل الإيجابي الذي يبعث الأمل ويشحذ الهمم ويقوي العزيمة على المبادرة واتخاذ أنجع الأسباب لبلوغ الهدف.

وعليه فلا بد من النظر إلى الواقع بإيجابية، ولا بد من تسمير الهمة وتقوية العزائم وعدم الميل إلى الدعة والركون، فإن أخطر شيء يواجهنا معاشر الدعاة هو نفوذ اليأس إلى قلوبنا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَهُ أَهْلُكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَمَتْنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا الْمَنصُورُونَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، فمن تدبر هذه لنصوص وما أشبهها فكيف يياس من فضل الله تعالى، وكيف يخالط قلبه القنوط من روح الله تعالى؟

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٢٦٥، رقم ١٩٦١). وأحمد (٣/ ١١٨، رقم ١٢٢٠٠) والبخاري (٥/ ٢١٧١، رقم ٥٤٢٤)، ومسلم (٤/ ١٧٤٦، رقم ٢٢٢٤)، وأبو داود (٤/ ١٨، رقم ٣٩١٦)، والترمذي (٤/ ١٦١، رقم ١٦١٥) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١١٧٠، رقم ٣٥٣٧).

ولكن لا بد وأن تنتبه إلى أن الكثير من الدعاة الذين يصيهم الفتور واليأس من الفرغ إنما علتهم أنهم جعلوا قضايا الأعيان حاكمة على النصوص العامة، وهذا من أخطر الخطر، فتراه يقلب طرفه في عين الأحداث الجارية في الساحة وكثرة أهل الباطل وضعف أهل الحق، ويجعل مجريات هذه الأحداث حاكمة على النصوص العامة التي دلت على أن النصرة لأهل الحق، وأن المستقبل لهذا الدين، وهذا من أعظم ما يكون، بل الحق الحقيقي هو أنك إن واجهتك فتنة أو مصيبة أو حلت في واقعك كارثة فلا تنظر لها بمعزل عن النظر في الأدلة العامة ولتكن تلك الأدلة العامة التي ذكرت لك طرفا منها هي الحاكمة على هذه القضية المعينة، فإنك إن نظرت بهذه النظرة الشمولية الكلية فلن يتطرق الأسى والحزن واليأس إلى قلبك مهما كانت الأحوال والظروف، ولذلك فالمتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن القضايا الكلية هي التي تحكم قضايا الأعيان لا العكس، فمثلا لو أنك دعوت الله تعالى دعاء طويلا ولم ترى نوع استجابة لهذا الدعاء، فلا تظن بهذه القضية العينية أن الله تعالى ليس مجيب الدعوات ولا بقاضي الحاجات، بل هو مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ولو لم تقض حاجتك أو يستجب دعاؤك، فلا تجعل قضايا الأعيان حاكمة على الأصول الكلية العامة، بل اجعل القضايا الكلية العامة المقررة بالأدلة هي الحاكمة على هذه القضية المعينة، فإن قلبت طرفك في واقع المسلمين في بقاع الأرض ورأيت ما يضيق به صدرك فرد الأمر إلى تلك القضايا الكلية العامة تجد أن قلبك قد عاد له الأمل وأن الروح تنفست الصعداء، وأن إشراقة الأمل قد تجددت في نفسك.

ولكن المسكين من يجعل تلك النازلة هي الحاكمة على الأدلة العامة، ويعجبني في هذا الأمر فضيلة شيخنا الشيخ ناصر العمر وفقه الله، فإنه لا يزال متفائلاً ناظراً إلى الأمور بالنظر الواسع، ففي وقت تأزمت فيه الأمور وحلت فيه النكبات على المسلمين كان الشيخ يقرر أن المستقبل لهذا الدين وأن هذه الأحوال والحوادث التي تمر على الأمة إنما هي مفاتيح النصر والتمكين، فيجعل من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن صورة الموت حياة، وهكذا ينبغي أن نكون.

فالداعية لا ينبغي له أن يترك الدعوة بمجرد ضيق مر عليه ولا لمجرد نازلة حلت على الأمة، بل الداعية الموفق الناجح هو من يمضي قدماً بالعزيمة الصادقة والدعوة الهادفة والكلمة النيرة والقلب الذي يشع نوراً وأملاً وإشراقاً، وأنا وإن لم أكن كذلك - ولا أزكي نفسي - ولكن عدم تحقيقي للأمر لا يمنع من الدعوة إليه، فالله الله أيها الدعاة الموفقون في هذا الأمر، لا بد من استمرار العطاء، مهما تأزمت الأمور، ولا بد من الوقوف في وجه المتغيرات، وإن تفاقمت وادهمت الدواهي على الأمة، ولا بد من زرع الأمل في النفوس وإن حلت البواقع، ولا بد من بعث الأمل بالفرج القريب وإن أظلم ليل الظلم والكفر، فالفرج قريب، والأمل في الله تعالى لا ينقطع، فلا نياس معاشر الدعاة من الإصلاح والتوجيه والأمر بيد الله تعالى من قبل ومن بعد، وأزمة هذا الكون تحت تصرفه وقهره وسلطانه جل وعلا، ولو شاء جل وعلا لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، ولكن الابتلاء والامتحان، ولا نكون كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فعلى الداعية أن يغذي قلبه بجرعات من الأمل ليواصل مشوار الدعوة إلى الله بلا تعب ولا ملل وبدون فتور ولا كلل، فلا يقلق القلوب ولا يزعج الأرواح مثل اليأس والقنوط والفتور بسبب واقع الأحداث على الأمة، فوصيتي للدعاة وأهل العلم أن يزرعوا الأمل في قلوب الناس، وأن يبينوا لهم أنه مهما تداعت الخطوب فالمستقبل لهذا الدين، ولن يبقى بيت مدر ولا وبر إلا أدخله كلمة الإسلام بعز عزيز وبذل ذليل، والله تعالى ناصر دينه ومعل كلمته، فكما أننا نشق بأن الله تعالى هو الذي يتولى حفظ كتابه، وأنه لن تطوله يد التغير والتحريف والتبديل، فكذلك يجب علينا أن نشق بأنه جل وعلا هو المتكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، ولكن لا بد وأن نبذل المقدور عليه في نصر الدين والدعوة إلى منهج الله تعالى، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والله تعالى من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله أعلم.



القاعدة الحادية والأربعون

التحلي بالأخلاق العالية الكريمة والنبيل

مطلب في التوفيق والنجاح

أقول: لقد وردت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة تأمر بالأخلاق الكريمة والنبيل العالية، وتحبر بما للمتحلي بها من عظيم الأجر وكبير الثواب، وقد أخبر الله تعالى عن نبيه أنه حل منها النصيب الأوفى وصارت له المنزلة الكبرى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فبهذه الأخلاق العالية دخل الناس في دين الله أفواجا، فقد كانت الوفود تسلم بين يديه بسبب كبير أخلاقه وحسن ضيافته وكبير أدبه واحترامه للمدعوين أيا كانوا، ولا غرابة في هذا، فإن الأخلاق الكريمة لها دورها الكبير في استمالة القلوب ومحبة الداعية وتغلغل محبته في قلوب الناس، فعلى الداعية أن يتحلى بتلك الأخلاق الكريمة قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١)،

(١) حديث حسن، رواه أحمد، ومالك، والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وعند بعضهم "لأتمم صالح الأخلاق".

وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةً قَائِمِ اللَّيْلِ وَصَائِمِ النَّهَارِ)^(١)، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: (وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ)^(٢)، وما ذلك إلا لأهمية الأخلاق الحسنة للمسلم عموماً وللداعية على وجه الخصوص، وفي الحديث كان النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ)^(٣)، وقال ﷺ: (أَكْثَرُ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخُلُقِ)^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةً الصَّائِمِ، الْقَائِمِ)، وفي الحديث: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)^(٥)، ويقول معاذ ؓ: (كَانَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَزَزِ أَنْ قَالَ: (يَا مُعَاذُ، أَحْسِنُ

(١) حديث صحيح لغيره، أخرجه الحاكم ٦٠ / ١، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤٤٢٧)، والبيهقي في "الشعب" (٧٩٨٨).

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم رقم (٧٧١) في صلاة المسافرين، باب الدعاء، في صلاة الليل وقيامه، والترمذي رقم (٣٤١٧) وأبو داود رقم (٧٦٠) في الصلاة.

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٥٨٥) في الدعوات، باب رقم (١٣٧)، ورواه أيضاً الطبراني والحاكم، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٤٢٢) موارد، وحسنه الترمذي وقال: «حديث حسن»، وحسنه أيضاً الحافظ السخاوي.

(٤) رواه الترمذي رقم (٢٠٠٥) في البر، باب ما جاء في حسن الخلق، ورواه أيضاً ابن حبان في صحيحه، وهو حديث صحيح بشواهده.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي.

خُلِقَكَ لِلنَّاسِ^(١)، رواه مالك في الموطأ، وقال عليه السلام: (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ)^(٢).

والأدلة الحاثّة على التحلي بمعالى الأخلاق كثيرة لا تكاد تحصر، وقد جمعها النبي ﷺ في قوله: (البر حسن الخلق)^(٣).

وفي المقابل فقد رهبت الشريعة من مساوئ الأخلاق، وحذرت من الخلق البغيض، كما هو معروف، وحيث كان الكلام على الأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن يتحلّى المسلم عموماً والداعية على وجه الخصوص، فإنى أرى أنه من المناسب أن نعدد جملاً من الأخلاق الرفيعة التي تهم كل مسلم فأقول:

الأول: الصدق، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ءَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقال عليه السلام: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر

(١) حديث منقطع، أخرجه الموطأ ٢ / ٩٠٢ في حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، بغير إسناد، وهو أحد الأحاديث التي وردت في الموطأ بغير سند، قال الزرقاني في شرح الموطأ: كذا ليحيى وابن القاسم والقعني، قال: «ورواه ابن بكير عن مالك بن يحيى ابن سعيد عن معاذ، وهو مع هذا منقطع جداً، ولا يوجد مسنداً من حديث معاذ ولا غيره بهذا اللفظ، لكن ورد معناه»، قاله ابن عبد البر. وقال الزرقاني أيضاً: «ومن شواهد هذا الحديث ما رواه أحمد والترمذي وغيرهما بإسناد حسن عن معاذ قال: قلت: يا رسول الله علمني ما ينفعني؟ قال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)».

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم (٢٠٠٣) في البر والصلة، وأبو داود رقم (٤٧٩٩) في الأدب، وأحمد (٤٤٢ / ٦).

(٣) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٣) في البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، والترمذي رقم (٢٣٩٠) في الزهد، باب ما جاء في البر والإثم.

وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: (التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّدُوقُ: مع النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ)^(٢).

فإذا كان في تجارة الدنيا، فكيف بشأن الصدق في تجارة الآخرة، لا جرم أن الأجر أعظم وأكبر، وعن أبي الحوراء السعدي ربيعة بن شيان قال: قلت للحسن بن علي عليه السلام: ما حفظت من رسول الله ﷺ؟ قال: حفظت منه: (دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ، فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ)^(٣)، وفي الصحيح في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فسدت عليهم الغار: (إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يَنْجِيكُمْ إِلَّا الصَّدَقُ)^(٤)، وقد نجى الله تعالى بالصدق الثلاثة الذين خلفوا، في قصة معروفة، فالداعية إلى الله لا بد وأن يكون متحلياً بهذه الصفة العظيمة، فيكون صادقاً في حديثه، وفي دعوته، وأعظم الصدق الصدق مع الله تعالى، فلا يعلم الله تعالى من قلبك في دعوتك إلا إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة فالداعية الموفق الناجح هو

(١) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" (٣٨٦)، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٥)، وأبو داود (٤٩٨٩) وأحمد (٣٦٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (١٢٠٩) في البيوع، وللحديث شاهد عند ابن ماجه رقم (٢١٣٩) في التجارات من حديث ابن عمر وفي سنده ضعف، ولذا قال الترمذي عن حديث أبي سعيد: «هذا حديث حسن».

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) حديث صحيح، أخرجه البخاري ٦/٣٦٧ و٣٦٨ في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، وفي البيوع، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي، وأخرجه مسلم رقم (٢٧٤٣) في الذكر، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، وأخرجه أبو داود رقم (٣٣٨٧) في البيوع.

من تحرى الصدق في باطنه مع الله تعالى، وفي ظاهره مع عباد الله تعالى وإنه ليقبح بالداعية أن يعرف بأنه كذاب، وما أقبح التغامز عليه وهو يتكلم من الحاضرين بأن لا تصدقوه فلا تفلح الدعوة إلا إن جرت بلسان الصدق في الباطن والظاهر، ولا تكون لها الآثار الطيبة إلا إن كان الصدق هو مبدؤها ومنتهاها، والله المستعان.

الثاني: الأمانة، وهي قرينة الصدق، بأن يكون أميناً في كلامه وودائع في أداء الحقوق لأهلها وبرد الأمانات إلى أصحابها، فلا يعرف بخيانة ولا بتدليس، يكون أميناً في بيعه وشرائه وأداء ديونه وغيرها من الأمور، فالأمانة حمل ثقيل، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: (أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ). ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ: (يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيُظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَنْفُطُ، فَتَرَاهُ مُتَبَرِّأً، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ) - ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَخَرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ - (فَيُضَيِّحُ النَّاسُ يَتْبَاعِيُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلَدُهُ، مَا أَظْرَفُهُ، مَا أَعْقَلُهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنِي عَلَيَّ دِينُهُ، وَإِنْ كَانَ ضُرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنِي عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ مِنْكُمْ إِلَّا فَلَانًا

وفلاتاً^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في مجلس يُحدثُ القومَ، جاءهُ أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدثُ، فقال بعض القوم: سَمِعَ ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتَّى إذا قَصَى حديثه، قال: (أين السائل عن الساعة؟) قال: ها أنا يا رسول الله، قال: (إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظر الساعة)، قال: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر السَّاعة)^(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أدَّ الأمانةُ إلى من ائتمنك، ولا تخنُ من خانتك)^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ الخازنَ المسلمَ الأمينَ الذي يُعطي ما أُمِرَ به فيعطيه كاملاً موفِّراً، طيِّبٌ به نفسُهُ، فيدفعُهُ إلى الذي أُمِرَ له به، أحدُ المتصدِّقين)^(٤)، وإن الدعوة وإبلاغ العلم من أعظم الأمانات التي لا بد من أدائها على الوجه المأمور به شرعاً، فأمانة الداعية من أهم الأمور التي لا بد وأن يتحلَّى بها، وقد كان النبي ﷺ يعرف في قومه بالصادق الأمين، ولا سيما أمانة أداء العمل الموكَّل له من قبل ولي الأمر على الوجه المأمور به في النظام، فإن الداعية منظور له بعين الرقابة التي لا تهمل شيئاً من هفواته، والله المستعان.

-
- (١) أخرجه البخاري ١١٦/١٤ - ١١٧ في الرقاق، ومسلم رقم (١٤٣) في الإيذان، والترمذي رقم (٢١٨٠) في الفتن وابن ماجة رقم (٤٠٥٣) في الفتن.
- (٢) صحيح، أخرجه البخاري ١٥٠/١، ١٥١ في العلم، وأحمد (٣٦١/٢).
- (٣) أخرجه البخاري في التاريخ (٣٦٠/٤) وأبو داود (٢٩٠/٣)، رقم (٣٥٣٥) والترمذي (٥٦٤/٣)، رقم (١٢٦٤) وقال: حسن غريب، والحاكم (٥٣/٢)، رقم (٢٢٩٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. والبيهقي (٢٧١/١٠)، رقم (٢١٠٩٢).
- (٤) البخاري ٤٥/٤ في الزكاة: ومسلم رقم (١٠٢٣) في الزكاة، وأبو داود رقم (١٦٨٤) في الزكاة، والنسائي ٧٩/٥ - ٨٠ في الزكاة.

الثالث: الرفق، وقد قدمنا طرفاً من الكلام عليه فيما مضى، قال عليه الصلاة والسلام: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه)^(١)، وقال: (إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ)^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ)^(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الْخَيْرِ)^(٥)، والله المستعان.

الرابع: الحلم قال رسول الله ﷺ - للأشج - أشج عبد القيس: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ)^(٦)، وقال عليه الصلاة والسلام: (وإنما الحلم بالتحلم)، رواه الدارقطني وصححه الألباني، فهذا الخلق العظيم أمر مهم للداعية وله أسوة حسنة بخيرة خلق الله محمد ﷺ، ففي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: (كنت ماشياً مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال الأعرابي: يا محمد مر لي من مال الله الذي

(١) سبق تخريجه ص ٨٣.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري ٣٥/١١ في الاستئذان، وفي الجهاد، وفي الأدب، وفي الدعوات، ورواه مسلم رقم (٢١٦٥) في السلام، والترمذي رقم (٢٧٠٢) في الاستئذان.

(٣) سبق تخريجه ص ٨٣.

(٤) سبق تخريجه ص ٨٣.

(٥) سبق تخريجه ص ٨٤.

(٦) أخرجه الترمذي رقم (٢٠١٢) في البر، ومسلم رقم (١٧) في الإيمان، وهو حديث صحيح.

عندك، فالتفت إليه النبي ﷺ، ثم أمر له بعطاء). فانظر إلى حلمه وتواضعه عليه الصلاة والسلام على هذا الأعرابي، فيلزم الداعية التخلق بهذا الخلق الحسن ولكن لا يصل به الحال إلى درجة الذل فأحياناً يصفح عمن أساء إليه لأنها من صفات المؤمنين وأحياناً أخرى ينتصر لنفسه لتظهر قوته ومكانته ويرهبه أعداء الله عز وجل. قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، والله المستعان.

الخامس: الكرم والسخاء بتوسط فلا إفراط ولا تفريط، ما أجل الكرم إن صدر من أهل الدعوة إلى الله تعالى، ما أجل أن يجد الفقير والمحتاج عندهم بغيته من أمور المال والنفع بالجاه، إن باب الداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يكون مهبطاً لأهل الحاجة، وأن يكون قلبه قبل ذلك مفتوحاً لأهل الحاجة من الفقراء والمساكين، وقد كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير والصدقة، وكان يوصف جوده بالخير بأنه أسرع من الريح المرسلة، لا سيما إن كان قد وسع الله تعالى عليه في المال وأعطاه من الجاه ما لم يعط غيره، إنه لقبيح بالداعية أيما قبح أن يمنع المحتاج إليه مما لا يضر به في دين ولا دنيا، ألا ترى قول الله تعالى مادحاً الأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّطُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ضرب الأنصار أروع المثل في التنازل والتضحية لإخوانهم من المهاجرين بعد أن هاجروا لله تعالى وتركوا أموالهم وأوطانهم وأولادهم لله تعالى فراراً بالدين، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية إلى الله تعالى، إن البخل وشح النفوس من الأخلاق الذميمة التي نهى الله تعالى عنها وحذر منها وأخبر أن الفلاح في التباعد عنها ففقال

تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ومن صفاته العظيمة ^(١) المشهود له بها أنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، والكرم والسخاء هو الدعامة الكبيرة بعد توفيق الله تعالى في محبة الناس وإقبال القلوب على قبول الدعوة، ألا ترى أن الله تعالى قد جعل للمؤلفة قلوبهم سهما في الزكاة، لأنهم المطاعون في عشائهم ويرجى بثباتهم أو إسلامهم ثبات أو إسلام من تحت أيديهم، ومن محبته جل وعلا للكرم فقد تسمى بالكرم، ووصف نفسه بالكرم، وذم اليهود بوصفه لهم بأن أيديهم مغلولة، لما وصفوه بالبخل، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وعاب على قوم وتوعدهم بالعذاب لما أعطاهم المال بعد وعودهم بأنهم سينفقون ويبذلون في وجوه الخير والبر والإحسان فأخلفوا الله تعالى ما وعدوه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۚ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، وفي الحديث: (أنفق أنفق عليك)^(١)، وفي الحديث: (ما نقص مال من صدقة)^(٢).

فالمعونة بالجاء والمال من الأمور التي تشرح النفوس وتوجب القبول وتشرح الصدور للداعية إلى الله تعالى، وقد جهز عثمان ^(رضي الله عنه) جيش العسرة في عزوة تبوك،

(١) حديث صحيح، رواه البخاري ١٣ / ٣٤٧ في التوحيد، ومسلم رقم (٩٩٣) في الزكاة، والترمذي رقم (٣٠٤٨) في التفسير.

(٢) حديث صحيح، رواه مسلم رقم (٢٥٨٨) في البر والصلة، والترمذي رقم (٢٠٣٠) كذلك في البر والصلة، والموطأ ٢ / ١٠٠٠ في الصدقة.

فقال له النبي ﷺ: (ما ضر عثمان ما فعل بعد)^(١)، وقال تعالى مادحا أهل الإيثار بالصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال تعالى فيمن أراد طريق التجارة الحقيقية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ ۖ لِّيُؤْفِقَهُمُ أَجْرَهُمْ وَبَرِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

فما أجمل بالداعية أن يكون من السباقين في البذل والإنفاق في وجوه الخير، طارقاً أبواب البر، معينا للضعفاء والمساكين ومغيثاً للملهوفين، وساعياً بماله وجهده وجاهه في سد خلة أهل الحاجة، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد كان الشافعي رحمه الله تعالى يتحسر على قلة المال أن لا ينفقه في سبيل الله تعالى مع كثرة السائلين الذين يظنون أن الإمام الشافعي كان ذا ثروة كبيرة، ولكنه كان قليل ذات اليد، فكان إذا جاءه السائل ولم يجد ما يعطيه، كان يتمثل بهذه الأبيات:

يا لهف نفسي على مال أفرقه على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني عن بعض مالي لمن أعلى البليات
وإن كاتب هذه الأسطر قد آتاه الله تعالى حب العطاء وحب الإعانة، ولكنه لا يجد ما ينفقه في هذا السبيل، فكم من الحسرات على فقد المال أن لا ينفقه في سبيل الله تعالى، وعسى الله تعالى أن يفتح باب المال على عبده الضعيف وأن يسلطه على هلكته في الحق، كم يضييق صدري إن جاءني أحد المحتاجين وقد امتلأ قلبه بالعطاء

(١) إسناده حسن، أخرجه الترمذي في المناقب، وأحمد في "المستد" ٣ / ٦٣.

والبذل، ثم يرجع خائبا من عندي لقلة ذات يدي، فأنا أهيب بأهل المال عموما، والدعاة خصوصا أن لا يردوا سائلا، ولا يخيبوا محتاجا، فالمال مال الله وإنما نحن مستخلفون فيه كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فما أحلى صدور الكرم من المسلم عموما ومن الداعية على وجه الخصوص، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السادس: طلاقة الوجه ودوام البشر وكثرة التبسم في غير منقصة، وهذا من الآداب الرفيعة، قال عليه السلام: (تبسمك في وجه أخيك صدقة)^(١)، وقال جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: (ما رأي النبي ﷺ منذ أسلمت إلا تبسم في وجهي). فالابتسامة وطلاقة الوجه هي السحر الحلال الذي يقلب الموازين إلى الخير والذي يشرح الصدور ويحبب العبد إلى الناس ويجعله عندهم مقبولا قريبا الاستجابة، وفي الحديث: (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلق أخاك بوجه طليق)^(٢)، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وقد كان ﷺ يمازح أصحابه بما يوجب لهم الانبساط وانشرح الصدر، ولكنه لا يقول إلا الحق حتى في مزاحه، بل الضحك من صفات الله تعالى الثابتة بالسنة، وهي من صفاته الفعلية، وفي حديث سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلُنَّهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ فَأَذِنَ لَهُ

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٩٥٧) في البر والصلة، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩١) وهو حديث

حسن.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٦٢٦) في البر والصلة، وأحمد (١٧٣/٥) وهو حديث صحيح.

النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَضْحَكُ فَقَالَ: (أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي). وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ هَوَاتِيهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ). وقد بوب البخاريُّ على هذه الأحاديث بقوله «بَابُ التَّبَسُّمِ وَالضَّحِكِ»، وَقَالَتْ فَاطِمَةُ: (أَسْرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَضَحِكْتُ)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى). فالدَّاعِيَةُ كما يتصدق بالمال يتصدق بالابتسامة فهل تعجز - أخي - عن هذا.

قال بعض العقلاء: التبسم والبشر من آثار أنوار القلب، «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ» ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ [عبس: ٣٨-٣٩]، قال ابن عيينة: «البشاشة مصيدة المودة والبر شيء هين وجه طليق وكلام لين»، والناس لا يقبلون من الدَّاعِيَةِ الذي يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، ويعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم. وقال حماد بن زيد: «ما رأيت أحدا قط أشد تبسما في وجوه الرجال من أيوب إذا لقيهم. قال الذهبي: «وقال محمد بن النعمان: لم أر أعبد من يحيى بن حماد، وأظنه لم يضحك قلت: الضحك اليسير والتبسم أفضل»، وعَدَمَ ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلا لمن تركه أدبا وخوفا من الله وحزنا على نفسه المسكينة.
والثاني: مذموم لمن فعله حمقا وكبرا وتصنعا كما أن من أكثر الضحك استخف به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخف منه وأعذر منه في الشيوخ.
وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله، فأعلى المقامات من كان بكاء بالليل، بساما بالنهار، وقال ﷺ فيما يروى عنه: (لن تسعوا الناس بأموالكم

فليسعهم منكم بسط الوجه^(١)، بقي هنا شيء وهو: أنه ينبغي لمن كان ضحوكاً بساماً أن يقصر من ذلك ويلوم نفسه حتى لا تمجه الأنف، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسم ويحسن خلقه ويمقت نفسه على رداءة خلقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم ولا بدّ للنفس من مجاهدة وتأديب، والوسطية في هذا مطلوبة، فلا يكون الداعية ضحوكاً بما هب ودب فتمجه النفوس وتزدرية القلوب، ولا يكون عبوساً قمطيرير الوجه مكفهر الخاطر دوماً فلا ترتاح له النفوس ولا تقبله القلوب، والله المستعان.

السابع: البعد عن تتبع العورات ومواطن التهم، فلا يكون عينا على عيوب الناس، ولا لساناً لاذعاً في التخوض فيهم وفي أخطائهم، فإن من تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه الله في جوف بيته، وقال عليه الصلاة والسلام: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المؤمنين...) الحديث^(٣)، لا سيما أخطاء العلماء والأمرء، فلا بد من غض الطرف عن الهفوات والبعد عن تتبع الزلات، فمن ذا يسلم من الخطأ، وليكن تصحيح الأخطاء لذات الخطأ بغض النظر عن الأسماء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وقد ابتلينا في هذا الزمان

(١) أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم في الإيمان رقم (٤٠)، وأحمد ٣/ ٣٢٥، والترمذي (٣٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٤٨٨٠) في الأدب، باب في الغيبة، ورواه أيضاً أحمد في "المسند" ٤/ ٤١٢،

بقوم جعلوا أخطاء العلماء بضاعة يروجون بها سمعتهم ويتعالون على أهل العلم بتبع زلاتهم من كتبهم وأشرطتهم بحجة أنهم ينصحون، ولا يدرون أنهم يهدمون ولا يبنون ويفرقون ولا يجمعون، نعم، إن عرف عن هذا العالم أنه لا يريد إلا الباطل والمجادلة في الحق بعدما تبين فهذا له شأن آخر، لا سيما إن خيف على المسلمين من خطره وشره، والنقد لا بد فيه من الإخلاص والعدل، والله عليم بذات الصدور، والله المستعان.

الثامن: الصبر، وما أدراك ما الصبر، فقد ثبتت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة في علو رتبته وتفخيم أمره، وقد تكلمنا عنه سابقاً في قاعدة: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين» والله أعلم.

التاسع: العفو والصفح والتجاوز، وكظم الغيظ وخفض الجناح للمدعويين، مع وفور الحلم بلا ضعف ولا مهانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّؤْنِسٌ﴾ [هود: ٧٥]، وقال تعالى لخاتم رسله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى في وصف الصالحين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد قيس لما وفد عليه مع قومه: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولَؤُلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ

وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النور: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولقد كان العفو - وهو ترك المؤاخذه، عند القدرة على الأخذ من المسيء - من أخلاق النبي ﷺ، فقد ثبت عنه في صور لا تكاد تحصر أنه عفا وغفر وصفح عن الزلل والخطأ، ويتجسد عفوّه حين تصدى له "غورث بن الحارث" ليفتك به ﷺ والرسول مطّرح تحت شجرة وحده قائلاً: (نائماً في وقت القيلولة)، وأصحابه قائلون أيضاً، وذلك في غزوة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا و غورث قائم على رأسه، والسيف مسلطاً في يده، وهو يقول: ما يمنعك مني؟ فقال ﷺ: (الله)، فسقط السيّف من يد غورث، فأخذه النبي الكريم وقال: (من يمنعك مني؟)، قال غورث: كُنْ خير آخِذ. فتركه وعفا عنه، فعاد إلى قومه فقال: جئكم من عند خير الناس! ^(١). ولما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح ووجد رجالاً قريش - الذين طالما كذّبوه، وأهانوه، وعذبوا أصحابه وشردوهم - جالسين مطأطي الرؤوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح فيهم، فإذا به يقول لهم: (يا معشر قريش ما تظنون أي فاعل بكم؟) قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم قال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ^(٢)، فعفا عنهم بعد أن ارتكبوا من

(١) سبق تخريجه ص ٢٠٩.

(٢) هذا الحديث أورده ابن إسحاق في السيرة معضلاً، ورواه الطبري في تاريخه عن شيخه: ابن حميد - وهو الرزاي المتهم بالكذب - عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عمر الوجيه - وهو ممن يضع الحديث متناً وسنداً كما في "الميزان" عن قتادة مرسلاً، فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في "فقه السيرة" وسنن البيهقي لفظ أفضل حال من هذا ١١٨/٩ وله شاهد عند ابن زنجويه في "الأموال" بإسناد ضعيف، وشاهد آخر من رواية عبدالله بن عمرو وعبدالله بن عباس .

الجرائم في حقه وحق أصحابه ما لا يُحصى عدده ، ولما تأمر عليه المنافقون ليقتلوه وهو في طريق عودته من تبوك إلى المدينة، وعلم بهم وقيل له فيهم، عفا عنهم وقال: (لا يُتحدّث أن محمداً يقتل أصحابه)^(١)، وعفا عن الأعرابي الذي بال في مسجده وعلمه وأدبه، وعفا عن حاطب بن أبي بلتعة وقد أخبر قريشا بأمر المسير إليهم، وعفا عن الأعرابي الذي جبذه من عمامته القطرية حتى أثرت فيه ﷺ، وصور العفو كثيرة، وليس هو عفو الضعفاء والخويرة، بل عفو العظماء الذين يقدرّون على العقاب، وكما قيل: «العفو عند المقدرة»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وما زَادَ الله عبداً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ)^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، والأمر أكبر من هذه العجالة، ولكنها مجرد إشارات، والله المستعان.

العاشر: التواضع، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري ١٨٦٣/٤ في تفسير سورة المنافقين، ومسلم رقم (٢٥٨٤) في البر والصلة.

(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم (٢٥٨٨) في البر والصلة، والترمذي (٢٠٣٠) في البر والصلة، والموطأ ٢/١٠٠٠.

أحد^(١)، وكلما تواضع العبد فإنه يزداد من الله تعالى قربا، كما ثبت به النص، إن التواضع من سيد الأخلاق والتكبر من سيئها. حكى عن الحسن البصري أنه ذكر قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، فقال: «المؤمنون قوم ذلل، ذلت لله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى، والله ما بالقوم من مرض وإنهم لأصحاء القلوب ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة»، وقال بعض العلماء: «من أعطي مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة». وقال موسى بن القاسم: «كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل، فقلت يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل». وهذا دأب الصالحين لا يرون لعبادة أنفسهم وتقواها أية قيمة تجعلهم يعجبون بأنفسهم ولا يرون أن لهم فضلا على غيرهم.

هذا في العبادة والتقوى فما بالك بالمال والجاه أو متاع الحياة الدنيا، إن التكبر أحد الأسباب الرئيسة للكفر. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولم يكن سبب عناد فرعون هذه الأمة، أبو جهل إلا تكبره فحينما سئل عن سبب عدم إسلامه مع معرفته أن رسول الله ﷺ ليس بكاذب قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا

تجاثنا الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذا؟ والله لا نسمع له أبدا ولا نصدقه. فالتكبر هذا بسبب الجاه والشرف وعزة القوم والعشيرة أو في حالات أخرى بسبب المال أو المنصب أو العلم أو الذكاء والمقدرة أو كثرة الأتباع، إنما هو من تسويل الشيطان، إن العلاج الناجع للتكبر هو بمخالفة سببه عمليا، فإذا وجد المرء داعيا للتكبر بسبب المال، عليه أن يعالجه بمخالطة الفقراء والتواضع لهم ومنحهم الصدقات دون من أو شعور بأن له فضلا عليهم. وإن كان تكبره بسبب العلم والذكاء والعقل فعليه التواضع لمن يمكن أن يتعلم منه شيئا جديدا. (ركب زيد بن ثابت فدنا منه ابن عباس ليأخذ بركاب فرسه، فقال ميه! يا بن عم رسول الله فقال هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبلها وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ). وقال عروة بن الزبير: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت يا أمير المؤمنين لا ينبغي هذا، فقال: (لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها)، ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها. وروى أبو هريرة رضي الله عنه وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب وهو يقول طرّقوا: (أي افسحوا الطريق للأمير). وقال ابن عباس: (من التواضع أن يشرب الرجل من سور أخيه). وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: «أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله». وكان يقول قراء الرحمن أصحاب خشوع وتواضع وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر. تشاجر أبوذر وبلال رضي الله عنهما فقال أبوذر لبلال: يا ابن السوداء، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فقال له: (أَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امرؤ فيك جاهلية)، فألقى أبوذر نفسه على الأرض وحلف أن لا يرفع رأسه حتى

يطأ بلال خده بقدمه فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال ذلك^(١). والله المستعان.

الحادي عشر: الشجاعة، في غير تهور ولا عنف ولا حق، لقد كان ﷺ شجاع القلب والعقل معاً، فشجاعة القلب هي عدم الخوف مما يُخاف منه عادةً، والإقدام على دفع ما يُخاف منه بقوة وحزم، أما شجاعة العقل فهي المضي فيما هو الرأي وعدم النظر إلى عاقبة الأمر، متى ظهر أنه الحق، فكان ﷺ أشجع الناس على الإطلاق، ومن أدلة ذلك أن الله تعالى كلفه بأن يقاتل وحده في قوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقد شهد الشجعان الأبطال له بذلك فقد قال علي بن أبي طالب، وكان فارساً مغواراً من أبطال الرجال وشجعانهم: (كنا إذا حمي البأس - اشتدت المعركة - واحمرت الحُدُق - جمع حدقة وهي بياض العين - نتقي برسول الله ﷺ)، أي نتقي الضرب والطعان. وهذا موقفه البطولي الخارق للعادة يوم أحد حيث ذهل عن أنفسهم الشجعان ووقف محمد ﷺ كالجبل الأشم حتى لاذ به أصحابه والتفوا حوله وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم من جراء مخالفتهم لكلامه ﷺ، وفي حُنين حين انهزم أصحابه وفر رجاله لصعوبة مواجهة العدو من جراء الكمائن التي نصبها وأوقعهم فيها، وهم لا يدرون، بقي وحده ﷺ في الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)، وما زال في المعركة يقول: (إلّا عباد الله! إلّا عباد الله)، حتى أفاء أصحابه إليه وعاودوا الكرة على العدو فهزم موهم في ساعة.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٨٠/١، ٨١ في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، وفي العتق،

وفي الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، ورواه مسلم رقم (١٦٦١) في الإيمان، وأبوداود رقم

(٥١٥٧)، والإمام أحمد ١٨٥/٥.

هذه بعض دلائل شجاعته القلبية، أما شواهد شجاعته العقلية، فنكتفي فيها بشاهد واحد، فإنه يكفي عن ألف شاهد ويزيد، وهو موقفه من تعنت سهيل بن عمرو وهو يملي وثيقة صلح الحديبية، حين تنازل ﷺ عن العبارة (بسم الله) إلى (باسمك اللهم) وعن عبارة (محمد رسول الله) إلى (محمد بن عبد الله) وقد استشاط أصحابه ﷺ غيظاً، وبلغ بهم الغضب حداً لا مزيد عليه، وهو صابر ثابت حتى انتهت وكانت بعد أيام فتحاً مبيناً؛ فضرب ﷺ بذلك أروع مثل في الشجاعة وبعد النظر وأصالة وإصابة الرأي، والله المستعان، إن الخور والجبن ليس من طبع الرجال، فضلاً عن العلماء والدعاة، فالمواقف تحتاج إلى قوة قلب، وثبات في الرأي على بصيرة لا على عوج، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وإن القلب والعين لتعشق الشجاعة عشقاً لا مزيد عليه، وأعني بها الشجاعة في الحق لا في الباطل ونحن في هذه الأزمنة نعاني من الضعف والخوف من أعداء الله تعالى ما هو معروف لكل أحد، ولكن والله الحمد لا تزال طائفة من الدعاة قوالة بالحق عاملة به أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، لا تخاف في الله لومة لائم، والله المستعان.

فهذه جمل من الأخلاق الكريمة العالية والتي ينبغي أن يحرص الداعية إلى الله تعالى على التحلي بها، وبالجمل فكل خلق نبيل أمر به الإسلام أمر إيجاب أو استحباب فينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يأخذه بعين الاعتبار، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.



القاعدة الثانية والأربعون

استفتاح قلوب المدعوين بكثرة الدعاء سبب للتوفيق في الدعوة

أقول: إن المتقرر في الشريعة أن القلب ملك الأعضاء، وأنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، وأن القلب إن كان متوجها للخير ومريدا له توجهت الأعضاء للخير وأحبته، وأن هذه الأعضاء لا يمكن أن تشتغل إلا بما امتلأ به القلب، فحيث كان القلب بهذه المنزلة الكبيرة والرتبة الرفيعة صار لزاما على الداعية أن ينصب اهتمامه في المقام الأول على هذه المضغة، وإن أعظم ما يفتح للخير والدعوة هو الدعاء، فكثرة الدعاء من أكبر الأسباب الموجبة إن شاء الله تعالى لانسراح الصدور وانفتاح القلوب فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، كما قال ﷺ: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يقلبها كيف يشاء...) ^(١) الحديث.

وعنى القلوب موجب للضلال والتهيه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، والمتقرر أن الدعاء هو العبادة، وأنه سلاح المؤمن على وجه العموم والداعية على وجه الخصوص، فلا يتمكن الداعية من نفوذ دعوته إلا بفتح هذا القلب، والدعاء من الأسباب الكبيرة في فتح هذه المضغة،

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٤١) في القدر، باب ما جاء في أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ومسلم رقم (٢٦٥٤)، وأحمد، وهو حديث صحيح.

فحاول بارك الله فيك أن تكثر من الدعاء قبل أن تبدأ الدعوة، حتى تشرح لك الصدور وتسيل بين يديك القلوب وتصغي لدعوتك الآذان، وقد دعا موسى عليه الصلاة والسلام قبل ذهابه إلى فرعون بما قال الله تعالى فيه: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣﴾ وَأَخْلِلْ عُنُقَهُ مِن لِّسَانِي ﴿٤﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٥﴾ وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٦﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٧﴾ أَشَدُّ بِمَآ أَرَىٰ ﴿٨﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٩﴾ كُنْتُ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿١٠﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَإِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿١٢﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٣﴾ [طه: ٢٤-٣٦]، وهذا تربية للدعاة إلى الله تعالى على أهمية الدعاء قبل الدعوة، فكثرة الدعاء والإلحاح في السؤال سمة راسخة من سمات الدعاة لا ينفكون عنها لحظة، وهذا سر نجاحهم، ومن لم يلح في دعائه فليس على السبيل والسنة؛ فأكثر من التضرع إلى المولى جل وعلا أن يلهمك الحق ويوفقك للعمل به، وأن يرزق نفسك الثبات وحسن التصرف والتدبير، لأن المتضرع إلى ربه متبرئ من حوله وقوته، متوكل على الله مفوض أمره إليه، وإذا تولاه الله رزقه حسن التصرف، وفي ذلك نجاح دعوته، والله تعالى يحب الملحين في الدعاء، وفي الحديث: (الدعاء هو العبادة) ^(١).

إن المتتبع لنصوص الشرع ليجد بدون فكر أو تأمل أن قضية الدعاء تحتل أهمية قصوى في سياق ما وصى به الشرع، كما تجد مساحة واسعة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تنبيك بالقطع أن القوم كانوا يعولون على هذا الأمر جل مشكلاتهم، وهو سلاح ماض، وعدة عتيقة، ووسيلة موصلة ودرب نافذ، وسالكة مفلح ورابح في كل الأحوال، وقد علم سلفنا الصالح قوة هذا السلاح فاستعملوه في كل شئون

(١) رواه الإمام أحمد ٤/ ٢٦٧، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٤) والترمذي (٢٩٧٣) في التفسير، و(٣٣٦٩) في الدعوات، وأبوداود (١٤٧٩) في الصلاة، وابن ماجه (٣٨٢٨) في الدعاء، وقال

حياتهم، فليكن الدعاء إذا تخصصنا من التخصصات التي ينبري لها الغيورون على دين الله ولتكن تلك الأيدي الضاربة سيوفاً مصلته على هام أعداء الدين، ولتكن تضرعاتها صرخات نذير في وجوه الكافرين. والذي يجب أن نحشد له اعتقاد الناس: توثيق اليقين بالله تبارك وتعالى، وحسن الظن به، والتعويل على نصرته، فيدعوا الناس ربهم حال كونهم على يقين أن دعاءهم ينفع كما ينفع المال والسلاح وكل مؤنة محسوسة.

وقد نطق بذلك الوحي كتاباً وسنة، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: (لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)^(١). وما أحوج الدعوة إلى مثل أصبع محمد بن واسع رحمه الله تشكو إلى الله غربة الدين، وتستنزل نصره ومدده. وما أحوجنا إلى ذاك الخفي النقي التقي الضعيف المتضعف الذي لو أقسم على الله لأبره، فالدعاء الدعاء أيها الدعاة الكرماء، فالله الله بالانطراح بين يديه، وكمال التوكل عليه، فالفرج قريب، والقلوب بيده بين أصبعين من أصابعه، ولا تملوا من كثرة الدعاء ولا تستأخروا الإجابة والفرج، وقوموا لله تعالى جماعات ووجدانا متضرعين أن يهدي ضال المسلمين ويثبت مطيعهم، وأن يفتح لنا القلوب ويشرح لدعوتنا الصدور وأن يوفقنا لكل ما فيه نصرة دينه وإعلاء كلمته، وإعزاز شريعته، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو أعلى وأعلم.



(١) رواه الترمذي (٢١٤٠) في القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، وهو حديث حسن، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، ورواه الحاكم، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع.

القاعدة الثالثة والأربعون

كل طريق يفضي إلى وجود المنّة لأهل الدنيا
فالأسلم للداعية التحرر منه
ما استطاع إلى ذلك سبيلا

أقول: إن العزة لله تعالى، ولمن أراد الله تعالى له العزة، والعزة معنى سام رفيع، وضدها الذلة والمهانة وقد قضى ربنا جل وعلا أن العزة لا تكون إلا في طاعته واتباع شريعته، وأهل نصرته، فالدعاة إلى الله تعالى داخلون في جملة أهل العزة، فليحرص الداعية أن لا يسلك الطريق التي توجب له الذلة والمهانة وإن من تلك الطرق أن يفتح الداعية على نفسه باب المنّة للمخلوقين من أهل الدنيا، وهذا الأمر مكروه شرعا مبغوض لله تعالى، فالكرامة والعزة من الصفات التي لا بد من المحافظة عليها، وإن أهل الدنيا من أهل المناصب والمال والملك والجاه العريض يحاولون استمالة قلب الداعية بشيء من حطام الدنيا حتى يذلوه به، وقد كان من مقاصد بعض الحكام في الأزمان السابقة إذلال العلماء والدعاة بما يجود عليهم من حطام الدنيا، وأهل العلم لا يزالون يحاربون أبواب المنّة عليهم للمخلوقين، ويسدون كل طريق يوجب ذلك، فإن المنّة لأهل العلم على أهل الدنيا، ولا تزال الأمور مستقيمة ما دام العالم عزيزا لا منة للمخلوقين عليه، ولكن متى ما تنازل عن هذا المنصب الرفيع وصار يتبع ما عند أهل الدنيا من الحطام الفاني فإن الأمور

ستنقلب على عقبيها، وعلى هذا سار سلف الأمة، فقد كانوا يرفضون عطايا السلطان ويجذرون من الدخول عليه في الأعم الأغلب إلا فيما كانت مصلحته تعود لعموم المسلمين، فلم يكونوا يطلبون لأنفسهم من أهل الدنيا شيئاً، حتى لا تكون لأحد منهم على العالم منة، فإن جناب العالم لا يزال في منعة ما كان عزيز النفس مترفعاً عن الدنيا وأهلها.

ومتى ما دخل حب الدنيا في قلبه فقد فسدت الأمور وتعطلت المصالح، وفي الحديث: (من تتبع الصيد غفل ومن وقف بأبواب السلطان افتتن)^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت».

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه، وله من العز بقدر طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وعليه من الذل بحسب معصيته، فليست العزة الحقيقية في منصب يتولاه العالم ولا في مال يحصله، ولا في حسب أو نسب، أو غيرها مما هو من أمور الدنيا، وإنما عزة العالم في القرب من الله تعالى بفعل الطاعات وجوبا

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧١، وأبو داود (٢٨٥٩) في الصيد، والترمذي (٢٢٥٧) في الفتن (٦٩)، النسائي في

الصيد ٧/ ١٩٥، وإسناده ضعيف، ومع ذلك قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

واستحبابا، وترك المنهيات تحريماً أو كراهة، وبالترفع عن الدنيا والدنيا من الأقوال والأفعال، وقد ضرب السلف رحمهم الله تعالى أروع المثل في العزة، قال الآجري رحمه الله تعالى في أخلاق العلماء: «فإن الله عز وجل، وتقديست أسماؤه، اختص من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب، ففضل عليهم، فعلمهم الكتاب والحكمة وفقهم في الدين، وعلمهم التأويل وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع والحسن من القبيح، فضلهم عظيم، وخطرهم جليل، ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العباد، وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج والصحيح على من خالف بقولهم محجاج. الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عند، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه، حتى وقف فيه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر، وما ورد على أمراء المسلمين من حكم لا علم لهم به فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدر، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم، فبقول العلماء يحكمون وعليه يعولون، فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت

قلوب أهل الزيف، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا».

فكيف يفرط العالم والداعية إلى الله تعالى في هذه الكرامة الكبيرة والمنزلة العالية الرفيعة بفتح أبواب المنة عليه لأهل الدنيا؟ وقد كان السلف رحمهم الله تعالى على جانب كبير من الحذر من الولوج في أمر يوجب تسلط أهل الدنيا عليهم بالذل، فعن فرات بن السائب عن ميمون بن مهران قال: «ثلاث لا تبلون نفسك بهن لا تدخل على السلطان وإن قلت أمره بطاعة الله ولا تصغين بسمعك إلى هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله»، وقال عبدالغافر بن إسماعيل: «كان أبو إسماعيل الأنصاري على حظ تام من معرفة العربية والحديث والتواريخ والأنساب، إماما كاملا في التفسير، حسن السيرة في التصوف، غير مشغول بكسب، مكتفيا بما يياسط به المريدين والأتباع من أهل مجلسه، في العام مرة أو مرتين على رأس الملاء، فيحصل على ألوف من الدنانير، وأعداد من الثياب والحلي، فيأخذها ويفرقها على اللحم والخباز، وينفق منها، ولا يأخذ من السلطان ولا من أركان الدولة شيئا، وقل ما يراعيهم، ولا يدخل عليهم، ولا يبالي بهم، فبقي عزيزا مقبولا، قبولا أتم من الملك، مطاع الأمر نحو من ستين سنة، من غير مزاحمة، وكان إذا حضر المجلس لبس الثياب الفاخرة، وركب الدواب لثمينه، ويقول: إنما أفعل هذا إعزازا للدين، ورغما لأعدائه، حتى ينظروا إلى عزي وتجملي فيرغبوا في الإسلام».

وقد عز سلفنا الصالح رضوان الله عليهم عندما كان للعلماء فيهم مكانتهم فقد كانت الشعوب والعامّة تسير في ركابهم، وتأتمر بأمرهم، وترى أن سلطانهم أعز من سلطان الملوك، وهذا عبدالله بن المبارك رحمه الله يدخل بغداد فينجل الناس إليه وتقول امرأة لهارون الرشيد وقد رأت خروج بغداد كلها لاستقباله: «هذا والله الملك لا ملك هارون»، ولا نعني بهذا الكلام قلة الأدب على سلطان الله في الأرض، لا، وألف لا، بل حق الحاكم الإكرام والتقدير والإجلال، ولكن كلما كان الداعية والعالم أبعد عن قبول عطايه كلما كانت كلمته أعز وجنابه أهيّ، وقد كان الإمام أحمد من أبعد الناس عن قبول عطايا السلطان، وهو إمام أهل السنة والجماعة، وهل قام سعيد بن جبّير في وجه الحجاج ناصحا ومذكرا وأمرًا بالمعروف إلا لما سلم من منة أهل الدنيا، فالحجاج هو الذليل وإن كان هو القاتل، وسعيد بن جبّير هو العزيز وإن كان هو المقتول، وهكذا ينبغي أن يكون أصحاب الهمم العالية وهذا أمرٌ كليف بأن يجعل المرء لا يقبل الذل، جاء في ترجمة الخطيب البغدادي رحمته الله أنه دخل عليه بعض العلوية ومعه دنائير فقال للخطيب: «فلان يُسلم عليك ويقول اصرف هذا في بعض مهماتك - يعطيه شيئاً من المال - فقال لا حاجة لي فيه وقطّب وجهه»، فقال له الرجل: «كأنك تستقله»، ونفض ما معه على سجادة الخطيب؛ ليُريه أنه مألٌ كثير فقال هذه ثلاثمائة دينار فقام الخطيب رحمته الله محمّر الوجه وأخذ طريقه وخرج وسحب سجادته، وظلّ الرجل يلتقط الدنانير ويجمعها من وراءه. قال أحد تلاميذ الخطيب - وهذا يبيّن لنا أثر الهمّة العالية - قال: «ما أنسى عز خروج الخطيب وذل ذاك العلوي الذي يجلس في الأرض يلتقط الدنانير وذاك قد مضى لحاله»، وهذا

سعيد الحلبي وهو من كبار أشياخ الشام وعلمائها والمقدمين فيها، كان في الدرس يجلس ماداً رجله لكبر سنه ودخل عليه جبار الشام إذ ذاك إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا وهذا عهدٌ قريب منا ليس ببعيد فظلّ في درسه ولم يلتفت إليه ورجله ممدودة نحوه فامتعض هذا الرجل، وكنتم أمره، ولما خرج بعث إليه بصرة من المال فيها ذهب فردّها الشيخ وقال للرسول: «قل للبasha إن الذي يمد رجله لا يمد يديه»، وهذا شيخ الإسلام رحمه الله تعالى لما كان نزيها عن أغراض الدنيا ومطامعها، مترفعاً عن شهواتها وحطامها، ولا يرغب عند أهلها في أمر من أمورها، كان بسبب ذلك قوي النفس قوي الكلمة مهاباً عند الكبار والصغار، لا يخاف في الله لومة لائم، قوالاً بالحق، لا يخاف من دنيا ستزول، ولا من منصب سيفصل منه، ولا من غضب أحد من أهل الدنيا له عليه فيها منة، فكان يقف عند الملوك والأمراء أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر كأنه واقف أمام أحد التلاميذ الصغار، قال صاحب المناقب العلية في مناقب ابن تيمية: «ولما ظهر السلطان غازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكرج وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ووصل الخبر إلى الشيخ - أي ابن تيمية - فقام من فوره وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة ووعدهم على قيامهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتدب منهم رجالاً من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم فخرجوا معه إلى حضرة سلطان غازان فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم فحضروا بين يديه. فتقدم الشيخ رحمته الله أولاً فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن

تسليط المخزول ملك الكرج على المسلمين وضمن له أموالا واخبره بحرمة دماء المسلمين وذكره ووعظه فأجابه إلى ذلك طائعا وحقت بسببه دماء المسلمين وحيت ذراريمهم وصين حريمهم»، وحدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا قدس الله روحه قال كنت حاضرا مع الشيخ حينئذ فجعل - يعني شيخ الإسلام - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلبا منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيته أعظم انقيادا مني لأحد منه، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ للترجمان: قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت. فقال له غازان: إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حران وتنتقل إليه ويكون برسمك فقال ابن تيمية: «لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم استبدل به غيره. فخرج من بين يديه مكرما معززا قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه ما أراده وكان ذلك أيضا سببا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش»، وكان يقول: لا

يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه فإن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك» ا.هـ. كلامه رحمه الله تعالى.

فتلك هي العزة وربك، والتي لا بد وأن يتربى عليها أهل العلم والدعوة، نعم، فإنها إن فقدت فناهيك عن تسلط أهل الدنيا على أهل العلم، فجناب العالم في القلوب كبير، ولكنه يصغر كلما أذل العالم نفسه بالرغبة في دنيا أهل الدنيا فاحذر أن يتمندل بك الكبراء، أو يمتطيك السفهاء، فتُتَلَّين في فتوى، أو قضاء، أو بحث، أو خطاب، ولا تسع بعلمك إلى أهل الدنيا ولا تقف به على أعتابهم ولا تبدله إلى غير أهله وإن عظم قدره. ومتع بصرك وبصيرتك بقراءة التراجم والسير لأئمة مضوا، ترى فيها بذل النفس في سبيل هذه الحماية، لا سيما من جمع مثلاً في هذا، مثل كتاب "من أخلاق العلماء" لمحمد سليمان رحمه الله تعالى، وكتاب "الإسلام بين العلماء والحكام" لعبد العزيز البدري رحمه الله تعالى، وكتاب "مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لفاروق السامرائي.

واعلم أن تلك العزة لا ينالها من رغب في حطام الدنيا وذل عند أهلها رجاء ما عندهم من حطامها، نسأل الله تعالى أن يجنبنا أسباب الذل والمهانة في الدنيا والآخرة، وبسبب ذلك صار الكثير من أهل العلم يسكت عن الأخطاء والمنكرات والمخالفات الظاهرة خوفاً على هذه الدنيا المؤثرة عنده على كل شيء، فاحذر من هذا المسلك، فإنه مسلك من لا يرجون لله وقاراً، الذين جعلوا الأساس هو حفظ المنصب، فيطوون ألسنتهم عن قول الحق، ويحملهم حب الولاية على المجاراة،

وهذا أمر لا ينبغي لأهل العلم والفضل والإيمان والدعوة، فكم من الفساد الكبير العريض الذي سيدخل على الدعوة والعلم إن أذله أهله عند أبواب الولاية، فلنتق الله تعالى معاشر الدعاة وطلبة العلم في أمانة العلم والمحافظة على هيئته وقدره وقيمته العالية الغالية الكبيرة، ولا نبتذله في المواضع التي تنقصه وتذهب رونقه، وإن الأمر لكبير والحمالة لا طاقة لنا بها إلا بتوفيق من الله تعالى وحسن فضل وكمال تسديد، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.



القاعدة الرابعة والأربعون



مراقبة البواعث والنوايا في أمور الدعوة

مطلب في السلامة من التبعته



في الدنيا والآخرة

أقول: إن الأمور مبناها على النيات، فلا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم، وصوابا على وفق السنة، وبما أن الدعوة إلى الله تعالى من أعظم العبادات وأكبر القربات فلا بد وأن يراعي الداعية أن تكون نيته في القيام بها هي النية الخالصة، لأن الله تعالى يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ هو حقيقة الإخلاص، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...) ^(١) الحديث.

فالدعوة التي لا تقوم على ساق الإخلاص لله تعالى فإنه لا خير فيها واعلم رحمك الله تعالى أن هناك جملا من الأمور لو راعيتها بارك الله فيك لتحقيق لك مقام الإخلاص بإذن الله تعالى، وهي كما يلي:

(١) سبق تخريجه ص ٥٨.

الأول: كثرة دعاء الله تعالى بأن يجعل عمله خالصاً لوجهه الكريم، فإن الدعاء سلاح المؤمن، وهو أعظم ما يحقق هذا الأمر، فعلى العبد أن يلح على ربه جل وعلا بصدق وتفان أن يعينه على تحقيق أعلى مراتب الإخلاص، وليتحرر أوقات الإجابة التي ورد بها الدليل كالدعاء في ساعة الإجابة يوم الجمعة، وفي السجود، وفي ثلث الليل الآخر، وفي السفر، وفي الأزمات الفاضلة كرمضان والعشر الأواخر منه ويوم عرفة ونحو ذلك، وفي الأمكنة الفاضلة كمكة والمشاعر والمدينة، فلا بد من الإلحاح في الطلب، وأن يكون هو ديدنك دائماً، فلرب دعوة صادقة يعلم الله تعالى من قلب صاحبها الصدق تكون سبباً لسعادته في دنياه وأخراه، وقال بعض السلف: «إن العبد ليلبغ بدعائه ما لا يستطيعه بعمله»، فالدعاء الدعاء أيها المسلمون، لاسيما الدعاء بالإخلاص، ولذلك قال النبي ﷺ: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يقلبها كيف يشاء)، ثم يقول: (اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك)^(١)، وأعظم الطاعة الإخلاص في الأعمال، فمن فتح له باب الدعاء بالإخلاص في العمل فقد فتح له باب عظيم من أبواب الخير والبر والتوفيق، فأوصيكم ونفسي المقصرة بهذا الأمر فإنه أكد ما يحقق لك هذا المطلوب الأعظم، والذي هو الإخلاص في الأعمال.

الثاني: أن يستشعر العبد قبل العمل وفي أثناءه أن الله تعالى مطلع على ما يكره صدره وعالم به، وأنه لا يخفى عليه، فكيف يراعي نظر الناس ويهمل نظر الرب جل وعلا، فإن محط نظر الناس هو ما يظهر من العمل، ومحط نظر الرب هو ما يدور في

الباطن من النوايا، فكيف يقبل العبد على تصحيح ما هو محط نظر الناس رغبة فيهم أو رهبة منهم، ولا يقبل على تصحيح ما هو محط نظر الرب، رغبة فيما عنده من الثواب ورهبة مما عنده من العقاب؟ هذا تناقض عجيب، ولكن كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]، فهو يستخفي من ذم الناس بتصحيحه لما هو محط نظرهم - وهو الظاهر - ولا يستخفي من ذم الله تعالى بتصحيح ما هو محط نظره - وهو الباطن - ثم يرجو العبد بعد ذلك ثواب الله تعالى وعظيم نواله، وهذا لا يكون أبداً، ولذلك فإن من بواعث الإخلاص في القلب أن لا يراقب العبد نظر الناس أبداً، وإنما يراقب ويستشعر نظر الرب جل وعلا كما قال النبي ﷺ في مرتبة الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١)، وأنا ضامن إن شاء الله تعالى لمن راعى هذا الأمر والذي قبله أن يكون في يوم من الأيام ممن يضرب به المثل في الإخلاص في الأعمال.

الثالث: أن يعلم أن الإخلاص من فروض الشرع في العمل، وأنه شرط في قبولها، وأنها لا يصح إلا به وأن تعبه الذي تعبه في العمل لن تكون له ثمرة في الآخرة ولا في الدنيا إلا بالإخلاص، بل إن عمله الذي فعله بلا إخلاص في الحقيقة وبال وعقوبة عليه، ولذلك أريد منك أن تسأل نفسك أيها الأخ الكريم: ما الذي جعلك تأتي للمسجد؟ فلا جرم أنك ستقول: طاعة الله تعالى فيما أمر به، فأقول لك: فالدافع لك على المجيء هو امتثال الأمر، فاذا ذكر كذلك أن الإخلاص مما أمرك الله

(١) حديث صحيح، رواه أحمد ٥٢/١، ومسلم في الإيمان رقم (٨)، والترمذي في الإيمان (٢٧٣٨)،

وأبو داود في السنة (٤٦٩٥)، والنسائي في الإيمان ٨/٩٧.

تعالى به فكما أنك أفلحت في القيام بواجب الظاهر وهو الحرص على العمل طاعة لله تعالى وامثال أمره فعليك كذلك أن تفلح في تحقيق المأمور في الباطن وهو الإخلاص، فكلاهما أنت مأمور به، وكلاهما أنت مسئول عنه، ومحاسب عليهما جميعاً، بل إن الحساب على أمر الباطن أشد وأعظم وأنكى، فإن أردت أن تصلي، فذكر نفسك دائماً أنك مأمور بالصلاة ومأمور بالإخلاص فيها، وإن أردت أن تزكي، فاستشعر أنك مأمور بالزكاة ومأمور بالإخلاص فيها، وإن أردت أن تصوم، فاستشعر أنك مأمور بأميرين: بالصيام وبالإخلاص في الصيام وإن أردت أن تحج أو تعتمر فاستشعر أنك مأمور بأميرين: بالحج والعمرة، وبالإخلاص فيهما وهكذا في سائر الأعمال، فلا تأخذ الأمر بالعمل في الظاهر بمعزل عن استشعار الأمر بالإخلاص في الباطن، فانتبه لهذا الأمر فإنه مهم جداً، والغفلة عنه هي التي أوجبت الفساد لكثير من الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فانظر كيف بين أنهم مأمورون بأميرين: أن يعبدوا الله، وهذا هو الأمر الأول، ثم قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي العمل، وهذا أمر ثان، وهو الأمر بالإخلاص في العبادات، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، فبين الله تعالى أن العبد مأمور بالعبادة، وبالإخلاص في العبادة، وهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فذكر أيها الحبيب نفسك دائماً أنك مأمور بالإخلاص في العبادة كما أنك مأمور بالعبادة، فمن استشعر هذا وكان هو همه فإنه من المفلحين الرابعين المقبولة أعمالهم، والله المستعان.

الرابع: أن تذكر نفسك دائماً بعقوبة من عمل لغير الله تعالى أو أشرك في نية التعبد، أو راقب الناس في عمله، فإن الرياء عقوبته وخيمة في الدنيا والآخرة،

وتذكير النفس بهذه العقوبة قد يكون من الزواجر لها عن النوايا الفاسدة في العمل، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا تُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار^ط وحبط ما صنعوا فيها وبطل ما كانوا يعملون﴾ [هود: ١٥-١٦]، وهذا كاف في زجر القلوب عن العمل لغير الله علام الغيوب، واسمع إلى هذا الحديث الذي يشيب منه الرأس وترتاع لهوله الأفتدة، قال النبي ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَيُّ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَيُّ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَيُّ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ)^(١)، فإن من تأمل هذا الحديث حق التأمل فإنه يتبين له مدى عظيم أمر النية، فإن هذه الأعمال المذكورة في الحديث هي من

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد صفحة (٤٢) ومسلم رقم (١٩٠٥) في

الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، والترمذي رقم (٢٣٨٣) في الزهد، باب ما

جاء في الرياء والسمعة، والنسائي ٦ / ٢٣ و ٢٤ في الجهاد.

أكبر الأعمال العبادية وكان الواجب أن يرتفع بها صاحبها إلى أعلى الدرجات، إلا أنها خسفت به في أسفل سافلين، فكيف هذا؟ إنه فساد الباطن هو الذي أوجب له ذلك، وإلا فلو كانت هذه الأعمال الطيبة الكبيرة مقرونة بنية صالحة، فناهيك عن الخير الذي يسكون لصاحبها، ولكن لما تخلفت النية عنها صارت شوما ووبالا وعذابا وعقوبة على فاعلها، فلو تدبر العبد هذه العقوبة لكفى بها زاجرة والمهم الذي أريد قوله هنا هو أن من دواعي الإخلاص وأسبابه تذكير النفس بعقوبة الرياء ومغيبته.

الخامس: تنبيه النفس وإقناعها دائما بأن الخلق عن بكرة أبيهم لا يملكون لها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا قنطيرا ولا قطميرا، ولن ينفعها مدحهم وإن مدحوها إلى يوم القيامة إن كان الله تعالى غاضبا عليها، ولن يضرها ذمهم لها وإن ذموها إلى يوم القيامة إن كان الله تعالى راضيا عنها فالخلق ليس بيدهم شيء، فكيف يقبل القلب على مرآتهم بالعمل، تحسبا لنفعهم من مدح أو شهرة؟ وهم لا يملكون هذا، فلا بد من قطع القلب عن النظر إلى الخلق، أقنع نفسك دائما أنهم ليسوا بشيء فلا يملكون ثوابا ولا عقابا ولا جنة ولا نارا، فلماذا أراقبهم في أعمالي، فهذا الأمر من أنفع ما يكون في قطع التصنع للناس في الأعمال، لأن العبد لم يراقب الناس في العمل إلا رجاء شيء منهم، إما جلب منفعة أو دفع مضرة، فإن كان العبد جازما بأن الله تعالى وحده هو المالك للنفع والضرر والثواب والعقاب، وأن المخلوقين لا يملكون من ذلك شيئا، فلا يمكن أن يلتفت القلب لأحد منهم، وإنما سيكون سابحا في طلب مرضاة ربه جل وعلا ومراقبا له وحده، وهذا هو حقيقة الإخلاص.

السادس: أن يعلم العبد علم اليقين بأن الجزاء والحساب يوم القيامة لا يكون على الدعاوى، وإنما يكون على حقائق الأعمال، بالنظر إلى بواطنها والبواعث عليها، فالحساب يوم القيامة على السرائر والظواهر تبع لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

فالأحكام في الدنيا على الظواهر والسرائر تبع لها، وأما في الآخرة فهو بالعكس، فالحساب يوم القيامة لن يكون على دعواك بأنك قد صليت أو زكيت أو حججت واعتمدت أو بررت بوالديك أو تصدقت أو صمت ونحو هذه الدعاوى، لا، فالأمر أعظم وأشد من ذلك، لأن هذا اليوم هو يوم فضيحة البواطن، فالحساب لن يكون على ما أظهرته من العمل وتصنعت به للعباد، بل سيكون على نيتك في هذه الأعمال والسريرة التي دفعتك للعمل فأعد للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فلو أن العبد تذكر هذا قبل العمل وفي أثناء العمل، وحال هجوم داعي الرياء عليه، لكان الحال تغيرت والقلوب صفت من هذه القذارة، أعني قذارة الرياء والتصنع للخلق.

السابع: أن يقبل العبد على التعرف على الله تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته فإن ذلك يورث رجاءه وحده وخوفه وحده، فإن من عرف الله تعالى عرف أنه المستحق لأن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يوحد بإرادة العمل فلا يشرك معه فيه غيره، ولذلك فالعارفون بالله تعالى هم المحققون لمقامات الإخلاص، وأما الجاهلون به جل وعلا فهم المقبلون على تصحيح ظواهر الأعمال لإرضاء الخلق، فمن أراد الإخلاص حقاً فليتعرف على الله تعالى بمقتضى دراسة العقيدة على منهج سلف الأمة.

الثامن: الحرص الكامل على إخفاء الأعمال ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأعني بها تلك النوافل التي ليس من السنة فعلها في الجماعة، فعلى العبد الحريص على أعماله أن تكون أعماله التطوعية في السر لا في العلن فتكون نوافله القبلية والبعدية في البيت ما استطاع إلى ذلك سبيلا، كما قال النبي ﷺ: (أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)^(١)، وقيام الليل يكون في الخفاء بعيدا عن الأعين والذكر في الصباح والمساء يكون في الخفاء بينك وبين نفسك بلا جهر به، وهكذا في سائر الأعمال التطوعية، فإن هذا أدعى للإخلاص وأبعد عن الرياء، وهكذا كان دأب سلف الأمة كما سيأتينا شيء من صور حرصهم على تحقيق الإخلاص إن شاء الله تعالى.

التاسع: المجاهدة والمدافعة والصبر واحتساب الأجر في ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت]، وأعظم المجاهدة مجاهدة الشيطان وما يلقيه على القلب والروح من النوايا الفاسدة والبواعث الخبيثة، أعظم المجاهدة مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومجاهدة الهوى، فأمامك أعداء كثر، إبليس، والدنيا ونفسك والهوى، فلا بد من إعداد العدة والحذر الكامل، والمواجهة القوية والصبر والمصابرة والاستعانة بالله تعالى، ومن صدق مع الله تعالى فلن يخذله ولن يخيبه، ومن التجأ إليه فلن يسلمه لعدوه، والله المستعان.

العاشر: الحرص على الاطلاع على سير سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة الهدى، وكيف كانوا يحرصون على تحقيق الإخلاص،

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في الأدب ٤٣٠/١٠، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨١)، وأبوداود

وكيف كانوا يعانون في تحقيقه الأمور الصعاب والمشقة الكبيرة، فإنهم خير سلف لأمتهم، فعلى العبد أن يقرأ ما دونه العلماء في ذلك، لعله أن يقتدي بهم، وأن يكونوا خير أسوة له في تحقيق مراتب الإخلاص، فإن من عاش مع سلف الأمة فإنه سيفوز بها فازوا به من المراتب العليا والمنازل السامية، فهذه بعض الأمور المعينة على الإخلاص لعلك تعيد قراءتها بين الفينة والأخرى لتحفظها وتعمل بها فتكون خير معين لك على تحقيق هذا المطلوب الكبير والمقصد العظيم. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم أقول: إن أعظم ما يدخل على الداعية إلى الله تعالى فساد النية، بحيث أن لا يكون في ذهنه في دعوته إلا مجرد المدح والثناء من الناس والتكثير من الأتباع، أو لا يكون همه إلا إرضاء الولاة من الأمراء فحيث كان رضاهم فهو محط دعوته، فليس همه إصلاح المجتمع ولا إرضاء الله تعالى، وإنما همه المنصب والمال وبقاء الجاه بمعرفة الولاة ورضاهم عنه، أو لا يكون همه إلا أن يشار له بالبنان أنه العالم أو الداعية، ونحوها من المقاصد الخبيثة التي تفسد رونق الدعوة وتذهب هيبة الدعاة إلى الله تعالى، فالحذر الحذرياً أحبابي من فساد النوايا، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يعصمنا وإياكم من الزلل وفساد النية وخبث الطوية، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.



القاعدة الخامسة والأربعون
الدعوة من أمور الشرع الكبيرة
فلا بد وأن تبني على الوسطية في أمورها

أقول: لقد تقرر عند أهل العلماء رحمهم الله تعالى أن هذه الأمة وسط بين الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وتقرر عند عامة السلف رحمهم الله تعالى أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأمة كوسطية الأمة بين الأمم، وهذه الوسطية لا بد وأن تكون في كل أبواب الدين، في العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها من أبواب الدين، وحيث كانت الدعوة إلى الله تعالى من أبواب الدين الكبيرة، فلا بد وأن تكون مبنية على الوسطية، فإنه إن جانبت الدعوة منهج الوسطية إلى الغلو والإفراط، أو إلى التقصير والتفريط فإنه لن تؤتي ثمارها اليانعة، ولن يكون دورها في إصلاح المجتمع ولذلك فإن الدعوات التي قامت ولم يكن لها آثارها في المجتمع إنما كان الخلل في ذلك هو مخالفتها لمنهج الوسطية إما إلى إفراط أو إلى تفريط، بل لا نبعد إن قلنا: إن الدعوة إن خالفت منهج الوسطية فإنها قد تكون آثارها على الأمة سلبية، كما هو الحال في كثير من الدعوات، والتي بنت دعوتها على الوثنية وتقرير الشرك أو على البدعة ومخالفة السنة، أو على تقرير الشهوة والهوى.

فالله الله أيها الدعاة الكرام باعتماد المنهج الوسطي في أمور الدعوة كلها، ولا يتحقق هذا الأمر إلا إن كانت الدعوة قائمة على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة،

فمتى ما اختل واحد من هذه الأصول الثلاثة فناهيك عن الفساد والخلل الكبير الذي سيحل في الأمة، فالوسطية والتوازن من أعظم المنن والنعم التي يمن الله تعالى بها على عباده، فمن أوتيتها فقد أوتي خيرا كثيرا، فالمنهج الوسطي هو من أعظم ما اختصت به هذه الأمة فلا بد من تربية الأمة عليه، فلا مخرج للأمة من تلك الأزمات التي تمر بها إلا باعتماد هذا المنهج وصور الوسطية في الدعوة كثيرة جدا لا تكاد تحصر، ولكن من باب التنبيه على طرف منها نذكر لك جملا منها، فأقول:

منها: الوسطية في الجمع بين جانبي التعبد والدعوة، فإن من الناس من يغلب جانب التعبد على جانب الدعوة، ومنهم من يغلب جانب الدعوة على جانب التعبد، وأعني بالتعبد أي عبادته هو في نفسه، فمن الدعاة من تراه في كل مجال من مجالات الدعوة، ولكن إذا رأيته هو في خاصة نفسه رأيت عنده من التقصير في جانب العبادة ما لا تصدق صدورده من مثله في جهده ونشاطه في الدعوة، فلا ترى عنده حرصا على النوافل من قيام الليل وصيام الأيام الفاضلة أو التنفل القبلي والبعدي، المهم أنك تلاحظ التقصير الكبير في اهتمامه بزيادة روحه، وهذا أمر بجانب للوسطية، بينما ترى بعض الناس عنده من الاهتمام بالتزود الذاتي ما لا يقارنه فيه أحد، ولكنك لا تراه في مواطن الدعوة إلى الله تعالى، فلا أثر له ولا مشاركة في جانب الدعوة، بل بعضهم تجده يتهرب من المسؤولية الدعوية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهذا أمر بجانب لمنهج الوسطية، والحق والعدل في ذلك هو سلوك الطريق الوسط، فلا يغلب جانب العبادة على جانب الدعوة، ولا جانب الدعوة على جانب العبادة، والجمع بينهما ممكن ولا يدعي التعارض بينهما إلا ضعيف النظر والفهم، أو

من هو أصلاً كسول في خاصة نفسه، فعلى الداعية أن يهتم بالأمرين جميعاً باعتدال وتوسط، فلا يغلب جانباً على حساب جانب، وهكذا تسير الأمور على خير ما يرام، ولذلك فقد كان النبي ﷺ جامعاً بين هذين الأمرين جمعاً لا مثيل له، فقد كان هو سيد الدعاة وأكبر الدعاة وأعظم الدعاة، ومع ذلك فهو أكمل المتعبدين لله تعالى في صيامه وصلاته وقيامه بالليل، وفي غيرها من سائر أبواب التعبدات، فلم تكن دعوته تغلب على جانب تعبده، ولم يكن تعبده يشغله عن جانب دعوته، وهذا هو منهج الوسطية، والله أعلم.

ومنها: الجمع في الدعوة بين مبدأي الترغيب والترهيب، كما شرعناه سابقاً، فلا ينبغي الترهيب في الدعوة دائماً وأبداً، ولا الترغيب دائماً، لأن التركيز على منهج الترغيب مما يوجب للنفوس الأمن من مكر الله، والتركيز على منهج الترهيب يوجب للنفوس اليأس من روح الله، ولكن الجمع بينهما يورث الروح والقلب الجمع في التعبد بين الرغبة والرهب، وهذا هو المنهج الوسط، والذي لا تقوم الأمور إلا به، وهي طريقة الرسل المرسله، والكتب المنزلة من الله تعالى، وهو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه وعليه: فالداعية الذي لا تراه إلا مرهباً، هذا عنده قصور في منهج الوسطية، والذي لا تراه إلا مرغباً هذا عنده أيضاً قصور في تحقيق منهج الوسطية، والذي تراه جامعاً بين الأمرين ومرجحاً لأحدهما عند ورود ما يوجب الترجيح فهو الداعية الموفق والمهدي إلا سواء الصراط، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في الدعوة بين الترغيب في الآخرة وعدم التزهيد الكامل في الدنيا، فإن من الدعاة من لا تراه إلا مهتماً بأمور الآخرة فقط، ولا يعرج على أمور

الدنيا بضبطها بمنهج الله تعالى وشريعته فهو داع إلى الزهد الكامل في الدنيا، وهذا فيه قصور، بل الحق هو الاهتمام بالأمرين جميعاً، وضبط الأمرين بشريعة الله تعالى، فلا نرغبهم في الدنيا الترفع المطلق، ولا نزهدهم فيها التزهيد المطلق، بل الوسطية في ذلك الأمر مطلوبة، فالنبي صلى الله عليه وسلم باع واشترى واستأجر ودخل السوق ووكل في البيع والشراء، وتملك الإبل والشاء، وتزوج وأكل اللحم واستمتع بأكل الحلوى والعسل والبطيخ بالرطب، وأكل الشواء وكان يحب الكتف، وسمع الشعر وكافأ عليه، ولبس الجميل والمتوسط من الثياب، وحث على العلم ورغب فيه، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على أن الأمر فيه وسطية بين النظر في هذا الأمر، فليس العبد مأموراً بترك أمور معاشه وما يصلح دينه الترك المطلق، ولا هو مأمور بالتوغل في أمور دنياه التوغل الذي يشغل قلبه وعقله عن التعبد، والجمع بينهما مطلوب، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، قال ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف)^(١)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، وهذا لإقامة أمور الدنيا، ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وهذا لإقامة أمر الدنيا والآخرة وقال عليه الصلاة والسلام: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ الْجَبَلَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَسْعُهَا فَيَسْتَفْنِي بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ)^(٢)، وقال: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِيهِ، قَالَ: كَانَ دَاوُدُ ﷺ لَا

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤) في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، وأحمد

(٢) إسناده صحيح على شرط الشيخين، رواه البخاري (١٤٧١)، وأحمد ٢٦/٣، والبخاري (٩٨٢).

يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدَّيْهِ^(١)، وسئل عن أطيّب الكسب، فقال: (عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور)^(٢)، ومن المعلوم أن الإسلام ليس ديناً مقصوراً في جهة من جهات الحياة فقط، لا، وألف لا، بل الإسلام دين شامل لكل مناحي الحياة، فلا تجد جزئية من جزئيات الحياة إلا وللإسلام فيها تقرير وآداب، فالإسلام معك بأحكامه وآدابه حيثما حللت وارتحلت، فينبغي للداعية الموفق أن يتوسط بين دعوة الناس إلى العبادة والزهد، وبين الحث على طلب الخير والرزق، فلا يطغى جانب على حساب جانب، ومتى ما اختل منهج الوسطية في هذه المسألة فاعلم أن ميزان الحياة سيختل، فالكلام في أمور الزهد في الدنيا دائماً وكأن الإسلام ليس له تعلق بطلب الرزق الحلال ليس بصحيح، والكلام في الدنيا بقضها وقضيضها دوماً وكأننا ما خلقنا إلا لها ليس بصحيح، والوسطية في هذا الأمر مطلوبة، وخير الأمور ما كان عليه حال النبي ﷺ وصحابته الكرام، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في النقد، فلا نمنع النقد مطلقاً، ولا نفتح الباب فيه على مصراعيه مطلقاً، بل نبني أمر النقد على الوسطية، وذلك أن النقد لا يكون فعالاً مفيداً إلا إذا روعيت فيه قواعد أهل السنة والجماعة، وخلا عن حظوظ النفوس وشهواتها، فمن قواعد الوسطية في النقد الإخلاص إلى الله تعالى في النقد، وأن لا يكون مراده بنقده للأفكار والأشخاص والمذاهب إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة ونصر الحق وبيان الباطل وتحذير الأمة من الأمور التي لا تجني منها إلا المفاصد الخالصة أو الراجحة ومن

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في البيوع ٢٥٩/٤، باب كسب الرجل وعمله بيده، وأحمد ١٣١/٤.

(٢) حديث حسن لغيره، على خطأ في إسناده، رواه أحمد ٥٠٢/٢٨، وأخرجه الطبراني في الكبير

(٤٤١١)، وأخرجه الحاكم ١٠/٢، والبزار ٩/١٨٣.

قواعده: العدل والإنصاف في النقد، فلا ينبغي تجاوز الحد في النقد حتى تكون صورة المنقود صورة قبيحة بشعة وكأنه لا خير فيه للأمة أبداً، ولا ينبغي السكوت عن الأخطاء، بل على الداعية بيان الحق وإبطال الباطل لكن بعدل ووسطية، فإن كانت المصلحة الشرعية تتحقق بدون ذكر للأسماء فلا داعي لذكرها، بل نعالج الخطأ لذات الخطأ بغض النظر عن الأسماء، فلا داعي لجرح الناس في أنسابهم وأديانهم والقدرح في نياتهم، ولا داعي لذكر أحوالهم الداخلية التي لا شأن لها بما نحن بصدد نقده، وقد سمعت بعض الدعاة ينقد واحداً في مسألة علمية للمنقود فيها دليله الذي يراه صحيحاً، فقال هذا الرجل في نقده: وقد مسكت الهيئة هذا الرجل في عدة قضايا أخلاقية، قلت: وأي شأن لهذا في المسألة التي نحن بصدد نقدها، وهذا من التجاوز الذي لا يجوز، ومن فضيحة المؤمن، بل هو بجانب لأخوة الدين والإيمان، فإن الستر مطلوب، وأنت ترى وتسمع في النقد كلاماً لا يراد به مجرد النقد، بل يراد به جرح ذات الشخص وإسقاطه من جملة العلماء أو طلبة العلم، بل وإخراجه أحياناً من دائرة أهل السنة، أو الإسلام بالكلية، وهذا أمر لا يحل أيها الأحبة، فالوسطية مطلوبة، وتقوى الله تعالى هي زين الأمور وخير الطرق للعدل والإنصاف، ومن قواعده: الحذر الكبير من الشهوة الخفية، وهي أن تنقد في الناس لرفع ذاتك، وأنت الكامل، وأنت قد بلغت مرحلة في العلم تؤهلك للنقد والجرح والتعديل، فإن من الناس من لا يجد طريقاً للبروز والظهور إلا على أكتاف إخوانه من العلماء وطلبة العلم، فليس همه تصحيح الأخطاء ولا حماية الأمة من الأفكار الفاسدة، بل همه الظهور والشهرة ومن قواعده: أن يكون مبدأ النقد جار على مبدأ النصح والتوجيه والتصحيح، لا على مبدأ الفضيحة

والتشهير ونشر الغسيل - كما يقولون - فالنقد مبناه على تحقيق المصالح وتكميلها وتقليل المفسد وتعطيلها، ولكن كثيرا من نقد المناهج والأشخاص في الآونة الأخيرة صار مبناه على أمور لا تنبغي أن تكون بين المسلمين عموما وبين الدعاة وطلبة العلم على وجه الخصوص، فالله الله أيها الأحبة في ضبط اللسان وتقوى الله في أعراض المسلمين، والمهم أن النقد من الأبواب التي لا بد وأن تبنى على الوسطية، فلا يفتح الباب فيها مطلقا، ولا يغلق مطلقا، بل الأمر مبناه على الوسطية، ولا يتحقق مبدأ الوسطية إلا بضبطه بمثل هذه القواعد المستمدة من الكتاب والسنة، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في باب وسائل الدعوة، كما ذكرناه سابقا، فوسائل الدعوة لسنا نقول بفتح الباب فيها مطلقا، ولا نقول بقفل الباب مطلقا، بل نقول فيها بمنهج الوسطية، فنقول فيها ما قلناه سابقا من أن وسائل الدعوة توقيفية فيما خالف النص، واجتهادية فيما كان في دائرة النص، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في باب الدعوة إلى حفظ المتن وفهمها، فمن الناس من يدعو إلى حفظها دوما ولكن لا ينبه على أهمية استشرacها عند المتقنين لها، ومن الناس من ينبذ حفظ المتن، ولا يرى لها أهمية في ترسيخ العلم في القلوب، ويرى أنها لا داعية لها في صدر ولا ورد، وأن الاختصار على الفهم كاف عن حفظ الألفاظ، وكلا الأمرين فيه قصور، بل المطلوب الأول هو الفهم، ولكن الحفظ من وسائل ثبات العلم في القلب، فكلاهما يكمل الآخر، فالحفظ بلا فهم لا يكفي، والفهم بلا حفظ لا يثبت، ولكن الجمع بين الأمرين هو المتعين، فلا بد من الدعوة إلى الأمرين جميعا في إطار واحد فلا غنى للحفظ عن الفهم، ولا للفهم عن الحفظ، والله أعلم.

ومنها: الوعظ، فإن مبناه على الوسطية، وهي الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ فلم يكن عليه الصلاة والسلام يترك القوم من الوعظ، ولم يكن يكثر عليهم، بل كان يتخلوهم بالموعظة في الأيام كراهية السامة على الناس، فترك الناس من الموعظة مطلقا ليس بصحيح، وحمل الناس على كثرة المواعظ ليس بصحيح، بل التوسط في ذلك هو الحق، وهو الهدى الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله، وهو ما قررته لك في قاعدة مستقلة في هذا الصدد، والله أعلم.

ومنها: مراعاة الناس في التوسط بين التقصير المفرط في الوعظ أو التطويل الممل، فالأمر مبناه على الوسط، فلا ينبغي للداعية أن يطيل على الناس إطالة تملهم، ولا أن يقصر تقصيرا لا تتحقق معه الفائدة، بل يعظ حيث كانت القلوب مقبلة، والآذان له مصغية، وإن رأى بعض التملل فليقف وخير الأمور أوساطها، والله أعلم.

ومنها: تحقيق مبدأ الوسطية في التعامل مع الحكام والدخول عليهم، فلا ينبغي الدخول عليهم رجاء ما عندهم من الدنيا والطمع فيما يملكونه من المناصب، ولا أن يدخل عليهم راغبا فيما عندهم من حطام الدنيا، وفي المقابل لا ينبغي للداعية هجرهم من الوعظ والنصح والتوجيه وإيصال حاجة من لا يستطيع إيصالها والشفاعة الحسنة للمحتاجين، فالدخول عليهم مطلقا لا ينبغي، والامتناع من الدخول عليهم مطلقا لا ينبغي، ولكن الوسط هو الدخول عليهم في أمور النصح والتوجيه وإيصال حاجة المحتاج لهم، وهكذا كان دأب السلف الصالح رحمهم الله تعالى، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في الأخطاء الصادرة من بعض أهل الولاية، فإنه لا يجوز السكوت عنها مطلقا، ولا يجوز إنكارها أمام العامة، بل العدل والوسط أن يؤخذ

بيده ويخلو العالم به، ثم يناصحه فيما بينه وبينه من حيث لا يدري أحد، فالإنكار العلني لا يحل، والسكوت العام المطلق لا يحل، ولكن المناصحة السرية مع النبذة المشفقة والأدب الرفيع، والله أعلم.

ومنها: الوسطية في الاتصال بالجمهور، فإنه لا ينبغي للداعية الموفق أن يشغله الاتصال بالجمهور عن حوائج أهله ووالديه ونحوهم ممن له حق عليه من صلة رحم أو خلوة بالنفس للمحاسبة، ولا ينبغي أن تشغله هذه الأمور عن القيام بواجب دعوته، بل قيامه بتلك الحقوق الواجبة هي أصلا من الدعوة فلا تفريق بينها وبين أمور الدعوة الأخرى، بل والداك وأهلك هم أحق الناس بدعوتك، والمهم أنه لا بد من التوازن في قياس الأمور، فلا يطغى جانب على جانب، والله أعلم.

والمهم أن الوسطية أصل من أصول الدعوة، فعلى الداعية مراعاتها المراعاة الكاملة، وليعلم الداعية الموفق أنها متى ما أدخل بهذا المنهج الوسطي إلى الغلو أو إلى الجفاء فإن الخلل سيبين في دعوته، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وهو أعلى وأعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.



القاعدة السادسة والأربعون
حمل هم الإسلام موجب لخدمته
والتقديم له على قدر الجهد والطاقة

أقول: إن الداعية لا بد له من هم يسيره ويشير عزمته، ويقوي نفسه على المواصلة والجد ومضاعفة الجهد، وإن هذا الهم هو حمل هم هذا الدين، فإن من حمل هذا الهم فإنه يوشك أن يكون في شغل دائم به، فمن كان هم نصرته الدين وإعلاء كلمة الله تعالى هو همه الأول فلا تكاد تجده إلا عاملاً للدين، ولكن متى ما عذب هذا الهم عن الداعية فإنه قد يصيبه الفتور والكسل ويميل إلى الدعة والكسل، فحمل هذا الهم من جملة الدوافع الكبيرة على المواصلة والاستمرار، وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على حمل هذا الهم الكبير، من غير فرق بين الصغار والكبار والرجال والإناث فكل من انتسب لهذا الدين فإنه لا بد وأن يحمل همه، وأن يشارك في إعلاء كلمته على كل الأديان وإني لأعجب من الكفار من اليهود والنصارى، وكيف جهودهم الكبيرة في سبيل نصرته دينهم المبدل المحرف المنسوخ، ترى المرأة منهم تترك بلادها إلى بلاد أخرى لتبقى فيها الأزمنة الطويلة حتى تدعو لدينها، بل قد رأيت في بعض البلاد الأفريقية امرأة كبيرة في السن قسيصة، جاءت إلى هذه البلاد السوداء الفقيرة، وجلست عندهم ما يقارب العشرين سنة في نشر تعاليم

الإنجيل، وما ذلك إلا لأنها لما انتسبت لهذا الدين علمت أنه لا بد من أن تقدم له ما في وسعها في سبيل نشره، فكيف بنا نحن أهل الإسلام، مع أن الدين الذي ندين الله تعالى به هو خير الأديان وأصحها وأحبها إلى الله تعالى وهو خاتم الأديان، فما بالنا نرى الكثير من أهل الإسلام فيهم تقاعس وفتور وكسل عن العمل لهذا الدين، وليس هذا الأمر في العامة من أهل الإسلام، بل حتى في الدعاة وأهل العلم، فإنه لو أن كل واحد منا قدم لهذا الدين العظيم ما في مقدوره أن يقدمه لما رأيت الحال على هذا النحو من السوء ولكنه الفتور والكسل والتواكل والتقاعس عن نصرته الدين، والاشتغال بغيره من أمور الدنيا، وإننا لنشكو إلى الله تعالى من قلة الدعاة الذين يوافقون على الذهاب للدعوة في الخارج والداخل في فترات العطلة، مع أنها مجرد أيام يسيرة لن تقطع عليهم أمرا من أمور الدنيا، فإلى الله تعالى المشتكى، ولذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على زرع هذا الهم في قلوب أصحابه، فلما قرره في قلوبهم ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع المثل في نصرته الدين والدعوة إليه والذب عن حياضه، فهذا علي بن أبي طالب عليه السلام ينصر الإسلام ويعلي راية الدين وهو لم يبلغ الحلم، لا يزال صغيرا، وقد أسلم على يده أبو ذر، جندب بن جنادة، فكان من خبره: ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي حمزة قال: (قال لنا ابن عباس ألا أخبركم بإسلام أبي ذر؟ قال قلنا بلى، قال: قال أبو ذر: كنت رجلا من غفار فبلغنا أن رجلا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتني بخبره فانطلق فلقيه ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر فأخذت

جرا با وعصا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه واشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد قال فمر بي علي فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، قال: فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرني عنه بشيء قال: فمر بي علي، فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت لا، قال: انطلق معي قال فقال: ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة؟ قال قلت له: إن كتمت علي أخبرتك، قال: فإني أفعل قال قلت له: بلغنا أنه قد خرج ها هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخِي ليكلّمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه، فقال له: أما إنك قد رشدت هذا وجهي إليه فاتبعني ادخل حيث ادخل فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كإني أصلح نعلي وامض أنت فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ فقلت له: اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني فقال لي: (يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل)، فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا فضربت لأموت فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار، فأقلعوا عني فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس وأدركني العباس فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس. قال فكان هذا

أول إسلام أبي ذر رحمه الله^(١).

فانظر رحمك الله تعالى ما فعله علي عليه السلام، كيف أسلم هذا الصحابي الجليل الزاهد على يديه، وهو صغير لم يبلغ الحلم، فما اهم الذي يسيره، ويحمّله على هذه المخاطرة الكبيرة؟ إنه هم الإسلام، إنه اهم الذي لا ينزل في قلب المسلم إلا ويحرك عليه جوارحه كلها في نصرة هذا الدين العظيم، وانظر إلى علي عليه السلام مرة أخرى، كيف خدم الإسلام بخدمة لا تزال في رقبة الأمة ديناً عليها، وهو لا يزال في سن الشباب، فإن الله تعالى قد اختاره من فوق سبع سموات أن يبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة نواه كفار قريش بالقتل فكان من خبره: أنه لما نزل الإذن من الله تعالى بالهجرة على المدينة، كان الإذن أولاً للصحابة فهاجروا زرافات ووحدانا إلى المدينة، فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تجهزوا وخرجوا بأهلهم إلى المدينة عرفوا أن الدار دار منعة وأن القوم أهل حلقة وبأس فخافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيشتد أمره عليهم فاجتمعوا في دار الندوة وحضرهم إبليس في صورة شيخ من أهل نجد فتذاكروا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأشار كل منهم برأي والشيخ يرده ولا يرضاه إلى أن قال أبو جهل: قد فرق لي فيه برأي ما أراكم وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً ثم نعطيه سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ونسوق ديتهم. فقال الشيخ: لله در هذا الفتى هذا والله الرأي فتفرقوا على ذلك، فجاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم باب قصة إسلام أبي ذر، وفي

الأنبياء ١٣٢/٧ - ١٣٣، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٣)، وأحمد ١٧٤/٥.

بذلك وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار - في ساعة لم يكن يأتيه فيها - متقنعا فقال: (اخرج من عندك)، فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: رسول الله ﷺ: (إن الله قد أذن لي في الخروج)، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله قال: (نعم)، فقال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت وأمي - إحدى راحتي هاتين فقال: بالثمن وأمر عليا أن يبيت تلك الليلة على فراشه ، واجتمع أولئك النفر يتطلعون من صير الباب ويرصدونه يريدون بياته ويأترون: أيهم يكون أشقاها؟ فخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من البطحاء فذرها على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، وأنزل الله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر فخرجا من خوخة في بيت أبي بكر ليلا فجاء رجل فرأى القوم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا قال: خبتم وخسرتم قد والله مر بكم وذر على رؤوسكم التراب قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم. فلما أصبحوا قام علي عليه السلام عن الفراش فسأله عن محمد؟ فقال: (لا علم لي به)^(١). فعلي عليه السلام قد بات على فراش النبي ﷺ في تلك الليلة العصبية ولكنه هم الإسلام الذي ينسي المسلم نفسه، وكأني بلسان حال علي بن أبي طالب يقول: اذهب يا رسول الله، فإنك لو مت لماتت بموتك القلوب والأرواح، وأما أنا فلو مت، فسيخلفني من الأمة ألف رجل كعلي، الله أكبر، إنها الهمة التي تصهر

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ وفي المساجد ٧/ ١٨٠ و ١٩٣، وفي

الإجارة، وفي كفالة، وفي المغازي، وأحمد ٦/ ١٩٨، وأبو داود (٤٠٨٣).

الحديد ويذوب لها كل قاس على وجه الأرض، وما اتقدت تلك المهمة الكبيرة في قلبه إلا لأنه ربي على حمل هم الإسلام، وحمل هذه الأمانة العظيمة في نصرة الدين وبذل الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمته خفاقة على كل منار، تلك هي التربية التي قد غرست في قلوب الصحابة، إنها التربية على حمل هم الإسلام، ولذلك ففي الهجرة الأولى إلى الحبشة تركوا بلادهم وسافروا تلك المسافات البعيدة في الصحاري والبحار وذهبوا إلى بلاد الغرباء البعداء وما هذا إلا لأن قلوبهم قد امتلأت من هم نصرة هذا الدين، ثم هاجروا الهجرة الثانية للحبشة، ثم هاجروا الهجرة الثالثة إلى المدينة، وترك البلاد والأولاد والأموال ليس بالأمر السهل ما لم يكن ثمة أمر كبير قد استسلم له القلب، وهذا الأمر الكبير هو هذا الدين وحب هذا الدين والمحافظة على هذا الدين ونصرة هذا الدين، فمن حمل هم الإسلام وهم نصرة الإسلام فناهيك عن التقديم الكبير الذي سيكون فالأموال والبلاد وغيرها من محبوبات النفوس لا تساوي شيئاً أمام نصرة الإسلام، وهذا أبو بكر رضي الله عنه في أوائل دخوله في الإسلام يسلم على يديه جمع كلهم من المبشرين بالجنة.

وهذا مصعب ابن عمير رضي الله عنه يبعثه النبي ﷺ إلى المدينة داعية ومعلماً، وهو لم يبلغ العشرين من عمره، فالجميع لا بد وأن يخدم الإسلام بما يقدر عليه، وهذه الخدمة لا تكون إلا بعد حمل هم الإسلام، ولا يزال أهل العلم رحمهم الله تعالى يبذلون الغالي والنفيس في نصرة هذا الدين، لا يبالون بالدنيا وإنفاقها في سبيل الله تعالى، هم لا تفتروا، وعزائم لا تحبو، وعطاء دائم لا ينقطع، وجهاد ومجاهدة في خدمة هذا الدين العظيم، في التعلم والتعليم والتأليف، قد سخرُوا في نصرته جهودهم وأوقاتهم وأموالهم، ولا تزال الأمة تحفل بهذا الصنف من الناس، فقد

جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة لوحده، وأنفق أبو بكر رضي الله عنه أمواله في إعتاق إخوانه من العبيد والأرقاء المستضعفين من رق التعذيب على يد الكفرة، وصور نصره الدين كثيرة جداً، فالعمل للدين وخدمة الإسلام واجب الجميع، فلا يحرص في جهة دون جهة، ولا في وظيفة دون وظيفة، ولكن الحال الآن تغيرت، فصار الكثير همهم جمع المال، والوظيفة والزوجة والأولاد، وصار هم الدين إن كان موجوداً في القلوب فهو آخر الهموم الخادمة، وليست من الهموم الأولية الأصيلة، ولذلك فقد تخلف الكثير منا عن ركب نصره الدين، وصرنا في أواخر الأمم، وقد كنا الرؤوس التي تنبض بالحياة، ولقد أحسن الشاعر لما قال:

كنا جبلاً في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا لم نخش يوماً غاشماً جبارا
فالله أيها الدعاة بأن نعبد للأمة مجدها وعزها ولا يكون ذلك إلا بحمل هم الإسلام، فإن قلت: إن الصحابة تربوا في كنف النبي ﷺ وكان يحوطهم برعايته التامة وتربيته الإيمانية الربانية وأما نحن في هذه الأزمنة فمساكين، ليس عندنا نبي يربينا على عينه، فأقول: هذا ضرب من الهذيان والتخذيل، وحتى يتضح لك الأمر فأنا أضرب مثالين من الأمثلة التي قد سطر فيها أصحابها حمل هم الدين، وهم لم يتربوا في كنف الأنبياء:

أحدهم: من النماذج التي قبل النبي ﷺ.

والثاني: من النماذج المعاصرة لنا في زماننا.

فأما الأول فقد روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى في الصحيح قصة غلام الأخدود، وهو وإن لم يكن من هذه الأمة، ولكنه كان من أهل الإيمان، فلما كان حاملاً لهم الإيمان ونشره وإحياء أمة قد ضلت في عقيدتها بعبادة ملك المدينة، حصل منه من التضحيات ما تعجب له القلوب، فكان من خبره: أن النبي ﷺ قال: (كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحَرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حِسْنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حِسْنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيُّ بَنِي أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَى. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَذَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفِيتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجَاءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيُّ بَنِي قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا

ثَبَرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفَعَّلْ وَتَفَعَّلْ. فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّه حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّه بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذْهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذْهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَاَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُ بِهِ. قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ تَخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَذِّرُ قَدْ

وَاللّٰهُ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْذِودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَّكِ فَخُذَتْ وَأَضْرَمَ
النَّيْرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ دِينِهِ فَأَخْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ افْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ
امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمِّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ^(١).

فانظر إلى ما فعله هذا الغلام، لم يجد ما يجود به لدينه أعز من روحه، فداها دينه،
لأنه كان يحمل هما عظيمًا، وهو هم الدين، مع أنه توفر له سبيل السلامة لما خلصه
الله تعالى من الجنود في أول مرة وثاني مرة، ولكنه كان في كل مرة يأتي ويدخل على
الملك، لم يقل السلامة لا يعدلها، بل كان ثمة هم يحركه، فدخل على الملك الظالم
الغاشم السفاك وأخبره بالخطة التي يستطيع بها أن يقتله، وهي خطة تتضمن أن
الناس سيسمعون الحق من فم هذا الملك الظالم، وهو ما يريده الغلام، لأن الناس
سيتعجبون من هذا الغلام مع هذا الملك إذ كيف لا يستطيع هذا الملك الظالم القوي
بجنوده وحشوده أن يقتل غلامًا صغيرًا إلا بعد أن استعان برب هذا الغلام، فلا
جرم أن رب الغلام أقوى من هذا الملك، فآمن الناس لما رأوا هذا الحدث الكبير
ولكن مات الغلام إلى رحمة الله تعالى، والمهم أن هذا الغلام كان همّ الدين ونصرة
الحق هو الذي كان يثير همته، ويثبت عزيمته، مع كمال توفيق الله تعالى له، وهذا هو
حال أولئك النفر الذين يحملون هم الأمة والإسلام.

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم، رواه مسلم في الزهد والرفائق (٣٠٠٥)، وأحمد ١٦/٦، والترمذي

في التفسير (٣٣٣٧)، والنسائي في تحفة الأشراف (٤٩٦٩).

وأما المثال الثاني فهو سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمته الله فقد كان الشيخ أمة في رجل، وهمة جيل في واحد، لا يعرف الفتور ولا الدعة ولا التواني والتخاذل والانكسار والكسل، كان أبا للمسلمين في قضاياهم داخل المملكة وخارجها، وكان مشاركا لهم في الأفراح والأتراح، نافعا لعموم المسلمين بالمال والجاه والشفاعة الحسنة، كان لا يدخر وسعا في الدفاع عن الأمة ولا عن دينها ولا عن المسلمين ولا عن بلاد المسلمين، كانت تخافه الأعداء مع أنه كان رجلا أعمى البصر، لكنه ذو بصيرة ثابتة ورأي حكيم ونظر بعيد، لا يعرف أنه أخذ إجازة كما يأخذها غيره، ولا يعرف عنه المطالبة بالمناصب ولماذا تأخرت الترقيات كما يطالب بها غيره، بل حتى في فترات مرضه وإدخاله للمستشفى كانت المعاملات تقرأ عليه، لا يؤخره ولا يشغله عن خدمة المسلمين والنظر في قضاياهم مرض ولا عطلة ولا سفر ولا زوجة ولا أولاد، وكان على جانب كبير من العبادة والزهد وموافقة الباطن للظاهر، لا يرى إلا ذاكرا، بل حتى في سيارته في ذهابه لبيته كانت المعاملات تقرأ عليه فله دره ما أعظم همته وما أقوى عزيمته، وكان ذا مناصب كثيرة مع منصبه الأصلي، لا يفتر عن خدمة الدين ليلا ونهارا، ومع ذلك كان دمث الأخلاق، طيب النفس، سريع الدمعة، سديد الرأي، نافذ الأمر مهيبا ذا وقار، حليما صبوراً عفيف اللسان، كان دؤوب التعليم للطلبة، حريصا على طلابه وتفقيههم على منهج الأخذ بالدليل، شديد التتبع للسنة تعلميا وتعليليا وتطبيقا، واصل المسيرة السنين بعد السنين وهو الجبل الأشم الذي لا تغيره متغيرات الزمان ولا تصرفه عن همه ولا تشغله صوارف القلوب تخرج من تحت يديه الطلاب الذين لا عد لهم ولا

حصر، وكان كريماً ليس كمثله أحد في كرمه، فمائدته لا تخلو عن الضيوف إلى أن مات، مع سعة النفس ومحبة الخير للغير ورحابة الصدر، لم يشته عن نصرة الدين قدح فاجر ولا كلام في عرض ولا نعيق منافق، ولا يعرف في فتاواه - بالتبع - قولاً شاذاً، بل كلها في الأعم الأغلب متفقة مع الدليل، والله الموفق والهادي، فهذا رجل كان يحمل هم الأمة، وهم نصرة الإسلام، فصار هم الدين هو الهم الذي يأكل معه ويشرب ويقوم به ويقعد، فأين المخذلون الذين يقولون: لا يمكن أن يكون أحد في هذا العصر كمن كان في العصر الأول في الهمة ونصرة الدين. والمهم الذي نريد إثباته هنا هو أن حمل هم الإسلام هو الذي يحرك نحو المعالي، وبقاؤه في القلب مع إحيائه بين الفينة والأخرى كفيل بإذن الله تعالى بالاستمرار والعطاء، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة السابعة والأربعون

ربط الأمور العملية بالأمور العقدية

سبب لامتناهالها وتعظيمها

أقول: والمراد بالأمور العملية أي أمور الفقه والتشريع، وهذا من أبدع ما سمعته من بعض مشائخي، وهو أنه نبه على أن الأمور العملية التشريعية قد تجد بعض النفوس ثقلا في تطبيقها، أو تساهلا في تعظيمها، ولكنها متى ما ربطت بالعقيدة، فإنها ستكون من الأمور الكبيرة في القلوب والمعظمة في النفوس، وهذا تكرر في القرآن كثيرا، وكثيرا، ولكن لأنني ممن يقرأ بلا تدبر كانت تمر هذه الفائدة من حيث لا أشعر بها، حتى نبهني عليها شيخنا، وهو أمر لا بد من مراعاته حال إلقاء الكلمات الوعظية والتعليمية وغيرها، فلا بد من ربط الناس بالعقيدة دائما في كل أحوالهم، وإن الفصام بينهما من جملة الفصام النكد الذي لا بد من الحذر منه، فالأمور الفقهية لا تؤخذ مجردة عن النظر في الأمور العقدية، فانظر إلى قوله تعالى في جلد الزاني مع أنه من الفروع الفقهية، كيف ربطه الله تعالى مباشرة بمسألة الإيمان، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

فربط هذا الفرع العملي الفقهي بالإيمان به وبالיום الآخر وهو الأمر العقدي، بل هو أخطر أمر من أمور العقيدة، وذلك لأن من لم يكن الإيمان هو حاديه لتطبيق هذه الأحكام العملية فإنه ربما تساهل أو تكاسل أو استخف بأمرها وقلل من شأنها وصلاحياتها للتطبيق في زمن من الأزمنة، فبين الله تعالى أن الأمر ليس مجرد تطبيق من عدم تطبيق، بل الأمر أبعد من ذلك، وهو أمر قد علق تطبيقه بأعظم مسألة في العقيدة، وهي الإيمان بالله تعالى وبالיום الآخر، وهذا هو منهج القرآن في كثير من الأحكام.

وانظر إلى قوله تعالى في أمره برد المتنازعات إلى الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].

فهذا الرد ليس من الأمور الاختيارية السهلة، بل هو من الأمور الكبيرة الخطيرة التي لا بد منها، لأنها دليل صدق الإيمان، وهي من مكملات الإيمان الواجبة التي لا تحصل النجاة يوم القيامة إلا بها، وهذا يضيف على هذا الفرع كبير الهيبة والعظمة، فتدين له النفوس وتخضع له القلوب وانظر إلى مسألة الربا، مع أنها مسألة يبحثها الفقهاء، ولكن علقها الله تعالى على الإيمان به، أي علق هذا الفرع على مسألة عقدية، فقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَعَثَ مِنَ الرَّبِّوَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فترك الربا ليس أمرا بسيطا، بل إن تركه دليل على كمال الإيمان وصدق التوجه إلى الله تعالى، والاستمرار عليه دليل على نقص الإيمان وخلل في التوجه إلى الله تعالى، فمن لم يترك الربا فإنه ما حقق الإيمان الكامل الذي لا تحصل النجاة يوم القيامة إلا به، وانظر كيف نهى الله تعالى أهل الإيمان عن الحزن والهوان بسبب ما

يروونه من الكفار من القوة والعزة والمنعة، مع أنه أمر في الظاهر أمر عملي، ولكن الله تعالى علقه مباشرة بمسألة الإيمان، وهي من أكبر مسائل الاعتقاد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وانظر كيف علق الله تعالى مسألة قسمة الغنائم يوم بدر بالإيمان به، وعلق وجوب إصلاح ذات البين بالإيمان، وعلق إقامة الصلاة بالإيمان وعلق الإنفاق من المال بمسألة الإيمان فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ١-٣]، مع أن هذه الأمور من الأمور العملية، ولكن الله تعالى علقها بمسألة عقدية، وهذا تنبيه للدعاة على أن من أصول الدعوة إلى الله تعالى أن تربط مسائل العمل بمسائل العقيدة، وعلق مسألة الجهاد في سبيله بمسألة الإيمان فقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ أَخْشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

وعلق مسألة وجوب حفظ اللسان عن الخوض في أعراض الناس بغير حق بالقذف والبهتان بمسألة الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَئِثٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٦-١٧].

وعلق مسألة الاستئذان في الحرب بمسألة الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ

يَسْتَعِذُّوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَعِذَّكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [النور: ٦٢].

بل إن نداء أهل الإيمان في أوائل الآيات بوصف الإيمان هو من هذا الباب - وهو كثير جدا - تفوق التسعين نداء، فإن الله تعالى لم ينادهم بهذا الوصف ثم يأمرهم بعده ببعض الأعمال إلا لأن هذا الوصف له تأثير كبير في القبول والرد، وأن القبول من مقتضيات كمال هذا الوصف الواجب وأن الرد من مقتضيات نقصه النقص الذي لا تحصل معه النجاة يوم القيامة.

فإذا هذه قضية كبيرة لا بد من التنبيه عليها، وهي ربط المسائل العملية الظاهرية بالأمور العقدية الباطنية، ويوضح هذا أن المقرر عند أهل السنة رحمهم الله تعالى يعتقدون أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأن هذه الأعمال الظاهرية لا بد وأن تبنى على التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة، وأن كل خلل في أمور العقيدة لا بد وأن تكون له ثمرة في أعمال الظاهر، ولذلك ففي الحديث: (إنما الأعمال بالنيات)، فلا بد وأن نقرر للناس في كل عمل ندعوهم له أن هذا العمل من الإيمان، وأنه يتعلق بكذا وكذا من مسائل الاعتقاد، حتى يتبين للناس عظم الأمر وفداحة خطب المخالفة، وأما تقرير النبي ﷺ هذا الأمر في السنة فوالله إنه لكثير طيب، طيب، فقد وردت أحاديث كثيرة جدا في أمور عملية، ولكن النبي ﷺ يربطها مباشرة بأمور عقدية، فقد ربط إكرام الضيف بالإيمان بالله واليوم الآخر، وربط مسألة ترك أذى الجار بمسألة الإيمان به وباليوم الآخر وربط مسألة حفظ العبد للسانه بها أيضا فقال ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارُهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ^(١).

وربط التحذير من الربا بمسألة الإيمان فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأخذن إلا مثلاً بمثل)^(٢)، وهو لفظ عند مسلم، وربط وجوب المحافظة على فيء المسلمين بمسألة الإيمان فقال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبُ دَابَّةً مِنْ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِذَا أُعْجِفَهَا رَدَّهَا فِيهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَلْبَسُ ثَوْبًا مِنْ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ، رَدَّهُ فِيهِ)^(٣)، بل ربط وجوب ستر العورة في الحمام بالإيمان.

وربط مسألة المحافظة على عرض امرأته أو موليته بالإيمان فلا يدخلها الحمامات، فقال عليه السلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدْخِلُ حَلِيلَتَهُ الْحَمَامَ إِلَّا مِنْ عَذَرٍ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ). وفي رواية النسائي: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر)^(٤).

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في الأدب ٣٧٣/١٠، وفي النكاح، ومسلم في الإيمان (٤٧)، وأبوداود (٥١٥٤).

(٢) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩١)، والترمذي في البيوع (١٢٥٥)، والنسائي في البيوع ٢٧٩/٧، وهو صحيح.

(٣) رواه أبوداود في الجهاد، باب في الرجل ينتفع من الغنيمة بالشيء (٢٧٠٨)، وفيه عننه محمد بن إسحاق.

(٤) رواه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في دخول الحمام رقم (٢٨٠٢)، والنسائي في الغسل ١/١٩٨، باب الرخصة في دخول الحمام، ورواه أيضاً أحمد في المسند وهو حديث حسن.

وربط مسألة حرمة إتيان المرأة الحبل بمسألة الإيمان، وكذلك حرمة إتيان المرأة المسبية إلا بعد الاستبراء ربطها بالإيمان بالله وباليوم الآخر، فقال عليه الصلاة والسلام: (لَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ - يعني: إتيانَ الحبالى -، وَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَقَعَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ سَبْيٍ حَتَّى يَسْتَتِرَ نَفْسَهَا، وَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَبِيعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقَسِّمَ)^(١).

وبالجملة فالصور والأدلة كثيرة جدا على هذه القاعدة، وبعد النظر في سعة الأدلة عليها رأيت أن تكون قاعدة من جملة قواعد الدعوة، واعلم رحمك الله تعالى أن هذا الربط الطيب بين العقيدة والعمل وتفريع امثال العلم في الظاهر على سلامة العقيدة في الباطن له عدة ثمرات طيبة، وهي كما يلي:

منها: لبيان أهمية هذا الفرع في الشريعة الإسلامية.

ومنها: لبيان أهمية تطبيقه، وأن الإخلال به خدش في أمر عقدي.

ومنها: لبيان أن أمور الظاهر لا بد وأن تبنى على أمور الاعتقاد في الباطن.

ومنها: لبيان أن هذه الأعمال في الظاهر من جملة الأسباب في زيادة الإيمان

ونقصه.

ومنها: لبيان أن دعاوى الإيمان لا بد وأن يكون لها ما يثبت صدقها من الانقياد

للتشريع في الظاهر، فإن كنت مؤمنا حقا فدونك كذا وكذا من الأعمال فإن حققتها

(١) رواه أبو داود رقم (٢١٥٨) و (٢١٥٩) في النكاح، باب في وطء السبايا، والترمذي رقم (١١٣١)

في النكاح، باب ما جاء في الرجل يشتري الجارية وهي حامل وهو حديث حسن.

فأنت صادق في دعواك أنك مؤمن بالله واليوم الآخر وإن تخلفت عنها فدعواك للإيمان في الباطن مدخولة.

ومنها: لحث الناس على امتثال أمر الله تعالى أو نهيها فيها.

ومنها: لبيان ارتباط الظاهر بالباطن الارتباط الوثيق الذي لا يمكن أن ينفك.

ومنها: لبيان أن هذه الأعمال إنما هي ثمرات لصحة وسلامة وصدق الاعتقاد في الباطن.

ومنها: استشعار التعبد لله تعالى بالعبادتين جميعاً في وقت واحد، وأعني بهما عبادة الباطن وعبادة الظاهر، فهو إن امتثل الأعمال في الظاهر مع استشعاره أنه الآن يحقق محبوباً لله تعالى ويحقق ما يقتضي له زيادة الإيمان فلا جرم أن إقبال القلب على هذه العبادة سيكون إقبالاً كبيراً، وأما إن كنا نعبد الله تعالى في الظاهر بمجرد حركات فقط من غير استشعار التعبد له في الباطن فهذا ليس له كبير نفع على قلب العبد وروحه، فالعبادة النافعة النفع الحقيقي هي ما استجمع العبد فيها النظر في كلا الأمرين، واجب الظاهر وهو الامتثال والانقياد وواجب الباطن وهو القبول والتسليم والإخلاص.

ومنها: لبيان أساس الخلل وما الذي يجب إصلاحه أولاً، وأن الخلل في أمور الظاهر إنما هو نابع عن خلل في أمور الاعتقاد في الباطن، وأنا إن رأينا من العبد تقصيراً في أداء الواجب أو التقحم في ارتكاب محرم فقبل أن نصلح الظواهر، لا بد وأن نصلح هذا الخلل في الباطن أولاً، ثم بصلاح هذا الخلل سيصلح أمر الظاهر تبعاً لأن الأمور الظاهرية تابعة للأمور الباطنية صلاحاً وطلاحاً، والتابع تابع.

ومنها: لبيان أن العبد إنها يسيره ويحركه تلك المعتقدات في الباطن، وأنه إن خلا باطنه عن تلك المعتقدات، أو امتلاً باطنه بمعتقدات السوء فناهيك عن الفساد العريض الذي ستجنيه الأمة من هذا العبد.

ومنها: لتنبية الدعاة إلى الله تعالى على وجوب الإقبال على إصلاح العقائد، وأنها مقدمة على غيرها في التصحيح والتوجيه والإصلاح، فلا ينبغي الانشغال عنها بغيرها كما ذكرناه في قواعد كثيرة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والمهم الذي أريد إثباته هنا هو أنك أيها الداعية الموفق لا بد وأن تبني كلامك في الأمور الفرعية العملية على الأمور العقدية العلمية، فإنك بذلك تحقق من المصالح الدعوية ما الله تعالى به عليم، والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الثامنة والأربعون
سلامة المقاصد
لا تسوغ الوقوع في المخالفات

أقول: إن المتقرر في القواعد أن المقاصد لا تبرر الوسائل إلا بدليل، أي أن المقصد إن كان حسنا فليست سلامته مسوغة للداعية أن يتوصل له بكل طريق ولو كان الطريق مخالفا للشرع، بل لا بد مع سلامة المقاصد أن تكون الوسيلة التي يتوصل بها للمقصد سليمة أيضا، وأنت خبير بأن الوسائل الدعوية لا بد وأن تكون سليمة لا تتعارض مع شيء من أدلة الشرع، وليس كون الداعية يريد هداية الناس بمسوغ له أن يسلك الطرق المعوجة المحرمة حتى يصل إلى هذا المقصد، فالمقاصد إن كانت طيبة فلا بد وأن يسلك في تحقيقها الوسائل الطيبة، ومجرد حسن النية وسلامة الغاية شيء، وسلامة الوسيلة شيء آخر، فلا بد من سلامة الأمرين جميعا، فالوسيلة إن كانت مشروعة وأريد بها التوصل إلى أمر ممنوع، فهذا حرام لا يجوز، والمقصد إن كان حسنا مشروعا، وكانت الوسيلة التي توصلنا له محرمة ممنوعة فهو لا يجوز أيضا، فلا بد من المشروعية والسلامة في المقاصد والوسائل جميعا، فسلامة المقاصد والنوايا لا تغني عن سلامة الوسائل، وسلامة الوسائل لا تغني عن سلامة المقاصد، وأنا أضرب لك بعض الأمثلة المعاصرة على هذه القاعدة حتى يتبين لك مدى بعد بعض الدعاة هداهم الله تعالى عن المنهج الصحيح، فأقول:

منها: إن من الدعاة من يرى أن من المقاصد الدعوية تحسين سمعة الإسلام أمام العالم، وحمايته من الأوصاف المذمومة، كوصفه بالرجعية والتأخر وأنه غير صالح مع تطور هذا العصر، فهذا مقصد ولا شك طيب، ولكن بعض الدعاة إلى الله تعالى يريد تحقيق هذا المقصد بفتح باب الحوار مع الطرف الآخر في مسلمات الشريعة والأمور المفصلة بالدليل، وبعضهم يفتي بجواز خروج المرأة في وسائل الإعلام، وبعضهم يجيز للمرأة أن تتولى الإمامة في الصلاة للرجال، وبعضهم يفتي بجواز قيادتها للسيارة وبعضهم يفتي بجواز الاختلاط بين الرجال والنساء، وبعضهم يفتي بجواز الدخول على النصارى في كنائسهم، وبعضهم يفتي بحرية الأديان، وبعضهم يفتي بعدم الإنكار على أهل البدع بحجة أن لهم دينهم ولنا ديننا، وأنه لا إكراه في الدين، وبعضهم يفتي بوجوب التعايش مع الطرف الآخر بدون التعرض للنقاش في ذكر الفروق العقدية التي توجب الفرقة، وبعضهم يفتي بجواز كشف وجه المرأة، إلى غير هذه الفتاوى التي ظهرت قرونها في هذا الزمان، وكل ذلك بحجة حماية الإسلام من وصفه بالرجعية والإرهاب والقسوة، وكل هذه الوسائل المتخذة في تحقيق هذا المقصود لا تجوز، لأنها مبنية على خلاف الدليل الصحيح الصريح، فلا يسوغ لأحد من الدعاة أو أحد من المسلمين عموماً أن يتنازل عن شيء من شرائع دينه وقضايا أمته هروباً من تلك الأوصاف المذمومة، فإن المقصود وإن كان حسناً إلا أن الوسائل التي يراد بها التوصل إلى هذا المقصود وسائل ممنوعة، فلا يجوز سلوكها، لأن المتقرر أن سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، والله أعلم.

ومنها: لا جرم أن طاعة ولي الأمر من الأمور العقيدية التي كثرت أدلتها في الكتاب والسنة، وقد أجمع أهل العلم رحمهم الله تعالى على وجوب طاعتهم في غير معصية الله تعالى، وأجمعوا على حرمة الخروج عليهم إلا أن نرى كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان، وغلب على الظن النصر بدون سفك دماء، فطاعة ولاية الأمر من الأمور المفصلة بالنصوص المتواترة التي لا تدع مجالا للنقاش والحوار، فبعض الدعاة وفقهم الله تعالى يريدون أن يحققوا هذا المقصود في قلوب الناس فربما أفتوا بجواز تعليق صور الولاية في الأماكن العامة، أو صناعة بعض التماثيل لهم وتوضع في الميادين العامة، أو السكوت عن مخالفات ولي الأمر فلا يناصحوه البتة لا سرا ولا علنا، مع أن مناصحته في العلن لا تنبغي، ولكن لا بد منها في السر، فإن الدين النصيحة، أو يحسنون له ما يقع فيه من المخالفات، بحجة عدم إثارة الفتنة النائمة، أو يخرجون صورته أمام العامة بأنه المعصوم الذي لا يتصور منه صدور الخطأ والزلة والغفلة، أو يمدحونه المدح بالأوصاف التي لا تنبغي أن تقال في حق المخلوق، ونحو تلك الأمور التي لا ينبغي صدورها من المسلم، وتلك الوسائل كلها لا تجوز، ولا تنبغي، حتى وإن قصد بها أصحابها تحقيق مقاصد شرعية مأمور بها، إلا أن المتقرر أن سلامة الوسائل لا تسوغ الوقوع في المخالفات، ولا يفهم من كلامي هذا أنني أهون من طاعة ولي الأمر، أو أن في ولائي لولي الأمر وللوطن قدح، لا، وإنما أريد أن أبين أن الطاعة قد وجبت بالأدلة، وأن تعليم الناس وتثقيفهم في هذا الباب كفيلا إن شاء الله تعالى بتحقيق هذا المقصود، ولا داعي أن نتوصل له ببعض الأفعال المنكرة التي لا تجوز في شريعتنا، والله من وراء القصد.

ومنها: أن نصح الناس وتوجيههم وترغيبهم في الخير وتحذيرهم من الشر لا جرم أنه أمر مطلوب، بل هو لب الدعوة، ولكن مع سلامة هذا المقصد، فإنه لا يجوز لأحد من الدعاة أن يتوصل له بالكذب في القصص واختراع الفكاهات الساذجة التافهة التي لا حقيقة لها، ولا بتلفيق الحكايات الموضوعة ولا بادعاء المنامات التي لا خطام لها ولا زمام، ذلك لأن الكذب محرم في الشرع، وإنما يجوز التعريض في صور معينة، وأما أن يجعل منهجا في الدعوة، حتى تكون المحاضرة أو الكلمة كلها تحكي قصة لو أن أحدا من السامعين أراد الثبوت منها لما وجد لها حقيقة، فهذا أمر لا يجوز، وكم من الحكايات والقصص التي بان للناس بعد تتبع مصادرها أنها كذب وتخرص واختراع أريد به ترغيب الناس أو تحذيرهم وتخويفهم، فالمقصد وإن كان سليما في الدعوة إلا أنه لا يحل لنا أن نتوصل لتحقيقه بالكذب والبهتان بل لا بد من سلوك الطريق المشروعة الواردة، مع أن الدعوة بالقصة لها دورها الكبير في إقبال القلوب ولكن لا يعني هذا أن نخترع القصص ونلفق الحكايات التي لا خطام لها ولا زمام لتحقيق مقصود هداية الناس وإقبال القلوب على دعوتنا، لأن المتقرر أن المقاصد الحسنة السليمة لا تسوغ الوقوع في المخالفات. والله أعلم.

ومنها: إنه قد انتشر في الآونة الأخيرة ما يسمى بالأناشيد الإسلامية، والأمر فيها قد تجاوز حده إلى إدخال بعض الآلات الموسيقية فيها، وهذا بحجة أنها تجذب الشباب وتستقطب قلوب الناشئة وتغنيهم عن سماع الغناء، وهذا أمر في الحقيقة قد تجاوز حد الجواز، فإننا وإن كنا لا نرى أن لها أصلا مشروعا وإنما هي من مخلفات الصوفية، ولكن مع القول بأنها جائزة فإن الذين أفتوا بجوازها قد شرطوا لها

شروطاً من هذه الشروط أن لا تؤدي بصوت فاتن، ولا أن يصحبها شيء من الموسيقى، وأين هذا مما هو حاصل هذا الزمان، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فهذه الأناشيد لا ينبغي جعلها منهجاً من مناهج الدعوة إلى الله تعالى لأنها بهذه الصورة الحادثة ممنوعة، إن لم نمنعها من أصلها، والترغيب في عمل الخير بسماعها وإنتاجها على هذه الصورة لا يجوز، حتى وإن قصد به الخير، فإن المتقرر أن سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، والله أعلم.

ومنها: لقد عجبت لبعض الدعاة في فتوى قرأتها عنه بجواز أخذ الفوائد الربوية من البنوك، بحجة أنها لو تركت في البنك لما ازداد البنك بها إلا تعاملًا بالربا، فتؤخذ وتدفع للفقراء والمساكين، فإن الفقراء والمساكين أحوج إلى هذه النقود من البنك، وهذا المقصود - وهو الصدقة على الفقراء والمساكين - مقصد حسن طيب مأمور به، ولكن تحقيقه بهذه الوسيلة أمر ممنوع، لأن أخذ الفوائد الربوية والتعامل بالربا والتعامل مع البنوك الربوية أصلاً لا يجوز، أي أنه يذهب إلى هذا البنك ويتعامل معه قصداً وهو عالم بأنه يأخذ هذه الفوائد، بحجة أنه سيصرفها على الفقراء والمساكين فهذا أمر لا جرم أنه حرام ولكن من تعامل مع بنك ربوي بدون علمه أنه من البنوك الربوية، أو كان لا يجد في بلده إلا هذا البنك الربوي، فالفوائد قد يقال فيه في هذه الحالة الخاصة أنه يأخذها ويتحلل منها، أي أنه يصرفها لا بنية الصدقة وإنما بنية تحليل ماله، أي بنية أن يتخلص منها، وما ذلك إلا لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، والفوائد الربوية خبيثة ولا توصف بالطيب، وما كان خبيثاً فحقه أن يتخلص منه، لا أن يجعل قرابة يتقرب بها لله تعالى، والمهم أن من يتعامل مع البنوك

الربوية وهو عالم بأنها تعطي الفوائد الربوية ويأخذ تلك الفوائد الربوية بحجة أنه سيعطيها الفقراء والمساكين فحرام عليه أخذ هذه الفوائد وأما كونه يقصد بأخذها أن يعطيها الفقراء والمساكين فهو وإن كان مقصدا حسنا إلا أنه لا يسوغ أخذ هذه الفوائد، لأن المتقرر أن المقاصد الحسنة لا يسوغ الوقوع في المخالفات، فلتكن هذه القاعدة منك على ذكر، والله أعلم.

ومنها: لا يجوز للعبد أن يسهر الليل سهرا يفوت عليه صلاة الفجر، ولو كان في التعليم والتأليف والصلاة وقراءة القرآن، فهذه المقاصد لا جرم أنها من أكبر التعبدات، ولكن لا يجوز التوصل لها بالسهر المفضي إلى تفويت الصلاة، ولا حجة لأحد أن يحتج بكونه في مقاصد مشروعة، لأن المتقرر أن سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، والله أعلم.

ومنها: يستطيع الداعية إلى الله تعالى أن يجيب بهذه القاعدة جميع أهل البدع، بمعنى أن عامة أهل البدع العملية في الأعم الأغلب إنما يقعون فيها لمحبة الخير، كالأذكار الجماعية والأوراد الصوفية والاحتفالات بالموالد وغيرها من البدع، فإنما الحامل لهم على ذلك النية في التعبد، ولكنهم أرادوا التوصل إلى تحقيق هذا المقصود بتلك الطرق المحدثه والوسائل البدعية المستنكرة، فيقول لهم الداعية: إننا وإن سلمنا أن مقاصدكم بهذه الأفعال حسنة، إلا أن المتقرر أن سلامة النيات والمقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، فليس أحد يعمل في دينه ما يشتهي، بل لا بد وأن يكون طريق التعبد موقوفا على دليل الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، والله أعلم.

ومنها: إن بعض الجماعات التي تنتسب للدين تريد أن ترغب المدعويين من أتباعها الجدد في الخير وترغبهم في البقاء معها، فربما تسمح لهم بالوقوع في بعض المخالفات

كشرب الدخان أو التخلف عن الصلوات أو الدخول في البارات، أو حضور الموالد البدعية وغيرها، بحجة أنهم لا يريدون تنفيرهم من الاستقامة ومحبة الصالحين، وهذا تناقض عجيب وسفسطة لا يتفوه بها عالم، ولكن المتشبهون بالعلماء والدعاة كثير في هذا الزمان، وهذا أمر لا يحل لهم أن يفعلوه، فلا يحل لأحد أن يرخص في الممنوع شرعا بحجة الترغيب في الخير، فإن النبي ﷺ لم يرخص في شيء من ذلك، ولما جاءه الشاب يريد أن يرخص له في الزنا ما رضي عليه الصلاة والسلام بحجة ترغيبه في الدين، بل أقنعه بالأسلوب الجميل العقلي حتى خرج الشاب وهو مقتنع الاقتناع الكامل بأن هذا الأمر حرام، فالتنازل عن الأمر المشروع من أجل ترغيب أحد في الدين لا يحل، لأن الوسيلة لا بد وأن تكون من الأمور الجائزة التي تحل في الدين، وسلامة المقصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، والله أعلم.

والمهم أن الداعية عليه أن ينظر في الوسيلة التي يريد من خلالها تحقيق مقاصد الدعوة، فإن كانت وسيلة لا تتنافى مع شيء من الأدلة فلا حرج عليه في اتخاذها، وأما إن كانت يلزم منها تفويت المأمور أو الوقوع في الأمر المحظور فلا تجوز، ولا حجة لأحد على الدين بكون مقصوده الإصلاح والإصلاح وترغيب الناس في الخير، لأن سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في المخالفات، فما أجمل هذه القاعدة وما أعظمها، فلا بد من مراعاتها والاهتمام بها وقياس الوسائل الدعوية عليها، والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة التاسعة والأربعون

المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير
من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم

أقول: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ) ^(١).
فإن مخالطة الناس لا بد وأن يكون فيها بعض الشقاء والعناء، ولا بد وأن يكون فيها بعض النكد والضيق، ولكن على المؤمن عموماً والداعية على وجه الخصوص أن يصبر على الناس وعلى ما يصدر منهم عليه من أذى، وأن يحتسب الأجر في ذلك، وأن ينظر دائماً إلى الناس بعين الرأفة والرحمة.

فإن الناس محتاجون إلى الداعية والعالم أشد من حاجتهم للطعام والشراب، والأذى منهم لا بد وأن يكون على العالم والداعية، ولا يخرج من هذا إلا بالصبر والتغاضي والحلم واحتساب الأجر، ولا حق للداعية أن يترك الناس ويهجرهم انتصاراً لنفسه، ولا أن يتبرم من حالهم ولا يخلص في النصح لهم، فإن تلك الأفعال

(١) إسناده صحيح، رجاله ثقات، الإمام أحمد ٩/٦٤، البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، والبيهقي في السنن ١٠/٨٩، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وأبونعيم في الحلية ٧/٣٦٥، والطبراني في الأوسط (٣٧٠).

مجانبة للحكمة والهدى، ولا يتصور الداعية في يوم من الأيام أن الأمور ستصفي له الصفاء الكامل، بل عليه أن يوطن نفسه على أن الأمور فيها من التعقيد والكبد ما فيها وإن أحب الخلق إلى الله تعالى هم الرسل والأنبياء، ومع ذلك فقد عانوا من أهمهم الأمرين، ولاقوا في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ما لا يوصف، من الأذى القوي والفعل والطرد والإهانة والقتل، ومع ذلك فلا يزال الأنبياء على دعوتهم والصبر عليهم، ألا ترى أن الله تعالى عاتب نبيه يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما ذهب مغاضبا مغلظا من قومه، فقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فالأمر ليس باختيار الداعية أن يترك القوم وحالهم، بل الصبر على الناس وتحمل الأذى الصادر منهم من الأمور الواجبة التي لا مناص عن حملها والقيام بها، والعاقبة للمتقين، وإنما هو ابتلاء وامتحان يجريه الله تعالى على الدعاة والعلماء ليميز الصادق الصابر المحتسب من النزق المتعجل الطائش، واعلم أيها الداعية الموفق أن العواقب من الصبر والحلم والتغاضي ستكون أحلى وأحلى وأحلى من الشهد، والنبى ﷺ خالط الناس في دعوته بالاحتساب والصبر والحلم والأناة ولم يخالطهم بالفظاظة والغلظة والقسوة والغضب وصدق الله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومقابلة السيئة بالحسنة من أفضل الأخلاق وأحبها إلى الله تعالى قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]،

إنها معالم نورانية للسالكين وبراهين ربانية لشحذ همم السائرين ترشدهم إلى الخلق الذي يستوعبون به الناس لينقلوهم من ضيق النفوس إلى سعة القلوب والصدور ، وإن من أحوج الناس لتلمس تلك الدلالات والمعاني الذين يتصدرون لدعوة الناس، وحياته ﷺ وسيرته العطرة دليل الصدق على سمو نفسه عليه الصلاة والسلام فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فادركه أعرابي فجذبه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته. ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم أمر له بعطاء^(١). موقف رهيب، وحلم عجيب، وبهاء وروعة، وسمو وتواضع، مصدره إيمان وحلم يزين جبين الرحمة المهداة والمنة المسداة لهذه البشرية الخائرة التي كانت قبل محمد ﷺ لا تعرف ما معنى الرحمة ولا ما معنى الخلق. بالله عليكم يا أحبائنا لو كانت هذه المعاني مستحضرة في واقعنا وواقع تعاملنا مع عباد الله عز وجل كيف سيكون حال دعوتنا؟.

كيف لو استحضر المعلم هذا المعنى مع طلابه ورواد درسه؟ وكيف لو استحضرت المعلمة ذلك مع طالباتها؟ وكيف لو تأمل الداعية والمربي والشيخ والعالم في هذا الموقف من النبي ﷺ وتمثله أصحاب الرسالات والدعوات في حياتهم، كيف سيكون حال الناس؟ إن الشعور النبوي الكريم والشفقة على الخلق قد فاضت حتى انطبعت في قلوب اتباعه وأصحابه حبا وتضحية يفوق وصف

الواصفين وقبولا ماله نظير وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو الرحمة التي أنقذ الله بها البشرية من غول التيه والحيرة.

يا معشر الدعاة يا معشر المربين يا معشر العلماء والفضلاء والنبلاء الحلم الحلم فإنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فلتسعوهم بأخلاقكم ، وانظر كيف تعامل النبي الكريم ﷺ مع من بال في مسجده الذي بناه هو وأصحابه وتعبوا في بنائه، ثم يأتي هذا الأعرابي ويبول فيه، والله ما زجره ولا نهره، ولكن منع الناس من ضربه والتعدي عليه، وعلمه أحسن التعليم بأن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من هذا الأذى ولا القذر وإنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن، وانظر إليه ﷺ وهو يقف موقف العز في فتح مكة، ويقف من آذوه وطروده وأتعبوه وعذبوا أصحابه وساموهم سوء العذاب موقف الذل والمهانة، ينتظرون حكمه فيهم، ومع ذلك جاشت فيه نفس الشفقة والعطف والحنان، ونسي ما كان منهم، واحتسب أجره على الله تعالى، وقدم مبدأ العفو عند المقدرة، وقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)^(١).

فالداعية لا ينتصر لنفسه عند مقدرته على من آذاه، وإنما هو العفو والصفح، وكما قال تعالى عن يوسف لأخوته ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، إنه ليس العفو فقط، بل الدعاء لمن أخطأ وتجاوز في العدوان، تالله إنها لنفوس عجيبة فليست العزلة عن الناس تخلصا من أذاهم هي الحل، بل الحل هو المخالطة لهم مع كمال الصبر عليهم واحتساب الأجر في ذلك، ولا ينبغي ترك الساحة لأهل الأهواء والشهوات يلعبون في دين الناس والدعاة

بمعزل عن واقع الحياة، بل لا بد من المزاخمة ونشر النور ودعوة الناس إلى الحق مهما بلغت الحال من السوء وغلظ الحال، فالعاقبة للمتقين، فأنت أيها الداعية المبارك كالطبيب المعالج الذي يتعامل مع طبائع وشخصيات متفاوتة متباينة، فإن لم يكن لديه الصبر الكافي، سئم وترك مريضه عرضة للهلاك، وعلاجك للواقع أيها الداعية ليس يوماً وينتهي، بل فترة من الزمن غير قصيرة، تجتث فيها خبائث الصفات، وتربي فضائل الأخلاق، ولا تبقى في دائرة اتهام المجتمع بالفساد والانحلال ونحن في معزل عن السعي في إصلاحه ونشر الحق فيه، ولم يأت زمن العزلة بعد، بل المجتمع لا يزال يقبل الإصلاح والإصلاح، والخير في الأمة كثير والله الحمد، والشر وإن كان له دولة، ولكنه كالزبد سيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فإنه يمكن في الأرض، والأيام دول، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله تعالى فالاحتساب في معاشة الناس، ومعرفة واقعهم أمر مهم جداً للداعية، إذ إن من عوامل نجاح الداعية الذي ينشد إصلاح الناس، أن يكون عالماً بأحوالهم، مدركاً لمشكلاتهم. ومن الأمور المتقررة عند أهل المعرفة أنه لا يستطيع العمل على تغيير واقع الناس وانتشالهم من الضلال إلى الهدى، ومن البدعة إلى السنة، بصورة صحيحة مؤثرة، إلا من عاشهم، وداخلهم، وعرف أحوالهم؛ ولذا على الداعية وطالب العلم أن يستشعر الخيرية، التي جاءت في قول النبي ﷺ: (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)^(١).

ومذهب جماهير السلف تفضيل الاختلاط بالناس، في الأحوال الطبيعية التي لا يلحق المسلم فيها ضرر في دينه، على اعتزالهم والبعد عنهم، ولهذا قال عبد الله بن

مسعود عليه السلام: (خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تكلمونه). وقال عمر عليه السلام: (خالطوا الناس بما يحبون، وزايلوهم بأعمالكم، وجِدُّوا مع العامة). وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: (خالطوا الناس بألستكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم؛ فإن لا مرئ ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب). وفي هذه الآثار المذكورات عن عمر وعلي وابن مسعود عليهم السلام بيان للمنهج الشرعي في هذه القضية، وهو مخالطة الناس ومخالفتهم مع مزايلتهم ومخالفتهم، وليس بين الأمرين تعارض؛ إذ الأمر كما توضحه هذه الآثار والآثار الأخرى يراد به مخالطتهم بالأجسام، ومزايلتهم بالأعمال، مع المحافظة التامة على الدين، أن يصاب بضرر بسبب هذه المخالطة. ويحسن التنبيه هنا إلى أن أهل العلم لا يقصدون بذلك أن يختلط العالم والداعية بالناس اختلاطاً طاعياً على شؤونهم وأمورهم الأخرى، بل هم مجتمعون على أن القدر الذي يطالب به من الخلطة، لا بد أن يكون معتدلاً في الجملة، ثم هو يتفاوت بعد ذلك بحسب المصلحة، والمهم أنه لا بد من مخالطة الناس والصبر عليهم، فليس المطلوب أن يلقي الداعية كلماته ثم يمضي لا يشارك الناس أحزانهم وأفراحهم، إنما المطلوب أن يخالطهم وينفذ إلى قلوبهم بحسن الكلام والبشاشة والنجدة لكل ملهوف، فذلك يقبل بقلوبهم إليه، فيمكن تغيير أحوالهم، والمجتمع ليس على صفة واحدة، ففيهم العالم والجاهل والغني والفقير والخفيف والثقيل والغبي والذكي والمصلح والمفسد والمعاند والمنقاد، وصاحب الشهوة والهوى وصاحب الشبهة والبدعة، والمجادل بالباطل، إلى غير ذلك من أصناف المجتمع، فعلى الداعية أن يعرف هذه الحقيقة، وأن يبدأ في العلاج بقوة

ونظر ثاقب وحكمة بالغة وتأن ورفق وحلم وصبر، وعدم استعجال للتائج، وليست السلامة من الناس هي عين العافية، بل مخالطتهم والصبر عليهم واحتساب الأجر فيهم هو العافية.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «أن المخالطة إن كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان منهي عنها وذكر أن العبد لا بد له من انفراد بنفسه: في دعائه، وذكره، وصلاة النافلة، ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، ومما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره فينبغي للداعية أن يراعي هذه الضوابط، ويعمل بالأصلح المشروع، فإن قلت: وكيف تجمع بين حديث الأمر بمخالطة الناس وأن مخالطتهم مع الصبر على أذاهم خير من عدمها مع حديث: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: (رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) (١)».

فأقول: هذا عند أهل العلم محمول على وقت الفتن ووقت الحروب، أما مع الأمن فالؤمن مع المؤمنين أفضل، مع التعاون على البر والتقوى والحذر من الفتن، قال الإمام النووي رحمته الله: «وأجاب الجمهور عن هذا الحديث بأنه محمول على الاعتزال في زمن الفتن، والحروب، أو هو فيمن لا يسلم الناس منه، ولا يصبر عليهم، أو نحو ذلك من الخصوص، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم،

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد ١٧/٢٠٠، ومسلم (١٨٨٨)، والنسائي في المجتبى ١١/٦، وابن

وجماهير الصحابة والتابعين، والعلماء، والزهاد مختلطين فيحصلون منافع الاختلاط: كشهود الجمعة، والجماعة، والجنائز، وعيادة المرضى، وحلق الذكر، وغير ذلك»، فينبغي للداعية أن يراعي هذه الضوابط، ويعمل بالأصلح المشروع، ويتذكر ما جاء في الحديث: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)^(١)، فإذا كان لا بد من العزلة لأجل الفتن المضلة اعتزل الناس؛ لقوله ﷺ: (يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن)^(٢)، وإذا كان الأمر ليس كذلك فمخالطة الناس ودعوتهم إلى الخير خير وأفضل وأعظم من العزلة، والله المستعان. قال الشيخ عبدالكريم في أصول الدعوة: «الدعوة إلى الله من وجائب الإسلام ومن وسائلها مخالطة الناس فتكون المخالطة واجبة لأن ما لا يؤدي الواجب إلا به فهو واجب، والواقع أن طبيعة الإسلام تقتضي المخالطة فالإسلام ليس معنى خاصاً بالفرد بل هو أيضاً عمل المسلم خارج نفسه، ورسول الله ﷺ منذ أن أكرمه الله بالنبوة وأمره بالتبليغ عاش مع الناس وخالطهم وغشي مجالسهم يدعوهم إلى الله ويحذرهم مما هم فيه وكذلك فعل أصحابه الكرام خالطوا الناس وبثوا فيهم ما تعلموه من رسول الله ﷺ من الهدى

(١) سبق تخريجه ص ٤٠٤.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري في الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، وفي الاستئذان ١/ ٦٥ -

٦٦، والموطأ في الاستئذان باب ما جاء في أمر الغنم ٢/ ٩٧٠، وأبوداود في الفتن (٤٢٦٧)، وأحمد

٣/ ٤٣، والنسائي في الإيمان ٨/ ١٢٣.

والعلم والدين ، وما روي عن بعض التابعين من استحباب العزلة وكراهية المخالطة فهو أمر يتعلق بأحوال طارئة وظروف استثنائية فليس ما ذكره هو القاعدة التي يستهدي بها المسلمون من بعدهم لأن وجوب الدعوة إلى الله أمر ثابت في الشرع، والمخالطة هي المقدمة إلى الدعوة. فلا يمكن التخلي عنها ، بل إن هذا الوجوب أصبح أشد في زماننا من أي زمان مضى ، لما غشي البشر من غاشية رهيبة قاسية من المادية الصماء السوداء التي حجبت عنهم أنوار الحق وقطعت صلاتهم بالله عز وجل مما جعل لزاماً على كل مسلم أن يسهم في الدعوة إلى الله بقدر طاقته وبأي نوع من أنواع القدرة يستطيعه وهذا يستلزم مخالطة الناس ليدعوهم إلى الله ، والمخالطة الواجبة هي ما كانت ضرورية لإعمال الدعوة إلى الله تعالى أو أداء فروض الإسلام الأخرى، فإذا خلت من هذا المقصود، زالت عنها صفة الوجوب وصارت مباحة أو مكروهة أو حراماً، فالمباحة كالمخالطة لغرض تحصيل مباح دنيوي والمكروهة إذا فوتت على الداعي فائدة أخروية إذا حملته إثماً. وعلى هذا فإن المأمول من الداعي أن تكون مخالطته كلها بدافع من الدعوة إلى الله، فإذا زار شخصاً أو تعارف معه أو صادقه أو رافقه أو آخاه أو غشي مجلساً أو تكلم في جمع فانه يصدر عن رغبة في الدعوة إلى الله أو بالإعداد والتهيئة لها»، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



القاعدة الخمس



اغتنام الفرص الملائمة للدعوة



دليل على حكمة الداعية وحرصه وكمال عقله

أقول: إن الداعية الموفق هو من جعل الدعوة هماً من جملة الهموم التي يحملها بين جنبيه، وهذا الهم إن صدق الداعية في حمله فإنه لا بد لزاماً أن يكثر تفكيره فيه، ومع كثرة التفكير فيه فلا بد وأن يهتبل كل فرصة تمكنه من تحقيقه في واقع الناس، وإن الفرص الدعوية كثيرة، والله الحمد، فلا بد من اغتنامها وعدم تفويتها، ونعني بهذه الفرص أي الأحوال التي تقبل فيها قلوب الناس على الخير ويضعف فيها داعي الشر، ويتأهب الناس فيها لسماع الحق، وقد كان النبي ﷺ حريصاً على اغتنام مثل هذه الفرص، فإن لها من الآثار الحميدة على الفرد والمجتمع ما قد لا يكون في حسابان الداعية، بل إن المصلح الإيجابي يتجاوز مجرد اغتنام الفرص التي تتاح له لبحث عنها ويفتش، وهاهو ﷺ في سيرته يغتنم فرص اجتماع قومه ليدعوهم، ويبعث عن فرص أخرى ليدعو غيرهم، فقد كان يوافي الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم وفي المواسم بعكاظ ومجنة وذو المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، وحين لا يجد المصلح فرصة سانحة أمامه ويفتش يمنة

ويسرة؛ فإنه يسعى لأن يوجد الفرصة؛ فالحاجة أم الاختراع، ولن تعجز عقول المصلحين عن أن تهيئ الفرص وتوجد لها، فها هم صناع السلاح والمتاجرون به حين تكسد سوقه يفتعلون المعارك والحروب ويؤججون نارها ليرجوا بضاعتهم، وها هم أصحاب رؤوس الأموال يُغرقون الناس بالدعاية لمنتجاتهم حتى يوجدوا فرص تسويقها.

وقديماً كان الصياد حين لا تتاح له فرصة اجتماع الطير يلقي له طُعماً حتى يجتمع فيصيد، والمصلحون الإيجابيون لا يقف جهدهم عند ذلك فحسب، بل هم يبحثون في المواقف السيئة، ومن بين الصور المظلمة يبحثون عن النور والضياء، إنهم حين تحل المحن والنكبات وحين يتشاءم الناس مما أمامهم يتلمسون الصور المشرقة، ويبحثون عن الثغرات ليستثمروا الواقع الجديد حين يقع الابن في معصية أو مصيبة؛ يستثمرها والده العاقل لتكون منطلقاً لنصحه وإصلاحه.

ومهما كانت الأحوال سيئة ومظلمة؛ فالأوضاع الجديدة تحمل في طياتها العديد من الفرص التي يمكن أن يستثمرها العقلاء، ومن أروع الأمثلة على ذلك ما ذكر الله في قصة يوسف عليه السلام مع صاحبه في السجن إذ يقول: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٤]، فهذان السجينان رأى كل واحد منهما رؤيا، وهي رؤيا غريبة تستدعي الاهتمام لذلك بحثاً عن معبر لها، ولم يختارا غير يوسف الصديق، وكان الذي حملها على اختياره دون غيره هو ما رآياه عليه من حسن السلوك، والإحسان في القول والعمل، وما على وجهه من آثار

الصالح يدل على ذلك كله قوله: ﴿ إِنَّا نَرْزِلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وحينما رأى يوسف عليه السلام حاجاتها الماسة لتعبير هذه الرؤيا العجيبة، ورأى كذلك من حسن ظنهما فيه؛ اغتنم هذه الفرصة لدعوتهم إلى الله، وكان من حكمته عليه السلام أن يبدأ قبل دعوتها إلى الله، وقبل تفسير الرؤيا لهما بزيادة تعريفها بنفسه، وتشويقهما إلى حديثه، وبيان نعمة الله على أهل التوحيد، فقال: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ [يوسف: ٣٧]، ثم بين لهما أن الشرك بالله سبب لكل شر، وأن توحيد الله سبب لكل خير، فقال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨]، ثم بعد كل هذه التمهيدات العظيمة جرد الدعوة إلى التوحيد فقال: ﴿ يَصْنَعِي السِّجْنَ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ ۖ الْقَهَّارُ ۖ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أُتُنٌ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وبعد إقامة هذه الحجة على هذه الدعوة العظيمة، فسر لكل واحد من صاحبي سجنه رؤياه في عبارة موجزة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، فقال: ﴿ يَصْنَعِي السِّجْنَ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١].

وقد ثبت عنه عليه السلام أنه اغتنم فرصة الدفن في كثير من الأحيان للدعوة إلى الله تعالى والتزهد في هذه الحياة الدنيا، كما في حديث البراء بن عازب وغيره، وهذا من

الاغتنام الطيب، فإن القلوب مع رؤية الموت ومعاينة القبر مقبلة على الخير وقبول الحق، فإن فعل هذا أحيانا فلا حرج ولكن لا يكون أمرا راتبا، ومن اغتنام الفرص أنه عليه السلام لما رأى المرأة في السبي تبحث عن طفل لها، فلما وجدته أخذته في حضنها وألقمته ثديها، قال عليه الصلاة والسلام: (أتظنون أن هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر أن لا تطرحه؟) قالوا: لا يا رسول الله، فقال: (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)^(١)، أو كما قال، المهم أنه اغتنم الفرصة ببيان هذا النوع من العلم، وكذلك لما تضاحك بعض الصحابة من دقة ساق ابن مسعود اغتنم النبي عليه السلام هذه الفرصة لنقلهم إلى أن الأمر ليس بظاهره وإنما بحقيقته ونفعه للأمة، فقال: (والذي نفسي بيده إنها لأثقل في الميزان من جبل أحد)^(٢)، ولما أهدى لرسول الله عليه السلام حرير فجعل الصحابة يعجبون من لينه، اغتنم الفرصة وقال رسول الله عليه السلام: (لنأذيل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا)^(٣).

فالداعية الموفق هو من يترقب الفرص ويسعى إليها ولا ينتظر مجيئها إليه، يباغت المواقف ولا يكون هو رد فعل لها، لا يترك فرصة لما يسميه الناس الصدف أو الفجأة، بل تراه بدهيا مستعدا لكل موقف بما يناسبه ولما لقط ابن عباس للنبي عليه السلام حصا الجمار، والناس ينظرون لهذا الحصا وجدها النبي عليه السلام فرصة للأمر بالاعتدال والتحذير من الغلو، فقال: (بمثل هذه فارموا وإياكم والغلو فإنما أهلك

(١) حديث صحيح، رواه البخاري في الأدب ٣٦٠/١٠، ومسلم في الفضائل (٢٧٥٤).

(٢) حديث صحيح لغيره، رواه أحمد ٤٢٠/١، والطيالسي (٣٥٥)، وأبو يعلى (٥٣١٠)، وابن سعد

٣/١٥٥، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢).

(٣) حديث صحيح، أخرجه ابن سعد في "الطبقات" ٣/٤٣٥، والبخاري (٥٨٣٦).

من كان قبلكم الغلو^(١)، وفي حديث ابن عباس في قصة صاحبي القبرين استغلال للفرصة في التحذير من بعض الأعمال الموجبة لعذاب القبر، من التهاون في أمر الطهارة، والتهاون بأمر النيمة وفي قصة الشباب الذين أتوا بيوت النبي ﷺ وسألوا أزواجه عن عبادته في بيته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها - والحديث معروف - المهم أن النبي ﷺ وجد من هذه الحادثة فرصة مواتية لنشر منهج الوسطية والاعتدال في التعبد والعمل، والحث عليه والترهيب من مخالفته والتنكب عن صراطه المستقيم، ولذلك لم يصحح النبي ﷺ الخطأ لهم فقط، بل صعد على المنبر وحمد الله وأثنى عليه، لأنها خطأ في المنهج، وبدأ يصحح الأمور على منهج الوسطية علنا أمام الناس، وبالجمل فالأدلة على اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى لا تكاد تحصر، ومن باب التطبيق العملي لهذه القاعدة نقول:

من الفرص الدعوية: استغلال مواسم الاجتماع في رمضان، في صلاة التراويح، فإن إقبال القلوب في هذا الشهر لا يكاد يخفى على أحد، فلا بد من ترتيب المحاضرات والمواعظ في هذا الشهر واستغلاله الاستغلال الطيب، في الأمر بالتوبة والصدقة والدعوة إلى نبذ المخالفات والمعاصي.

ومنها: استغلال العزاء في الدعوة إلى الله تعالى بالموعظة الحسنة والتذكير بالموت وأنه نهاية الحياة وانقطاع الأعمال، وقد جربنا الدعوة في العزاء فوجدنا فيها من الثمرات المباركة الزكية ما لم يكن في الحسبان.

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم، رواه أحمد ٢٩٨/٥، والنسائي ٢٦٩/٥، وابن خزيمة (٢٨٦٨).

ومنها: إقامة لقاء دوري بين جماعة المسجد للتعارف ولمناقشة ما يحتاجه الحي (كإصلاح المسجد أو متابعة الجيران، أو لمعالجة المنكرات الموجودة بالحي، أو للتباحث بما يفيد الجماعة كعنوان خطبة الجمعة) ويستحسن دعوة أهل العلم المعروفين بين فترة وأخرى للتباحث معهم وإثراء اللقاء.

ومنها: استغلال مواسم العطل الصيفية في ترتيب الدورات العلمية والمحاضرات، والمسابقات الهادفة وإحياء دور المراكز الصيفية بما يعود على الأمة نفعه في العاجل والآجل.

ومنها: استغلال النشاط المدرسي والإرشاد الطلابي في نشر الخير والدعوة إلى معالي الأمور وإحياء روح التنافس الهادف بين طلاب المدرسة.

ومنها: تعاون طلبة العلم مع الخطباء في البلد في طرح الموضوعات المهمة في البلد، وإصلاح واقع الناس، والكلام عن مشكلاتهم مع بيان سبل الحلول الشرعية النافعة.

ومنها: التعاون مع المؤسسات الخيرية في توزيع الصدقات ووجبات الإفطار في رمضان.

ومنها: استغلال فترة نزول بعض البلاء العام بالناس من الأوبئة أو القحط العام أو بعض الكوارث التي يقدرها الله تعالى على بلد من هبوب الرياح المدمرة أو البراكين الحارقة أو الزلازل المهلكة، فإن هذه الأوقات من أنفع الأوقات في الدعوة إلى الله تعالى وتذكير الناس بأن ما أصابهم إنما هو بما كسبت أيديهم، وأنه لا مخرج لهم من هذا البلاء إلا بالتوبة الصادقة والإقلاع عن الذنوب والرجوع إلى الله تعالى وصدق اللجأ إليه سبحانه.

ومنها: استغلال جانب الرقية على المرضى في الدعوة إلى الله تعالى، وقد دخلت في هذا المجال فوجدت أن المريض يقبل على الراقي بقضه وقضيضه، ولا يكون هم الراقي مجرد المكسب المادي، بل ليكن همه كيف يكسب قلب المريض حتى يوجهه إلى قوافل العائدين إلى الله تعالى، فجانب الرقية من أعظم الفرض للدعوة إلى الله تعالى.

ومنها: استغلال جانب تفسير الرؤى والأحلام في الدعوة إلى الله تعالى، فإن الناس ينظرون إلى المعبر نظرة احترام وتقدير لا تكاد توصف، فما إن يدعوهم إلى الله تعالى ويحذروهم من مغبة الذنوب والمعاصي إلا وتجد أن القلوب قد انصاعت له وسالت بين يديه، ويحدثنا بعض المعبرين في هذا المجال بما لا ينقضي منه العجب من سرعة الاستجابة لهم فيما يدعون له.

ومنها: استغلال زمن الحج واجتماع الناس من كل حذب وصوب، فوالله إن هذا الاجتماع العظيم من أعظم ما ينبغي استغلاله في الدعوة إلى الله تعالى، لا سيما وأنك تلتقي مع من لا تقدر على اللقاء به في غير هذه المواسم، والقلوب في هذه المشاعر فيها من الخضوع والإقبال والتضرع ما لا يجد الشيطان معه سبيلا في التهرب في الشر، فالله الله أيها الدعاة في هذا الموسم العظيم، والله المستعان.

ومنها: استغلال اجتماع الأسر في أيام العيد، وذلك بحسن الترتيب والإعداد والجمع بين الأخذ بالجد والحزم والترفيه والتشويق الهادف، وكم من الأسر التي استفادت من هذه الاجتماعات في صلاح أبنائها وبناتها وإقبال الأسرة كلها على الخير، فالله الله بحسن الإعداد لها.

ومنها: اغتنام أوقات الفراغ والأمن بكثرة الذكر والنصب في التعب وحفظ المتون العلمية ومراجعة المحفوظات السابقة، والتأليف في المسائل النافعة، وجمع المادة العلمية التي يعود نفعها على الأمة والإقبال على قراءة الكتب النافعة.

ومنها: اغتنام أوقات الشباب والقوة والعافية في التعب والدعوة والإكثار من فعل الخيرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون مع إخوانك الدعاة على البر والتقوى والسعي في أن تضرب لك في كل باب من أبواب الخير بسهم، حتى إذا حلت بك الأمراض وصرفتك الأشغال وحل عليك زمن الضعف لا تلوم نفسك على التفريط والتواني زمن القوة والنشاط، وفي الحديث: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) ^(١)، وبالجملة فلا أدري بأي شيء أبدأ، وذلك - والله الحمد - لكثرة الفرص وتنوعها، فالله الله أيها الدعاة الموفقون باغتنامها واستغلالها فيما يعود على الأمة نفعه في عاجل أمرها وآجله، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٨٤٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وأخرجه ابن أبي شيبه ٧/ ٧٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٧٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥).

القاعدة الحادية والخمسون

الترويح والترفيه لا بد

وأن يكون مبنيًا على الوسطية والاعتدال

أقول: إن النفوس تمل، وتحتاج إلى فترات من الترويح والترفيه، فالترويح أمر مشروع في الإسلام، ولا بد منه بين فترة وأخرى، ليعيد للنفس نشاطها وحيويتها فتقبل على العمل بجهد واجتهاد، جاء في الحديث: (روحوا القلوب ساعة وساعة)^(١)، وفي شرح المناوي: قال أبو الدرداء: إني لأجم فؤادي ببعض الباطل - أي اللهو الجائر - لأنشط للحق. وقال علي عليه السلام: أجموا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان. وكان النبي صلى الله عليه وآله يمر على الفتيان يلعبون فيسلم عليهم وقد قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب عليه السلام: «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ» [يوسف: ١٢].

وكان النبي صلى الله عليه وآله يداعب الصغار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدخل علينا ولي أخ صغير يكنى أبا عمير، وكان له نُغْر يلعب به فمات، فدخل عليه النبي صلى الله عليه وآله فرآه حزيناً، فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نُغْره، فقال: (يا أبا عمير ما فعل النغير؟)^(٢)، ولذا عندما لقي حنظلة رضي الله عنه أبا بكر قال له نافق

(١) هذا الحديث أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٦٧٢)، وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة

(٣٦٤٩)، وفي ضعيف الجامع.

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٤.

حظلة ، قال أبو بكر: سبحان الله! ما تقول؟ قال قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة ، حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً قال أبو بكر: فوالله ، إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حظلة يا رسول الله ! فقال رسول الله ﷺ: (وما ذاك؟) قلت: يا رسول الله ! نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأننا رأي عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، فنسينا كثيراً ! فقال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن يا حظلة ! ساعة وساعة) ثلاث مرات^(١). إذا لا بد من الترويح عن النفس ، لا بد من التخفيف عنها ، كما قال النبي ﷺ: (ساعة وساعة)، إن الإسلام لا يحجر على أتباعه أن يروحوا عن أنفسهم، ولا أن يدخلوا السرور على أهلهم وأولادهم طالما كان هذا الترويح في حدود الشرع وتحت قواعد الدين فلا غضاضة فيه، بل قد يكون مطلوباً في بعض الأحيان. وقد سابق النبي ﷺ - بأبي هو وأمي - زوجته أمنا عائشة رضي الله عنها، فسبقتها، ثم سابقتها مرة أخرى فسبقها؛ فقال: (هذه بتلك)^(٢)، فالترويح جائز طالما كان منضبطاً بهدي الإسلام، أما إذا كان مما يضعف الإيمان ويهز العقيدة ويخدش الفضيلة ويوقع في الرذيلة فهذا مما لا يقبله العقل ولا يقره الدين.

(١) حديث صحيح، رواه مسلم (٢٧٥٠) في التوبة، باب فضل دوام الذكر، والترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة، باب ولكن يا حظلة، وأحمد ٤/ ١٧٨.

(٢) الحديث أخرجه أحمد ٤٣/ ٣١٣، وأبو داود ٣/ ٢٩، وابن ماجه ١/ ٦٣٦، والحميدي ١/ ١٢٨، والبيهقي ١٠/ ١٧، قال الألباني رحمه الله: «صحيح، وإسناده صحيح على شرط الشيخين».

وقد مازح النبي ﷺ بعض أصحابه، وكان لا يقول إلا الحق في مزاحه ﷺ، قال النووي رحمه الله تعالى في الجمع بين الأحاديث التي فيها أن النبي ﷺ مازح أصحابه، والأحاديث التي فيها النهي عن الممازحة، قال رحمه الله: «قال العلماء: المزاح المنهي عنه، هو الذي فيه إفراط ويُدّاوم عليه، فإنه يُورث الضحك وقسوة القلب، ويُشغل عن ذكر الله تعالى والفكر في مهمات الدين، ويؤوّل في كثير من الأوقات إلى الإيذاء، ويُورث الأحقاد، ويُسقطُ المهابة والوقارَ. فأما ما سَلِمَ من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسولُ الله ﷺ يفعلُه، فإنه ﷺ إنما كان يفعلُه في نادر من الأحوال لمصلحة وتطبيب نفس المخاطب ومؤانسته، وهذا لا منع منه قطعاً، بل هو سنّةٌ مستحبةٌ إذا كان بهذه الصفة، فاعتمد ما نقلناه عن العلماء وحَقَّقناه في هذه الأحاديث وبيان أحكامها، فإنه مما يَعِظُمُ الاحتياجُ إليه، وبالله التوفيق».

والترويح عن النفس من الأمور المباحة، ولكن إن قصد به القربة والترغيب في حب الخير فهو عبادة، لأن المتقرر أن المباحات تنقلب عبادات بالنيات الصالحات فالترويح عن النفس بغير نية إذا لم يكن فيه معصية لا إثم ولا ثواب فيه، أما إذا كانت النية في الترويح عن النفس الاستعداد لطاعة الله، فعند ذلك يصبح الترويح عن النفس عبادة، قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: رَوِّحُوا القلوب فإنها إذا كَرِهَتْ عَمِيَتْ. وفي رواية إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ أو تَعَبَتْ.

وعلى كل حال فالنفوس لا بد لها من فترات ترويح وترفيه بالضوابط الشرعية، والأمر مبناه على الوسطية، فلا ينبغي الانفتاح في المداعبات والترفيه والضحك، ولا ينبغي إغلاق الأمر وسد الباب، بل خير الأمور أوسطها، قال الغزالي في الإحياء:

«إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الدور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليها ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال: (نعم، غير أني لا أقول إلا حقاً)^(١)، وعن أنس بن مالك: أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً وكان يهدي إلى النبي ﷺ هدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: (إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه)، وكان ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً فأثاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني. فالتفت، فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: (من يشتري هذا العبد؟) فقال: يا رسول الله إذا تجدني كاسداً. فقال النبي ﷺ: (لكن عند الله لست بكاسد) - أو قال -: (أنت عند الله غال)^(٢)، وعن أنس بن مالك: أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: (إني حاملك على ولد ناقة)^(٣)، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال ﷺ: (وهل تلد الإبل إلا النوق)، ولكن كان الأمر مبناه على الوسطية فلا غلو ولا جفاء، وعلى منهج الصحابة سار السلف، في جعل المزاح استراحة المحارب، فلا تكاد تجد كتاباً يخلو من ملح وطرائف لشيخ التابعين الإمام الشعبي رحمته الله وكذلك: كان ابن

(١) سبق تخريجه ص ٢١٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٤.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٤.

سيرين يمزح ويضحك حتى يسيل لعابه ، وقيل: كان ابن سيرين كثير الضحك بالنهار، كثير البكاء بالليل.

ومن هنا صار المزاح سنة، وفق ضوابطه وحدوده، دون إفراط أو تفريط، حتى لا يخرج عن أحد حديه، ويظل التوازن بحاجة إلى من يتقن أدائه حتى قيل لسفيان ابن عيينه: المزاح هجنة؟ قال: بل سنة، ولكن الشأن فيمن يحسنه، ويضعه مواضعه. فإن قلت: فقد ورد عن بعض السلف رحمهم الله تعالى النهي عن الممازحة، وأخبروا بأنها توجب ذهاب الهيبة وتورث الشحناء، فكيف الجمع بين ما ورد وبين هذا؟ والجواب: أن كلام السلف رحمهم الله تعالى لا يمكن أن يتعارض مع ما قرره الدليل، وعليه فيحمل كلام من نهى عن الممازحة على أمور:

الأول: أن يحمل على الممازحة المنهي عنها كالممازحة بالأفعال والأقوال التي لا تنبغي بين المسلمين.

الثاني: أن يحمل على الإكثار منه، وأن يكون هو ديدن الإنسان الذي لا يعرف إلا به.

الثالث: أن يحمل على المزاح بالكذب والتلفيق الذي لا حقيقة له، وهذا أمر محرم لا يجيزه أنك تمزح، ففي الحديث: (ويل لمن يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ثم ويل له).

الرابع: أن يحمل على المزاح في غير محله، أو مع من لا يليق المزاح معه لكبر قدر من علم أو سن أو ولاية.

والمهم أن كلام السلف لا يحمل على ما يتعارض مع ما جاءت به النصوص، وما أجهل أن يكون المزاح الموزون الخفيف في وقته ممن له ولاية من إمارة أو علم، والله إنه

لمزاح ينزل على القلوب كالماء العذب الزلال في اليوم شديد الحر، ومن الترفيه والترويح عن النفس أيضا عقد المسابقات والمطارحات العلمية الهادفة النافعة، والتي تحقق عدة مقاصد من جملة الترفيه، فهي ترفيه ونفع، وقد ثبت أن النبي ﷺ سابق عائشة مرتين، كما أسلفت، ومن الترويح عن النفس زيارة البساتين والحدائق ومحال الخضرة والمياه، فلها دورها الكبير في الترويح وتهذئة النفس لا سيما إن كان فيها نوع خلوة وعدم ضجيج، وقد ثبت عنه ﷺ أنه ربما دخل بعض الحوائط - البساتين - المجاورة للمسجد، لوحده ليس معه أحد، بل ربما يستريح القوم في سبب تغيبه حتى يبحثوا عنه، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل المعروف، والذي فيه: (قام النبي ﷺ من بين أظهرنا فأبطأ علينا فخشينا أن يقطع دوننا، ففرعنا فكننت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ، حتى أتيت حائطاً - بستاناً - للأنصار من بني النجار فدرت به هل أجد له باباً فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة والربيع الجدول، فاحتفتز كما يحتفتز الثعلب فدخلت فإذا رسول الله ﷺ)، الحديث^(١). والشاهد أن النبي ﷺ كان ربما دخل بعض هذه الحوائط المجاورة، فخلوة الداعية في بعض المزارع والبساتين مما يرفه عن النفس قليلاً، وهي من باب (استراحة المحارب) كما يقال، ومن أنواع الترفيه الطيب سماع الشعر الطيب النافع، وقصص الأدباء المنضبطة، وسماع النوادر التي ليس فيها تعيب ولا تعيير لأحد، ومنها: السفر والسياحة في البلاد للنظر

(١) حديث صحيح، رواه مسلم في الإيمان (٣١)، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

والتأمل في مخلوقات الله تعالى ومنها: عقد المسابقات الحركية، كالمسابقة على الأقدام وبالرماية وبالخيل أو حضورها إن كانت تعقد في البلد، كل ذلك من الأمور الترويحية عن النفوس حتى لا تمل ولا تكل من الإجهاد والتعب، ولكن كل هذا لا بد وأن يكون مبنياً على منهج الوسطية والاعتدال فلا نغلق فيه الباب مطلقاً، ولا نفتح الباب فيه على مصراعيه، بل خير الأمور أوسطها، والمهم بارك الله فيك أن تعلم: أن الترفيه والترويح عن النفوس نوع من العلاج الروحي، وأنت خبير بأن العلاج لا بد وأن يتناول في محله وبالمقدار الذي يقتضيه المقام، فإن تأخر تناوله عن وقت الحاجة له فقد يحصل الضرر، وإن زيد في تناول جرعاته فقد يحصل الضرر، فلا بد من مراعاة هذا.

وأمر آخر: وهو أن الترفيه والترويح عن النفس من الوسائل لا من المقاصد، ولا بد أن تربط هذه الوسائل بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، فالترفيه والترويح عن النفس إن كان وسيلة إلى تحقيق مصلحة خالصة أو راجحة، فهو مشروع مأمور به، وإن كان لا يتحقق منه إلا المفسدة الخالصة أو الراجحة فهو منهي عنه، وإن كان لا يتحقق منه لا هذا ولا تلك فهو من اللغو الذي يترفع العاقل عنه، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى ونسأله تعالى أن يأخذ بنواصينا للبر والتقوى والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



القاعدة الثانية والخمسون

ضرب الأمثال وتقريب العلم

من أصول الدعوة إلى الله تعالى

أقول: إن دعوتنا لا بد وأن تكون منبثقة من منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في تقرير المسائل، سواء منها المسائل العقدية أو العملية أو الوعظ والترغيب والترهيب، فالوحيان الكريمان المطهران قد ذكر فيهما جميع المناهج الدعوية التي لها وقع في القلوب ولها الأثر الكبير في هداية الناس ومن هذه المناهج الدعوية في تقرير العلم منهج ضرب الأمثال، وهو كثير في الكتاب والسنة.

وقد نبه القرآن الكريم على أهمية هذا المنهج في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وهذه الأمثال العظيمة يراد بها تقريب المعلومة المراد تقريرها للناس، فإن من الناس، بل كثير من الناس لا يفهم الكلام درجا من غير ضرب مثال ولكن متى ما قرن الكلام بضرب المثال ترى على وجه السامع للمثال من علامات الفهم والقبول ما هو ظاهر لا يكاد يخفى، وهذا من كمال التفهيم ومن كمال إقامة الحجة على المعاندين، ومن كمال النصيح والدعوة، لاسيما إن كان المثال في الأمور الكبيرة التي هي من عظام المسائل.

وعليه: فينبغي أن يكون ضرب المثل من الأصول الدعوية التي لا بد وأن ينتبه لها الداعية، وأن يرتب لها الترتيب الطيب، وأن تكون قريبة من أمثلة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فإن أمثلة الوحيين كلها حق وصدق في منطوقها ومضمونها ولوازمها، فضرب المثل له دوره الكبير المهم في تقريب العلم وبيان المراد واتضح السبيل، وله دوره الكبير في إقبال القلوب واستماع الآذان، وإصغاء العقول، وضرب المثل يأسر القلوب الغافلة ويقودها للفهم عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وله دوره الكبير في التعقل والتدبر والانقياد والامتثال، وضرب المثل له دوره الكبير في أخذ العبرة والعظة والترغيب والترهيب، وضرب المثل له دوره الكبير في اختصار الكلام وعدم تشقيقه لأن السامع سيفهم ما تريد بأقل كلفة وأقصر وقت وأبسط كلام، وضرب المثل له دوره الكبير في ترسيخ المعلومة في لذهن وثباتها في القلب فلا تكاد تلك المعلومة تنسى أبداً، وله دوره الكبير في وصل لأمر ببعضها ومقايستها وإلحاق النظر بنظيره، وحتى لا يكون كلامنا هكذا رجا من غير ضرب مثال، نرى أنه من المناسب جداً أن نبين لك بعض الأمثلة الضرورية في القرآن حتى تبين لك كيف أثرها على القلوب والأرواح لاسيما إن هممت الفهم الكامل، فنقول وبالله تعالى التوفيق، ومنه نستمد العون والفضل:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ يَمِينُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

وهذا مثل ضربه الله تعالى مدللاً على بطلان الشرك.

وبيانه أن يقال: أنتم يا كفار قريش لكم عبيد وأرقاء وعبيدكم هؤلاء أنتم تملكونهم، فهم من جملة الأمور التي تدخل تحت تصرفكم وقهركم وسلطانكم ولكن ما رأيكم لو أن عبدا من عبيدكم جاء إلى سيده يريد أن يشاطره ويناصفه ملكه، وما هو من خصائصه، فهل سيكون هذا الأمر مقبولا عقلا وفطرة عندكم؟ بالطبع الجواب: لا، فإن العبد يبقى عبدا والسيد يبقى سيذا، فكيف يريد عبدي أن يشاركني ما هو من ملكي وما هو من خصوصياتي يأتيك العبد ويقول: أنا أريد نصف منزلك، ونصف رصيدك في البنك، ونصف مزرعتك، وهو عبد لك، فهل أحد يرضى أن يشاركه أحد من عبيده فيما هو من ملكه وخصائصه؟ الجواب: لا، سبحانه الله، لا ترضون هذا الأمر لأنفسكم وترضونه لربكم، فإن هؤلاء المعبودات التي عبدتموها من دوني هي ملكي وتحت قهري وتصرفي وداخله في سلطاني فأنا ربها ومالكها وسيدها والمتصرف فيها، فكيف تصرفون لها ما هو من خالص حقي وهو أن تعبدوها من دوني، والعبادة حقي الخالص المحض الصرف الذي لا يشاركني فيه أحد، كيف تجعلون عبدي مشاركا لي فيما هو من خصائصي، وهو عبدي وتحت ملكي وتصرفي وقهري وسلطاني، كيف تخافونه كما تخافون مني، وهو عبدي، وأنا ربه، كيف تعبدونه معي، وهو عبدي وأنا ربه، فكما أنكم لا ترضون أن يشارككم عبيدكم فيما هو من خصائصكم، وتأبون هذا كل الإباء فكذلك أنا لا أرضى بأن يشاركني أحد من مخلوقاتي في شيء من خصائصي، فشيء لا ترضونه لأنفسكم فكيف ترضونه لربكم؟ تالله إنه لمثال ظاهر واضح على بطلان الشرك وأنه أعظم الظلم وأفرى الفرى، وأكبر البهتان، نعوذ بالله تعالى منه، ونسأله تعالى أن

يحيينا على التوحيد وأن يميئنا على التوحيد، فانظر كيف انشدت القلوب والأسماع والعقول لهذا المثال العظيم الكبير، وفهمت به حقيقة الشرك، وهو أنه صرف ما هو من خالص حق الله تعالى لغير الله تعالى وهو أعظم الظلم وأكبر البهتان على الإطلاق، وهكذا منهج ضرب الأمثلة في توضيحه وبيانه للأمور بكل جلاء، فلا يدع للجاهل حجة في عدم الفهم، والله أعلم.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ النَّبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

وهذا مثل ضربه الله تعالى لبيان عدم انتفاع المشركين بهذه المعبودات، وأن هذه المعبودات ستكون لهم عدوة يوم القيامة، وبيانه أن يقال: هذا المثل له مأخذان:

المأخذ الأول: وهو أن العنكبوت تبني بيتا من خيوطها، وهي تريد من هذا البيت أن يحميها من حر الصيف وبرد الشتاء، ويحميها من أعدائها المتربصين بها، وهو في الحقيقة من خيوط تافهة ساذجة لا تحقق لها مقصودها الذي تريد منه، فإنه إن جاء سموم الصيف أصابها، وإن جاء زمهرير الشتاء أصابها وإن أرادها العدو بأمر ما منعها بيتها من رويته لها، ففي الحقيقة أن عملها وتعبها في بناء هذا البيت واتخاذها ما حقق لها ما تريده منه، وهكذا المشركون، فإنهم إنما اتخذوا آلهة مع الله تعالى لتحميمهم من العدو وتنصرهم على من أرادهم بالسوء وتحقيق لهم ما يريدون من متع هذه الحياة يريدون منها أن تكون لهم شافعة عند الله تعالى يوم القيامة، وهم بهذا الأمر الذي

أفنوا فيه حياتهم وأتعبوا فيه أنفسهم لا يتحقق لهم ما يريدون من هذه الآلهة، بل هي لا تزيدهم إلا وهنا على وهنهم وضعفا على ضعفهم وبؤسا على بؤسهم، ويوم القيامة ستبترأ منهم كما سيأتي، المهم أن مرادهم من اتخاذهم لهذه الآلهة لن يتحقق أبدا، فهم في الحقيقة كهذه العنكبوتة التي تبني بيتا لا يتحقق به ما تريده منه الحماية والحفظ فهل بعد ذلك يشك العاقل في بطلان الشرك، وأن هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر ولا تحقق لعبادها من الأمور شيئا؟ تالله إنه لمثل واضح الوضوح الكامل لأصحاب العقول، ولكن أكثر الناس لا يفقهون ولا عن الله تعالى يعقلون.

المأخذ الثاني: وهو أنك لا تجد في الأعم الأغلب في بيت عنكبوتتين، بل لا تجد في البيت الكبير من بيوت العنكبوت إلا عنكبوتة واحدة، فهل سألت نفسك يوم، لم هذا؟ وذلك لأن الله تعالى قد فرض بقدره العداوة بين أفراد العنكبوت، فالذكر إذا لقح الأنثى التفتت عليه وقتلته أو هو يقتلها إن كان أقوى منها، والبيض إن فقس فالأم تأكله إلا ما يتساقط منه، هكذا حياة العنكبوت، وهكذا الحال فيمن اتخذ آلهة مع الله تعالى، فإن هذه الآلهة ستبترأ منه يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض، فكيف يعبد العاقل ما سيكون له عدوا يوم القيامة، كيف يرجو النفع في شيء سيكون ألد عدو له يوم القيامة، تالله إنها العقول المريضة التافهة السخيفة البعيدة عن الحق والهدى وقد بين الله تعالى هذا الأمر بقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فكما هو الحال في أفراد بيت العنكبوت من العداوة، فكذلك الحال فيمن اتخذ آلهة مع الله

تعالى، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كُفَرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

فانظر كيف فضح هذا المثل حقيقة الشرك فهذه الآية تنسف الشرك بعروقه، لأن
المشرك لا يعبد مع الله تعالى شيئاً إلا وهو يريد من هذا المعبود أن يجلب له خيراً أو
يدفع عنه شراً، والحال أنه لا يحقق له ذلك، وعلاوة على عدم تحقيق ذلك في الدنيا،
فهو يوم القيامة سيكفر بعباده ويكون له عدواً، فالمشرك أخسر الناس صفقة، إذ
خسرت صفقته مع من يعبد في الدنيا، وخسرت صفقته في الآخرة بأن تبرأ منه هذا
المعبود من دون الله تعالى وكان له عدواً يلعنه ويكفر بعبادته، فأين هذا من الموحد
الذي أفرد الله تعالى بالعبادة ولم يشرك به شيئاً والله تعالى هو النافع على الحقيقة،
والضار على الحقيقة، وهو الذي يجلب الخيرات ويدفع المكروهات وهو الملجأ
الآمن والملاذ العظيم يوم القيامة، فالله الله بالتوحيد أيها الناس، والله أعلم.

المثال الثالث: ضرب الله تعالى مثلاً للاضطراب النفسي والوجداني والته الذي
يعيشه المشرك، ومثلاً للموحد في اطمئنان نفسه وراحة روحه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٩].

فالمشرك الذي يعبد مع الله تعالى آلهة أخرى هو في الحقيقة مثله مثل عبد قد اشتراه
أكثر من سيد، مثلاً: زيد من الناس عبد، وقيمته عشرة آلاف ريال، واشترك في شرائه

عشرة رجال، كل واحد منهم دفع ألفاً، فكم له من سيد الآن؟ عشر أسياد، فما بالك بحال هذا العبد في تشتت فكره والته الذي سيعيش فيه لو أمره السيد بكذا وأمره السيد الثاني بأمر يخالف أمر السيد الأول، والثالث بأمر يخالف أمر الأولين هذا يقول: قم، وهذا يقول: اقعد، وذاك يقول: أطعمني، والرابع يقول: اذهب إلى السوق، وكلهم يأمرون بأوامر مختلفة، وهذا العبد المسكين لا يدري من سيده الذي يأتمر بأمره ولا يدري عن سيده الذي لا بد وأن يسعى في إرضائه، فهو متشوش الذهن ومنزعج البال، ومضطرب في تنفيذ الأوامر لكثرة أسياده، وهكذا حال المشرك، فقد كان المشركون يعبدون آلهة كثيرة، وقد كان حول الكعبة فقط قرابة الثلاثمائة صنم، فكان لهم العزى واللات وهبل ومناة وكثير من المعبودات، والواحد منهم بينها يدور فينذر لهذا ويعبد هذا ويسجد لهذا ويركع لهذا ويسأل هذا ويستغيث بهذا، وهو متشوش الفكر لا يدري من المعبود الذي سيحقق له ما يريد، فالمشرك له آلهة كثر، ففكره معها متشوش، وروحه بينها متنقلة، كمثل العبد الذي تعددت أسياده وهم بذلك متشاكسون، أي يختلفون في أمره ونهيه، فهل هذا يكون كحال الموحد الذي لا يعبد إلا رباً واحداً وإلهاً واحداً، فسيده واحد وهو الله تعالى، لا يأتمر إلا بأمره وينتهي عما نهاه عنه ربه، ولا يسعى إلا في إرضائه، فهو مرتاح البال هادئ القلب منشرح الصدر، لأنه ليس عنده إلا مصدر واحد يتعرف منه على الأمر والنهي والمحجوب والمكروه، فأين هذا حال الموحد من حال المشرك، فهل يستويان مثلاً، لا والله لا يستويان مثلاً، فأين العارفون العقلاء عن هذه الأمثلة العظيمة، والتي فيها بيان الحق من الباطل، فالحمد لله رب العالمين، والمهم أن ضرب المثال أصل من أصول الدعوة إلى الله تعالى في تقريب الحق وبيان منهج الباطل، والله أعلم.

المثال الرابع: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَةٍ يَدْعُو رَحْمَتَهُ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ أَلْمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ تَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وهذا في القرآن كثير جدا، وهو مثل ضربه الله تعالى على بيان قدرته الفائقة الكاملة على إحياء الموتى وذلك أن هناك من الأراضي ما يتأخر عنها المطر فتكون أرضا جردا لا نبات فيها ولا شجر، والناس لا يفرحون بالذهاب إليها، ولا ينظرون لها بعين الاعتبار، فالغبار فيها يسف الوجوه، ثم يأمر الله تعالى تلك السحابة فتخرج من أقطار الأرض، ثم يأمر الريح فتحملها على متنها وتسوقها إلى تلك الأرض، ثم ما إن تكون فوقها، إلا ويأمر الله تعالى المطر فيخرج من خلال السحاب فيختلط الماء بحب الأرض فتزدهر تلك الأرض وتخضر وتكون جنة من الجنات في مياهها الجارية وخضرتها الوارفة وزرعها اللين فيبدأ الناس يتسابقون عليها في حجز الأمكنة للمتعة والنظر في جمالها، وليرعوا فيها أنعامهم، سبحانه الله من الذي أحيا هذه الأرض بعد أن كانت ميتة؟ إنه الله تعالى، فالذي قدر القدرة الكاملة على إحياء الأرض بعد موتها، فهو قادر القدرة الكاملة على إحياء الناس بعد موتهم، فكما أن الله تعالى رد الروح والحياة إلى هذا الأرض القاحلة، فهو قادر القدرة الكاملة على رد الحياة لهذا البدن وجمع أجزائه بعد شتاتها وتفرقها، والله على كل شيء قدير.

فانظر في آخر هذه الآية الكريمة كيف نقلهم الله تعالى من مشهد إحياء الأرض بعد موتها إلى مشهد البعث بعد الموت، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ تَخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فأی مثال أوضح من هذا، فالله المستعان.

المثال الخامس: قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهذا مثل عظيم ضربه الله تعالى لمن استعظم على الله تعالى أن يخلق نفساً من أم بلا أب فردهم الله تعالى إلى أمر يؤمنون به جميعاً، وهي أن الأمم كلها تؤمن بالإيمان الجازم بأن آدم خلقه الله تعالى بلا أم ولا أب، فبين الله تعالى لهم أن الذي قدر القدرة الكاملة على خلق آدم بلا أم ولا أب أفلا يقدر من باب أولى على خلق عيسى من أم بلا أب؟ تالله إنه لقادر من باب أولى وهذا يذكرني بأمر آخر وهو أن الناس لما أنكروا البعث وقالوا: كيف تعود أجسادنا مرة أخرى بعد أن تفرقت وتلاشت وأكلها الدود والأرض؟ فضرب الله تعالى لهم على قدرته على ذلك بمثالين:

أحدهما: استدل عليهم بالمبدأ على المعاد، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُاَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، سبحانه الله، ما أروع هذا المثال، وقبل أن أبينه أقول: ما رأيكم في رجل طلبنا منه أن يصنع مسجلاً مثلاً، فإنه في بداية صنعه سيتكلف الطريقة التي يتم بها صنع هذا المسجل، فربما بقي سنين وهو يصنع هذا المسجل، وبعد جهد جهيد في صناعته، قلنا له: نحن سوف نفكك هذا المسجل، ونطلب منك أن تجمع له لنا مرة أخرى، فبالله عليكم أيها العقلاء أي الصنعتين أيسر وأهون، الابتداء، أم الإعادة؟ لا جرم أنها الإعادة، ولهذا يقول الله تعالى لهم: إني أنا الذي خلقتكم أول مرة من لا شيء ثم أحييتكم وأوجدتكم في هذه الحياة، كل له فترة زمنية يعيش فيها، ثم أميتكم وتأكل الأرض والدود أجزاءكم، ثم أعيدكم مرة أخرى، فكما أنني القادر القدرة الكاملة على ابتداء خلقكم، فكذلك أنا القادر

القدرة الكاملة على إعادتكم، بل إن إعادتكم أهون علي من خلقكم الأول، وكلها أصلاً هينة على الله تعالى، ولكنه خاطب القوم بما يعقلونه، من أن إعادة الصنعة مرة أخرى أهون من ابتداء صنعها أول مرة، فما المعجز في هذا الأمر والذي جعلكم تكفرون بالمبعث مرة أخرى، إن هي إلا العقول المتحجرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦) أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٩]، فإن كان الذي أعياكم عن الإيـمان بإعادتكم هو تفرق أجزاءكم في الأرض فأنا بكل شيء عليم، فأنا أعلم أين ذهب هذا الجزء، وأين توارى الجزء الآخر، فهذه الأجزاء المتفرقة والأشلاء المتقطعة لا تخفى عني، فأنا أعلم مكانها العلم الكامل، ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]، أي جميع ما تأكله الأرض والدود منهم قد علمنا أين هو، وأين ذهب، فأشهد أن لا إله إلا الله، اللهم فاشهد أننا مؤمنون بالإيمان الكامل على قدرتك الكاملة على إعادتنا بعد موتنا.

والأمر الثاني: من جملة ما استدلل الله تعالى على قدرته على الإعادة استدلاله على قدرته بخلق الأشياء الكبيرة، بمعنى أن يقال: ما رأيك أيها الأخ الكريم العاقل في شركة تعمیر قد بنت ناطحات السحاب الكبيرة الطويلة، ثم بعد ذلك يأتي رجل جاهل يقول لهذه الشركة: هل تقدرين على أن تبينوا لي غرفة صغيرة لعامل عندي؟ فبالله عليكم، هل هذا سؤال يطرح؟ وهل ثمة شك يطرأ على قدرة هذه الشركة في بناء هذه الغرفة الصغيرة وهم الذين يبنون ناطحات السحاب، والله المثل الأعلى،

فمن بالله عليك خلق هذه السموات على اتساع أرجائها وما فيها من المجرات السيارة والكواكب العظيمة الهائلة ومن خلق هذه الأرض وما عليها من الجبال الرواسي والتي تناطح السحاب وتعلو عليه، وهذه البحار الزاخرة بالمياه الهائلة، بالله عليك من خلق هذا؟ أليس هو الله تعالى وحده لا شريك له، بلى، إنه الله وحده لا شريك له، فبالله عليك من خلق هذه الأمور الكبيرة العظيمة الهائلة، أفيعجز أن يعيدك أيها المخلوق الصغير الضعيف كما كنت وأنت مجرد عظييات صغيرة ولحم وعروق ليست بشيء؟ أفيعجز عن هذا، لا والله ولا وتالله، ولا وبالله، أقسم بالله أنه لا يعجز عن هذا، بل هو القادر القدرة الكاملة على هذا، فأين العقول عن إدراك هذه الحقائق والتي يضرب لها الله تعالى الأمثال، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ولذلك قال تعالى في بيان هذا الأمر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ بَقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُمْحِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، فانظر كيف عظمة هذه الأمثال الكبيرة، وهذا يبين لك أن ضرب المثل من قواعد الدعوة وأصولها التي لا بد من مراعاتها والانتباه لها، والله أعلم.

المثال السادس: قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُدِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

بمعنى أن المشركين كان من عادتهم قتل البنات خوف العار، فكان الواحد منهم يقتل ابنته وهي مسكينة ضعيفة لا ذنب لها خوفا من العار، فهم لا يرضون أن

تنسب لهم البنات، ومع ذلك فهم يقولون: الملائكة بنات الله، سبحان الله، أننسبون الله تعالى ما لو نسب لأحدكم لا كفهر خاطره وتغير وجهه؟ ولذلك قال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

فإن بشر أحد هؤلاء المشركين بالبنات التي هو أصلاً ينسبها إلى الله تعالى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، فأمر لا ترضونه لأنفسكم كيف تنسبونه لربكم جل وعلا، وهذا يذكرني أيضاً بمناظرة الباقلاني مع النصاري وأنه لما دخل عليهم قال لأساقفتهم: كيف زوجاتكم وأولادكم، فتغيرت وجوههم، لأن الأسقف عندهم لا ينبغي له أن يتخذ زوجة ولا ولداً، فلما رأى ما في وجوههم قال لهم: سبحان الله أتتبرمون من أمر أنتم تنسبون الله تعالى له، فإنكم تقولون: قد اتخذ الله تعالى صاحبة وولداً، ولو نسب الواحد منكم إلى اتخاذ صاحبة والولد لتبرم واكفهر وجهه، فإن كانت نسبة صاحبة والولد تعدونه عيباً ونقصاً في الواحد منكم فكان الواجب عليكم أن تنزهوا ربكم عنها، ولكنها العقول الفاسدة التي لا تعقل، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، والمهم الذي نريد إثباته هنا هو أن الداعية إلى الله تعالى لا بد وأن يعتمد منهج الوحيين في الدعوة إلى الله تعالى ومن مناهجها ضرب الأمثلة، فالله الله أيها الداعية الموفق في هذا الأمر فإن عواقبه حميدة وعوائده طيبة، والله أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.



القاعدة الثالثة والخمسون

كشف الشبهات مسلك

للوفاية من قبيح العمل والاعتقاد

أقول: لا يزال أهل العناد والجهل والكبر يجلبون بخليهم ورجلهم على هذه الشريعة المباركة بالتشكيك وبث الشبه بين العامة والخاصة، وإن بث الشبه على الحق من المناهج الخطيرة التي قد خصص لها الكفار طائفة منهم، لا هم لهم إلا النظر في الأدلة الشرعية والعقائد الإسلامية واستخراج ما عساه أن يكون قادحا في الدين، وهازا لثبوته ورسوخه في قلوب أتباعه، ولا تزال تلك الشبه الخطيرة تأتينا من هنا وهناك من أهل الكفر والعناد، ومن أهل البدع والإلحاد، شبه في أبواب العقيدة، وشبه في أبواب الفقه وغيرها من أبواب الشريعة، ومن لهذه الشبه بعد الله تعالى وتوفيقه وحسن فضله إلا العلماء والدعاة، فإن قصرت هذه الطائفة في كشف تلكم الشبه فناهيك عن الفساد الكبير والشر العريض المستطير الذي سيقع في الأمة، فمن حق الأمة على الدعاة وأهل العلم ومن واجبه تجاه دينهم أن يحموه من تلك الشبه، وذلك بكشفها وكسرها على صخرة الكتاب والسنة، وأن يبين زيفها للعامة وأنها مجرد خيالات لا حقيقة لها، وأنها من إلقاء الشيطان ووسوسته وتلبيسه على الناس، فلا تضر تلك الشبه بإذن الله تعالى من أحد إن تولاها أهل العلم بالكشف والرد والبيان، واعلم رعاك الله تعالى أن منهج كشف الشبهة من المناهج الدعوية الكبيرة التي قررها كتاب

الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فلا بد من اعتماد هذا المنهج والاهتمام به وعدم الغفلة عنه، لما في الغفلة عنه من الخطر الكبير على عقيدة الأمة وشريعتها، وقد قام أهل العلم الأوائل والمعاصرون بهذا الواجب خير قيام، فقد ردوا على أهل الكفر والبدع ما يطرحونه في ساحة الأمة من هذا السخف والباطل، ولم يدعوا منها شاردة ولا واردة إلا تولوها بالرد والكشف والبيان، كما فعله الإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده على الجهمية فيما شككوا به في متشابه القرآن.

وكما فعله الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على بشر المريسي، فإنه قد أتى على غالب الشبه التي يمويه بها هذا الحمار من حمر الجهمية النفاة، وكما فعله الإمام عبدالعزيز الكناني في رده على بشر أيضا، وذلك في قوله بأن القرآن مخلوق، وإن من أكبر من قام بهذا المنهج من المتأخرين من أهل العلم شيخ الإسلام والمسلمين في عصره أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية رحمه الله تعالى، وكذلك تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، وقد سار سلف الأمة وأئمتها على هذا المنهج الكبير - وأعني به الحرص التام على كشف الشبهة والرد على أهل الكفر والمخالفة والبدعة - بل إن الرد على أهل البدع من أصول الإسلام الكبيرة التي لا بد من اعتمادها والاهتمام بها.

وقد قام بهذا الدور الكبير في العصور القريبة أئمة الدعوة، من لدن الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وأبنائه الأكارم وأحفاده البررة، وتلاميذه الأخيار، فقد قاموا بهذا الواجب خير قيام، أسأل الله تعالى أن يجزيهم عنا وعن المسلمين خير الجزاء وأن يبارك في جهودهم وأن يجعل قبورهم روضة من رياض الجنة، وأن يجمعنا بهم في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ولا

يزال أهل العلم المعاصرون لنا يهتمون بهذا الجانب، ويولونه العناية الكبيرة، جزى الله الجميع خير الجزاء، ونسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يثبتهم على قوله الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولكن كشف الشبهة والرد على أهل البدع لا بد وأن يكون منبثقا من النية الحسنة، وهي هداية الناس وحماية دينهم من هذا الاعتداء، لا مجرد التشفي والانتقام من أحد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهكذا الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم، إن لم يقصد منه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم لم يكن عمله صالحا، وإذا غلظ في ذم بدعة أو معصية، كان قصده بيان ما فيها من الفساد، ليحذر العباد كما في نصوص الوعيد وغيرها، وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيرا، والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله للرحمة والإحسان، لا للتشفي والانتقام»، وقال ابن القيم رحمه الله: «فالعالم ينظر بنور الله، ويكشف الله على يديه الشبهات والمتشابهات»، وقال رحمه الله تعالى في بيان وجوب الحذر من مرض الشبهة: «مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال: وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات وهذا النوع هو أعظم النوعين ألما ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم وإلا فالله حاضر فيه حاصل له وهو متوار عنه باشتغاله بضده وهذا أخطر المرضين وأصعبهما وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم فهم أطباء هذا المرض»، وقال رحمه الله تعالى: «وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما

هي عليه وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد وبين ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئا وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها فهي لحم جل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل».

وفي هذا المجال لا بد من التنبيه على عدة أمور:

الأول: لا بد وأن تعلم أنه ما من شبهة إلا وفي الكتاب والسنة كشفها، ولكن الأمر في كشفها يتفاوت بين عالم وعالم، ولكن ليس ثمة شبهة يتفوه بها مبطل وليس في الأدلة ردها، هذا لا يكون أبدا وأقسم بالله تعالى على هذا الأمر، أن كل الشبه التي تلقى على الدين هنا وهناك ففي الأدلة ما يكشفها ويبين عوارها، ولكن كما ذكرت لك أن الأمر يحتاج إلى علم راسخ وفهم ثاقب ونظر وتأمل وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء.

الثاني: لا بد وأن تعلم قاعدة طيبة أفادها أبو العباس رحمه الله تعالى وهي: أنه ما مبطل يحتاج بحجة على باطله إلا وفي نفس الحجة ما يبطلها، ويرد عليه بها، لأن الحق

لا يدل إلا على الحق، فكيف يستدل بالحق على الباطل، هذا لا يكون، فمن استدل بحجة حق على أمر من الأمور الباطلة، فاعلم أن في نفس حجته التي جاء بها ما يكشف زيف استدلاله، ويبطل دعواه، ولكن كما ذكر العلماء أن هذا الأمر يحتاج إلى تأمل وطول نظر ورسوخ في العلم وكمال معرفة بالأدلة، فلو تأملت قليلا في حجته التي جاء بها، لتبين لك أنها عليه لا له، ولذلك فإن أبا العباس رحمه الله تعالى قد رد في مواضع كثيرة على أهل الباطل بنفس حجتهم التي استدلو بها، فقد كان يقلب الحجة عليهم بأسلوب النبيه الذكي، والحال كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية في حال شيخه مع خصومه، قال

ومن العجائب أنه بسلاحهم أرداهم تحت الخطييط الداني
 الثالث: قد اشترط أهل العلم رحمهم الله تعالى في الذي يتولى كشف الشبهة أن يكون قويا في الرد فلا ينبغي تولية قليل العلم، ولا ضعيف الحجة في الرد على أهل البدع، فإن هزيمته لا تعد هزيمة لشخصه بل لأهل السنة كلهم، وإن بعض وسائل الإعلام لها دور كبير في ترجيح نصاب أهل البدع على أهل السنة بما يعقدونه بين بعضهم من المناظرات العلنية، ولكن يحرصون على أن يكون المناظر من أهل البدع جلدا في الحجة قويا في الطرح، وأما جانب أهل السنة فإنهم لا يحرصون على استضافة العلماء الراسخين، وهذا في الأعم الأغلب، فتجد أن المبتدع يصول ويجول في حلبة المناظرة من غير حجة ترده ولا برهان يصدده، وهذا الآخر ضعيف ليس بأهل للمناظرة، فاحذروا من هذا بارك الله تعالى فيكم فالقوة في رد الشبهة أصل من أصول المناظرة، فلا ينتصب لكشف الشبه والرد على أهل البدع إلا الراسخون في العلم والفهم والدراية التامة

بحقيقة ما عليه أهل البدع، وكم من منتسب لأهل السنة ليس عنده علم بمذهب أهل السنة إلا النزر اليسير فضلا عن اطلاعه على مذهب من يناظره من أهل البدع فمثل هذا الصنف من الناس لا تجوز له المناظرة، لأن ما يفسده أكثر مما يصلحه، فإنه يبني قصرا ويهدم مصرا، قال شيخ الإسلام في حق أمثال هؤلاء: «وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة، وجواب الشبهة فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجا قويا من علوج الكفار فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة»، وقد ابتلينا في هذه الأزمنة بالمناظرات في الشبكة العنكبوتية، بتلك الأسماء المستعارة، والتي لا ندري فيها عن حال من يناظر لا من أهل البدع ولا من أهل السنة، فالحذر منها ومن الدخول فيها يا معاشر أهل السنة وليترك الأمر لأهل العلم العارفين الراسخين، والله المستعان.

الرابع: لا ينبغي إثارة الشبه أمام العامة، فإن الشبه خطافة للقلوب، وقد كان السلف رحمهم الله تعالى يحذرون من هذا الحذر الكبير، خوفا على دين العامة ودفعاً للمفاسد العامة، وخوفا من أن تفهم الشبهة ويتشربها القلب ولا يفهم الجواب على الوجه الصحيح، فالعامة لا يقال لهم شيء من الشبه فالسلامة لا يعدلها شيء، فالعامة ليسوا من أهل الفهم الكامل في العلم، وليحذر العامي من الدخول في المواقع التي تخص أهل البدع ولو بنية الاطلاع على ما عند القوم، فإن هذا من تعريض الدين للهلاك والخذش، وقد قرر أهل العلم حرمة النظر في كتب أهل البدع إلا للعالم المتضلع من علوم أهل السنة بنية الرد عليها.

الخامس: ليس كل مبطل تفوه بخرافة لا بد وأن يجاب عنها، لا سيما إن كان من المغمورين الذين لا يؤبه بهم، ولا ينظر لهم بعين الاعتبار، ولا سيما إن كان ما جاء به من الخرافة أمره ظاهر، وبطلانه قد فاحت منه روائح التن والفساد، وذلك لأن الرد عليه مما يشهر أمره ويظهر صيته، والحق أن يترك مثل هذا، فإن تركه من أعظم ما يعالج به مثل هذا الصنف من أهل المخالفات، مع العلم بأن غالب هؤلاء مريض مرض شهوة، فهو يحب الظهور، فلا يجد له طريقا للظهور إلا بنشر مخالفته، فلو أن أهل العلم انبروا للرد عليه لكان في هذا قرة عينه وراحة روحه وتحقيق مقصده، فلا يعامل هذا الصنف إلا بالإعراض عنه، ويقال له: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ولذلك فإن الرد على أهل البدع وكشف الشبهة لا بد وأن يقرن بتحقيق المصالح ودفع المفسد، فالأمر يفتقر إلى الاجتهاد، ولذلك خصصناه بأهل العلم العارفين بالمصالح والمفاسد، والله أعلم. والمقصود من هذا الكلام أن لا تترك الساحة لأهل الأهواء يشنون فيها شبهم، ويستعطلون فيها بباطلهم، ويضلون العامة بتلك الآراء الشاذة والترهات الباطلة ويبقى الدعاة والعلماء منزوون في ناحية من النواحي، لا أثر لهم في دعوة العامة ومحاربة أهل الأهواء والتشكيك، بل لا بد وأن يكون لهم الدور الكبير في نفس ما يلقيه هؤلاء من تلك الشبه الشيطانية والأطروحات الإبليلية، حتى يأمن الناس على دينهم، وهذا من الأمور الواجبة على أهل العلم، ولكنه واجب مربوط بتحقيق المصالح وتكميلها، وتعطيل المفسد وتقليلها، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.



القاعدة الرابعة والخمسون
إتيان المدعوين في محالهم
مطلب في الداعية

أقول: إن الداعية شأنه شأن الغيث، ومن وصف الغيث أنه يدور في سماء البلاد لينزل الله تعالى به المطر النافع للبلاد والعباد، فتحضر به أرضهم، وتزدان به بلادهم، فالداعية كالغيث، لا بد وأن يسير في البلاد للدعوة إلى الله تعالى، وأن يأتي الناس في محالهم ويغشاهم في منازلهم ودورهم، وليس من شأنه أن يبقى في بيته ليأتيه الناس، وهكذا كان حال أنبياء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا سَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝﴾ [الملك: ٧-٩]، وكما قال تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا سَهْدًا عَلَيْنَا أُنْفُسُنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٧١].

فالرسول والنذير من وظيفته إتيان المدعوين في محالهم التي هم فيها، إن الداعية رجل مهاجم دائماً، لا ينتظر أن يأتي الناس إليه، فليبادرهم وليقتحم عليهم حصونهم، ليلبغ دعوته، والذي يحسن الهجوم يحسن الدفاع.

وقد كان النبي ﷺ يأتي الناس في الموسم، موسم الحج في منازلهم ويدعوهم إلى الله عز وجل، فعَنْ رَيْبَعَةَ بِنِ عِبَادِ الدِّيَلِيِّ وَكَانَ جَاهِلِيًّا فَأَسْلَمَ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَانِ، يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا)، وَيَذْخُلُ فِجَاجَهَا وَالنَّاسُ يَتَقَصِفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا)، إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ ذَا غَدِيرَتَيْنِ، يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو هَبٍ^(١). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه بالموقف. فيقول: (ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي)، أخرجه أبو داود^(٢).

وقد ثبت عنه أنه ذهب إلى الطائف للدعوة إلى الله تعالى ففعل به - بأبي هو وأمي - ما فعل، وثبت أنه أرسل مصعب بن عمير داعية ومعلماً إلى المدينة قبل الهجرة إليها وثبت عنه أنه بعث معاذاً إلى اليمن، وبعث دحية الكلبي بكتابه إلى هرقل، وبعث

(١) حديث صحيح لغيره، رجاله ثقات إلا ابن أبي الزناد فإنه ينزل عن رتبة الصحيح، أخرجه أحمد ٤٠٥/٢٥، والطبراني (٤٥٨٢)، والحاكم ١٥/١.

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٧٣٤) في السنة، باب في القرآن، والترمذي رقم (٢٩٢٦) في ثواب القرآن، باب عرض النبي ﷺ على تبليغ القرآن، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب».

حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، ولو نظرنا لسيرة صحابة رسول الله ﷺ هل مكثوا في المدينة؟ لا ولكن تفرقوا في البلاد لنشر هذا الدين ولم يبق منهم في المدينة إلا العدد القليل فالداعية كالغيث حيثما حل نفع، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا مباركين حيثما كنا، إننا نشكوا من بعض الدعاة هداهم الله تعالى لا ترى لهم في ساحة بلدهم أثرا فضلا عن كونهم يرحلون للدعوة إلى الله تعالى فلا تراه إلا قابعا في بيته ومحل وظيفته، يطلب منه السفر ولو للمحال القريبة، فيتعلل بكثرة الأشغال وطوارق الصوارف، نعم، هو نافع، ولكن لمن يأتيه فقط، وأما أن يبدأ هو بنفع غيره فهذا قليل نادر فيه أو منعدم تماما، وهذا فيه قصور كبير في جانب الدعوة إلى الله تعالى، ولا يغني أحد عن أحد في الدعوة، بل لا بد من تضافر الجهود، ألا ترى إلى ذلك الرجل المؤمن الذي كان في قرية فيها ثلاثة من الأنبياء، ومع ذلك لم يقل في نفسه: ما دوري مع أنبياء الله تعالى، وهم أكمل الدعاة وأعظم الدعاة بل وجد له في هذا الواقع دورا يؤديه، ومهمة يقوم بها، كما ذكره الله تعالى في سورة (يس) وكما فعله صاحب موسى لما هدد فرعون بقتل موسى، فقام ذلك الرجل الصالح يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

فلا بد من قيام الداعية بواجبه ولو كان في بلاد يكثر فيها أهل العلم والدعاة، ولا يتحجج بأن البلد قد امتلأت بالدعاة والعلماء وما الدور الذي سيقوم به بجانب هؤلاء الأجلة والثلة الطيبة، فهذا من تثبيط الشيطان.

فالحذر الحذر من الاستماع له، وكم من القرى المجاورة لبلد الداعية وهم في جاهلية جهلاء، قد لا يعرفون شيئا من أمور العقيدة أو العبادة، والداعية في البلد،

ولا يكلف نفسه الذهاب لهم ودعوتهم أو إقامة درس علمي في بلادهم، بل وأعظم من ذلك فكم من الخلق في خارج هذه البلاد ممن يحتاجون إلى الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة وتعلم صغار العلم التي يعرفها أصغر الدعاة ومع ذلك لا تجد بعض من الدعاة يولون هذا الأمر عناية كبيرة، وهذا في الحقيقة خسارة كبيرة، فإتيان المدعويين في محالهم أمر مطلوب في الدعاة، فحق العامة علينا أن نتبعهم أينما كانوا، وأن نوصل لهم كلمة الحق أينما كانوا، وأن لا نبخل عليهم بما علمنا الله تعالى، وأن نعرف أن من حق العلم إيصاله للمحتاجين من الناس، وأن نجتهد في السياحة في هذه الأرض دعاة إلى الله تعالى نفتح القلوب بالإيمان والتوحيد والعلم النافع والعمل الصالح، فننشر الصلاح، ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الجاهل، ونتلمس الحاجات، فهكذا ينبغي أن نكون، وهذا مع ما فيه من العناء والتعب، ولكن ما أحلاه وما أعذبه على القلوب والأرواح لأنه في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وفي سبيل نصره دين الله وتعليم عباده، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، وطوبى لمن وفقه الله تعالى للسعي في هذا الأمر، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وهو أعلى وأعلم.



من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، والعكس بالعكس

أقول: وهي نص حديث في الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْئًا)^(١). وقال ﷺ: (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مَنْ غَيَّرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مَنْ غَيَّرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْءٌ)^(٢)، والدعوة إلى الله هي التي من أجلها شَرَّفَ الله بها أمة الإسلام جميعاً فجعلها بذلك خير أمة أخرجت للناس، لأنها حملت رسالة الله إلى العالمين، وجاهدت بها كل الأمم فهم خير الناس للناس، فالداعي إلى الله جل وعلا يُعطي مثل أجور من هداه الله على يديه ولو كان آلاف الملايين، فيا لها من نعمة عظيمة، فاغتنم هذا الخير العظيم وسارع إليه، وقد ثبت في الصحيح أن من فضل الدعوة أنه إن اهتدى على يديك رجل واحد فهو خير لك عند الله تعالى من حمر النعم، قال النبي ﷺ: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر

(١) أخرجه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وأبوداود في السنة (٤٦٠٩)، وأحمد ٣٩٧/٢.

(٢) الحديث صحيح، رواه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، (١٠١٧)، والنسائي في الزكاة ٧٥/٥، وأحمد مختصراً ٣٥٧/٤.

النعم»^(١)، فأَيُّ فضل هذا الفضل العظيم، ومن فضلها أنها هي وظيفة رسل الله جميعاً، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس كافة، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيذان بالله وإفراده بالعبادة على النحو الذي شرعه لهم، ونفيها عن سواه وهو معنى ومقصد لا إله إلا الله، ومن فضلها شهادة الله تعالى بأن أصحابها هم أحسن الناس قولاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، أي لا أحد أحسن قولاً منه ومن فضل الدعوة والدعاة أن الداعية إلى الله جل وعلا ومعلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته ويستغفر له كل شيء حتى الحيتان في جوف الماء، قال عليه ﷺ: (إن الله وملائكته وأهل السماء والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير)^(٢) واعلم رحمك الله تعالى أن من أعظم أسباب مغفرة الذنب أن تدعو إلى الله جل وعلا؛ لأن الدعوة إلى الله جل وعلا حسنة إذا أخلصت وصدقت والحسنات يذهب السيئات (وأَتَبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، قال علماء الأصول ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: «قاعدة فجعل تكفير الصلاة للسيئات تبعاً للقاعدة وليست مقتصرة على تكفير الصلاة للسيئات»، فالحسنة تذهب السيئة والدعوة إلى الله جل وعلا فيها هذا الفضل العظيم وقال ﷺ: (من دل على هدى فله مثل أجر فاعله)^(٣).

(١) حديث صحيح، وهو جزء من حديث طويل، أخرجه أحمد ٣٣٣/٥، والبخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ٥٧-٥٨، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، وأبوداود في العلم (٣٦٦١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، والدارمي (٢٨٩)، وصححه

الألباني في "صحيح الجامع" (٤٢١٣).

(٣) سبق تخريجه ص ٤٩.

فهذه الأدلة وغيرها كثير فيها دليل على فضل الدعوة إلى الله وعلى تبليغ كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله ﷺ وإنك عندما تبلغ هذه الدعوة إلى الآخرين فلك الأجر والثواب على هذا العمل الذي قمت به وستجد ذلك عندما تعرض أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة. وقد قال النبي ﷺ: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)^(١)، فالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من النصيحة التي دعانا الرسول ﷺ إلى ممارستها فيما بيننا.

ويكفي الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فخراً وعزاً وتاجاً على رؤوسهم أنهم يحملون ميراث النبوة روي عنه ﷺ: (نحن معاصر الأنبياء لا نورث، ما ورثناه صدقة وإنما ورثنا العلم فمن أخذه أخذ بخط وافر)^(٢)، فإذا الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى على مر العصور والأزمان هم الذين يحملون هذا التاج الرفيع وهذا السلم العظيم ألا وهو حمل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فبين سبحانه أن الرسول ﷺ يدعو على بصيرة، وأن أتباعه كذلك، فهذا فيه فضل الدعوة، وأن أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة إلى سبيله على بصيرة، والبصيرة هي العلم بما يدعو إليه وما ينهى عنه، وفي هذا شرف لهم وتفضيل والله الموفق، وهو أعلى وأعلم.

وهذه آخر قاعدة أحببت أن أقيدها لك، أرجو من الله تعالى أن تنتفع بتلك القواعد، وأن ينشرح لها صدرك، وتقر بها عينك، وأن يرزقها القبول العام والخاص، وأن يجعلها نافعة مباركة خالصة لوجهه الكريم، وإني لأتمنى ثم أتمنى منك أنك إن استفدت من

(١) حديث صحيح، رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الدين النصيحة (٥٥)، وأبوداود في الأدب (٤٩٤٤)، وأحمد ٤/ ١٠٢، والنسائي في البيعة ٧/ ١٥٦، وقال الألباني في إرواء الغليل: «صحيح».

(٢) رواه أبوداود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد ٥/ ١٩٦، والدارمي (٣٤٠)، والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود.

رسالتي هذه أن ترفع أكف الدعوة لأخيك المقصر العاجز الضعيف، يا أخي الكريم، أرجوك لا تبخل على بدعوة من قلبك، لعلها تكون المنجية إن شاء الله تعالى، وسواء أكنت حيا أو ميتا، أرجوك أن تدعولي بالعمو والمغفرة والجنة، ولا أرجو بهذه الرسالة لا مالا ولا مدحا ولا ثناء ولا عزا ولا جاها، وإنما هي من باب التعاون على البر والتقوى ومن باب التناصح بالخير، ولا فضل لي فيها، بل الفضل كله أوله وآخره لله تعالى، ثم لأهل العلم رحمهم الله تعالى، فأسأل الله تعالى أن يغفر لهم المغفرة الكاملة، وأن يجزيهم عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يبارك في علمهم وجهودهم، وأن يجمع لهم بين الأجر والمغفرة، وأن يجعل قبورهم روضة من رياض الجنة، وأن لا يحرمنا من بركة الدعاء لهم، فإن لهم في قلوبنا المنزلة الكبيرة والرتبة السامية الرفيعة، ومهما مدحناهم ودعونا لهم فإننا لا نوفي ولا عشرين من معشار حقهم علينا، فهذه قواعد الدعوة التي جمعتها لك أهديا إليك إهداء المحب لأحبابه الكرام، فأرجوك أن تتقبل مني هذه الهدية وإني أشهد الله تعالى ومن حضرني ومن يطلع عليها أنها وقف لله تعالى، فأرجو من الله تعالى أن يتقبلها مني وأن يجعلها عملا صالحا ينفعني في الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وقد وقع الفراغ منه يوم الأحد صباحا، الموافق للثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام إحدى وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة، والحمد لله أولا وآخرا، وأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، ثم أستغفره وأتوب إليه، ثم أستغفره وأتوب إليه.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٦-٥
القاعدة الأولى: تصحيح بناء الدعوة على العقيدة السليمة مطلب رئيس في سلامتها واستقامتها	٢٢-٧
القاعدة الثانية: دعوتنا مبنية على الكتاب والسنة وفهم السلف	٤٦-٢٣
القاعدة الثالثة: الدعوة مبنها على العلم والبصيرة لا التخبط والتخليط	٥٦-٤٧
القاعدة الرابعة: كل دعوة بنيت على غير إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة ونفع الناس فهي رد	٦٥-٥٧
القاعدة الخامسة: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين	٨٢-٦٦
القاعدة السادسة: ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه	٩٢-٨٣
القاعدة السابعة: ترك الداعية للخير الذي يأمر به، واقترافه لما ينهى عنه قبيح في العقول والفطرة والشرع	٩٨-٩٣
القاعدة الثامنة: العلماء هم الدعاء	١٠٤-٩٩
القاعدة التاسعة: الدعوة مبنها على تحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها	١١٨-١٠٥
القاعدة العاشرة: العبرة في الدعوة بموافقة الحق لا كثرة الأتباع على غير الهدى	١٢٣-١١٩

الصفحة

الموضوع

القاعدة الحادية عشر: العبرة في الدعوات على الحقائق والمضمون لا

على مجرد الأسماء ١٣٦-١٢٤

القاعدة الثانية عشر: البدء بالأهم فالهمم مبدأ رئيس في سلامة

الدعوة من التناقض والخلل ١٤٣-١٣٧

القاعدة الثالثة عشر: أثر الدعوة تراكمي مستقبلي ١٤٨-١٤٤

القاعدة الرابعة عشرة: الدعوة بالقدوة والأفعال يؤثر في النفوس

أكثر من تأثير الأقوال ١٥٤-١٤٩

القاعدة الخامسة عشرة: الدين مبناه على الهدى والإتباع لا على

الهوى والابتداع ١٥٨-١٥٥

القاعدة السادسة عشرة: من أصول الدعوة البراءة من المشركين

ومن أهل البدع ١٦٥-١٥٩

القاعدة السابعة عشرة: تقديم تقرير العقيدة الصحيحة في قلوب

الناس مقدم على الاشتغال بغيره ١٧٠-١٦٦

القاعدة الثامنة عشرة: الحكمة في الدعوة أصل من أصولها التي تبنى

عليها الدعوة الناجحة والمنضبطة على هدي النبوة ١٧٧-١٧١

القاعدة التاسعة عشرة: فهم واقع المدعوين مهم في نجاح الدعوة .. ١٨٤-١٧٨

القاعدة العشرون: كل داعية لا بد من تمحيصه بالابتلاء، ولا مخرج

له إلا بالصبر واحتساب الأجر ١٩٥-١٨٥

الموضوع	الصفحة
القاعدة الحادية والعشرون: مقصود الداعية في دعوته الاعتذار إلى الله تعالى بإقامة الحجة وهداية المدعويين	١٩٦-١٩٧
القاعدة الثانية والعشرون: كل قبيح في الشرع نهى عنه الداعية فلا بد من دلالة الناس على ما يضاده من الأمور الحسنة المشروعة	١٩٨-٢٠٥
القاعدة الثالثة والعشرون: كسب قلوب المدعويين من أهم أسباب نجاح الداعية	٢٠٦-٢١٧
القاعدة الرابعة والعشرون: تحديث الناس على قدر إفهامهم حزام أمان من الفهم المغلوط	٢١٨-٢٢٦
القاعدة الخامسة والعشرون: ترك ما يسوغ تركه من الأمور المندوبة من باب التأليف والتعليم هناك محمود شرعاً	٢٢٧-٢٣٦
القاعدة السادسة والعشرون: وسائل الدعوة توقيفية باعتبار ما خالف النص منها، واجتهادية فيما لم يخالف النص	٢٣٧-٢٤٢
القاعدة السابعة والعشرون: التنويع في الطرح والتجديد في الأساليب مهم في قبول الدعوة	٢٤٣-٢٤٧
القاعدة الثامنة والعشرون: الدعوة لا بد وأن يستجمع فيها بين مبدأي الترغيب والترهيب	٢٤٨-٢٥١
القاعدة التاسعة والعشرون: الأصل في الوعظ التخول والإيجاز ...	٢٥٢-٢٥٦
القاعدة الثلاثون: الخلاف في الأمور الاجتهادية لا يفسد للود قضية	٢٥٧-٢٦٧

الصفحة

الموضوع

القاعدة الحادية والثلاثون: اهتمام الداعية بزاد روحه بالازدياد

والترقي في مدارج العلم والتعبد موجب للاستمرار والعطاء ٢٧٣-٢٦٨

القاعدة الثانية والثلاثون: من علم شيئاً وجب عليه الدعوة إليه

بقدره ٢٧٦-٢٧٤

القاعدة الثالثة والثلاثون: لكل مقام مقال، وليس كل ما يعلم يقال .. ٢٨٧-٢٧٧

القاعدة الرابعة والثلاثون: فقه فن التعامل مع نفوس المدعوين

مقرب ومحقق لمقصود الدعوة ٢٩١-٢٨٨

القاعدة الخامسة والثلاثون والسادسة والثلاثون: الدعوة إلى الله

تعالى لا تحد بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان، وعطاء الداعية

لا يحد بزمن ما دام حياً قادراً ٢٩٧-٢٩٣

القاعدة السابعة والثلاثون: الدعوة الصحيحة تقوم على ركني

التصفية والتحلية ٣٠٣-٢٩٨

القاعدة الثامنة والثلاثون: لا يأس من هداية أحد، كما أنه لا أمان

من ضلال أحد ٣١٢-٣٠٤

القاعدة التاسعة والثلاثون: خطاب الداعية لا بد وأن يكون

مستمداً من الكلمة الطيبة والقول اللين ٣٢٠-٣١٣

القاعدة الأربعون: التفاؤل والأمل مطلب في العطاء والثبات

والاستمرار ٣٢٦-٣٢١

الموضوع	الصفحة
القاعدة الحادية والأربعون: التحلي بالأخلاق العالية والنبيل	
الكريمة مطلب في التوفيق والنجاح	٣٢٧-٣٤٦
القاعدة الثانية والأربعون: استفتاح قلوب المدعوين بكثرة الدعاء	
سبب للتوفيق في الدعوة	٣٤٧-٣٤٩
القاعدة الثالثة والأربعون: كل طريق يقضي إلى وجود المنة لأهل	
الدنيا فالأسلم للداعية التحرر منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا	٣٥٠-٣٥٨
القاعدة الرابعة والأربعون: مراقبة البواعث والنوايا في أمور	
الدعوة مطلب في السلامة من التبعة في الدنيا والآخرة	٣٥٩-٣٦٧
القاعدة الخامسة والأربعون: الدعوة من أمور الشرع الكبيرة فلا	
بد وأن تبني على الوسطية في أمورها	٣٦٨-٣٧٦
القاعدة السادسة والأربعون: حمل هم الإسلام موجب لخدمته	
والتقديم له على قدر الجهد والطاقة	٣٧٧-٣٨٨
القاعدة السابعة والأربعون: ربط الأمور العملية بالأمور العقدية	
سبب لامثالها وتعظيمها	٣٨٩-٣٩٦
القاعدة الثامنة والأربعون: سلامة المقاصد لا تسوغ الوقوع في	
لمخالفات	٣٩٧-٤٠٣
لقاعدة التاسعة والأربعون: المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على	
ذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم	٤٠٤-٤١٢

الصفحة

الموضوع

القاعدة الخمسون: اغتنام الفرص الملائمة للدعوة دليل على حكمة

الداعية وحرصه وكمال عقله ٤١٣-٤٢٠

القاعدة الحادية والخمسون: الترويح والترفيه لا بد وأن يكون مبنيًا

على الوسطية والاعتدال ٤٢١-٤٢٧

القاعدة الثانية والخمسون: ضرب الأمثال وتقريب العلم من

أصول الدعوة إلى الله تعالى ٤٢٨-٤٣٩

القاعدة الثالثة والخمسون: كشف الشبهات مسلك للوقاية من قبيح

العمل والاعتقاد ٤٤٠-٤٤٦

القاعدة الرابعة والخمسون: إتيان المدعوين في محالهم مطلب في

الداعية ٤٤٧-٤٥٠

القاعدة الخامسة والخمسون: من دعا إلى هدى كان له من الأجر

مثل أجور من تبعه، والعكس بالعكس ٤٥١-٤٥٤

فهرس الموضوعات ٤٥٥-٤٦٠

